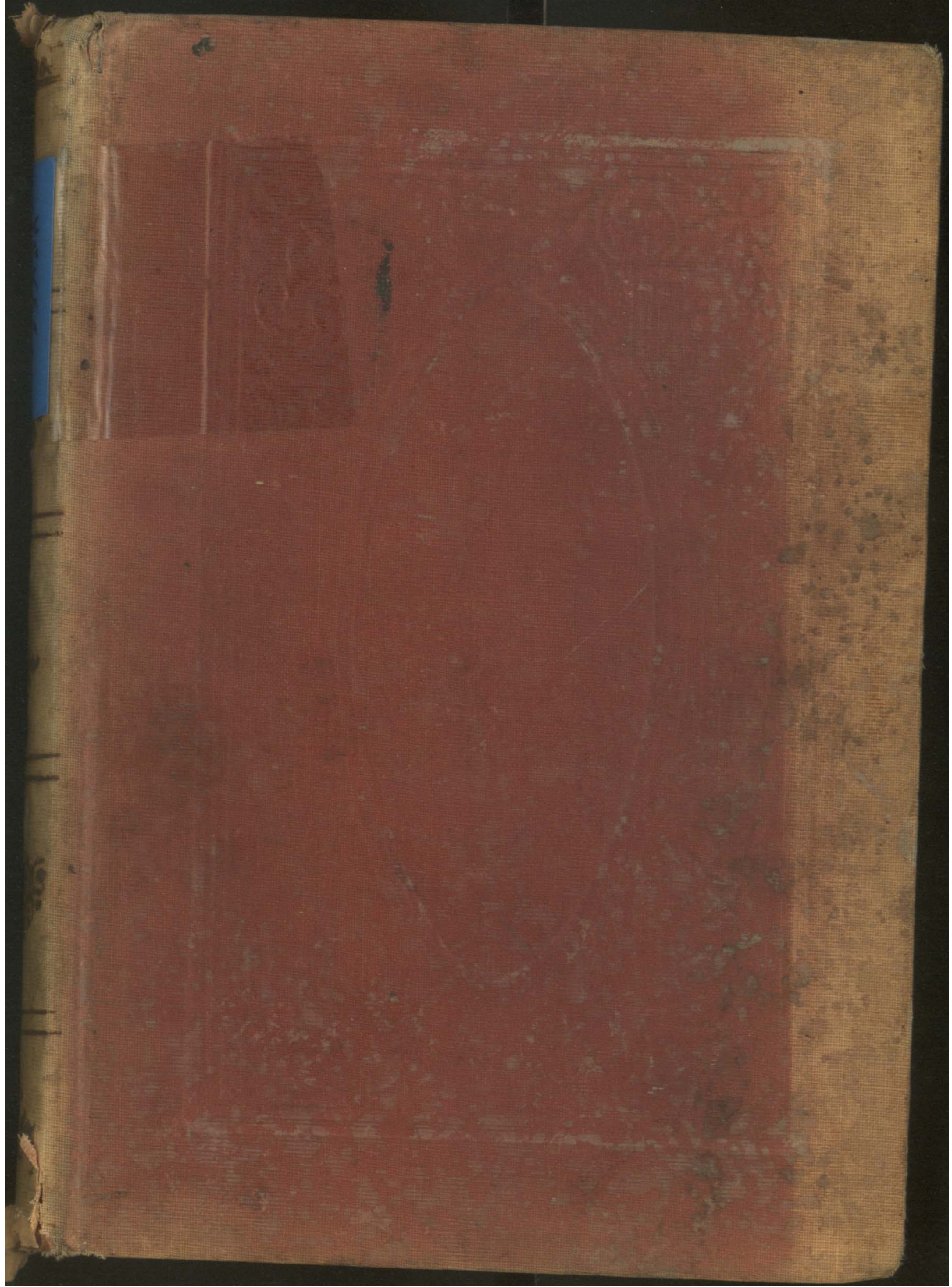


دلائل الاعجاز

عبد القاهر الجرجاني

چاپ سربی

دلائل الاعجاز

عبدالقاهر الجرجانی

چاپ سربی

كتاب

دلائل الاعجاز

للامام عبد القاهر الجرجاني

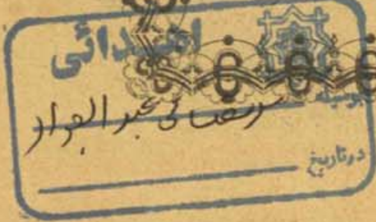
(وبآخره رسالة في البلاغة)

منقول من نسخة المرحوم الشيخ محمد
محمود الشنقيطي المكتوبة بخط اليد المحفوظة
بالكتبخانة الخديوية نمرة ٥

طبع على نفقة الحاج عبد الرحيم المكاوي
الكتبي بشارع الحلوجي

(طبع بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر)





بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الامام مجد الاسلام ابو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن ابن محمد الجرجانى رحمه الله تعالي

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين • وصلواته على محمد سيد المرسلين • وعلى آله اجمعين • هذا كلام وجيز يطلع به الناظر على اصول النحو جملة • وكل ما به يكون النظم دفعة • وينظر منه في مرآة تريه الاشياء المتباعدة الامكنة • قدالتقت له حتى رآها فى مكان واحد ويرى بها مُشئماً قد ضم الى مُعرِق • ومغرباً قد اخذ بيد مشرق • وقد دخلت بأخرة في كلام من أصغي اليه وتدبره تدبر ذي دين وفتوة دعاه الى النظر في الكتاب الذى وضعناه • وبعثه على طلب مادوناه • والله تعالى الموفق للصواب • والملهم لما يؤدى الى الرشاد • بمنه وفضله • قال رضي الله تعالى عنه

معلوم ان ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض • والكلم ثلاث اسم وفعل وحرف وللتعليق فيما بينها طرق معلومة وهو لا يعدو ثلاثة أقسام ـ تعلق اسم باسم وتعلق اسم بفعل وتعلق حرف بهما • فالاسم يتعلق بالاسم بان يكون

خبراً عنه او حالا منه أو تابعا له صفة أو تأكيداً أو عطف بيان أو بدلا أو عطفا بحرف أو بان يكون الاول مضافا الي الثاني أو بان يكون الاول يعمل في الثاني عمل الفعل ويكون الثاني في حكم الفاعل له أو المفعول وذلك في اسم الفاعل كقولنا زيد ضاربٌ أبوه عمراً وكقوله تعالي « أخرِجنا من هذه القرية الظالم أهلها » وقوله تعالي « وهم يَلعبُون لاهيةً قلوبُهم » واسم المفعول كقولنا زيد مضروب غلمانه وكقوله تعالي « ذلك يومٌ مجموعٌ لهُ الناسُ » والصفة المشبهة كقولنا زيد حسن وجهه وكريم أصله وشديدٌ ساعدهُ والمصدر كقولنا عجبت من ضرب زيد عمراً • وكقوله تعالي « أو إطعامٌ في يومٍ ذى مسغبة يتيماً » أو بان يكون تمييزاً قد جَلاه منتصبا عن تمام الاسم ومعنى تمام الاسم أن يكون فيه مايمتنع من الاضافة وذلك بان يكون فيه نون تثنية كقولنا • قفيزان براً • أو نون جمع كقولنا • عشرون درهما أو تنوين كقولنا • راقودٌ خلاً وما في السماء قدر راحة سحابا • أو تقدير تنوين كقولنا خمسة عشر رجلا • أو يكون قد أضيف الى شيء فلا يمكن اضافته مرة أخرى كقولنا • لي ملؤه عسلا وكقوله تعالي « مِلءُ الأرضِ ذهباً »

وأما تعلق الاسم بالفعل فبأن يكون فاعلا له أو مفعولا فيكون مصدرا قد انتصب به كقولك • ضربت ضربا ويقال له المفعول المطلق أو مفعولا به كقولك • ضربت زيدا • أو ظرفا مفعولا فيه زمانا أو مكانا كقولك • خرجت يوم الجمعة ووقفت أمامك أو مفعولا معه كقولنا • جاء البرد والطيالسة • ولو تركت الناقة وفصيلها لرضعها أو مفعولا له كقولنا • جئتك اكراما لك وفعلت ذلك ارادة الخير بك

وكقوله تعالي « ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله » أو بان يكون منزلا من الفعل منزلة المفعول وذلك في خبر كان واخواتها والحال والتمييز المنتصب عن تمام الكلام مثل • طاب زيد نفسا وحسن وجها وكرم أصلا • ومثله الاسم المنتصب على الاستثناء كقولك جاءني القوم الا زيدا لانه من قبيل ماينتصب عن تمام الكلام

وأما تعلق الحرف بهما فعلى ثلاثة أضرب أحدها أن يتوسط بين الفعل والاسم فيكون ذلك في حروف الجر التي من شأنها ان تعدّى الأفعال الى مالا تتعدى اليه بأنفسها من الأسماء مثل انك تقول (مررت) فلا يصل الي نحو زيد وعمرو فاذا قلت • مررت بزيد أو على زيد وجدته قد وصل بالباء أوعلى • وكذلك سبيل الواو الكائنة بمعنى (مع) في قولنا • لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها بمنزلة حرف الجر في التوسط بين الفعل والاسم وايصاله اليه الا أن الفرق انها لا تعمل بنفسها شيئاً لكنها تعين الفعل على عمله النصب • وكذلك حكم إلا فى الاستثناء فانها عندهم بمنزلة هذه الواو الكائنة بمعنى مع في التوسط وعمل النصب في المستثني للفعل ولكن بوساطتها وعون منها

والضرب الثاني من تعلق الحرف بما يتعلق به العطفُ وهو أن يدخل الثاني في عمل العامل في الاول كقولنا • جاءني زيد وعمرو ورأيت زيدا وعمرا ومررت بزيد وعمرو

والضرب الثالث تعلق بمجموع الجملة كتعلق حرف النفي والاستفهام والشرط والجزاء بما يدخل عليه وذلك ان من شأن هذه المعاني أن تتناول ما تتناوله بالتقييد وبعد ان يسند الى شئ معني ذلك انك اذا قلت • ماخرج زيد وما زيد خارج • لم يكن النفي الواقع بها متناولا

الخروج على الاطلاق بل الخروج واقعاً من زيد ومسندا اليه • ولا يغرنك قولنا في نحو « لارجل في الدار » انها لنفي الجنس فان المعنى في ذلك انها لنفي الكينونة في الدار عن الجنس ولو كان يتصور تعلق النفي بالاسم المفرد لكان الذى قالوه في كلمة التوحيد من أن التقدير فيها « لا إله لنا أو في الوجود الا الله » فضلا من القول وتقديراً لما لايحتاج اليه وكذلك الحكم أبداً • واذا قلت • هل خرج زيد لم تكن قد استفهمت عن الخروج مطلقاً ولكن عنه واقعاً من زيد • واذا قلت • إن يأتني زيد أكرمه لم تكن جعلت الاتيان شرطاً بل الاتيان من زيد وكذا لم تجعل الاكرام على الاطلاق جزاء للاتيان بل الاكرام واقعاً منك • كيف وذلك يؤدى الي أشنع مايكون من المحال وهو أن يكون هاهنا إتيان من غير آت واكرام من غير مكرم ثم يكون هذا شرطاً وذلك جزاء

ومختصر كل الأمر أنه لا يكون كلام من جزء واحد وانه لا بد من مسند ومسند اليه وكذلك السبيل في كل حرف رأيته يدخل على جملة كإنّ وأخواتها ألا ترى انك اذا قلت (كأنّ) يقتضي مشبها ومشبها به كقولك • كأن زيداً الأسد • وكذلك اذا قلت لو ولولا وجدتهما يقتضيان جملتين تكون الثانية جوابا للأولى

وجملة الأمر أنه لا يكون كلام من حرف وفعل أصلا ولا من حرف واسم الا فى النداء نحو • يا عبد الله • وذلك أيضاً اذا حقق الأمر كان كلاماً بتقدير الفعل المضمر الذى هو أعني وأريد وأدعو و « يا » دليل عليه وعلى قيام معناه فى النفس

فهذه هي الطرقُ والوجوه فى تعلق الكلم بعضها ببعض وهي كما

تراها معانى النحو وأحكامه

وكذلك السبيل فى كل شيء كان له مدخل فى صحة تعلق الكلم بعضها ببعض لا ترى شيئاً من ذلك يعدو أن يكون حكما من أحكام النحو ومعنى من معانيه • ثم انا نرى هذه كلها موجودة فى كلام العرب ونرى العلم بها مشتركا بينهم

واذا كان ذلك كذلك فما جوابنا لخصم يقول لنا • اذا كانت هذه الأمور وهذه الوجوه من التعلق التي هي محصول النظم موجودة على حقائقها وعلى الصحة وكما ينبغي فى منثور كلام العرب ومنظومه ورأيناهم قد استعملوها وتصرفوا فيها وكملوا بمعرفتها وكانت حقائق لا تتبدل ولا يختلف بها الحال اذ لا يكون الاسم بكونه خبراً لمبتدا أو صفة لموصوف أو حالا لذى حال أو فاعلا أو مفعولا لفعل فى كلام حقيقة هي خلاف حقيقته فى كلام آخر • فما هذا الذى تجدد بالقرآن من عظيم المزية وباهر الفضل والعجيب من الرصف حتى أعجز الخلق قاطبة وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القوى والقُدَر • وقيد الخواطر والفكر • حتى خرست الشقاشق • وعدم نطق الناطق • وحتى لم يجر لسان • ولم يُبِنْ بيان • ولم يساعد امكان • ولم ينقدح لأحد منهم زند • ولم يمض له حد • وحتى أسال الوادى عليهم عجزا • وأخذ منافذ القول عليهم أخذا • أيلزمنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله • ونرده عن ضلاله • وأن نطبّ لدائه • ونزيل الفساد عن رائه • فان كان ذلك يلزمنا فينبغي لكل ذى دين وعقل أن ينظر فى الكتاب الذى وضعناه • ويستقصي التأمل لما أودعناه • فان علم انه الطريق الي البيان • والكشف عن الحجة والبرهان • تبع الحق وأخذ به

وان راى أنّ له طريقا غيره أومأ لنا اليه • ودلنا عليه • وهيهات ذلك

وهذه أبيات فى مثل ذلك

إني أقول مقالاً لست اخفيه	ولست أرهب خصما ان بدا فيه
ما من سبيل الى اثبات معجزة	فى النظم الا بما أصبحت أبديه
فما لنظم كلام أنت ناظمه	معنى سوى حكم اعراب تزجيه
اسم يرى وهو أصل للكلام فما	يتم من دونه قصد لمنشيه
وآخر هو يعطيك الزيادة فى	ما أنت تثبته أو أنت تنفيه
تفسير ذلك ان الأصل مبتدأ	تلقي له خبراً من بعد تثنيه
وفاعلٌ مسندٌ فعل تقدمه	اليه يكسبه وصفاً ويعطيه
هذان أصلان لا تأتيك فائدة	من منطق لم يكونا من مبانيه
وما يزيدك من بعد التمام فما	سلطت فعلا عليه فى تعديه
هذي قوانين يكفى من تتبعها	ما يشبه البحر فيضا من نواحيه
فلست تأتى الى باب لتعلمه	الا انصرفت بعجز عن تقصيه
هذا كذلك وان كان الذين ترى	يرون أن المدى دان لباغيه
ثم الذى هو قصدى أن يقال لهم	بما يجيب الفتى خصما يماريه
تقول من أين أن لا نظمَ يشبهه	وليس من منطق فى ذاك يحكيه
وقد علمنا بان النظم ليس سوى	حكم من النحو نمضى فى توخيه
لو نقّب الارض باغ غير ذاك له	معنى وصعّد يعلو فى ترقيه
ما عاد الا بخُسْر فى تطلّبه	ولا رأى غير غيّ فى تبغّيه
ونحن ما إن بثثنا الفكر ننظر في	أحكامه ونروّى فى معانيه
كانت حقائق يُلفي العلم مشتركا	بها وكلاً تراه نافذا فيه
فليس معرفة من دون معرفة	فى كل ما أنت من باب تسمّيه

تري تصرفهم في الكل مطرداً　　يجرونه باقتدار فى مجاريه
فما الذى زاد فى هذا الذى عرفوا　　حتى غدا العجز يهمي سيل واديه
قولوا والا فاصغوا للبيان تروا　　كالصبح منبلجاً فى عين رائيه

الحمد لله وحده وصلواته على رسوله محمد وآله

﴿ تم كتاب المدخل ﴾



كتاب

﴿ دلائل الاعجاز ﴾

(في علم المعانى)

﴿ تأليف ﴾

﴿ الامام عبد القاهر الجرجانى ﴾

صحح أصله علامتا المعقول والمنقول الاستاذ الامام
المرحوم الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية
والاستاذ اللغوى المحدث المرحوم الشيخ
محمد محمود التركزى الشنقيطى

طبع علي نفقة الحاج عبد الرحيم المكاوي الكتبي بشارع الحلوجي بمصر

(طبع بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين • حمد الشاكرين • نحمده على عظيم نعمائه وجميل بلائه • ونستكفيه نوائب الزمان • ونوازل الحدثان • ونرغب اليه فى التوفيق والعصمة • ونبرأ اليه من الحول والقوة • ونسأله يقيناً يملأ الصدر • ويعمر القلب • ويستولى على النفس • حتى يكفها اذا نزغت • ويردها اذا تطلعت • وثقة بانه عزوجل الوَزَر والكالئ والراعى والحافظ • وأن الخير والشر بيده • وان النعم كلها من عنده • وان لاسلطان لأحد مع سلطانه • نوجه رغباتنا اليه • ونخاص نياتنا في التوكل عليه • وأن يجعلنا ممن همه الصدق • وبغيته الحق • وغرضه الصواب • وما تصححه العقول وتقبله الالباب • ونعوذ به من أن ندعي العلم بشئ لانعلمه • وان نُسَدِّى قولا لانُلحمه • وان نكون ممن يغره الكاذب من الثناء • وينخدع للمتجوز في الإطراء • وأن يكون سبيلنا سبيل من يعجبه أن يجادل بالباطل • ويموه على السامع ولا يبالي اذا راج عنه القول أن يكون قد خلط فيه • ولم يسدّد في معانيه • ونستأنف الرغبة اليه عز وجل في الصلاة على خير خلقه والمصطفى من بريته • محمد سيد المرسلين • وعلى أصحابه الخلفاء الراشدين وعلى آله الاخيار من بعدهم أجمعين

وبعد فانا اذا تصفحنا الفضائل لنعرف منازلها فى الشرف • ونتبين مواقعها من العظم • ونعلم أيٌّ أحق منها بالتقديم • وأسبق فى استيجاب التعظيم • وجدنا العلم أولاها بذلك • وأولها هنالك • اذ لاشرف الا وهو السبيل اليه • ولا خير الا وهو الدليل عليه • ولا منقبة الا وهو ذروتها وسنامها • ولا مفخرة الا وبه صحتها وتمامها • ولا حسنة الا وهو مفتاحها • ولا محمدة الا ومنه يتقد مصباحها • هو الوفى اذا خان كل صاحب • والثقة اذ لم يوثق بناصح • لولاه لما بان الانسان من سائر الحيوان الا بتخطيط صورته • وهيأة جسمه وبنيته • لا ولا وجد الى اكتساب الفضل طريقاً • ولا وجد بشيء من المحاسن خليقاً • ذاك لأنا وان كنا لانصل الى اكتساب فضيلة الا بالفعل • وكان لايكون فعل الا بالقدرة • فانا لم نر فعلا زان فاعله وأوجب الفضل له • حتى يكون عن العلم صَدَرُه • وحتى يتبين مِيسَمُه عليه وأثره • ولم نر قدرة قط كَسَبَتْ صاحبها مجداً • وأفادته حمداً • دون أن يكون العلم رائدها فيما تطلب • وقائدها حيث تؤم وتذهب • ويكون المصرِّفَ لعنانها والمقلب لها في ميدانها • فهى اذن مفتقرة فى أن تكون فضيلة اليه • وعيال فى استحقاق هذا الاسم عليه • واذا هي خلت من العلم أو أبت أن تمتثل أمره • وتقتفي رسمه • آلت ولا شيء أجشد للذم على صاحبها منها ولا شيء أشين من إهماله لها

فهذا في فضل العلم لاتجد عاقلا يخالفك فيه • ولا تري أحداً يدفعه أو ينفيه • فاما المفاضلة بين بعضه وبعض • وتقديم فن منه على فن • فانك تري الناس فيه على آراء مختلفة • وأهواء متعادية • تري كلا منهم لحبه نفسه وايثاره أن يدفع النقص عنها يقدم مايحسن من أنواع

العلم على مالا يحسن • ويحاول الزراية على الذى لم يحظ به والطعن على أهله والغضَّ منهم • ثم تتفاوت أحوالهم في ذلك · فمن مغمور قد استهلكه هواه وبعد فى الجور مداه ، ومن مترجح فيه بين الانصاف والظلم ، يجور تارة ويعدل أخرى في الحكم ؟ فاما من يخلص فى هذا المعنى من الحيف حتى لايقضي الابالعدل ؟ وحتى يصدر فى كل أمره عن العقل ! فكالشيء الممتنع وجوده ! ولم يكن ذلك كذلك الا لشرف العلم وجليل محله • وان محبته مركوزة فى الطباع • ومركبة في النفوس • وان الغيرة عليه لازمة للجبلَّة • وموضوعة فى الفطرة ! وانه لاعيب أعيب عند الجميع من عدمه • ولاَ ضَعَةَ أوضع من الخلو عنه فلم يُعادَ إذن الا من فرط المحبة • ولم يسمح به الا لشدة الضَّنَّ

ثم انك لا ترى علما هو أرسخ أصلا • وأبسق فرعاً • وأحلى جَنًى • وأعذب ورداً • وأكرم نتاجا · وأنور سراجا • من علم البيان الذي لولاه لم تر لساناً يحوك الوَشْيَ • ويصوغ الحَلْي • ويلفظ الدر • وينفث السحر • ويَقْرِى الشهد • ويريك بدائع من الزهر • ويجنيك الحلو اليانع من الثمر • والذى لولا تحفِّيه بالعلوم • وعنايته بها • وتصويره اياها · لبقيت كامنة مستورة · ولما استبنت لها يدَ الدهر صورة • ولاستمر السَّرار بأهلتها · واستولى الخلفاء على جملتها • الى فوائد لا يدركها الاحصاء • ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء • الا إنك لن ترى على ذلك نوعا من العلم قد لقى من الضيم مالقيه • ومُني من الحيف بما مني به • ودخل على الناس من الغلط في معناه مادخل عليهم فيه • فقد سبقت الى نفوسهم اعتقادات فاسدة · وظنون ردية • وركبهم فيه جهل عظيم • وخطأ فاحش ترى كثيراً منهم لا يرى له معنى أكثر

مما يرى للاشارة بالرأس والعين • وما تجده للخط والعقد · يقول انما هو خبر واستخبار . وأمر ونهي ولكل من ذلك لفظ قد وضع له . وجعل دليلا عليه . فكل من عرف أو ضاع لغة من اللغات عربية كانت أو فارسية وعرف المغزى من كل لفظة ثم ساعده اللسان على النطق بها . وعلى تأدية أجراسها وحروفها . فهو بين في تلك اللغة . كامل الأداة . بالغ من البيان المبلغ الذى لامزيد عليه . منته الى الغاية التي لامذهب بعدها . يسمع الفصاحة والبلاغة والبراعة فلا يعرف لها معني سوى الاطناب في القول • وان يكون المتكلم في ذلك جهير الصوت • جارى اللسان • لا تعترضه لكنة • ولا تقف به حبسة • وان يستعمل اللفظ الغريب • والكلمة الوحشية • فان استظهر للامر • وبالغ في النظر • فأن لا يلحن فيرفع في موضع النصب • أو يخطيء فيجيء باللفظة على غير ماهى عليه في الوضع اللغوي * وعلى خلاف ماثبتت به الرواية عن العرب • وجملة الامر انه لايرى النقص يدخل على صاحبه في ذلك الا من جهة نقصه في علم اللغة * لا يعلم ان هاهنا دقائق وأسراراً طريق العلم بها الروية والفكر • ولطائف مستقاها العقل • وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هدوا اليها ودُلوا عليها • وكشف لهم عنها • ورفعت الحجب بينهم وبينها • وانها السبب في أن عرضت المزية في الكلام ووجب أن يفضل بعضه بعضاً • وان يبعد الشأوُ في ذلك وتمتد الغاية ويعلو المرتقى ويعزّ المطالب • حتى ينتهي الامر الى الاعجاز والى أن يخرج من طوق البشر •

ولما لم تعرف هذه الطائفة هذه الدقائق وهذه الخواص واللطائف لم تتعرض لها ولم تطلبها • ثم عنّ لها بسوء الاتفاق رأي صار حجازاً

بينها وبين العلم بها • وسداً دون أن تصل اليها • وهو أن ساء اعتقادها
في الشعر الذي هو معدنها • وعليه المعول فيها وفي علم الاعراب الذى
هو لها كالناسب الذى ينميها الى أصولها • ويبين فاضلها من مفضولها •
فجعلت تظهر الزهد فى كل واحد من النوعين • وتطرح كلا من
الصنفين • وترى التشاغل عنهما • أولى من الاشتغال بهما • والاعراض عن
تدبرهما • أصوب من الاقبال على تعلمهما •

أما الشعر فخيل اليها انه ليس فيه كثير طائل • وان ليس الا ملحة
أو فكاهة أو بكاء منزل أو وصف طلل • أو نعت ناقة أو جمل • أو
اسراف قول فى مدح أو هجاء • وانه ليس بشيء تمس الحاجة اليه فى صلاح
دين أو دنيا •

وأما النحو فظنته ضربا من التكلف ! وبابا من التعسف ! وشيئاً
لا يستند الى أصل • ولا يعتمد فيه على عقل ! وان ما زاد منه على معرفة
الرفع والنصب وما يتصل بذلك مما تجده في المبادى فهو فضل لا يجدى
نفعاً ! ولا تحصل منه على فائدة ! وضربوا له المثل بالملح كما عرفت • الى
اشباه لهذه الظنون في القبيلين وآراء لو علموا مغبتها وما تقود اليه لتعوذوا
بالله منها ! ولأنفوا لانفسهم من الرضا بها • ذاك لانهم بايثارهم الجهل
بذلك على العلم في معنى الصادّ عن سبيل الله والمبتغي اطفاء نور الله تعالى

وذاك انا اذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن
وظهرت • وبانت وبهرت • هي أن كان على حد من الفصاحة تقصر
عنه قوى البشر • ومنتهيا الى غاية لا يطمح اليها بالفكر • وكان محالا أن
يعرف كونه كذلك الا من عرف الشعر الذى هو ديوان العرب •
وعنوان الأدب والذي لا يشك أنه كان ميدان القوم اذا تجاروا في

الفصاحة والبيان • وتنازعوا فيهما قصب الرهان • ثم بحث عن العلل
التي بها كان التباين في الفضل • وزاد بعض الشعر على بعض • كان
الصاد عن ذلك صادًا عن أن نعرف حجة الله تعالى وكان مثله مثل
من يتصدى للناس فيمنعهم عن أن يحفظوا كتاب الله تعالى ويقوموا
به ويتلوه ويقرؤه • ويصنع في الجملة صنيعاً يؤدى الى أن يقل حفاظه
والقائمون به والمقرؤن له ذاك لأنا لم نتعبد بتلاوته وحفظه والقيام بأداء
لفظه على النحو الذى أنزل عليه وحراسته من أن يغير ويبدل الا
لتكون الحجة به قائمة على وجه الدهر تعرف في كل زمان ويتوصل
اليها في كل أوان ويكون سبيلها سبيل سائر العلوم التى يرويها الخلف
عن السلف ويأثرها الثانى عن الأول فمن حال بيننا وبين ماله كان
حفظنا اياه • واجتهادنا في أن نؤديه ونرعاه • كان كمن رام أن ينسيناه
جملة • ويذهبه من قلوبنا دفعة • فسواء من منعك الشيء الذي ينتزع منه
الشاهد والدليل • ومن منعك السبيل الى انتزاع تلك الدلالة • والاطلاع
على تلك الشهادة • ولا فرق بين من أعدمك الدواء الذى تستشفى به
من دائك • وتستبقي به حشاشة نفسك • وبين من أعدمك العلم بان فيه
شفاء • وأن لك فيه استبقاء

فان قال منهم قائل • انك قد أغفلت فيما رتبت • فان لنا طريقاً
الى اعجاز القرآن غير ما قلت • وهو علمنا بعجز العرب عن أن يأتوا بمثله •
وتركهم أن يعارضوه مع تكرار التحدى عليهم وطول التقريع لهم
بالعجز عنه • ولأن الأمر كذلك ما قامت به الحجة على العجم قيامها
على العرب واستوى الناس قاطبة فلم يخرج الجاهل بلسان العرب من
أن يكون محجوجاً بالقرآن • قيل له خبرنا عما اتفق عليه المسلمون من

اختصاص نبينا عليه السلام بان كانت معجزته باقية على وجه الدهر .
أتعرف له معنى غير أن لايزال البرهان منه لائحاً معرضاً لكل من أراد
العلم به • وطلب الوصول اليه • والحجة فيه وبه ظاهرة لمن أرادها
والعلم بها ممكنا لمن التمسه فاذا كنت لاتشك فى أن لامعنى لبقاء المعجزة
بالقرآن الا أن الوصف الذى له كان معجزاً قائم فيه أبداً وان الطريق
الى العلم به موجود • والوصول اليه ممكن • فانظر أي رجل تكون
اذا أنت زهدت في أن تعرف حجة الله تعالى وآثرت فيه الجهل على العلم
وعدم الاستبانة على وجودها وكان التقليد فيها أحب اليك • والتعويل
على علم غيرك آثر لديك ونح الهوى عنك وراجع عقلك وأصدق نفسك
يبن لك فحش الغلط فيما رأيت وقبح الخطاء فى الذي توهمت وهل
رأيت رأيا أعجز واختياراً أقبح ممن كره أن تعرف حجة الله تعالى من
الجهة التي اذا عرفت منها كانت أنور وأبهر وأقوي وأقهر وآثر أن لا
يقوي سلطانها على الشرك كل القوة ولا تعلوا على الكفر كل العلو
والله المستعان

فصل

« فى الكلام على من زهد في رواية الشعر وحفظه • وذم الاشتغال
بعلمه وتتبعه »

لايخلو من كان هذا رأيه من أمور (أحدها) أن يكون رفضه له
وذمه اياه من أجل مايجده فيه من هزل أو سخف وهجاء وسب وكذب
وباطل على الجملة (والثانى) أن يذمه لانه موزون مقفى ويرى هذا
بمجرده عيباً يقتضي الزهد فيه والتنزه عنه (والثالث) أن يتعلق بأحوال

الشعراء وأنها غير جميلة فى الاكثر ويقول قد ذُموا في التنزيل • وأيٌّ
كان من هذه رأياً له فهو في ذلك على خطأ ظاهر • وغلط فاحش •
وعلى خلاف مايوجبه القياس والنظر • وبالضد مما جاء به الأثر • وصح
به الخبر •

أما من زعم أن ذمه له من أجل مايجد فيه من هزل وسخف
وكذب وباطل فينبغي أن يذم الكلام كله . وأن يفضل الخرس على النطق
والعيَّ على البيان فمنثور كلام الناس على كل حال أكثر من منظومه
والذى زعم أنه ذم الشعر بسببه وعاداه بنسبته اليه أكثر لان الشعراء
في كل عصر وزمان معدودون . والعامة ومن لايقول الشعر من الخاصة
عديد الرمل. ونحن نعلم ان لو كان منثور الكلام يُجمع كما يجمع المنظوم ثم
عَمَدَ عامدٌ فجمع ماقيل من جنس الهزل والسخف نثراً في عصر واحد
لأربي على جميع ماقاله الشعراء نظما في الازمان الكثيرة ولَغَمَرَهُ حتى
لا يظهر فيه . ثم انك لو لم ترو من هذا الضرب شيأ قط ولم تحفظ الا
الجدَّ المحض والاملا معاب عليك في روايته وفى المحاضرة به وفي نسخة
وتدوينه لكان في ذلك غني ومندوحة ولوجدتَ طلبتك ونلت مرادك
وحصل لك مانحن ندعوك اليه من علم الفصاحة فاختر لنفسك ودع
ماتكره الى ماتحب

(هذا) وراوى الشعر حاك وليس على الحاكي عيب . ولا عليه
تبعة . اذا هو لم يقصد بحكايته أن ينصر باطلاً . أويسوء مسلماً . وقد
حكي الله تعالى كلام الكفار فانظر الى الغرض الذى لهُ رويَ الشعر
ومن أجله أريدَ وله دوّن تعلم أنك قد زغت عن المنهج وانك مسيء
فى هذه العداوة وهي العصبية منك على الشعر ؛ وقد استشهد العلماء

لغريب القرآن واعرابه بالابيات فيها الفحش وفيها ذكر الفعل القبيح ثم لم يعبهم ذلك اذ كانوا لم يقصدوا الى ذلك الفحش ولم يريدوه ولم يرووا الشعر من أجله . قالوا وكان الحسن البصريّ رحمه الله يتمثل في مواعظه وكان من أوجعها عنده :

اليوم عندك دَلُّها وحديثها وغداً لغيرك كفها والمعصم

وفى الحديث عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ذكره المرزباني في كتابه باسناد عن عبد الملك بن عمير انه قاله أتى عمر رضوان الله عليه بحلل من اليمن فأتاه محمد بن جعفر بن أبي طالب ومحمد بن أبي بكر الصديق ومحمد بن طلحة بن عبيد الله ومحمد بن حاطب فدخل عليه زيد بن ثابت رضي الله عنه فقال ياأمير المؤمنين هؤلاء المحمدون بالباب يطلبون الكسوة فقال ائذن لهم ياغلام فدعا بحلل فأخذ زيد أجودها وقال هذه لمحمد بن حاطب وكانت أمه عنده وهو من بني لؤى فقال عمر رضي الله عنه أيهات أيهات وتمثل بشعر عمارة بن الوليد :

اسرك لما صرع القوم نشوة خروجي منها سالما غير غارم
بريئاً كأني قبل لم أك منهم وليس الخداع مرتضى فى التنادم

ردها . ثم قال ائتنى بثوب فألقه على هذه الحلل وقال أدخل يدك فخذ حلة وأنت لا تراها فأعطهم • قال عبد الملك فلم أر قسمة أعدل منها• وعمارة هذا هو عمارة بن الوليد بن المغيرة خطب امرأة من قومه فقالت لا أزوجك أو تترك الشراب فأبى ثم اشتد وجده بها فحلف لها أن لا يشرب ثم مر بخمار عنده شرب يشربون فدعوه فدخل عليهم وقد انفدا ماعندهم فنحر لهم ناقته وسقاهم ببرديه ومكثوا أياما ثم خرج فأتي أهله فلما رأته امرأته قالت ألم تحلف أن لا تشرب

فقال :

ولسنا بشرب أم عمرو اذا انتشوا ثياب الندامي عندهم كالغنائم
ولكننا يا أم عمرو نديمنا بمنزلة الريان ليس بعائم

أسرك البيتين * فاذن رب هزل صار أداة فى جد • وكلام جرى فى باطل ثم استعين به على حق • كما انه رب شئ خسيس • توصل به الى شريف . بان ضرب مثلا فيه • وجعل مثالا له • كما قال ابو تمام :

والله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكوة والنبراس

وعلى العكس فرب كلمة حق أريد بها باطل فاستحق عليها الذم كما عرفت من خبر الخارجى مع على رضوان الله عليه • ورب قول حسن لم يحسن من قائله حين تسبب به الى قبيح كالذى حكى الجاحظ قال : رجع طاوس يوماً عن مجلس محمد بن يوسف وهو يومئذ والى اليمن فقال : ماظننت ان قول سبحان الله يكون معصية لله حتي كان اليوم سمعت رجلا أبلغ ابن يوسف عن رجل كلاما فقال رجل من أهل المجلس سبحان الله كالمستعظم لذلك الكلام ليغضب ابن يوسف » فبهذا ونحوه فاعتبروا اجعله حكما بينك وبين الشعر •

(وبعد) فكيف وضع من الشعر عندك وكسبه المقت منك انك وجدت فيه الباطل والكذب وبعض ما لا يحسن ولم يرفعه فى نفسك ولم يوجب له المحبة من قلبك ان كان فيه الحق والصدق والحكمة وفصل الخطاب • وان كان مجنى ثمر العقول والالباب • ومجتمع فرق الآداب والذي قيد على الناس المعانى الشريفة • وأفادهم الفوائد الجليلة وترسل بين الماضى والغابر • ينقل مكارم الأخلاق الى الولد عن الوالد

ويؤدى ودائع الشرف عن الغائب الى الشاهد • حتي ترى به آثار الماضين مخلدة فى الباقين • وعقول الأولين • مردودة فى الآخرين • وترى لكل من رام الأدب • وابتغى الشرف • وطلب محاسن القول والفعل • منارا مرفوعا • وعلماً منصوبا • وهادياً مرشدا • ومعلماً مسددا • وتجد فيه للنائى عن طلب المآثر • والزاهد فى اكتساب المحامد • داعياً ومحرضا • وباعثاً ومحضضا • ومذكرا ومعرفا • وواعظاً ومثقفا • فلو كنت ممن ينصف كان فى بعض ذلك ما يغير هذا الرأى منك • وما يحدوك على رواية الشعر وطلبه • ويمنعك أن تعيبه أو تعيب به • ولكنك أبيت إلا ظناً سبق اليك • والا بادىء رأى عنّ لك فاقفلت عليه قلبك • وسددت عما سواه سمعك • فعىّ الناصح بك • وعسر على الصديق الخليط تنبيهك • نعم وكيف رويت « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً فيريه خير له من أن يمتلىء شعراً » ولهجت به وتركت قوله صلى الله عليه وسلم : « ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا » وكيف نسيت أمره صلى الله عليه وسلم بقول الشعر ووعده عليه الجنة • وقوله لحسان « قل وروح القدس معك » وسماعه له • واستنشاده إياه وعلمه صلى الله عليه وسلم به • واستحسانه له • وارتياحه عند سماعه • ؟

(أما) أمره به فمن العلوم ضرورة • وكذلك سماعه إياه • فقد كان حسان وعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير يمدحونه ويسمع منهم ويصغى اليهم ويأمرهم بالرد على المشركين فيقولون فى ذلك ويعرضون عليه • وكان عليه السلام يذكر لهم بعض ذلك كالذي روى من أنه صلى الله عليه وسلم قال لكعب « ما نسي ربك وما كان ربك نسياً شعراً قلته »

قال وما هو يا رسول الله قال : « أنشده يا أبا بكر » فأنشد أبو بكر رضوان الله عليه :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها ... وليغلبن مغالب الغلاب

(وأما) استنشاده اياه فكثير • من ذلك الخبر المعروف فى استنشاده حين استسقى فسقى قول أبى طالب

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامي عصمة للارامل

يطيف به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده فى نعمة وفواضل

الابيات • وعن الشعبى رضى الله عنه عن مسروق عن عبد الله قال لما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى القتلى يوم بدر مصرعين فقال صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضى الله عنه « لو أن أبا طالب حى لعلم أن أسيافنا قد أخذت بالانامل » قال وذلك لقول أبى طالب

كذبتم وبيت الله ان جد ما أرى ... لتلتبسن أسيافنا بالانامل

وينهض قوم فى الدروع اليهم ... نهوض الروايا في طريق حلاحل

ومن المحفوظ فى ذلك حديث محمد بن مسلمة الانصارى جمعه وابن أبى حدرد الاسلمي الطريق قال فتذاكرنا الشكر والمعروف قال فقال محمد كنا يوماً عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال لحسان بن ثابت : « أنشدنى قصيدة من شعر الجاهلية فان الله تعالى قد وضع عنا آثامها فى شعرها وروايته » : فأنشده قصيدة للاعشى هجا بها علقمة بن علاثة

علقم ما أنت الى عامر ... الناقض الاوتار والواتر

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يا حسان لا تعد تنشدنى هذه القصيدة بعد مجلسك هذا » فقال يارسول تنهانى عن رجل مشرك مقيم عند قيصر فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يا حسان أشكر الناس

الناس أشكرهم لله تعالى • وان قيصر سأل أبا سفيان بن حرب عنى
فتناول مني (وفى خبر آخر فشعث منى) وانه سأل هذا عنى فأحسن
القول » فشكره رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك • وروى من
وجه آخر أن حسان قال يا رسول الله من نالتك يده وجب علينا شكره
ومن المعروف فى ذلك خبر عائشة رضوان الله عليها أنها قالت كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول : « أبياتك » فأقول

ارفع ضعيفك لا يحربك ضعفه   يوما فتدركه العواقب قد نمي
يجزيك أو يثنى عليك وان من   اثنى عليك بما فعلت فقد جزى

قالت فيقول عليه السلام « يقول الله تبارك وتعالى لعبد من عبيده
صنع اليك عبدي معروفا فهل شكرته عليه فيقول يا رب علمت انه
منك فشكرتك عليه قال فيقول الله عز وجل لم تشكرنى اذا لم تشكر
من أجريته على يده »

(وأما) علمه عليه السلام بالشعر فكما روي ان سودة أنشدت
« عديٌّ وتيم تبتغى من تحالف » فظنت عائشة وحفصة رضي الله
عنهما انها عرضت بهما وجرى بينهن كلام فى هذا المعنى فأخبر النبي صلى
الله عليه وسلم فدخل عليهن وقال « ياويلكن ليس في عديكنّ ولا
تيمكنّ قيل هذا وانما قيل هذا في عديّ تميم وتيم تميم » • وتمام
هذا الشعر •

فخالف ولا والله تهبط تلعة   من الارض الا أنت للذل عارف
ألا من رأى العبدين أو ذكرا له   عدي وتيم تبتغي من تحالف

وروي الزبير بن بكار قال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه
أبو بكر رضي الله عنه برجل يقول في بعض أزقة مكة :

يا أيها الرجل المحول رحله   هلا نزلت بآل عبد الدار

فقال النبي صلى الله عليه وسلم « يا أبا بكر هكذا قال الشاعر » قال
لا يا رسول الله ولكنه قال :

يا أيها الرجل المحول رحله   هلا سألت عن آل عبد مناف

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا كنا نسمعها •

(وأما) ارتياحه صلى الله عليه وسلم للشعر واستحسانه له فقد جاء
فيه الخبر من وجوه • من ذلك حديث النابغة الجعدي قال أنشدت
رسول الله صلى الله عليه وسلم قولى :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا   وانا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أين المظهر يا أبا ليلي ؟ » فقلت الجنة
يا رسول الله قال « أجل ان شاء الله » ثم قال « أنشدنى » فأنشدته
من قولى :

ولا خير في حلم اذا لم تكن له   بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل اذا لم تكن له   حليم اذا ما أورد الامر اصدرا

فقال صلى الله عليه وسلم (أجدت لا يفضض الله فاك) قال الراوي
فنظرت اليه فكأن فاه البرد المنهل ما سقطت له سن ولا انفلت
ترف غروبه

(ومن ذلك) حديث كعب بن زهير روى أن كعبا وأخاه بجيرا
خرجا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغا أبرق العزاف فقال
كعب لبجير : الق هذا الرجل وانا مقيم هنا فانظر ما يقول • وقدم
بجير على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض عليه الاسلام فاسلم
وبلغ ذلك كعبا فقال فى ذلك شعراً فاهدر النبي صلى الله عليه وسلم

دمه فكتب اليه بجير يأمره ان يسلم ويقبل الي النبي صلي الله عليه وسلم
ويقول : ان من شهد أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله قبل منه
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسقط ما كان قبل ذلك فقدم كعب
وأنشد النبي صلى الله عليه وسلم قصيدته المعروفة :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول … متيم أثرها لم يفد مغلول
وما سعاد غداة البين اذ رحلت … الا أغن غضيض الطرف مكحول
تجلو عوارض ذي ظلم اذا ابتسمت … كأنه منهل بالراح معلول
سح السقاة عليها ماء محنية … من ماء أبطح أضحي وهو مشمول
أكرم بها خلة لو أنها صدقت … موعودها أو لو ان النصح مقبول

حتى أتى على آخرها فلما بلغ مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم

ان الرسول لسيف يستضاء به … مهند من سيوف الله مسلول
فى فتية من قريش قال قائلهم … ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فمازال انكاس ولا كشف … عند اللقاء ولا ميل معازيل
لا يقع الطعن الا في نحورهم … وما بهم عن حياض الموت تهليل
شم العرانين أبطال لبوسهم … من نسج داود فى الهيجا سرابيل

أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الخلق أن اسمعوا قال
وكان رسول صلى الله عليه وسلم يكون من أصحابه بمكان المائدة من القوم
يتحلقون حلقة دون حلقة فيلتفت الى هؤلاء والى هؤلاء والاخبار فيما
يشبه هذا كثيرة والأثر به مستفيض

وان زعم انه ذم الشعر من حيث هو موزون مقفى حتى كان
الوزن عيباً • وحتى كان الكلام اذا نظم نظم الشعر اتضع فى نفسه
وتغيرت حاله • فقد أبعد وقال قولا لا يعرف له معنى وخالف العلماء

فى قولهم : (انما الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح) وقد روى
ذلك عن النبي صلي الله عليه وسلم مرفوعا

فان زعم انه انما كره الوزن لانه سبب لأن يغنى فى الشعر ويلتهي
به • فانا اذا كنا لم ندعه الى الشعر من أجل ذلك وانما دعوناه الى
اللفظ الجزل • والقول الفصل • والمنطق الحسن • والكلام البين •
والى حسن التمثيل والاستعارة • والى التلويح والاشارة • والى صنعة
تعمد الى المعنى الخسيس فتشرفه • والى الضئيل فتفخمه • والى النازل
فترفعه • والى الخامل فتنوه به • والى العاطل فتحليه • والى المشكل
فتجليه • فلا متعلق له علينا بما ذكر • ولا ضرر علينا فيما أنكر •
فليقل فى الوزن ما شاء • وليضعه حيث أراد • فليس يعنينا أمره •
ولا هو مرادنا من هذا الذى راجعنا القول فيه • وهذا هو الجواب
لمتعلق ان تعلق بقوله تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) وأراد
أن يجعله حجة فى المنع من الشعر • ومن حفظه وروايته • وذاك انا
نعلم انه صلى الله عليه وسلم لم يمنع الشعر من أجل ان كان قولا فصلا •
وكلاما جزلا • ومنطقاً حسنا • وبياناً بينا • كيف وذلك يقتضي أن
يكون الله تعالى قد منعه البيان والبلاغة • وحماه الفصاحة والبراعة •
وجعله لا يبلغ مبلغ الشعراء فى حسن العبارة وشرف اللفظ • وهذا
جهل عظيم وخلاف لما عرفه العلماء وأجمعوا عليه من أنه صلى الله
عليه وسلم كان أفصح العرب واذا بطل أن يكون المنع من أجل
هذه المعانى وكنا قد أعلمناه انا ندعوا الى الشعر من أجلها • ونحدوا
بطلبه على طلبها • كان الاعتراض بالآية محالا • والتعلق بها خطلا
من الرأى وانحلالا

فان قال اذا قال الله تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغى له) فقد كره للنبي صلى الله عليه وسلم الشعر ونزهه عنه بلاشبهة وهذه الكراهة وان كانت لاتتوجه اليه من حيث هو كلام ومن حيث انه بليغ بين وفصيح حسن ونحو ذلك فانها تتوجه الى أمر لابدلك من التلبس به فى طلب ماذكرت أنه مرادك من الشعر وذاك انه لاسبيل لك الى أن تميز كونه كلاما عن كونه شعرا حتى اذا رويته التبست به من حيث هو كلام ولم تلتبس به من حيث هو شعر هذا محال • واذا كان لابد لك من ملابسة موضع الكراهة فقد لزم العيب برواية الشعر واعمال اللسان فيه • قيل له هذا منك كلام لايتحصل وذلك انه لو كان الكلام اذا وزن حط ذلك من قدره وأزرى به وجلب على المفرغ له في ذلك القالب اثماً • وكسبه ذما • لكان من حق العيب فيه أن يكون على واضع الشعر أو من يريده لمكان الوزن خصوصاً دون من يريده لامر خارج عنه ويطلبه لشيءٍ سواه فاما قولك انك لاتستطيع أن تطلب من الشعر مالا يكره حتى تلتبس بما يكره فانى اذاً لم أقصده من أجل ذلك المكروه ولم أرده له وأردته لاعرف به مكان بلاغة • وأجعله مثالا فى براعة • أو احتج به فى تفسير كتاب وسنة • وأنظر الى نظمه ونظم القرآن • فأرى موضع الاعجاز وأقف على الجهة التى منها كان وأتبين الفصل والفرقان فحق هذا التلبس أن لا يعتد علىّ ذنباً وان لا اواخذ به اذلا تكون مؤاخذة حتى يكون عمد الي أن تواقع المكروه وقصد اليه وقد تتبع العلماء الشعوذة والسحر وعنوا بالتوقف على حيل المموهين ليعرفوا فرق مابين المعجزة والحيلة فكان ذلك منهم من أعظم البر اذ كان الغرض كريما والقصد شريفاً

هـذا واذا نحن رجعنا الى ماقدمنا من الاخبار • وما صح من الآثار • وجدنا الامر على خلاف ماظن هذا السائل ورأينا السبيل فى منع النبي صلى الله عليه وسلم الوزن وأن ينطلق لسانه بالكلام الموزون غير ماذهبوا اليه • وذاك أنه لو كان منع تنزيه وكراهة لكان ينبغي أن يكره له سماع الكلام موزونا وأن ينزه سمعه عنه كما ينزه لسانه ولكان صلى الله عليه وسلم لايأمر به ولا يحث عليه • وكان الشاعر لايعان على وزن الكلام وصياغته شعراً ولا يؤيَّد فيه بروح القدس • واذا كان هذا كذلك فينبغي أن يعلم أن ليس المنع فى ذلك منع تنزيه وكراهة بل سبيل الوزن في منعه عليه السلام إياه سبيل الخطّ حين جعل عليه السلام لايقرأ ولا يكتب في أن لم يكن المنع من أجل كراهة كانت فى الخط بل لأن تكون الحجة أبهر وأقهر والدلالة أقوى وأظهر • ولتكون أكم للجاحد • وأقمع للمعاند وأردّ لطالب الشبهة • وأمنع في ارتفاع الريبة

وأما التعلق بأحوال الشعراء بأنهم قد ذموا فى كتاب الله تعالى فلا أرى عاقلا يرضى به أن يجعله حجة في ذم الشعر وتهجينه • والمنع من حفظه وروايته • والعلم بما فيه من بلاغة • وما يختص به من أدب وحكمة ذاك لانه يلزم على قود هذا القول أن يعيب العلماء فى استشهادهم بشعر امرئ القيس وأشعار أهل الجاهلية فى تفسير القرآن وفى غريبه وغريب الحديث • وكذلك يلزمه أن يدفع سائر ماتقدم ذكره من أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالشعر واصغائه اليه واستحسانه له • هذا ولو كان يسوغ ذم القول من أجل قائله • وأن يحمل ذم الشاعر على الشعر لكان ينبغي أن يخص ولا يعمّ وأن يستثني فقد قال الله عز وجل (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا) ولولا أن القول يجر بعضه

بعضا وأن الشيء يذكر لدخوله في القسمة لكان حق هذا ونحوه أن لا يتشاغل به وأن لا يعاد ويبدأ فى ذكره

وأما زهدهم فى النحو واحتقارهم له واصغارهم أمره وتهاونهم به فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذى تقدم وأشبه بان يكون صداً عن كتاب الله وعن معرفة معانيه • ذاك لأنهم لايجدون بداً من أن يعترفوا بالحاجة اليه فيه اذ كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الاعراب هو الذى يفتحها وان الاغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها وانه المعيار الذي لايتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه والمقياس الذى لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع اليه • ولا ينكر ذلك الا من ينكر حسه • والا من غالط فى الحقائق نفسه واذا كان الامر كذلك فليت شعرى ماعذر من تهاون به وزهد فيه ولم ير أن يستسقيه من مصبه • ويأخذه من معدنه • ورضى لنفسه بالنقص والكمال لها معرض وآثر الغبينة وهو يجد الي الربح سبيلا •

فان قالوا انا لم نأب صحة هذا العلم • ولم ننكر مكان الحاجة اليه فى معرفة كتاب الله تعالى وانما أنكرنا أشياء كثرتموه بها • وفضول قول تكلفتموها • ومسائل عويصة تجشمتم الفكر فيها • ثم لم تحصلوا على شيء أكثر من ان تغربوا على السامعين • وتعايوا بها الحاضرين • قيل لهم خبرونا عما زعمتم انه فضول قول وعويص لا يعود بطائل ماهو • فان بدؤا فذكروا مسائل التصريف التي يضعها النحويون للرياضة ولضرب من تمكين المقاييس فى النفوس كقولهم كيف تبنى من كذا كذا وكقولهم ماوزن كذا وتتبعهم في ذلك الالفاظ الوحشية كقولهم ماوزن عزويت وماوزن أزونان وكقولهم فى باب مالاينصرف

لو سميت رجلا بكذا كيف يكون الحكم وأشباه ذلك وقالوا أتشكون ان ذلك لايجدي الا كدّ الفكر واضاعة الوقت •

قلنا لهم أما هذا الجنس فلسنا نعيبكم ان لم تنظروا فيه ولم تُعنَوْا به وليس يهمنا أمره فقولوا فيه ماشئتم • وضعوه حيث أردتم • فان تركوا ذلك وتجاوزوه الى الكلام على أغراض واضع اللغة وعلى وجه الحكمة في الاوضاع وتقرير المقاييس التي أطردت عليها وذكر العلل التي اقتضت ان تجرى على ماأجريت عليه كالقول في المعتل وفيما يلحق الحروف الثلاثة التي هي الواو والياء والالف من التغير بالابدال والحذف والاسكان أو ككلامنا مثلا على التثنية وجمع السلامة لم كان اعرابهما على خلاف اعراب الواحد ولم تبع النصب فيهما الجر • وفي النون انه عوض عن الحركة والتنوين في حال وعن الحركة وحدها فى حال • والكلام على ماينصرف ومالاينصرف • ولم كان منع الصرف وبيان العلة فيه • والقول على الاسباب التسعة وانها كلها ثوان لاصول • وانه اذا حصل منها اثنان في اسم أو تكرر سبب صار بذلك ثانياً من جهتين واذا صار كذلك أشبه الفعل لان الفعل ثان للاسم والاسم المقدم والاول وكل ماجرى هذا المجرى ـ قلنا انا نسكت عنكم فى هذا الضرب أيضاً ونعذركم فيه ونسامحكم على علم منا بأن قد أسأتم الاختيار • ومنعتم أنفسكم مافيه الحظ لكم ومنعتموها الاطلاع على مدارج الحكمة وعلى العلوم الجمة فدعوا ذلك وانظروا في الذى اعترفتم بصحته وبالحاجة اليه هل حصلتموه على وجهه • وهل أحطتم بحقائقه • وهل وفيتم كل باب منه حقه واحكمتموه أحكاماً يؤمنكم الخطأ فيه اذا أنتم خضتم فى التفسير • وتعاطيتم علم التأويل • ووازنتم بين بعض الاقوال وبعض وأردتم أن

تعرفوا الصحيح من السقيم • وعدتم فى ذلك وبدأتم • وزدتم ونقصتم وهل رأيتم اذ قد عرفتم صورة المبتدا والخبر وان اعرابهما الرفع أن تجاوزوا ذلك الى أن تنظروا فى أقسام خبره فتعلموا انه يكون مفرداً وجملة • وان المفرد ينقسم الى مايحتمل ضميراً له والى مالايحتمل الضمير وان الجملة على أربعة أضرب • وانه لا بد لكل جملة وقعت خبرالمبتدا من أن يكون فيها ذكر يعود الى المبتدا • وان هذا الذكر ربما حذف لفظا وأريد معنى • وان ذلك لا يكون حتى يكون فى الحال دليل عليه الي سائر من يتصل بباب الابتداء من المسائل اللطيفة والفوائد الجليلة التى لا بد منها • واذا نظرتم فى الصفة مثلا فعرفتم انها تتبع الموصوف وان مثالها قولك جاءني رجل ظريف ومررت بزيد الظريف هل ظننتم ان وراء ذلك علما وان ههنا صفة تخصص وصفة توضح وتبين • وان فائدة التخصيص غير فائدة التوضيح كما ان فائدة الشياع غير فائدة الابهام • وان من الصفة صفة لا يكون فيها تخصيص ولا توضيح ولكن يؤتى بها مؤكدة كقولهم (أمس الدابر) وكقوله تعالي (فاذا نفخ فى الصور نفخةٌ واحدة) وصفة يراد بها المدح والثناء كالصفات الجارية على اسم الله تعالي جده • وهل عرفتم الفرق بين الصفة والخبر وبين كل واحد منها وبين الحال • وهل عرفتم ان هذه الثلاثة تتفق فى ان كافتها لثبوت المعنى للشيء ثم تختلف فى كيفية ذلك الثبوت

وهكذا ينبغي أن تعرض عليهم الابواب كلها واحداً واحداً ويسألوا عنها باباً باباً ثم يقال ليس الا أحد أمرين إما أن تقتحموا التى لا يرضاها العاقل فتنكروا أن يكون بكم حاجة فى كتاب الله تعالي وفى خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى معرفة الكلام جملة الي شيء من ذلك وتزعموا

انكم اذا عرفتم مثلا ان الفاعل رفع لم يبق عليكم فى باب الفاعل ماتحتاجون الي معرفته • واذا نظرتم الى قولنا زيد منطلق لم تحتاجوا من بعده الي شيء تعلمونه في الابتداء والخبر • وحتى تزعموا مثلا انكم لا تحتاجون فى أن تعرفوا وجه الرفع فى « الصابئون » من سورة المائدة الي ماقاله العلماء فيه والى استشهادهم بقول الشاعر

والا فاعلموا أناوأنتم بغاة مابقينا فى شقاق

وحتى كان المشكل على الجميع غير مشكل عندكم • وحتى كأنكم قد أوتيتم أن تستنبطوا من المسئلة الواحدة من كل باب مسائله كلها فتخرجوا الي فن من التجاهل لايبقى معه كلام • وإما أن تعلموا انكم قد أخطأتم حين أصغرتم أمر هذا العلم وظننتم ماظننتم فيه فترجعوا الي الحق وتسلموا الفضل لأهله وتدعوا الذى يزرى بكم ويفتح باب العيب عليكم ويطيل لسان القادح فيكم وبالله التوفيق

هذا ــ ولو أن هؤلاء القوم اذ تركوا هذا الشأن تركوه جملة واذ زعموا ان قدر المفتقر اليه القليلُ منه اقتصروا على ذلك القليل فلم يأخذوا أنفسهم بالتقوى فيه والتصرف فيما لم يتعلموا منه ولم يخوضوا فى التفسير ولم يتعاطوا التأويل لكان البلاء واحداً ولكانوا اذا لم يبنوا لم يهدموا واذا لم يصلحوا لم يكونوا سبباً للفساد ولكنهم لم يفعلوا • فجلبوا من الداء ما أعيي الطبيب • وحير اللبيب • وانتهي التخليط بما أتوه فيه • الي حد يئس من تلافيه • فلم يبق للعارف الذى يكره الشغب الا التعجب والسكوت • وما الآفة العظمي الا واحدة وهي أن يجيء من الانسان ان يجري لفظه ويمشى له أن يكثر فى غير تحصيل • وان يحسن البناء على غير أساس وأن يقول الشيء لم يتقنه علما • ونسأل الله الهداية

ونرغب اليه في العصمة •

ثم انا وان كنا في زمان هو على ما هو عليه من احالة الأمور عن جهاتها وتحويل الاشياء عن حالاتها • ونقل النفوس عن طباعها • وقلب الخلائق المحمودة الى اضدادها • ودهر ليس للفضل واهله لديه الا الشر صرفا • والغيظ بحتا • والا ما يدهش عقولهم • ويسلبهم معقولهم • حتى صار أعجز الناس رأياً عند الجميع من كانت له همة في ان يستفيد علما • أو يزداد فيهما أو يكتسب فضلا • أو يجعل له ذلك بحال شغلا • فان الالف من طباع الكريم • واذا كان من حق الصديق عليك ولا سيما اذا تقادمت صحبته وصحت صداقته أن لا تجفوه بان تنكبك الايام • وتضجرك النوائب • وتحرجك محن الزمان • فتتناساه جملة • وتطويه طياً . فالعلم الذى هو صديق لايحول عن العهد • ولا يدغل في الود • وصاحب لا يصح عليه النكث والغدر • ولا يظن به الخيانة والمكر • أولى منه بذلك وأجدر • وحقه عليك أكبر •

ثم ان التوق الى ان تقر الامور قرارها • وتوضع الاشياء مواضعها • والنزاع الى بيان ما يشكل • وحل ما ينعقد • والكشف عما يخفى • وتلخيص الصفة حتى يزداد السامع ثقة بالحجة • واستظهاراً على الشبهة • واستبانة للدليل • وتبييناً للسبيل • شيء في سوس العقل • وفي طباع النفس اذا كانت نفساً • ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحه وحتى كان المشكل على الجميع غير مشكل عندكم • وحتى كأنكم قد أوتيتم ان تستنبطوا من المسئلة الواحدة من كل باب مسائله كلها فتخرجوا الى فن من التجاهل

والبلاغة • والبيان والبراعة • وفي بيان المغزي من هذه العبارات وتفسير المراد بها • فأجد بعض ذلك كالرمز والايماء • والاشارة في خفاء • وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب • وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج • وكما يفتح لك الطريق الى المطلوب لتسلكه • وتوضع لك القاعدة لتبنى عليها • ووجدت المعول على أن ههنا نظما وترتيباً • وتأليفاً وتركيباً • وصياغة وتصويرا ونسجاً وتحبيرا • وان سبيل هذه المعاني في الكلام الذى هي مجاز فيه سبيلها في الاشياء التي هي حقيقة فيها • وانه كما يفضل هناك النظمُ النظمَ • والتأليفُ التأليفَ والنسجُ النسجَ • والصياغةُ الصياغةَ • ثم يعظم الفضل • وتكثر المزية حتى يفوق الشيء نظيره والمجانس له درجات كثيرة • وحتى تتفاوت القيم التفاوت الشديد • كذلك يفضل بعض الكلام بعضاً • ويتقدم منه الشيء الشيء • ثم يزداد من فضله ذلك ويترقى منزلة فوق منزلة • ويعلو مرقباً بعد مرقب • ويستأنف له غاية بعد غاية • حتى ينتهى الى حيث تنقطع الاطماع • وتحسر الظنون . وتسقط القوى وتستوي الأقدام في العجز

وهذه جملة قد يرى في أول الامر • وبادئ الظن • انها تكفي وتغني • حتى اذا نظرنا فيها وعدنا وبدأنا وجدنا الأمر على خلاف ما حسبناه • وصادفنا الحال على غير ما توهمناه • وعلمنا أنهم لئن أقصروا اللفظ لقد أطالوا المعنى • وإن لم يغرقوا في النزع لقد أبعدوا على ذلك في المرمي • وذاك لانه يقال لنا مازدتم على ان قستم قياساً فقلتم نظم ونظم • وترتيب وترتيب • ونسج ونسج • ثم بنيتم عليه انه ينبغي ان تظهر المزية في هذه المعاني هاهنا حسب ظهورها هناك

• وان يعظم الأمر في ذلك كما عظم ثم. وهذا صحيح كما قلتم • ولكن
بقي ان تعلمونا مكان المزية فى الكلام وتصفوها لنا وتذكروها ذكرا
كما ينص الشيء ويعين • وينكشف عن وجهه ويبين • ولا يكفي ان
تقولوا انه خصوصية فى كيفية النظم . وطريقة مخصوصة فى نسق
الكلم بعضها على بعض • حتى تصفوا تلك الخصوصية وتبينوها
• وتذكروا لها أمثلة وتقولوا مثل كيت وكيت كما يذكر لك من
تستوصفه عمل الديباج المنقش ما تعلم به وجه دقة الصنعة أو يعمله بين
يديك حتي ترى عيانا كيف تذهب تلك الخيوط وتجيء وماذا يذهب منها طولا
وماذا يذهب منها عرضاً • وبم يبدأ وبم يثني وبم يثلث • وتبصر من
الحساب الدقيق ومن عجيب تصرف اليد ما تعلم منه مكان الحذق
وموضع الأستاذية • ولو كان قول القائل لك في تفسير الفصاحة • انها
خصوصية فى نظم الكلم وضم بعضها الى بعض على طريق مخصوصة
أو على وجوه تظهر بها الفائدة أو ما أشبه ذلك من القول المجمل
كافياً في معرفتها ومغنيا في العلم بها لكفى مثله فى معرفة الصناعات
كلها فكان يكفي في معرفة نسج الديباج الكثير التصاوير ان تعلم انه
ترتيب للغزل على وجه مخصوص وضم لطاقات الابريسم بعضها الى
بعض على طرق شتى وذلك مالا يقوله عاقل •

وجملة الامر انك لن تعلم فى شيء من الصناعات علما تمر فيه وتحلى
حتى تكون ممن يعرف الخطأ فيها من الصواب ويفصل بين الاساءة
والاحسان بل حتى تفاضل بين الاحسان والاحسان • وتعرف
طبقات المحسنين

واذا كان هذا هكذا علمت انه لا يكفي في علم الفصاحة ان

تنصب لها قياسا ما • وان تصفها وصفا مجملا • وتقول فيها قولا
مرسلا • بل لا تكون من معرفتها في شيء حتى تفصل القول وتحصل
وتضع اليد على الخصائص التي تعرض فى نظم الكلم وتعدها واحدة
واحدة . وتسميها شيئاً شيئاً • وتكون معرفتك معرفة الصَّنَع الحاذق
الذى يعلم علم كل خيط من الابريسم الذى في الديباج وكل قطعة من
القطع المنجورة في الباب المقطع • وكل آجرة من الآجر الذي في
البناء البديع • واذا نظرت الى الفصاحة هذا النظر • وطلبتها هذا
الطلب • احتجت الى صبر على التأمل • ومواظبة على التدبر • والي
همة تأبى لك ان تقنع الا بالتمام • وان تربع الا بعد بلوغ الغاية • ومتى
جشمت ذلك • وأبيت الا أن تكون هنالك . فقد أممت الى غرض
كريم • وتعرضت لأمر جسيم . وآثرت التى هى أتم لدينك • وفضلك
• وأنبل عند ذوى العقول الراجحة لك • وذلك ان تعرف حجة الله
تعالى من الوجه الذي هو أضوأ لها وأنوه لها • وأخلق بان يزداد
نورها سطوعا . وكوكبها طلوعا • وان تسلك اليها الطريق الذى هو
آمن لك من الشك • وأبعد من الريب . وأصح لليقين • وأحرى بان
يبلغك قاصية التبيين •

واعلم أنه لا سبيل الى ان تعرف صحة هذه الجملة حتى يبلغ القول
غايته • وينتهي الى آخر ما أردت جمعه لك • وتصويره في نفسك
• وتقريره عندك • الا أن ههنا نكتة ان أنت تأملتها تأمل المتثبت
• ونظرت فيها نظر المتأني • رجوت ان يحسن ظنك . وان تنشط
للاصغاء الى ما أورده عليك • وهي أنا إذا سقنا دليل الاعجاز فقلنا
• لولا انهم حين سمعوا القرآن . وحين تحدوا الى معارضته . سمعوا

كلاما لم يسمعوا قط مثله ، وأنهم قدرازوا أنفسهم فأحسوا بالعجز عن ان يأتوا بما يوازيه أو يدانيه ، أو يقع قريباً منه . لكان محالا ان يدعوا معارضته وقد تحدوا اليه ، وقرعوا فيه ، وطولبوا به ، وان يتعرضوا لشبا الأسنة ، ويقتحموا موارد الموت ، فقيل لنا قد سمعنا ما قلتم ، فخبرونا عنهم عما ذا عجزوا ، أعن معان من دقة معانيه وحسنها وصحتها فى العقول ، أم عن ألفاظ مثل ألفاظه ، فان قلتم عن الألفاظ فماذا أعجزهم من اللفظ أم ما بهرهم منه ، فقلنا أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه . وخصائص صادفوها فى سياق لفظه وبدائع راعتهم من مبادىء آيه ومقاطعها ومجارى ألفاظها ومواقعها وفى مضرب كل مثل ومساق كل خبر وصورة كل عظة وتنبيه وأعلام وتذكير وترغيب وترهيب ومع كل حجة وبرهان وصفة وتبيان وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة وعشراً عشراً وآية آية فلم يجدوا فى الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شانها أو يرى ان غيرها أصلح هناك أو اشبه أو أحري وأخلق بل وجدوا اتساقا بهر العقول وأعجز الجمهور ونظاما والتئاما واتقانا واحكاما لم يدع في نفس بليغ منهم ولو حك بيا فوخه السماء موضع طمع حتى خرست الالسن عن ان تدعي وتقول وخلدت القروم فلم تملك ان تصول نعم فاذا كان هذا هو الذى يذكر في جواب السائل فبنا أن ننظر أيّ أشبه بالفتى فى عقله ودينه وأزيد له في علمه ويقينه أأن يقلد في ذلك ويحفظ متن الدليل وظاهر لفظه ولا يبحث عن تفسير المزايا والخصائص ما هي ومن أين كثرت الكثرة العظيمة واتسعت الاتساع المجاوز لوسع الخلق وطاقة البشر وكيف يكون أن تظهر في ألفاظ محصورة وكلم معدودة معلومة بان

يؤتي ببعضها في أثر بعض لطائف لا يحصرها العدد ، ولا ينتهي بها الامد . أم ان يبحث عن ذلك كله و يستقصى النظر في جميعه ويتتبعه شيئاً فشيئاً ، و يستقصيه بابا فبابا ، حتي يعرف كلا منه بشاهده ودليله ، و يعلمه بتفسيره وتأويله ، و يوثق بتصوره وتمثيله ، ولا يكون كمن قيل فيه

يقولون أقوالا ولا يعلمونها ولو قيل هاتوا حققوا لم يحققوا

قد قطعت عذر المتهاون ودللت على ما أضاع من حظه وهديته لرشده وصح ان لا غني بالعاقل عن معرفة هذه الامور والوقوف عليها والاحاطة بها . وان الجهة التي منها يقف . والسبب الذى به يعرف . استقراء كلام العرب وتتبع أشعارهم والنظر فيها . واذ قد ثبت ذلك فينبغي لنا أن نبتدئ في بيان ما أردنا بيانه ونأخذ في شرحه والكشف عنه

وجملة ما أردت أن أبينه لك أنه لابد لكل كلام تستحسنه . ولفظ تستجيده . من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة . وعلة معقولة . وان يكون لنا الى العبارة عن ذاك سبيل . وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل . وهو باب من العلم اذا أنت فتحته اطلعت منه على فوائد جليلة . ومعان شريفة . ورأيت له أثرا فى الدين عظيما وفائدة جسيمة . ووجدته سبباً الى حسم كثير من الفساد فيما يعود الى التنزيل . واصلاح أنواع من الخلل فيما يتعلق بالتأويل . وانه ليؤمنك من أن تغالط في دعواك . وتدافع عن مغزاك . ويربأ بك عن أن تستبين هدي ثم لا تهتدي اليه . وتدل بعرفان ثم لا تستطيع ان تدل عليه . وان تكون عالما فى ظاهر مقلد . ومستبيناً في صورة شاك . وان يسألك السائل عن حجة يلقى بها الخصم فى آية من كتاب الله تعالى أو غير

ذلك فلا ينصرف عنك بمقنع • وأن يكون غاية ما لصاحبك منك ان تحيله على نفسه وتقول قد نظرت فرأيت فضلا ومزية . وصادفت لذلك أريحية فانظر لتعرف كما عرفت . وراجع نفسك واسبر وذق لتجد مثل الذي وجدت . فان عرف فذاك . والا فبينكما التناكر . تنسبه الي سوء التأمل . وينسبك الى فساد فى التخيل . وانه على الجملة بحيث ينتقى لك من علم الاعراب خالصه ولبه . ويأخذ لك منه اناسى العيون . وحبات القلوب وما لا يدفع الفضل فيه دافع . ولا ينكر رجحانه فى موازين العقول منكر وليس يتأتي لى أن أعلمك من أول الأمر في ذلك آخره وان أسمى لك الفصول التى في نيتي أن أحررها بمشيئة الله عز وجل حتي تكون على علم بها قبل موردها عليك فاعمل على ان ههنا فصولا يجيء بعضها فى إثر بعض وهذا أولها

﴿ فصل ﴾

فى تحقيق القول على البلاغة والفصاحة . والبيان والبراعة . وكل ما شاكل ذلك مما يعبر به عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا . وأخبروا السامعين عن الاغراض والمقاصد . وراموا أن يعلموهم ما فى نفوسهم . ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم . ومن المعلوم ان لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة وينسب فيه الفضل والمزية اليه دون المعنى غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة ثم تبرجها فى صورة هي أبهي وأزين وآنق وأعجب وأحق بان تستولى على هوى النفس وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب . وأولى بأن تطلق لسان الحامد . وتطيل رغم الحاسد

ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن يؤتي المعنى من الجهة التى هي أصح لتأديته . ويختار له اللفظ الذى هو أخص به . وأكشف عنه وأتم له . وأحرى بان يكسبه نبلا . ويظهر فيه مزية .

واذا كان هذا كذلك فينبغي أن ينظر الى الكلمة قبل دخولها في التأليف . وقبل أن تصير الى الصورة التي بها يكون الكلم إخباراً وأمراً ونهياً واستخباراً وتعجبا . وتؤدى في الجملة معني من المعانى التي لا سبيل الى افادتها الا بضم كلمة الى كلمة وبناء لفظة على لفظة . هل يتصور أن يكون بين اللفظتين تفاضل فى الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذى وضعت له من صاحبتها على ما هي موسومة به حتي يقال ان رجلا أدل على معناه من فرس على ما سمي به . وحتي يتصور فى الاسمين الموضعين لشيء واحد ان يكون هذا أحسن نبأ عنه وأبين كشفاً عن صورته من الآخر فيكون الليث مثلا أدل علي السبع المعلوم من الاسد . وحتي انا لو اردنا الموازنة بين لغتين كالعربية والفارسية ساغ لنا أن نجعل لفظة رجل أدل على الآدمي الذكر من نظيره فى الفارسية . وهل يقع فى وهم وان جهد ان تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر الى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم باكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية أوان تكون حروف هذه اخف . وامتزاجها احسن . ومما يكد اللسان أبعد وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة الا وهو يعتبر مكانها من النظم . وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها . وفضل مؤانستها لاخواتها وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة وفى خلافه قلقة ونابية ومستكرهة الا وغرضهم ان يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك

من جهة معناها وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم • وأن الاولى لم تلق بالثانية في معناها • وان السابقة لم تصلح ان تكون لفقاً للتالية فى مؤداها وهل تشك اذا فكرت فى قوله تعالى « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين » . فتجلى لك منها الاعجاز . ويبهرك الذى ترى وتسمع أنك لم تجر ما وجدت من المزيه الظاهرة، والفضيلة القاهرة . الا لأمر يرجع الى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض . وان لم يعرض لها الحسن والشرف الا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة وهكذا الى ان تستقريها الى آخرها • وان الفضل تناتج ما بينها وحصل من مجموعها

إن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ماتؤديه وهي فى مكانها من الآية ؟ قل « ابلعى » . واعتبرها وحدها من غير ان تنظر الى ماقبلها والى مابعدها وكذلك فاعتبر سائر ما يليها . وكيف بالشك فى ذلك ومعلوم ان مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت ثم ان كان النداء بيا دون أى نحو يا أيتها الأرض ثم اضافة الماء الى الكاف دون أن يقال أبلعي الماء ثم ان أتبع نداء الارض وأمرها بما هو من شأنها نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ثم ان قيل وغيض الماء فجاء الفعل على صيغة فعل الدالة على انه لم يغض الا بالأمر آمر وقدرة قادر ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالي « وقضى الأمر » ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو « استوت على الجودى » ثم اضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشان ثم مقابلة قيل فى الخاتمة بقيل فى الفاتحة أفترى لشيء من هذه الخصائص التى تملؤك بالاعجاز روعة وتحضرك عند

تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق ؟ أم كل ذلك لما بين معانى الالفاظ من الاتساق العجيب

فقد اتضح اذن اتضاحاً لا يدع للشك مجالا ان الالفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة وان الالفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ . ومما يشهد لذلك انك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر كلفظ الاخدع في بيت الحماسة :

تلفت نحو الحي حتى وجدتنى وجعت من الاصغاء ليتاً وأخدعا

وبيت البحتري :

واني وان بلغتنى شرف الغنى واعتقت من رق المطامع أخدعي

فان لها في هذين المكانين ما لا يخفي من الحسن ثم انك تتأملها فى بيت أبى تمام :

يادهر قوّم من أخدعيك فقد أضججت هذا الانام من خرقك

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة . والايناس والبهجة . ومن أعجب ذلك لفظة الشيء فانك تراها مقبولة حسنة فى موضع وضعيفة مستكرهة في موضع . وان أردت أن تعرف ذلك فانظر الى قول عمر بن أبى ربيعة المخزومي :

ومن مالىء عينيه من شيء غيره اذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

والى قول أبى حية :

اذا ما تقاضى المرء يوم وليلة   تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا

فانك تعرف حسنها ومكانها من القبول ثم انظر اليها في بيت المتنبي:

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه   لعوّقه شيء عن الدوران

فانك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم .

وهذا باب واسع فانك تجد متى شئت الرجلين قد استعملا كلماً بأعيانها ثم ترى هذا قد قرع السماك وترى ذاك قد لصق بالحضيض . فلو كانت الكلمة اذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ واذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع اخواتها المجاورة لها في النظم لما اختلف بها الحال ولكانت اما أن تحسن أبداً أو لا تحسن أبداً . ولم تر قولا يضطرب على قائله حتى لا يدرى كيف يعبر . وكيف يورد ويصدر . كهذا القول . بل ان أردت الحق فانه من جنس الشيء يجريه به الرجل لسانه ويطلقه فاذا فتش نفسه وجدها تعلم بطلانه . وتنطوي على خلافه . ذاك لأنه مما لا يقوم بالحقيقة في اعتقاد . ولا يكون له صورة في فؤاد .

﴿ فصل ﴾

ومما يجب إحكامه بعقب هذا الفصل الفرق بين قولنا حروف منظومة وكلم منظومة . وذلك ان نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط وليس نظمها بمقتضى عن معنى ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل اقتضي أن يتحرى في نظمه لها ماتحراه . فلو ان واضع اللغة كان قد قال ربض مكان ضرب لما كان في ذلك مايؤدى الى فساد .

وأما نظم الكلم فليس الامر فيه كذلك لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس فهو اذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء الى الشيء كيف جاء واتفق . وكذلك كان عندهم نظيراً للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الاجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضي كونه هناك وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح .

والفائدة في معرفة هذا الفرق انك اذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم ان توالت ألفاظها في النطق بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل . وكيف يتصور أن يقصد به الى توالي الالفاظ في النطق بعد أن ثبت أنه نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض . وأنه نظير الصياغة والتحبير والتفويف والنقش وكل مايقصد به التصوير . وبعد أن كنا لانشك في أن لاحال للفظة مع صاحبتها تعتبر اذا أنت عزلت دلالتهما جانباً . وأي مساغ للشك في أن الالفاظ لاتستحق من حيث هي ألفاظ ان تنتظم على وجه دون وجه ولو فرضنا أن تنخلع من هذه الالفاظ التى هى لغات دلالتها لما كان شيء منها أحق بالتقديم من شيء ولا يتصور أن يجب فيها ترتيب ونظم . ولو حفظت صبيا شطر كتاب العين أو الجمهرة من غير أن تفسر له شيئاً منه وأخذته بان يضبط صور الالفاظ وهيئتها ويؤديها كما يؤدي أصناف أصوات الطيور لرأيته ولا يخطر له ببال أن من شأنه أن يؤخر لفظاً ويقدم آخر . بل كان حاله حال من يرمي الحصي ويعد الجوز اللهم الا ان تسومه أنت ان يأتي بها على

حروف المعجم ليحفظ نسق الكتاب .

ودليل آخر وهو أنه لو كان القصد بالنظم الى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعانى في النفس ثم النطق بالالفاظ على حذوها لكان ينبغى أن لايختلف حال اثنين فى العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه لأنهما يحسان بتوالي الالفاظ في النطق احساساواحدا ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئاً يجهله الآخر .

وأوضح من هذا كله وهو أن هذا النظم الذى يتواصفه البلغاء وتتفاضل مراتب البلاغة من أجله صنعة يستعان عليها بالفكرة لامحالة . واذا كانت مما يستعان عليه بالفكرة ويستخرج بالروية فينبغي أن ينظر في الفكر بماذا تلبس أبالمعاني أم بالالفاظ فأي شيء وجدته لذى تلبس به فكرك من بين المعاني والالفاظ فهو الذى تحدث فيه صنعتك وتقع فيه صياغتك ونظمك وتصويرك فمحال أن تتفكر في شيء وأنت لاتصنع فيه شيئاً وانما تصنع فى غيره . لوجاز ذلك لجاز أن يفكر البناء في الغزل ليجعل فكره فيه وصلة الى أن يصنع من الآجر وهو من الاحالة المفرطة . فان قيل النظم موجود في الالفاظ على كل حال ولا سبيل الى أن يعقل الترتيب الذى تزعمه في المعاني مالم تنظم الالفاظ ولم ترتبها على الوجه الخاص ؛ قيل ان هذا هو الذى يعيد هذه الشبهة جذعة أبدا والذى يحلها ان تنظر أتتصور أن تكون معتبراً مفكراً فى حال اللفظ مع اللفظ حتى تضعه بجنبه أو قبله وأن تقول هذه اللفظة انما صلحت ههنا لكونها على صفة كذا أم لايعقل الا أن تقول صلحت ههنا لان معناها كذا ولدلالتها على كذا ولان معنى الكلام والغرض فيه يوجب كذا ولان معنى ماقبلها يقتضي معناها .

فان تصورت الاول فقل ماشئت واعلم ان كل ماذكرناه باطل . وان لم تتصور الا الثاني فلا تخدعن نفسك بالأضاليل ودع النظر الى ظواهر الأمور واعلم أن ماترى انه لابد منه من ترتيب الالفاظ وتواليها على النظم الخاص ليس هو الذى طلبته بالفكر ولكنه شيء يقع بسبب الاول ضرورة من حيث ان الالفاظ اذا كانت أوعية للمعاني فانها لامحالة تتبع المعانى فى مواقعها فاذا وجب لمعنى ان يكون اولا فى النفس وجب للفظ الدال عليه ان يكون مثله أولا في النطق . فأما ان تتصور في الالفاظ ان تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب وان يكون الفكر فى النظم الذى يتواصفه البلغاء فكراً فى نظم الالفاظ أو ان تحتاج بعد ترتيب المعانى الى فكر تستأنفه لان تجيء بالالفاظ على نسقها فباطل من الظن ووهم يتخيل الى من لايوفى النظر حقه . وكيف تكون مفكراً فى نظم الالفاظ وأنت لاتعقل لها أوصافا وأحوالا واذا عرفتها عرفت ان حقها ان تنتظم على وجه كذا .

ومما يلبس على الناظر فى هذا الموضع ويغلطه انه يستبعد ان يقال هذا كلام قد نظمت معانيه فالعرف كأنه لم يجر بذلك الا انهم وان كانوا لم يستعملوا النظم فى المعاني قد استعملوا فيها ماهو بمعناه ونظير له وذلك قولهم . انه يرتب المعانى فى نفسه وينزلها ويبنى بعضها على بعض . كما يقولون : يرتب الفروع على الاصول ويتبع المعنى المعنى ويلحق النظير بالنظير . واذا كنت تعلم انهم استعاروا النسج والوشي والنقش والصياغة لنفس مااستعاروا له النظم وكان لايشك فى ان ذلك كله تشبيه وتمثيل يرجع الى أمور وأوصاف تتعلق بالمعانى دون الالفاظ فمن حقك ان تعلم ان سبيل النظم ذلك السبيل .

واعلم أن من سبيلك ان تعتمد هذا الفصل حداً وتجعل النكت التي ذكرتها فيه على ذكر منك أبداً فانها عمد وأصول فى هذا الباب اذا أنت مكنتها فى نفسك وجدت الشبه تنزاح عنك • والشكوك تنتفي عن قلبك • ولا سيما ماذكرت من انه لايتصور ان تعرف للفظ موضعاً من غير ان تعرف معناه ولا ان تتوخى فى الالفاظ من حيث هي الفاظ ترتيباً ونظماً وانك تتوخي الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك فاذا تم لك ذلك اتبعتها الالفاظ وقفوت بها آثارها وانك اذا فرغت من ترتيب المعانى فى نفسك لم تحتج الى ان تستأنف فكراً فى ترتيب الالفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم انها خدم للمعانى وتابعة لها ولاحقة بها وان العلم بمواقع المعاني فى النفس علم بمواقع الالفاظ الدالة عليها فى النطق

﴿ فصل ﴾

واعلم انك اذا رجعت الى نفسك علمت علما لايعترضه الشك ان لانظم فى الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبني بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك • هذا مالا يجهله عاقل ولا يخفي على أحد من الناس • واذا كان كذلك فبنا ان ننظر الي التعليق فيها والبناء وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها مامعناه وما محصوله، واذا نظرنا في ذلك علمنا ان لامحصول لها غير ان تعمد الى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا أو تعمد الى اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر أو تتبع الاسم اسما على ان يكون الثانى صفة للأول أو تأكيداً له أو بدلا منه أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على ان يكون الثاني صفة أو حالا أو تمييزاً أو تتوخي في كلام هو لاثبات معني ان يصير نفياً أو

استفهاما أو تمنياً فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك أو تريد في فعلين ان تجعل أحدهما شرطاً في الآخر فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى أو بعد اسم من الاسماء التى ضمنت معنى ذلك الحروف وعلى هذا القياس

واذا كان لايكون في الكلم نظم ولا ترتيب الا بان يصنع بها هذا الصنيع ونحوه وكان ذلك كله مما لايرجع منه الى اللفظ شيء ومما لا يتصور ان يكون فيه ومن صفته بان بذلك أن الامر على ماقلناه من ان اللفظ تبع للمعنى في النظم وأن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس وأنها لو خلت من معانيها حتى تجرد أصواتا وأصداء حروف لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر ان يجب فيها ترتيب ونظم وان يجعل لها أمكنة ومنازل • وان يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك • والله الموفق للصواب

﴿ فصل ﴾

وهذه شبهة أخري ضعيفة عسى ان يتعلق بها متعلق ممن يقدم على القول من غير روية • وهي أن تدعى أن لامعنى للفصاحة سوى التلاؤم اللفظي وتعديل مزاج الحروف حتى لايتلاقى في النطق حروف تثقل على اللسان كالذى أنشده الجاحظ من قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر * وليس قرب قبر حرب قبر

وقول ابن يسير :

لا أذيل الآمال بعدك إنى * بعدها بالآمال جد بخيل

كم لها موقف بباب صديق * رجعت من نداه بالتعطيل

لم يضرها والحمد لله شيء * وانثنت نحو عزف نفس ذهول

قال الجاحظ • فتفقد النصف الاخير من هذا البيت فانك ستجد بعض ألفاظه تتبرأ من بعض • ويزعم ان الكلام في ذلك على طبقات فمنه المتناهي في الثقل المفرط فيه كالذى مضى ومنه ماهو أخف منه كقول أبي تمام •

كريم متى أمدحه امدحه والورى * معي واذا مالمته لمته وحدي

ومنه مايكون فيه بعض الكلفة على اللسان الا أنه لايبلغ ان يعاب به صاحبه ويشهر أمره في ذلك ويحفظ عليه • ويزعم ان الكلام اذا سلم من ذلك وصفا من شوْبه كان الفصيح المشاد به والمشار اليه • وأن الصفا أيضا يكون على مراتب يعلو بعضها بعضا وان له غاية اذا انتهي اليها كان الاعجاز •

والذى يبطل هذه الشبهه ـ ان ذهب اليها ذاهب ـ أنا ان قصرنا صفة الفصاحة على كون اللفظ كذلك وجعلناه المراد بها لزمنا أن نخرج الفصاحة من حيز البلاغة ومن أن تكون نظيرة لها • واذا فعلنا ذلك لم نخل من أحد أمرين إما أن نجعله العمدة في المفاضلة بين العبارتين ولا نعرج على غيره واما أن نجعله أحد مانفاضل به ووجهاً من الوجوه التى تقتضي تقديم كلام على كلام • فان أخذنا بالاول لزمنا أن نقصر الفضيلة عليه حتى لايكون الاعجاز الا به وفي ذلك مالايخفي من الشناعة لانه يؤدى الى أن لايكون للمعاني التي ذكروها فى حدود البلاغة من وضوح الدلالة • وصواب الاشارة • وتصحيح الاقسام • وحسن الترتيب والنظام • والابداع في طريقة التشبيه والتمثيل • والاجمال ثم التفصيل • ووضع الفصل والوصل موضعهما • وتوفية

الحذف والتأكيد والتقديم والتأخير شروطهما مدخل فيما له كان القرآن معجزاً حتي ندعى انه لم يكن معجزاً من حيث هو بليغ ولا من حيث هو قول فصل وكلام شريف النظم بديع التأليف • وذلك انه لاتعلق لشيء من هذه المعانى بتلاؤم الحروف

وان أخذنا بالثانى وهو ان يكون تلاؤم الحروف وجها من وجوه الفضيلة وداخلا فى عداد مايفاضل به بين كلام وكلام على الجملة لم يكن لهذا الخلاف ضرر علينا لانه ليس بأكثر من ان يعمد الى الفصاحة فيخرجها من حيز البلاغة والبيان وان تكون نظيرة لهما وفى عداد ماهو شبههما من البراعة والجزالة وأشباه ذلك مما ينبيء عن شرف النظم وعن المزايا التي شرحت لك أمرها • وأعلمتك جنسها • أو تجعلها اسما مشتركا يقع تارة لما يقع له تلك وأخرى لما يرجع الى سلامة اللفظ مما يثقل على اللسان وليس واحد من الامرين بقادح فيما نحن بصدده • وان تعسف متعسف فى تلاؤم الحروف فبلغ به أن يكون الاصل فى الاعجاز وأخرج سائر ماذكروه في أقسام البلاغة من أن يكون له مدخل أو تأثير فيما له كان القرآن معجزاً كان الوجه ان يقال له انه يلزمك على قياس قولك أن تجوز أن يكون ههنا نظم للالفاظ وترتيب لا على نسق المعانى ولا على وجه يقصد به الفائدة ثم يكون مع ذلك معجزاً وكفي به فسادا

فان قال قائل انى لاأجعل تلاؤم الحروف معجزاً حتي يكون اللفظ مع ذلك دالا وذاك انه انما يصعب مراعاة التعادل بين الحروف اذا احتيج مع ذلك الي مراعاة المعانى كما انه انما يصعب مراعاة السجع والوزن ويصعب كذلك التجنيس والترصيع اذا روعى معه المعني قبل

له فأنت الآن ان عقلت ماتقول قد خرجت من مسئلتك وتركت أن يستحق اللفظ المزية من حيث هو لفظ وجئت تطلب لصعوبة النظم فيما بين المعاني طريقا وتضع له علة غير مايعرفه الناس • وتدعي ان ترتيب المعانى سهل وان تفاضل الناس في ذلك الى حد وان الفضيلة تزداد وتقوى اذا توخي فى حروف الالفاظ التعادل والتلاؤم • وهذا منك وهم • وذلك انا لانعلم لتعادل الحروف معنى سوي ان تسلم من نحو ماتجده فى بيت أبى تمام * كريم متى أمدحه أمدحه والورى * وبيت ابن يسير * وانثنت نحوعزف نفس ذهول *وليس اللفظ السليم من ذلك بمعوز • ولا بعزيز الوجود•ولا بالشيء لايستطيعه الاالشاعر المفلق والخطيب البليغ • فيستقيم قياسه على السجع والتجنيس ونحو ذلك مما اذا رامه المتكلم صعب عليه تصحيح المعاني وتأدية الاغراض فقولنا أطال الله بقاءك• وأدام عزك • وأتم نعمته عليك وزاد في احسانه عندك • لفظ سليم مما يكد اللسان وليس فى حروفه استكراه • وهكذا حال كلام الناس فى كتبهم ومحاوراتهم لاتكاد تجد فيه هذا الاستكراه لانه انما هو شيء يعرض للشاعر اذا تكلف وتعمّل فأما المرسل نفسه على سجيتها فلا يعرض له ذلك

هذا والمتعلل بمثل ماذكرت من انه انما يكون تلاؤم الحروف معجزا بعد ان يكون اللفظ دالا لان مراعاة التعادل انما تصعب اذا احتيج مع ذلك الي مراعاة المعاني اذا تأملت يذهب الي شى ظريف وهو ان يصعب مرام اللفظ بسبب المعني وذلك محال لان الذى يعرفه العقلاء عكس ذلك وهو ان يصعب مرام المعنى بسبب اللفظ فصعوبة ماصعب من السجع هي صعوبة عرضت في المعاني من أجل الالفاظ وذاك انه

صعب عليك ان توفق بين معانى تلك الالفاظ المسجعة وبين معاني الفصول التي جعلت أردافا لها فلم تستطع ذلك الابعد ان عدلت عن أسلوب الى أسلوب أودخلت فى ضرب من المجاز أو أخذت فى نوع من الاتساع وبعد ان تلطفت على الجملة ضربامن التلطف • وكيف يتصور أن يصعب مرام اللفظ بسبب المعنى وأنت ان أردت الحق لاتطلب اللفظ بحال وانما تطلب المعنى واذا ظفرت بالمعنى فاللفظ معك وازاء ناظرك • وانما كان يتصور ان يصعب مرام اللفظ من أجل المعنى ان لو كنت اذا طلبت المعنى فحصلته احتجت الى ان تطلب اللفظ على حدة وذلك محال

هذا واذا توهم متوهم انا نحتاج الى ان نطلب اللفظ وأن من شأن الطلب أن يكون هناك فان الذى يتوهم انه يحتاج الي طلبه هو ترتيب الالفاظ فى النطق لامحالة • واذا كان كذلك فينبغى لنا ان نرجع الى نفوسنا فننظر هل يتصور ان نرتب معانى أسماء وأفعال وحروف فى النفس ثم يخفي علينا مواقعها فى النطق حتى يحتاج فى ذلك الى فكر وروية وذلك مالا يشك فيه عاقل اذا هو رجع الى نفسه
واذا بطل ان يكون ترتيب اللفظ مطلوبا بحال ولم يكن المطلوب أبدا الا ترتيب المعاني وكان معول هذا المخالف على ذلك فقد اضمحل كلامه وبان انه ليس لمن حام فى حديث المزية والاعجاز حول اللفظ ورام أن يجعله السبب فى هذه الفضيلة الا التسكع في الحيرة والخروج عن فاسد من القول الى مثله والله الموفق للصواب

فان قيل اذا كان اللفظ بمعزل عن المزية التي تنازعنا فيها وكانت مقصورة على المعنى فكيف كانت الفصاحة من صفات اللفظ البتة

• وكيف امتنع ان يوصف بها المعنى فيقال معنى فصيح وكلام فصيح
المعنى • قيل انما اختصت الفصاحة باللفظ وكانت من صفته من حيث
كانت عبارة عن كون اللفظ على وصف اذا كان عليه دل على المزية
التي نحن فى حديثها واذا كانت لكون اللفظ دالا استحال أن يوصف بها
المعنى كما يستحيل ان يوصف المعني بانه دال مثلا فاعرفه

فان قيل : فما ذا دعا القدماء الى ان قسموا الفضيلة بين المعني واللفظ
فقالوا • معنى لطيف ولفظ شريف • وفخموا شأن اللفظ وعظموه حتى
تبعهم في ذلك من بعدهم وحتى قال أهل النظر • ان المعاني لاتتزايد
وانما تتزايد الالفاظ فاطلقوا كما ترى كلاما يوهم كل من يسمعه ان المزيه
في حاق اللفظ • قيل له • لما كانت المعاني انما تتبين بالالفاظ وكان لا
سبيل للمرتب لها والجامع شملها الى أن يعلمك ما صنع فى ترتيبها بفكره
الا بترتيب الالفاظ فى نطقه تجوزوا فكنوا عن ترتيب المعاني بترتيب
الالفاظ ثم بالالفاظ بحذف الترتيب ثم اتبعوا ذلك من الوصف والنعت
ما أبان الغرض وكشف عن المراد كقولهم (لفظ متمكن) يريدون أنه
بموافقة معناه لمعنى ما يليه كالشئ الحاصل فى مكان صالح يطمئن فيه
(ولفظ قلق ناب) يريدون انه من أجل ان معناه غير موافق لما يليه
كالحاصل فى مكان لا يصلح له فهو لايستطيع الطمأنينة فيه الى سائر
ما يجيء صفة فى صفة اللفظ مما يعلم انه مستعار له من معناه • وانهم
نحلوه اياه بسبب مضمونه ومؤداه • هذا — ومن تعلق بهذا وشبهه
واعترضه الشك فيه بعد الذى مضى من الحجج فهو رجل قد أنس
بالتقليد فهو يدعو الشبهة الي نفسه من ههنا وثم • ومن كان هذا سبيله
فليس له دواء سوي السكوت عنه وتركه وما يختاره لنفسه من سوء

النظر وقلة التدبر

قد فرغنا الان من الكلام على جنس المزية وانها من حيز المعاني
دون الالفاظ وانها ليست لك حيث تسمع باذنك ، بل حيث تنظر
بقلبك وتستعين بفكرك • وتعمل رويتك وتراجع عقلك ،وتستنجد
في الجملة فهمك، وبلغ القول في ذلك أقصاه ، وانتهى الى مداه .وينبغي
أن نأخذ الآن فى تفصيل أمر المزية وبيان الجهات التى منها تعرض
وانه لمرام صعب ومطلب عسير • ولولا انه على ذلك لما وجدت الناس
بين منكر له من أصله • ومتخيل له على غير وجهه • ومعتقد انه باب
لاتقوي عليه العبارة • ولا تملك فيه الا الاشارة . وان طريق التعليم
اليه مسدود . وباب التفهيم دونه مغلق . وان معانيك فيه معان تأبى أن
تبرز من الضمير .وان تدين للتبيين والتصوير •وان ترى سافرة لانقاب
عليها . وبادية لاحجاب دونها . وان ليس للواصف لها الا ان يلوح
ويشير أو يضرب مثلا ينبئ عن حسن قد عرفه على الجملة وفضيلة قد
أحسها من غير أن يتبع ذلك بيانا . ويقيم عليه برهانا . ويذكر له علة
ويورد فيه حجة . وأنا أنزل لك القول فى ذلك وأدرجه شيئاً فشيئاً
واستعين بالله تعالى عليه وأسأله التوفيق

فصل

(في اللفظ يطلق والمراد به غير ظاهره)

اعلم ان لهذا الضرب اتساعا وتفننا لا الى غاية الا انه على اتساعه
يدور فى الامر الاعم على شيئين — الكناية والمجاز • والمراد بالكناية
ههنا أن يريد المتكلم اثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع

له في اللغة ولكن يجيء الي معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به
اليه • ويجعله دليلا عليه . مثال ذلك قولهم (هو طويل النجاد) يريدون
طويل القامة (وكثير رماد القدر) يعنون كثير القرى • وفى المرأة
(نؤوم الضحي) والمراد انها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها فقد
أرادوا فى هذا كله كما ترى معنى ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ولكنهم
توصلوا اليه بذكر معنى آخر من شأنه ان يردفه فى الوجود . وان
يكون اذا كان أفلا ترى ان القامة اذا طالت طال النجاد : واذا كثر
القرى كثر رماد القدر : واذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها
ردف ذلك ان تنام الي الضحي

وأما المجاز فقد عول الناس فى حده على حديث النقل وان كل
لفظ نقل عن موضوعه فهو مجاز والكلام في ذلك يطول وقد ذكرت
ما هو الصحيح من ذلك فى موضع آخر وأنا أقتصر هنا علي ذكر
ما هو أشهر منه وأظهر ، والاسم والشهرة فيه لشيئين ـ الاستعارة
والتمثيل وانما يكون التمثيل مجازا اذا جاء على حد الاستعارة

فالاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه
وتظهره وتجيء الى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه . تريد ان
تقول رأيت رجلا هو كالاسد فى شجاعته وقوة بطشه سواء . فتدع
ذلك وتقول : رأيت أسداً وضرب آخر من الاستعارة وهو ما كان
نحو قوله (اذ أصبحت بيد الشمال زمامها) هذا الضرب وان كان الناس
يضمونه الي الاول حيث يذكرون الاستعارة فليسا سواء وذاك انك
في الاول تجعل الشيء الشيء ليس به وفي الثانى تجعل للشيء الشيء ليس له
تفسير هذا انك اذا قلت رأيت اسدا فقد ادعيت فى انسان أنه أسد

وجعلته إياه ولا يكون الانسان أسدا واذا قلت *اذ أصبحت بيد الشمال
زمامها* فقد ادعيت ان للشمال يداً ومعلوم انه لايكون للريح يد

وههنا أصل يجب ضبطه وهو ان جعل المشبه المشبه به على ضربين
أحدهما أن تنزله منزلة الشيء تذكره بأمر قد ثبت له فأنت لاتحتاج الي
أن تعمل فى اثباته وتزجيته وذلك حيث تسقط ذكر المشبه من الشيئين
ولا تذكره بوجه من الوجوه كقولك رأيت أسداً والثاني أن تجعل
ذلك كالامر الذى يحتاج الي ان تعمل فى اثباته وتزجيته وذلك حيث
تجري اسم المشبه به صراحة على المشبه فتقول زيد أسد وزيد هو الاسد
أو تجيء به على وجه يرجع الي هذا كقولك ان لقيته لقيت به أسداً
وان لقيته ليلقينك منه الاسد فأنت في هذا كله تعمل في اثبات كونه أسدا
أو الاسد وتضع كلامك له وأما فى الاول فتخرجه مخرج مالا يحتاج فيه
الي إثبات وتقرير ، والقياس يقتضي أن يقال فى هذا الضرب أعني ما أنت
تعمل فى اثباته وتزجيته أنه تشبيه على حد المبالغة ويقتصر على هذا
القدر ولا يسمي استعارة ،

واما التمثيل الذي يكون مجازاً لمجيئك به على حد الاستعارة فمثاله
قولك للرجل يتردد في الشيء بين فعله وتركه • أراك تقدم رجلا وتؤخر
أخرى • فالأصل في هذا أراك فى ترددك كمن يقدم رجلا ويؤخر
أخرى • ثم اختصر الكلام وجعل كأنه يقدم الرجل ويؤخرها على
الحقيقة كما كان الأصل فى قولك • رأيت أسداً • (رأيت رجلا
كالأسد) ثم جعل كأنه الاسد على الحقيقة • وكذلك تقول للرجل
يعمل غير معمل • أراك تنفخ في غير فحم • وتخط على الماء فتجعله
في ظاهر الامر كأنه ينفخ ويخط والمعنى على انك في فعلك كمن يفعل

ذلك • وتقول للرجل يعمل الحيلة حتي يميل صاحبه الى الشيء قدكان يأباه ويمتنع منه • مازال يفتل في الذروة والغارب حتى بلغ منه ماأراد فتجعله بظاهر اللفظ كأنه كان منه فتل في ذروة وغارب والمعني على انه لم يزل يرفق بصاحبه رفقاً يشبه حاله فيه حال الرجل يجيء الى البعير الصعب فيحكه ويفتل الشعر في ذروته وغاربه حتي يسكن ويستأنس وهو فى المعني نظير قولهم • فلان يقرد فلاناً • يعني به انه يتلطف له فعل الرجل ينزع القراد من البعير ليلذه ذلك فيسكن ويثبت في مكانه حتي يتمكن من أخذه ـ وهكذا كل كلام رأيتهم قد نحوا فيه التمثيل ثم لم يفصحوا بذلك وأخرجوا اللفظ مخرجه اذا لم يريدوا تمثيلا

فصل

قد أجمع الجميع على ان الكناية أبلغ من الافصاح • والتعريض أوقع من التصريح • وأن للاستعارة مزية وفضلا • وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة • الا ان ذلك وان كان معلوماً على الجملة فانه لا تطمئن نفس العاقل في كل مايطلب العلم به حتي يبلغ فيه غايته • وحتى يغلغل الفكر الى زواياه • وحتى لا يبقى عليه موضع شبهة ومكان مسئلة • فنحن وان كنا نعلم أنك اذا قلت • هو طويل النجاد وهو جم الرماد كان أبهى لمعناك • وأنبل من أن تدع الكناية وتصرح بالذي تريد • وكذا اذا قلت • رأيت أسداً • كان لكلامك مزية لا تكون اذا قلت رأيت رجلا والأسد سواء في معني الشجاعة وفي قوة القلب وشدة البطش وأشباه ذلك • واذا قلت • بلغني أنك تقدم رجلا وتؤخر اخرى • كان أوقع من صريحه الذى هو قولك بلغنى انك تتردد في

أمرك وانك في ذلك كمن يقول • أخرج ولا أخرج فتقدم رجلا وتؤخر أخرى • ونقطع على ذلك حتى لا يخالجنا شك فيه فانما تسكن أنفسنا تمام السكون اذا عرفنا السبب في ذلك والعلة ولم كان كذلك وهيأنا له عبارة تفهم عنا من نريد افهامه وهذا هو القول في ذلك

اعلم ان سبيلك اولا ان تعلم ان ليست المزية التي تثبتها لهذه الاجناس على الكلام المتروك على ظاهره والمبالغة التي تدعى لها في أنفس المعاني التى يقصد المتكلم اليها بخبره ولكنها فى طريق أثباته لها وتقريره اياها تفسير هذا ان ليس المعني اذا قلنا • إن الكناية أبلغ من التصريح • انك لما كنيت عن المعني زدت فى ذاته بل المعني انك زدت في أثباته فجعلته أبلغ وآكد وأشد • فليست المزية في قولهم • جم الرماد • أنه دل على قري أكثر بل انك أثبت له القري الكثير من وجه هو أبلغ وأوجبته ايجاباً هو أشد • وأدعيته دعوى أنت بها أنطق • وبصحتها أوثق وكذلك ليست المزية التى تراها لقولك • (رأيت أسداً) على قولك (رأيت رجلا لا يتميز عن الاسد في شجاعته وجراءته) أنك قد أفدت بالأول زيادة في مساواته الأسد بل انك أفدت تأكيداً وتشديداً وقوة في إثباتك له هذه المساواة وفي تقريرك لها فليس تأثير الاستعارة اذن في ذات المعني وحقيقته بل في ايجابه والحكم به •

وهكذا قياس التمثيل تري المزية أبداً في ذلك تقع في طريق اثبات المعني دون المعني نفسه • فاذا سمعتهم يقولون • ان من شأن هذه الاجناس ان تكسب المعانى نبلا وفضلا • وتوجب لها شرفاً • وأن تفخمها في نفوس السامعين • وترفع أقدارها عند المخاطبين • فانهم لا يريدون الشجاعة والقرى وأشباه ذلك من معاني الكلم المفردة وانما يعنون إثبات

معاني هذه الكلم لمن تثبت له ويخبر بها عنه •

هذا ماينبغي للعاقل أن يجعله على ذكر منه أبداً وان يعلم انليس لنا اذا نحن تكلمنا في البلاغة والفصاحة مع معاني الكلم المفردة شغل ولاهي منا بسبيل • وانما نعمد الى الاحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب • واذ قد عرفت مكان هذه المزية والمبالغة التي لا تزال تسمع بها وانها في الإثبات دون المثبت فان لها في كل واحد من هذه الاجناس سبباً وعلة • أما الكناية فان السبب في أن كان للاثبات بها مزية لاتكون للتصريح أن كل عاقل يعلم اذا رجع الى نفسه ان إثبات الصفة بإثبات دليلها وايجابها بما هو شاهد في وجودها آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء اليها فتثبتها هكذا ساذجاً غفلا • وذلك انك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها الا والامر ظاهر معروف وبحيث لايشك فيه ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط •

وأما الاستعارة فسبب ماترى لها من المزية والفخامة انك اذا قلت رأيت أسداً • كنت قد تلطفت لما أردت اثباته له من فرط الشجاعة حتى جعلتها كالشيء الذي يجب له الثبوت والحصول وكالأمر الذي نصب له دليل يقطع بوجوده • وذلك انه اذا كان أسداً فواجب أن تكون له تلك الشجاعة العظيمة • وكالمستحيل أو الممتنع أن يعرى عنها • واذا صرحت بالتشبيه فقلت • رأيت رجلا كالاسد • كنت قد أثبتها إثبات الشيء يترجح بين أن يكون وبين أن لا يكون ولم يكن من حديث الوجوب في شيء • وحكم التمثيل حكم الاستعارة سواء فانك اذا قلت • أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى • فأوجبت له الصورة التي يقطع معها بالتحير والتردد كان أبلغ لامحالة من أن تجري على الظاهر

فتقول • قد جعلت تتردد في أمرك فانت كمن يقول أخرج ولا أخرج فيقدم رجلا ويؤخر أخري

فصل

اعلم ان من شأن هذه الاجناس ان تجري فيها الفضيلة وان تتفاوت التفاوت الشديد • أفلا ترى في الاستعارة العامي المبتذل كقولنا • رأيت أسداً • ووردت بحراً • ولقيت بدراً • والخاصي النادر الذي لاتجده الا في كلام الفحول • ولايقوى عليه الا أفراد الرجال • كقوله (وسالت باعناق المطى الأباطح) أراد انها سارت سيراً حثيثاً في غاية السرعة وكانت سرعة في لين وسلاسة كأنها كانت سيولا وقعت في تلك الأباطح فجرت بها • ومثل هذه الاستعارة في الحسن واللطف وعلو الطبقة فى هذه اللفظة بعينها قول الآخر •

سالت عليه شعاب الحي حين دعا   أنصاره بوجوه كالدنانير

اراد أنه مطاع في الحى وانهم يسرعون الى نصرته • وانه لا يدعوهم لحرب • أونازل خطب • الاأتوه وكثروا عليه • وازدحموا حواليه • حتى تجدهم كالسيول تجيء من ههنا وههنا • وتنصب من هذا وذلك • حتى يغص بها الوادى ويطفح منها •

ومن بديع الاستعارة ونادرها الا ان جهة الغرابة فيه غير جهتها في هذا قول يزيد ابن مسلمة بن عبد الملك يصف فرساً له وانه مؤدب وانه اذا نزل عنه والقى عنانه في قربوس سرجه وقف مكانه الى أن يعود اليه •

عودته فيما أزور حبائبي   اهماله وكذاك كل مخاطر

واذا احتبى قربوسه بعنانه   علك الشكيم الى انصراف الزائر

فالغرابة ههنا في الشبه نفسه وفي أن استدرك ان هيئة العنان في موقعه من قربوس السرج كالهيئة فى موقع الثوب من ركبة المحتبي • وليست الغرابة في قوله • (وسالت باعناق المطي الا باطح) على هذه الجملة وذلك انه لم يغرب لأن جعل المطيَّ فى سرعة سيرها وسهولته كالماء يجرى فى الابطح فان هذا شبه معروف ظاهر ولكن الدقة واللطف فى خصوصية أفادها بأن جعل (سال) فعلا للأباطح ثم عداه بالباء ثم بأن أدخل الأعناق فى البيت فقال (بأعناق المطي) ولم يقل بالمطيّ ، ولو قال • سالت المطيّ فى الاباطح • لم يكن شيئاً ، وكذلك الغرابة فى البيت الآخر ليس فى مطاق معني سال ولكن فى تعديته بعلى والباء وبأن جعله فعلا لقوله (شعاب الحي) ولولا هذه الامور كلها لم يكن هذا الحسن • وهذا موضع يدق الكلام فيه وهذه أشياء من هذا الفن •

اليوم يومان مذ غيبت عن بصرى   نفسي فداؤك ماذنبى فاعتذر
أمسي وأصبح لا ألقاك واحزنا   لقد تأنق فى مكروهي القدر

سوار بن المضرَّب وهو لطيف جداً •

بعرض تنوفة للريح فيها   نسيم لا يروع الترب وان

بعض الأعراب،

ولرب خصم جاهدين ذوى شذاً   تقذى عيونهم بهتر هاتر
لد ظأرتهم على ماساءهم   وخسأت باطلهم بحق ظاهر

ابن المعتز •

حتى اذا ماعرف الصيد انصار   وأذن الصبح لنا فى الانصار

المعنى حتى اذا تهيأ لنا أن نبصر شيئاً ، لما كان تعذر الابصار منعاً من الليل جعل إمكانه عند ظهور الصبح إذناً من الصبح • وله ،

بخيل قد بليت به   يكد الوعد بالحجج وله
يناجيني الاخلاف من تحت مطله   فتختصم الآمال واليأس فى صدرى

ومما هو فى غاية الحسن وهو من الفن الأول قول الشاعر أنشده الجاحظ •

لقد كنت فى قوم عليك أشحة   بنفسك الا أن ماطاح طائح
يودون لو خاطوا عليك جلودهم   ولا تدفع الموت النفوس الشحائح

قال ، واليه ذهب بشار فى قوله ،

وصاحب كالدمل الممد   حملته فى رقعة من جلدى

ومن سر هذا الباب انك ترى اللفظة المستعارة قد استعيرت فى عدة مواضع ثم ترى لها فى بعض ذلك ملاحة لا تجدها فى الباقي، مثال ذلك انك تنظر الي لفظة الجسر فى قول أبي تمام،

لا يطمع المرء أن يجتاب لجته   بالقول مالم يكن جسراً له العمل

وقوله ،

بصرت بالراحة العظمي فلم ترها   تنال الا على جسر من التعب

فترى لها فى الثانى حسناً لا تراه فى الاول ثم تنظر اليها فى قول ربيعة الرقى

قولي نعم ونعم ان قلت واجبة   قالت عسى وعسى جسر الى نعم

فترى لها لطفاً وخلابة وحسناً ليس الفضل فيه بقليل ،

وما هو أصل فى شرف الاستعارة أن ترى الشاعر قد جمع بين عدة استعارات قصداً الي أن يلحق الشكل بالشكل وان يتم المعني

والشبه فيما يريد ، مثاله قول امرئ القيس ·

فقلت له لما تمطي بصلبه   وأردف أعجازوناء بكلكل

لماجعل لليل صلباً قدتمطي به ثني ذلك فجعل له أعجازاً قدأردف بها الصلب وثلث فجعل له كلكلا قد ناء به فاستوفى له جملة أركان الشخص وراعي مايراه الناظر من سواده اذا نظر قدامه واذا نظر الي خلفه واذا رفع البصر ومده فى عرض الجو ·

واعلم ان ههنا أسراراً ودقائق لايمكن بيانها الا بعد أن نعد جملة من القول فى النظم وفى تفسيره والمراد منه وأي شئ هو وما محصوله ومحصول الفضيلة فيه فينبغي لنا ان نأخذ فى ذكره · وبيان أمره · وبيان المزية التى تدعي له من أين تأتيه · وكيف تعرض فيه، وماأسباب ذلك وعلله · وما الموجب له · وقد علمت اطباق العلماء على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره · والتنويه بذكره · واجماعهم ان لافضل مع عدمه · ولا قدر لكلام اذا هو لم يستقم له · ولو بلغ فى غرابة معناه مابلغ ·وبتهم الحكم بانه الذي لاتمام دونه · ولا قوام الا به ·وانه القطب الذى عليه المدار · والعمود الذي به الاستقلال · وما كان بهذا المحل من الشرف · وفى هذه المنزلة من الفضل : وموضوعا هذا الموضع من المزية · وبالغا هذا المبلغ من الفضيلة ·كان حري بان توقظ له الهمم· وتوكل به النفوس · وتحرك له الافكار · وتستخدم فيه الخواطر · وكان العاقل جديراً أن لايرضى من نفسه بأن يجد فيه سبيلا الى مزية علم · وفضل استبانة · وتلخيص حجة · وتحرير دليل · ثم يعرض عن ذلك صفحا · ويطوى دونه كشحا · وان يربأ بنفسه · وتدخل عليه الانفة من أن يكون في سبيل المقلد الذى لايبت حكما · ولا يقتل

الشئ علما · ولا يجد مايبرئ من الشبهة · ويشفى غليل الشاك · وهو يستطيع أن يرتفع عن هذه المنزلة · ويباين من هو بهذه الصفة ·فان ذلك دليل ضعف الرأي وقصر الهمة ممن يختاره ويعمل عليه

واعلم ان ليس النظم الا ان تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها · وتحفظ الرسوم الذى رسمت لك فلا تخل بشئ منها · وذلك انا لانعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير ان ينظر في وجوه كل باب وفروقه فينظر فى الخبر الى الوجوه التي تراها في قولك · زيد منطلق وزيد ينطلق وينطلق زيد ومنطلق زيد وزيد المنطلق والمنطلق زيد وزيد هو المنطلق وزيد هو منطلق · وفي الشرط والجزاء الى الوجوه التي تراها فى قولك ، ان تخرج أخرج وان خرجت خرجت وان تخرج فانا خارج وأنا خارج ان خرجت وأنا ان خرجت خارج وفي الحال الى لوجوه التي تراها في قولك . جاءني زيد مسرعا وجاءنى يسرع وجاءني وهو مسرع أوهو يسرع وجاءنى قدأسرع وجاءني وقد أسرع · فيعرف لكل من ذلك موضعه : ويجيء به حيث ينبغي له وينظر فى الحروف التى تشترك في معني ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية فى ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه نحو ان يجيء بما في نفي الحال وبلا اذا أراد نفى الاستقبال وبان فيما يترجح بين ان يكون وأن لايكون وباذا فيما علم انه كائن: وينظر في الجمل التى تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء وموضع الفاء من موضع ثم وموضع أو من موضع أم وموضع لكن من موضع بل : ويتصرف في التعريف

والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله وفى الحذف والتكرار والاضمار والاظهار فيضع كلا من ذلك مكانه : ويستعمله على الصحة وعلى ماينبغي له

هذا هو السبيل فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه ان كان صوابا وخطؤه ان كان خطأ الى النظم ويدخل تحت هذا الاسم الا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة فازيل عن موضعه : واستعمل فى غير ماينبغي له : فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه الا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل الي معاني النحو وأحكامه ووجدته يدخل فى أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه

هذه جملة لا تزداد فيها نظرا الا ازددت لها تصورا وازدادت عندك صحة وازددت بها ثقة وليس من أحد تحركه لان يقول فى أمر النظم شيئاً الا وجدته قد اعترف لك بها أو ببعضها ووافق فيها دري ذلك أو لم يدر : ويكفيك أنهم قد كشفوا عن وجه ماأردناه حيث ذكروا فساد النظم فليس من أحد يخالف فى نحو قول الفرزدق

وما مثله في الناس الا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

وقول المتنبي

ولذا اسم أغطية العيون جفونها من انها عمل السيوف عوامل

وقوله

الطيب أنت اذا أصابك طيبه والماء أنت اذا اغتسلت الغاسل

وقوله

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه بان تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

وقول أبي تمام

ثانيه في كبد السماء ولم يكن كاثنين ثان اذ هما في الغار

وقوله

يدى لمن شاء رهن لم يذق جرعا من راحتيك درى ماالصاب والعسل

وفى نظائر ذلك مما وصفوه بفساد النظم وعابوه من جهة سوء التأليف ان الفساد والخلل كانا من ان تعاطى الشاعر ماتعاطاه من هذا الشأن على غير الصواب وصنع فى تقديم أو تأخير أو حذف واضمار أو غير ذلك مما ليس له أن يصنعه وما لايسوغ ولا يصح على أصول هذا العلم • واذا ثبت ان سبب فساد النظم واختلاله أن لا يعمل بقوانين هذا الشأن ثبت ان سبب صحته أن يعمل عليها ثم اذا ثبت ان مستنبط صحته وفساده من هذا العلم ثبت ان الحكم كذلك فى مزيته والفضيلة التي تعرض فيه واذا ثبت جميع ذلك ثبت ان ليس هو شيئاً غير توخى معانى هذا العلم وأحكامه فيما بين الكلم والله الموفق للصواب

واذ قد عرفت ذلك فاعمد الى ماتواصفوه بالحسن وتشاهدوا له بالفضل ثم جعلوه كذلك من أجل النظم خصوصاً دون غيره مما يستحسن له الشعر أو غير الشعر من معني لطيف أو حكمة أو أدب أو استعارة أو تجنيس أو غير ذلك مما لايدخل في النظم وتأمله فاذا رأيتك قد ارتحت واهتززت واستحسنت فانظر الى حركات الاريحية مم كانت وعند ماذا ظهرت فانك ترى عيانا ان الذى قلت لك كما قلت ، اعمد الى قول البحتري

بلونا ضرائب من قد نرى فما ان رأينا لفتح ضريبا

هو المـرء أبدت له الحادثا ت عزما وشيكا ورأيا صليباً
تنقـل فى خلـق سودد سماحا مرجي وبأساً مهيباً
فكالسيف ان جئته صارخا وكالبحـران جئته مستثيباً

فاذا رأيتها قد راقتك وكثرت عندك ووجدت لها اهتزازاً في نفسك فعد فانظر فى السبب واستقص فى النظر فانك تعلم ضرورة ان ليس الا انه قدم وأخر : وعرف ونكر ، وحذف وأضمر ، وأعاد وكرر ، وتوخى على الجملة وجهاً من الوجوه التي يقتضيها علم النحو فاصاب فى ذلك كله ثم لطف موضع صوابه وأتى مأتى يوجب الفضيلة ،أفلا ترى ان أول شيء يروقك منها • قوله هو المرء أبدت له الحادثات ثم قوله ، تنقل في خلقى سودد بتنكير السودد وإضافة الخلقين اليه • ثم قوله « فكالسيف» وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدا لان المعنى لامحالة فهو كالسيف • ثم تكريره الكاف فى قوله « وكالبحر » ثم أن قرن الي كل واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيـه • ثم أن اخرج من كل واحد من الشرطين حالا على مثال ماأخرج من الآخر وذلك قوله (صارخا) هناك (ومستثيباً) ههنا • لاترى حسناً تنسبه الى النظم ليس سببه ماعددت أو ماهو فى حكم ماعددت فاعرف ذلك

وان أردت أظهر أمراً في هذا المعني فانظر الى قول ابراهيم بن العباس

فلو إذنبا دهر وأنكر صاحب وسلط أعداء وغاب نصـير
تكون عن الاهواز داري بنجوة ولكن مقادير جرت وأمور
واني لأرجوا بعد هـذا محمدا لأفضل مايرجى أخ ووزير

فانك ترى ماترى من الرونق والطلاوة ، ومن الحسن والحلاوة

ثم تتفقد السبب في ذلك فتجده انما كان من أجل تقديمه الظرف الذى هو (إذنبا) على عامله الذى هو (تكون) وان لم يقل • فلو تكون عن الاهواز داري بنجوة إذنبا دهر • ثم أن قال (تكون) ولم يقل (كان) ثم أن نكر الدهر ولم يقل (فلو إذنبا الدهر) ثم أن ساق هذا التنكير في جميع ماأتى به من بعد • ثم أن قال (وأنكر صاحب) ولم يقـل • وأنكرت صاحبا • لا تري فى البيتين الاولين شيئاً غيرالذي عددته لك تجعله حسناً فى النظم وكله من معاني النحو كما تري • وهكذا السبيل أبداً فى كل حسن ومزية رأيتهما قد نسبا الى النظم وفضـل وشرف أحيل فيهما عليه

فصل

(فى ان هذه المزايا فى النظم . بحسب المعانى والاغراض التي تؤم)

واذ قد عرفت ان مدار أمرالنظم على معانى النحو وعلى الوجوه والفروق التى من شأنها ان تكون فيه فاعلم ان الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها . ونهاية لاتجد لها ازدياداً بعدها ثم اعلم ان ليست المزية بواجبة لها في أنفسها ومن حيث هي على الاطلاق ولكن تعرض بسبب المعانى والاغراض التى يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض • تفسير هذا أنه ليس اذا راقك التنكير فى (سؤدد) من قوله (تنقل في خلقي سؤدد) وفي(دهر) من قوله (فلو إذ نبا دهر) فانه يجب أن يروقك أبدا وفي كل شيء ولا اذا استحسنت لفظ مالم يسم فاعله فى قوله (وأنكر صاحب) فانه ينبغي أن لاتراه في مكان الا أعطيتـه مثل استحسانك ههنا • بل ليس من

فضل ومزية الا بحسب الموضع وبحسب المعني الذي تريد والغـرض الذي تؤم • وانما سبيل هذه المعانى سبيل الاصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش فكما أنك تري الرجل قد تهدى فى الاصباغ التى عمل منها الصورة والنقش فى ثوبه الذى نسج الى ضرب من التخير والتدبر فى أنفُس الأصباغ وفى مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيبه اياها الي مالم يتهدَّ اليه صاحبه فجاء نقشه من أجـل ذلك أعجب ، وصورته أغرب ، كذلك حال الشاعر والشاعر فى توخيهـما معانى النحو ووجوهه التى علمت انها محصول النظم

واعلم ان من الكلام ماأنت ترى المزية فى نظمه والحسن كالاجزاء من الصبغ تتلاحق وينضم بعضها الي بعض حتى تكثر في العين فانت لذلك لا تكبر شأن صاحبه ولا تقضى له بالحـذق والاستاذية وسـعة الذرع وشدة المنة حتى تستوفى القطعة وتأتي على عـدة أبيات وذلك ماكان من الشعر فى طبقة ماأنشدتك من أبيات البحترى • ومنه ماأنت ترى الحسن يهجم عليك منه دفعة ، ويأتيك منه مايملأ العين غرابة حتي تعرف من البيت الواحد مكان الرجل من الفضل ، وموضعه من الحذق ، وتشهد له بفضل المنة وطول الباع • وحتى تعلم ان لم تعلم القائل أنه من قبل شاعر فحل ، وانه خرج من تحت يد صناع . وذلك مااذا أنشدته وضعت فيه اليد على شئ فقلت : هذا هذا • وماكان كذلك فهو شعر الشاعر. والكلام الفاخر • والنمط العالي الشريف. والذى لاتجده الا فى شعر الفحول البزل ، ثم المطبوعين الذين يلهمون القول إلهاما ، ثم انك تحتاج الى ان تستقري عدة قصائد بل ان تفلى ديوانا من الشعر حتي تجمع منه عدة أبيات وذلك ماكان مثل قول الأول

وتمثل به أبو بكر الصديق رضوان الله عليه حين أتاه كتاب خالد بالفتح فى هزيمة الاعاجم •

تمنانا ليلقـانا بقـوم ... تخال بياض لأمهم السرابا
فقد لاقيتنا فرأيت حربا ... عوانا تمنع الشيخ الشرابا

انظر الى موضع الفاء فى قوله * فقد لاقيتنا فرأيت حربا * ومثل قول العباس بن الاحنف •

قالوا خراسان أقصى مايراد بنا ... ثم القفول فقد جئنا خراسانا

انظر الى موضع الفاء و(ثم) قبلها ومثل قول ابن الدمينة

أبيني أفي يمنى يديك جعلتني ... فأفرح أم صيرتني فى شمالك
أبيت كاني بين شقين من عصا ... حذار الردى أو خيفة من زيالك
تعاللت كي أشجي ومابك علة ... تريدين قتلى قد ظفرت بذلك

انظر الى الفصل والاستئناف فى قوله * تريدين قتلى قد ظفرت بذلك * ومثل قول أبي حفص الشطرنجي وقاله على لسان علية أخت الرشيد وقد كان الرشيد عتب عليها •

لو كان يمنع حسن الفعل صاحبه ... من أن يكون له ذنب الي أحد
كانت عليـة أبرى الناس كلهم ... من أن تكافا بسوء آخر الأبد
ماأعجب الشئ ترجوه فتحرمه ... قدكنت أحسب أني قد ملأت يدى

انظر الى قوله • قد كنت أحسب • والي مكان هذا الاستئناف ومثل قول أبي دواد ،

ولقد اغتـدى بدافع ركني ... أحوذيٌّ ذو ميعـة إضريج
سلهب شرجب كأن رماحا ... حملتـه وفى السَّراة دموج

انظر الي التنكير فى قوله (كأن رماحا) ومثل قول ابن البواب

أتيتك عائذاً بك منـ   ـك لما ضاقت الحيل
وصيرني هواك وبي   لحيني يضرب المثل
فان سلمت لكم نفسي   فما لاقيته جال
وان قتل الهوي رجلا   فاني ذلك الرجل

انظر الي الاشارة والتعريف فى قوله •فاني ذلك الرجل• ومثل قول عبد الصمد•

مكتئب ذو كبد حرى   تبكي عليه مقلة عبرى
يرفع يمناه الي ربه   يدعو وفوق الكبد اليسرى

انظر الى لفظة (يدعو) والي موقعها. ومثل قول جرير.

لمن الديار ببرقة الروحان   اذ لانبيع زماننا بزمان
صدع الغواني اذ رمين فؤاده   صدع الزجاجة مالذاك تدان

انظر الي قوله (مالذاك تدان) وتأمل حال هذا الاستئناف. ليس من بصير عارف بجوهر الكلام حساس متفهم لسر هذا الشأن ينشد أو يقرأ هذه الابيات الا لم يلبث ان يضع يده في كل بيت منها على الموضع الذى أشرت اليه يعجب ويعجب ويكبر شأن المزية فيه والفضل

فصل

(فى النظم يتحد فى الوضع. ويدق فيه الصنع)

واعلم ان مما هو أصل فى أن يدق النظر ويغمض المسلك فى توخي المعانى التى عرفت ان تحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها فى بعض ويشتد ارتباط ثان منها بأول وان يحتاج فى الجملة الي ان تضعها فى النفس وضعاً واحداً وان يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا فى حال

مايضع بيساره هناك. نعم وفي حال مايبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الاولين وليس لما شأنه ان يجيء على هذا الوصف حد يحصره وقانون يحيط به فانه يجيء على وجوه شتي وانحاء مختلفة فمن ذلك ان تزاوج بين معنيين فى الشرط والجزاء معاً كقول البحترى

اذا مانهى الناهي فلج بي الهوي   أصاخت الى الواشي فلج بها الهجر

وقوله

اذا احتربت يوما ففاضت دماؤها   تذكرت القربي ففاضت دموعها

فهذا نوع، ونوع منه آخر قول سليمان بن داود القضاعى

فبينا المرء في علياء اهوي   ومنحط اتيح له اعتلاء
وبينا نعمة اذ حال بؤس   وبؤس اذ تعقبه ثراء -

ونوع ثالث وهو ما كان كقول كثير

واني وتهيامي بعزة بعد ما   تخليت مما بيننا وتخلت
لكالمرتجي ظل الغمامة كلما   تبوأ منها للمقيل اضمحلت

وكقول البحتري •

لعمرك إنا والزمان كما جنت   على الاضعف الموهون عادية الاقوى

ومنه التقسيم وخصوصاً اذا قسمت ثم جمعت كقول حسان •

قوم اذا حاربوا ضروا عدوهم   أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة   ان الخلائق فاعلم شرها البدع

ومن ذلك وهو شيء في غاية الحسن قول القائل •

لو أن ما أنتم فيه يدوم لكم   ظننت ما أنا فيه دائماً أبداً
لكن رأيت الليالي غير تاركة   ماسر من حادث أو ساء مطردا
فقد سكنت الى أني وانكم   سنستجد خلاف الحالتين غدا

قوله *سنستجد خلاف الحالتين غدا* جمع فيما قسم لطيف وقد ازداد لطفاً بحسن ما بناه عليه والطف ما توصل به اليه من قوله * فقد سكنت الى انى وانكم * واذ قد عرفت هذا النمط من الكلام وهو ما تتحد أجزاؤه حتى يوضع وضعاً واحداً فاعلم انه النمط العالي والباب الأعظم والذى لاترى سلطان المزية يعظم في شيء كعظمه فيه • ومما ندر منه ولطف مأخذه • ودق نظر واضعه • وجلى لك عن شأو قد تحسر دونه العتاق • وغاية يعيى من قبلها المذاكي القرح • الابيات المشهورة في تشبيه شيئين بشيئين بيت امرئ القيس

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى

وبيت الفرزدق •

والشيب ينهض فى الشباب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار

وبيت بشار •

كأن مثار النقع فوق رؤسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ومما أتى في هذا الباب مأتي أعجب مما مضى كله قول زياد الاعجم

وانا وما تلقى لنا ان هجوتنا * لكالبحر مهما يلق في البحر يغرق

وانما كان أعجب لان عمله أدق • وطريقه أغمض • ووجه المشابهة فيه اغرب •

واعلم أن من الكلام ما أنت تعلم اذا تدبرته ان لم يحتج واضعه الى فكر وروية حتى انتظم بل ترى سبيله في ضم بعضه الى بعض سبيل من عمد الى لآل نخرطها فى سلك لاينبغي أكثر من ان يمنعها التفرق وكمن نضد أشياء بعضها على بعض لايريد في نضده ذلك ان تجيء له منه هيئة أو صورة بل ليس إلا أن تكون مجموعة في رأى العين وذلك

اذا كان معناك معنى لايحتاج أن تصنع فيه شيئاً غير ان تعطف لفظا على مثله كقول الجاحظ (جنبك الله الشبهة) وعصمك من الحيرة • وجعل بينك وبين المعرفة نسبا • وبين الصدق سببا • وحبب اليك التثبت • وزين في عينك الانصاف • وأذاقك حلاوة التقوى • وأشعر قلبك عز الحق • وأودع صدرك برد اليقين • وطرد عنك ذل اليأس وعرفك مافي الباطل من الذلة • وما في الجهل من القلة • وكقول بعضهم • لله در خطيب قام عندك يا أمير المؤمنين ما أفصح لسانه • وأحسن بيانه • وأمضي جنانه • وأبل ريقه • وأسهل طريقه • ومثل قول النابغة في الثناء المسجوع • أيفاخرك الملك اللخمي • فوالله لقفاك خير من وجهه • ولشمالك خير من يمينه • ولأخمصك خير من رأسه ولخطؤك خير من صوابه • ولعيك خير من كلامه • ولخدمك خير من قومه • وكقول بعض البلغاء في وصف اللسان • اللسان أداة يظهر بها حسن البيان • وظاهر يخبر عن الضمير • وشاهد ينبئك عن غائب • وحاكم يفصل به الخطاب • وواعظ ينهى عن القبيح • ومزين يدعو الى الحسن • وزارع يحرث المودة . وحاصد يحصد الضغينة . وملهٍ يونق الاسماع . فما كان من هذا وشبهه لم يجب به فضل اذا وجب الا بمعناه أو بمتون ألفاظه دون نظمه وتأليفه وذلك لأنه لافضيلة حتي ترى في الأمر مصنعا . وحتى تجد الى التخير سبيلا . وحتي تكون قد استدركت صوابا .

فان قلت . أفليس هو كلاما قد اطرد على الصواب وسلم من العيب أفما يكون في كثرة الصواب فضيلة . قيل اما والصواب كما ترى فلا . لأنا لسنا فى ذكر تقويم اللسان والتحرز من اللحن وزيغ الاعراب

فنعتد بمثل هذا الصواب . وانما نحن في أمور تدرك بالفكر اللطيفة . ودقائق يوصل اليها بثاقب الفهم . فليس درك صواب دركا فيما نحن فيه حتى يشرف موضعه . ويصعب الوصول اليه . وكذلك لا يكون ترك خطإٍ تركا حتي يحتاج في التحفظ منه الى لطف نظر . وفضل روية . وقوة ذهن . وشدة تيقظ . وهذا باب ينبغي ان تراعيه . وان تعنى به . حتى اذا وازنت بين كلام وكلام دريت كيف تصنع . فضممت الى كل شكل شكله . وقابلته بما هو نظير له . وميزت ما الصنعة منه في لفظه . مما هي منه في نظمه .

واعلم ان هذا ــ أعنى الفرق بين أن تكون المزية فى اللفظ . وبين أن تكون فى النظم ــ باب يكثر فيه الغلط فلا تزال ترى مستحسنا قد أخطأ بالاستحسان موضعه . فينحل اللفظ ماليس له . ولا تزال ترى الشبهة قد دخلت عليك في الكلام قد حسن من لفظه ونظمه فظننت ان حسنه ذلك كله للفظ منه دون النظم • مثال ذلك أن تنظر الى قول ابن المعتز •

واني على اشفاق عيني من العدى لتجمح مني نظرة ثم أطرق

فترى ان هذه الطلاوة وهذا الظرف انما هو لان جعل النظر يجمح وليس هو لذلك بل لان قال في أول البيت (واني) حتى دخل اللام في قوله (لتجمح) ثم قوله (مني) ثم لأن قال (نظرة) ولم يقل النظر مثلا ثم لمكان (ثم) في قوله : ثم أطرق : وللطيفة أخرى نصرت هذه اللطائف وهى اعتراضه بين اسم ان وخبرها بقوله على اشفاق عينى من العدى * وان أردت أعجب من ذلك فيما ذكرت لك فانظر الى قوله وقد تقدم انشاده قبل

سالت عليه شعاب الحي حين دعا * أنصاره بوجوه كالدنانير

فانك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها انما تم لها الحسن وانتهى الى حيث انتهى بما توخي فى وضع الكلام من التقديم والتأخير وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك وموازرته لها : وان شككت فاعمد الى الجارين والظرف فأزل كلا منها عن مكانه الذى وضعه الشاعر فيه فقل : سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره • ثم انظر كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسن والحلاوة وكيف تعدم أريحيتك التى كانت وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها

وجملة الأمر ان ههنا كلاما حسنه للفظ دون النظم ، وآخر حسنه للنظم دون اللفظ ، وثالثا تري الحسن من الجهتين ، ووجبت له المزية بكلا الأمرين ، والاشكال فى هذا الثالث وهو الذى لا تزال ترى الغلط قد عارضك فيه وتراك قد حفت فيه على النظم فتركته وطمحت ببصرك الى اللفظ وقدرت في حسن كان به وباللفظ انه للفظ خاصة ، وهذا هو الذى أردت حين قلت لك ان فى الاستعارة مالا يمكن بيانه الا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته

ومن دقيق ذلك وخفيه انك ترى الناس اذا ذكروا قوله تعالى (واشتعل الرأس شيباً) لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ولم ينسبوا الشرف الا اليها • ولم يروا للمزية موجباً سواها • هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم • وليس الأمر على ذلك • ولا هذا الشرف العظيم ولا هذه المزية الجليلة وهذه الروعة التى تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة • ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه الى الشيء وهو لما هو من سببه فيرفع به ما يسند اليه ويؤتى

بالذى الفعل له في المعني منصوباً بعده مبيناً ان ذلك الاسناد وتلك النسبة الى ذلك الأول انما كانا من أجل هذا الثاني ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة كقولهم • طاب زيد نفساً وقر عمرو عيناً وتصبب عرقاً وكرم أصلا وحسن وجهاً • واشباه ذلك مما تجد الفعل فيه منقولا عن الشيء الى ماذلك الشيء من سببه • وذلك انا نعلم أن اشتعل للشيب في المعنى وان كان هو للرأس في اللفظ كما ان طاب النفس وقر للعين وتصبب للعرق وان أسند الى ماأسند اليه • يبين أن الشرف كان لأن سلك فيه هذا المسلك • وتوخي به هذا المذهب • أن تدع هذا الطريق فيه وتأخذ اللفظ فتسنده الى الشيب صريحاً فتقول اشتعل شيب الرأس والشيب في الرأس ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة وهل ترى الروعة التى كنت تراها • فان قلت • فما السبب في أن كان اشتعل اذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل ولم بان بالمزية من الوجه الآخر هذه البينونة • فان السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب فى الرأس الذى هو أصل المعني الشمول وأنه قد شاع فيه • وأخذه من نواحيه • وأنه قد استقر به وعم جملته • حتى لم يبق من السواد شيء أو لم يبق منه الا مالايعتد به • وهذا مالايكون اذا قيل • اشتعل شيب الرأس أو الشيب فى الرأس • بل لايوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة • ووزان هذا انك تقول • اشتعل البيت ناراً • فيكون المعني ان النار قد وقعت فيه وقوع الشمول وانها قد استولت عليه وأخذت في طرفيه ووسطه • وتقول • اشتعلت النار فى البيت • فلا يفيد ذلك بل لايقتضي أكثر من وقوعها فيه واصابتها جانباً منه • فاما الشمول وأن تكون قد استولت على البيت وابتزته فلا

يعقل من اللفظ البتة

ونظير هذا فى التنزيل قوله عزوجل (وفجرنا الأرض عيوناً) التفجير للعيون فى المعنى وأوقع على الأرض في اللفظ كما أسند هناك الاشتعال الى الرأس • وقد حصل بذلك من معنى الشمول ههنا مثل الذى حصل هناك ! وذلك انه قد أفاد ان الأرض قد كانت صارت عيوناً كلها وان الماء قد كان يفور من كل مكان منها • ولو اجرى اللفظ على ظاهره فقيل • وفجرنا عيون الارض أو العيون فى الارض • لم يفد ذلك ولم يدل عليه ولكان المفهوم منه ان الماء قد كان فار من عيون متفرقة فى الارض وتبجس من أماكن منها

واعلم ان في الآية الاولى شيئاً آخر من جنس النظم وهو تعريف الرأس بالألف واللام وافادة معني الاضافة من غير اضافة وهو أحد ما أوجب المزية • ولو قيل ! واشتعل رأسي • فصرح بالاضافة لذهب بعض الحسن فاعرفه • وأنا أكتب لك شيئاً مما سبيل الاستعارة فيه هذا السبيل ليستحكم هذا الباب في نفسك ولتأنس به • فمن عجيب ذلك قول بعض الاعراب

الليل داج كنفا جلبابه والبين محجور على غرابه

ليس كل ماترى من الملاحة لان جعل لليل جلباباً وحجر على الغراب ولكن فى ان وضع الكلام الذى ترى فجعل الليل مبتدأ وجعل داج خبراً له وفعلا لما بعده وهو الكنفان وأضاف الجلباب الى ضمير الليل ولأن جعل كذلك البين مبتدأ وأجرى محجوراً خبرا عنه وان اخرج اللفظ على مفعول • يبين ذلك انك لو قلت وغراب البين محجور عليه او قد حجر على غراب البين لم تجد له هذه الملاحة

وكذلك لو قلت قد دجا كنفاً جلباب الليل لم يكن شيئاً
ومن النادر فيه قول المتنبي

غضب الدهر والملوك عليها   فبناها في وجنة الدهر خالا

قد ترى في اول الأمر انحسنه اجمع في ان جعل للدهر وجنة
وجعل البنية خالا في الوجنة وليس الأمر على ذلك فان موضع الأعجوبة
في ان اخرج الكلام مخرجه الذى ترى وان اتي بالخال منصوبا على
الحال من قوله (فبناها) افلا ترى انك لو قلت • وهي خال فى وجنة
الدهر • لوجدت الصورة غير ماترى • وشبيه بذلك ان ابن المعتز قال

يامسكة العطار   وخال وجه النهار

وكانت الملاحة في الاضافة بعد الاضافة لافي استعارة لفظة الخال
اذ معلوم انه لو قال • ياخالا فى وجه النهار او يامن هو خال في وجه
النهار • لم يكن شيئاً • ومن هـذا الضرب ان يدخل الاستكراه قال
الصاحب • اياك والاضافات المتداخلة فان ذلك لايحسن • وذكر انه
يستعمل في الهجاء كقول القائل

ياعلى بن حمزة بن عمارة   أنت والله ثلجة فى خياره

ولا شبهة فى ثقل ذلك فى الاكثر ولكنه اذا سلم من الاستكراه لطف
وملح .ومما حسن فيه قول ابن المعتز أيضاً

وظلت تدير الراح أيدى جآذر   عتاق دنانير الوجوه ملاح

ومما جاء منه حسناً جميلا قول الخالدى فى صفة غلام له

ويعرف الشعر مثـل معرفتي   وهو على أن يزيد مجتهد
وصيرفى القريض وزان دينار المـــعاني الدقاق منتقـــد

ومنه قول أبى تمام

خذها ابنة الفكر المهذب فى الدجى   والليل أسود رقعة الجلباب

ومما كثر الحسن فيه بسبب النظم قول المتنبى

وقيدت نفسي فى ذراك محبة   ومن وجد الاحسان قيداً تقيدا

الاستعارة فى أصلها مبتذلة معروفة فانك ترى العامي يقول للرجل
يكثر إحسانه اليه وبره له حتي يألفه ويختار المقام عنده . قد قيـدني
بكثرة احسانه الي وجميل فعله معي حتي صارت نفسي لاتطاوعني على
الخروج من عنده . وانما كان ماترى من الحسن بالمسلك الذى سلك في
النظم والتأليف •

فصل

(القول فى التقديم والتأخير)

هو باب كثير الفوائد. جم المحاسن . واسع التصرف. بعيد الغاية
لايزال يفتر لك عن بديعـة ويفضى بك الى لطيفـة .ولا تزال ترى
شعراً يروقك مسمعه . ويلطف لديك موقعه . ثم تنظر فتجد سبب
أن راقك ولطف عنـدك أن قدم فيـه شيء وحول اللفظ عن مكان
الي مكان •

واعلم ان تقديم الشيء على وجهين ـ تقديم يقال انه على نية التأخير
وذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذى كان عليـه وفي
جنسه الذى كان فيه كخبر المبتدا اذا قدمته على المبتـدا والمفعول اذا
قدمته على الفاعل كقولك • منطلق زيد وضرب عمراً زيد • معلوم
ان (منطلق) (وعمراً) لم يخرجا بالتقديم عما كانا عليه من كون هـذا
خبر مبتـدا ومرفوعا بذلك وكون ذلك مفعولا ومنصوبا من أجله كما

يكون اذا أخرت • وتقديم لاعلى نية التأخير ولكني على ان تنقل الشيء عن حكم الى حكم وتجعله بابا غير بابه ، واعرابا غير اعرابه . وذلك ان تجيء الي اسمين يحتمل كل واحد منهما ان يكون مبتدأ ويكون الآخر خبراً له فتقدم تارة هذا على ذاك وأخرى ذاك على هذا • ومثاله ماتصنعه بزيد والمنطلق حيث تقول مرة • زيد المنطلق • وأخرى المنطلق زيد • فانت فى هذا لم تقدم المنطلق على إن يكون متروكا على حكمه الذى كان عليه مع التأخير فيكون خبر مبتدا كما كان بل على ان تنقله عن كونه خبراً الى كونه مبتدا • وكذلك لم تؤخر زيداً على ان يكون مبتدأ كما كان بل على ان تخرجه عن كونه مبتدأ الي كونه خبراً وأظهر من هذا قولنا • ضربت زيداً وزيد ضربته • لم تقدم زيداً على ان يكون مفعولا منصوبا بالفعل كما كان ولكن على ان ترفعه بالابتداء وتشغل الفعل بضميره وتجعله فى موضع الخبر له واذ قد عرفت هذا التقسيم فاني أتبعه بجملة من الشرح

واعلم انا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجرى مجرى الاصل غير العناية والاهتمام • قال صاحب الكتاب وهو يذكر الفاعل والمفعول كأنهم يقدمون الذى بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعنى وان كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم • ولم يذكر في ذلك مثالا • وقال النحويون ان معنى ذلك انه قد يكون من أغراض الناس في فعل ما أن يقع بانسان بعينه ولا يبالون من أوقعه كمثل مايعلم من حالهم في حال الخارجي يخرج فيعيث ويفسد ويكثر به الاذى انهم يريدون قتله ولا يبالون من كان القتل منه ولا يعنيهم منه شيء فاذا قتل وأراد مريد الاخبار بذلك فانه يقدم ذكر الخارجي فيقول • قتل الخارجي زيد • ولا يقول • قتل

زيد الخارجي لانه يعلم ان ليس للناس فى أن يعلموا ان القاتل له زيد جدوى وفائدة فيعنيهم ذكره ويهمهم ويتصل بمسرتهم ويعلم من حالهم ان الذى هم متوقعون له ومتطلعون اليه متى يكون وقوع القتل بالخارجي المفسد وانهم قد كفوا شره وتخلصوا منه

ثم قالوا • فان كان رجل ليس له بأس ولايقدر فيه انه يقتل فقتل رجلا وأراد المخبر أن يخبر بذلك فانه يقدم ذكر القاتل فيقول • قتل زيد رجلا • ذاك لان الذى يعنيه ويعني الناس من شأن هذا القتل طرافته وموضع الندرة فيه وبعده كان من الظن • ومعلوم انه لم يكن نادراً وبعيداً من حيث كان واقعاً بالذى وقع به ولكن من حيث كان واقعا من الذى وقع منه • فهذا جيد بالغ الا ان الشأن فى أنه ينبغى أن يعرف في كل شيء قدم في موضع من الكلام مثل هذا المعني ويفسر وجه العناية فيه هذا التفسير • وقد وقع فى ظنون الناس أنه يكفي أن يقال انه قدم للعناية ولان ذكره أهم من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية ولم كان أهم • ولتخيلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير فى نفوسهم وهونوا الخطب فيه حتى انك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضربا من التكلف • ولم نر ظناً أزرى على صاحبه من هذا وشبهه

وكذلك صنعوا فى سائر الابواب فجعلوا لاينظرون فى الحذف والتكرار ، والاظهار والاضمار ، والفصل والوصل • ولا فى نوع من أنواع الفروق والوجوه • الا نظرك فيما غيره أهم لك بل فيما ان لم تعلمه لم يضرك • لاجرم ان ذلك قد ذهب بهم عن معرفة البلاغة ومنعهم أن يعرفوا مقاديرها • وصد أوجههم عن الجهة التي هي فيها • والشق الذي يحويها • والمداخل التي تدخل منها الآفة على الناس فى شأن

العلم ويبلغ الشيطان مراده منهم فى الصد عن طلبه وإحراز فضيلته كثيرة وهذه من أعجبها – إن وجدت متعجباً – وليت شعرى ان كانت هذه أموراً هينة وكان المدي فيها قريبا • والجدى يسيراً • من أين كان نظم أشرف من نظم • وبم عظم التفاوت • واشتد التباين • وترقى الامر الي الاعجاز • والى ان يقهر أعناق الجبابرة •أو ههنا أمور أخر نحيل في المزية عليها: ونجعل الاعجاز كان بها :فتكون تلك الحوالة لنا عذراً فى ترك النظر فى هذه التى معنا والاعراض عنها وقلة المبالاة بها أو ليس هذا التهاون – ان نظر العاقل – خيانة منه لعقله ودينه ودخولا فيما يزري بذى الخطر : ويغض من قدر ذوي القدر : وهل يكون أضعف رأيا وأبعد من حسن التدبر منك اذا همك ان تعرف الوجوه فى (أأنذرتهم) والامالة فى (رأى القمر) وتعرف الصراط والزراط وأشباه ذلك مما لايعد علمك فيه اللفظ وجرس الصوت ولا يمنعك ان لم تعلمه بلاغة . ولا يدفعك عن بيان • ولا يدخل عليك شكا • ولا يغلق دونك باب معرفة • ولا يفضى بك الي تحريف وتبديل • والي الخطأ فى تأويل • والي مايعظم فيه المعاب عليك • ويطيل لسان القادح فيك • ولا يعنيك ولا يهمك ان تعرف ماإذا جهلته عرضت نفسك لكل ذلك . وحصلت فيما هنالك • وكان أكثر كلامك فى التفسير وحيث تخوض فى التأويل • كلام من لايبني الشيء على أصله ولا يأخذه من مأخذه • ومن ربما وقع فى الفاحش من الخطأ الذي يبقى عاره • وتشنع آثاره • ونسأل الله العصمة من الزلل • والتوفيق لما هو أقرب الي رضاه من القول والعمل

واعلم ان من الخطا ان يقسم الامر فى تقديم الشيء وتأخيره قسمين

فيجعل مفيداً فى بعض الكلام وغير مفيد فى بعض • وان يعلل تارة بالعناية وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب حتى تطرد لهذا قوافيه ولذاك سجعه • ذاك لان من البعيد أن يكون في جملة النظم مايدل تارة ولا يدل أخرى • فمتي ثبت فى تقديم المفعول مثلا على الفعل في كثير من الكلام انه قد اختص بفائدة لاتكون تلك الفائدة مع التأخير فقد وجب ان تكون تلك قضية فى كل شيء وكل حال • ومن سبيل من يجعل التقديم وترك التقديم سواء ان يدعي انه كذلك في عموم الاحوال فاما ان يجعله بين بين فيزعم انه للفائدة فى بعضها وللتصرف في اللفظ من غير معنى فى بعض فمماينبغي ان يرغب عن القول به

وهذه مسائل لايستطيع أن يمتنع من التفرقة بين تقديم ما قدم فيها وترك تقديمه • ومن أبين شيء في ذلك الاستفهام بالهمزة فان موضع الكلام على أنك اذا قلت . أفعلت فبدأت بالفعل كان الشك فى الفعل نفسه وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده. واذا قلت ، أأنت فعلت فبدأت بالاسم.كان الشك في الفاعل من هو وكان التردد فيه ، ومثال ذلك أنك تقول . أبنيت الدار التى كنت على أن تبنيها ، أقلت الشعر الذى كان فى نفسك أن تقوله أفرغت من الكتاب الذى كنت تكتبه تبدأ في هذا ونحوه بالفعل لان السؤال عن الفعل نفسه والشك فيه لأنك في جميع ذلك متردد في وجود الفعل وانتفائه مجوّز أن يكون قد كان وأن يكون لم يكن ، وتقول أأنت بنيت هذه الدار أأنت قلت هذا الشعر ، أأنت كتبت هذا الكتاب ، فتبدأ في ذلك كله بالاسم ذاك لأنك لم تشك في الفعل أنه كان كيف وقد أشرت الى الدار مبنية

والشعر مقولا والكتاب مكتوبا وانما شككت في الفاعل من هو . فهذا
من الفرق لايدفعه دافع ، ولا يشك فيه شاك ، ولا يخفي فساد أحدهما
في موضع الآخر . فلو قلت أنت بنيت الدار التي كنت على أن تبنيها
أأنت قلت الشعر الذى كان في نفسك أن تقوله . أأنت فرغت من
الكتاب الذى كنت تكتبه . خرجت من كلام الناس . وكذلك لو
قلت . أبنيت هذه الدار أقلت هذا الشعر أكتبت هذه الكتاب قلت
ماليس بقول ذاك لفساد ان تقول في الشيء المشاهد الذى هو نصب عينيك
أموجود أم لا ومما يُعلم به ضرورة أنه لاتكون البداية بالفعل كالبداية
بالاسم أنك تقول أقلت شعراً قط . أرأيت اليوم انساناً فيكون كلاما
مستقيما ولو قلت ؟ أأنت قلت شعرا قط ! أأنت رأيت انساناً أخطأت
وذاك أنه لا معني للسؤال عن الفاعل من هو في مثل هذا لان ذلك
انما يتصور اذا كانت الاشارة الى فعل مخصوص نحو أن تقول . من قال
هذا الشعر ومن بنى هذه الدار ومن أتاك اليوم ومن أذن لك في الذى
فعلت وما أشبه ذلك مما يمكن أن ينص فيه على معين فاما قيل شعر على
الجملة ورؤية انسان على الاطلاق فمحال ذلك فيه لانه ليس مما يختص
بهذا دون ذاك حتي يسأل عن عين فاعله . ولو كان تقديم الاسم لايوجب
ماذكرنا من أن يكون السؤال عن الفاعل من هو وكان يصح أن يكون
سؤالا عن الفعل أكان أم لم يكن لكان ينبغي أن يستقيم ذلك

واعلم أن هذا الذى ذكرت لك في الهمزة « وهي للاستفهام »
قائم فيها اذا هي كانت للتقرير ! فاذاقلت . أأنت فعلت ذاك كان غرضك
أن تقرره بانه الفاعل يبين ذلك قوله تعالى حكاية عن قول نمروذ
« أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم » لاشبهة في أنهم لم يقولوا ذلك له

عليه السلام وهم يريدون أن يقر لهم بان كسر الاصنام قد كان ولكن
ان يقرّ بأنه منه كان وقد أشاروا له الى الفعل في قولهم « أأنت فعلت
هذا وقال هو عليه السلام في الجواب « بل فعله كبيرهم هذا » ولو
كان التقرير بالفعل لكان الجواب فعلت أولم أفعل فان قلت أو ليس
اذا قال « أفعلت » فهو يريد أيضاً ان يقرره بأن الفعل كان منه لا بأنه
كان على الجملة فاى فرق بين الحالين فانه اذاقال (افعلت) فهو يقرره
بالفعل من غير ان يردده بينه وبين غيره وكان كلامه كلام من يوهم
انه لايدري ان ذلك الفعل كان على الحقيقة . واذا قال . أأنت فعلت
كان قد ردد الفعل بينه وبين غيره ولم يكن منه في نفس الفعل تردد
ولم يكن كلامه كلام من يوهم انه لا يدرى أكان الفعل أم لم يكن بدلالة
انك تقول ذلك والفعل ظاهر موجود مشار اليه كما رأيت في الآية

واعلم أن الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان وانكار له لم كان
وتوبيخ لفاعله عليه . ولها مذهب آخر وهو ان يكون لانكار أن
يكون الفعل قد كان من أصله ومثاله قوله تعالى « افاصفاكم ربكم
بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً انكم لتقولون قولا عظيما » وقوله عز
وجل « أصطفي البنات على البنين مالكم كيف تحكمون » فهذا رد على
المشركين وتكذيب لهم في قولهم مايؤدى الي هذا الجهل العظيم واذا
قدم الاسم في هذا صار الانكار في الفاعل ومثاله قولك للرجل قد انتحل
شعراً أأنت قلت هذا الشعر كذبت لست ممن يحسن مثله انكرت ان
يكون القائل ولم تنكر الشعر وقد تكون اذ يراد انكار الفعل من
اصله ثم يخرج اللفظ مخرجه اذا كان الانكار في الفاعل مثال ذلك قوله
تعالى (قل آلله اذن لكم) الاذن راجع الى قوله (قل أرأيتم ماأنزل

الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا) ومعـلوم أن المعني على انكار أن يكون قد كان من الله تعالى إذن فيما قالوه من غير أن يكون هذا الاذن قد كان من غـير الله فاضافوه الى الله الا أن اللفظ أخرج مخرجه اذا كان الامر كذلك لان يجعلوا فى صورة من غلط فاضاف الى الله تعالى إذنا كان من غير الله فاذا حقق عليه ارتدع ومثال ذلك قولك للرجل يدعي ان قولا كان ممن تعلم انه لايقوله أهو قال ذاك بالحقيقة أم انت تغلط تضع الكلام وضعه اذا كنت علمت ان ذلك القول قد كان من قائل ليتصرف الانكار الي الفاعل فيكون اشد لنفي ذلك وابطاله ونظير هذا قوله تعالى (قل آلذكرين حرم ام الأنثيين اما اشتملت عليه ارحام الانثيين) اخرج اللفظ مخرجه اذا كان قد ثبت تحريم فى احد اشياء ثم اريد معرفة عين المحرم مع ان المراد انكار التحريم من اصله ونفى ان يكون قد حرم شيء مما ذكروا انه محرم وذلك ان كان الكلام وضع على ان يجعل التحريم كانه قد كان ثم يقال لهم اخبرونا عن هذا التحريم الذى زعمتم فيم هو افي هـذا ام ذاك ام فى الثالث ليتبين بطلان قولهم ويظهر مكان الفرية منهم على الله تعالى ومثل ذلك قولك للرجل يدعي امراً وانت تنكره متي كان هذا افى ليـل ام نهار تضع الكلام وضع من سلم ان ذلك قد كان ثم تطالبه ببيان وقته لكي يتبين كذبه اذا لم يقدر أن يذكر له وقتاً ويفتضح . ومثله قولك . من أمرك بهذا منا وأينا أذن لك فيه . وأنت لاتعنى أن أمرا قد كان بذلك من واحد منكم الا أنك تضع الكلام هذا الوضع لكي تضيق عليه وليظهر كذبه حين لايستطيع أن يقول فلان وأن يحيل على واحد

واذ قد بينا الفرق بين تقديم الفعل وتقديم الاسم والفعلُ ماض

فينبغي أن ينظر فيه والفـعل مضارع والقول فى ذلك انك اذا قلت أتفعل وأأنت تفعل لم يخل من أن تريد الحال أو الاستقبال فان أردت الحال كان المعنى شبيها بما مضى في الماضى فاذا قلت أتفعل كان المعني على انك أردت أن تقرره بفعل هو يفعله وكنت كمن يوهم أنه لايعلم بالحقيقة أن الفعل كائن . واذا قلت أأنت تفعل كان المعـنى على انك تريد أن تقرره بأنه الفعل وكان امر الفعل فى وجوده ظاهراً وبحيث لايحتاج الى الاقرار بانه كائن وان أردت بتفعل المستقبل كان المعني اذا بدأت بالفعل على انك تعمد بالانكار الى الفعل نفسه وتزعم انه لايكون أو أنه لاينبغى ان يكون فمثال الاول

أيقتاني والمشرَفيّ مُضاجعى ومسنونةٌ زرق كأنياب أغوال

فهذا تكذيب منه لانسان تهدده بالقتل وانكار ان يقدر على ذلك ويستطيعه ومثله ان يطمع طامع في امر لا يكون مثله فتجهله فى طمعه فتقول . أيرضى عنك فلان وأنت مقيم على مايكره . أتجد عنـده ما تحب وقد فعلت وصنعت . وعلى ذلك قوله تعالى (أنلزمكموها وانتم لها كارهون) ومثال الثاني قولك للرجل يركب الخطر أتخرج فى هذا الوقت أتذهب فى غير الطريق أتغرر بنفسك وقولك للرجل يضيع الحق أتنسي قديم احسان فلان أتترك صحبته وتتغير عن حالك معه لان تغير الزمان كما قال

أأترك ان قلت دراهم خالد زيارته انى اذاً للئيمُ

وجملة الامر انك تنحو بالانكار نحو الفعل فان بدأت بالاسم فقلت أأنت تفعل أو قلت أهو يفـعل كنت وجهت الانكار الى نفس المذكور وأبيت ان تكون بموضع ان يجيء منه الفعل وممن يجيء منه وأن يكون

بتلك المثابه تفسير ذلك انك اذا قلت أأنت تمنعني أأنت تأخذ على يدى صرت كأنك قلت ان غيرك الذي يستطيع منعي والاخذ على يدي ولست بذاك ولقد وضعت نفسك في غير موضعك هذا اذا جعلته لايكون منه الفعل للعجز ولأنه ليس فى وسعه وقد يكون أن تجعله لايجيء منه لانه لايختاره ولا يرتضيه وان نفسه نفس تأبي مثله وتكرهه ومثاله ان تقول اهو يسأل فلانا هو ارفع همة من ذلك أهو يمنع الناس حقوقهم هو اكرم من ذاك وقد يكون ان تجعله لايفعله لصغر قدره وقصر همته وان نفسه نفس لاتسمو وذلك قولك اهو يسمح بمثل هذا . اهو يرتاح للجميل هو اقصر همة من ذلك واقل رغبة فى الخير مما تظنّ

وجملة الامر ان تقديم الاسم يقتضى انك عمدت بالانكار الى ذات من قيل انه يفعل او قال هو اني افعل واردت ما تريده اذا قلت ليس هو بالذى يفعل وليس مثله يفعل ولا يكون هذا المعني اذا بدات بالفعل فقلت الفعل الا تري ان من المحال ان تزعم ان المعني فى قول الرجل لصاحبه أتخرج في هذا الوقت اتغرر بنفسك اتمضى في غير الطريق انه انكر ان يكون بمثابة من يفعل ذلك وبموضع من يجيء منه ذاك . ذاك لان العلم محيط بان الناس لايريدونه وانه لايليق بالحال التي يستعمل فيها هذا الكلام وكذلك محال ان يكون المعني في قوله جل وعلا (انلزمكموها وانتم لها كارهون) انا لسنا بمثابة من يجيء منه هذا الالزام وان غيرنا من يفعله ـ جل الله تعالى ـ وقد يتوهم المتوهم في الشيء من ذلك انه يحتمل فاذا نظر لم يحتمل فمن ذلك قوله . ايقتلني والمشرفي مضاجعي . وقد يظن الظان انه يجوز ان يكون في معنى انه ليس بالذى يجيء منه ان يقتل مثلى ويتعلق بأنه قال قبل

يَغطُّ غطيط البَكر شدّ خناقه ليقتلني والمرؤ ليس بقتال

ولكنه اذا نظر علم انه لايجوز وذاك لانه قال (والمشرفي مضاجعي) فذكر ما يكون منعا من الفعل ومحال أن يقول هو ممن لا يجيء منه الفعل ثم يقول انى أمنعه لأن المنع يتصور فيمن يجيء منه الفعل ومع من يصح منه لامن هو منه محال ومن هو نفسه عنه عاجز فاعرفه

واعلم انا وان كنا نفسر الاستفهام فى مثل هذا بالانكار فان الذى هو محض المعنى انه ليتنبه السامعُ حتى يرجع الي نفسه فيخجلَ ويرتدع ويعيي بالجواب اما لانه قد ادعى القدرة على فعل لايقدر عليه فاذا ثبت على دعواه قيل له (فافعل) فيفضحه ذلك واما لانه هم بان يفعل مالا يستصوب فعله فاذا رُوجع فيه تنبه وعرف الخطأ واما لانه جوز وجود أمر لا يوجد مثله فاذا ثبت على تجويزه وبخ على تعنته وقيل له فأرناه فى موضع وفى حال وأقم شاهدا على انه كان في وقت ولو كان يكون للانكار وكان المعنى فيه من بدء الامر لكان ينبغى ان لايجيء فيما لايقول عاقل أنه يكون حتى ينكر عليه كقولهم . أتصعد الي السماء أتستطيع أن تنقل الجبال أإلى رد مامضي سبيلٌ واذ قد عرفت ذلك فانه لايقرر بالمحال وبما لايقول أحد انه يكون الا على سبيل التمثيل وعلى أن يقال له انك فى دعواك ماادعيت بمنزلة من يدعي هذا المحال وانك فى طمعك فى الذى طمعت فيه بمنزلة من يطمع في الممتنع

واذ قد عرفت هذا فما هو من هذا الضرب قوله تعالى (أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمي) ليس اسماع الصم مما يدعيه أحد فيكون ذلك للانكار وانما المعنى فيه التمثيل والتشبيه وان ينزل الذي يظن بهم أنهم يسمعون أو انه يستطيع اسماعهم منزلة من يرى أنه يسمع الصم

ويهدى العميَ ثم المعني فى تقديم الاسم وان لم يقـل (أأتسمعُ الصمَّ)
هو أن يقال للنبى صلى الله عليه وسلم أأنت خصوصاً قد أُوتيت ان تسمع
الصم وان يجعل فى ظنه أنه يستطيع اسماعهم بمثابة من يظن انه قد اوتى
قدرة على اسماع الصم ومن لطيف ذلك قول ابن ابي عيينة

فدع الوعيد فما وعيدك ضائرى   أطنين اجنحة الذباب يضير

جعله كأنه قد ظن ان طنين اجنحة الذباب بمثابة مايضير حتى ظن
ان وعيده يضير

واعلم ان حال المفعول فيما ذكرنا كحال الفاعل اعنى تقديم الاسم
المفعول يقتضى ان يكون الانكار في طريق الاحالة والمنع من ان
يكون بمثابة ان يوقع به مثل ذلك الفعل فاذا قلت ازيداً تضرب كنت
قد انكرت ان يكون زيد بمثابة ان يضرب أو بموضع ان يجترأ عليه ويستجاز
ذلك فيه ومن اجل ذلك قدم (غير) فى قوله تعالى (قل اغير الله اتخذ
ولياً) وقوله عز وجل (قل أرأيتكم ان اتاكم عذابُ الله او اتتكم الساعة
أغير الله تدعون) وكان له من الحسن والمزية والفخامة ماتعلم انه لايكون
لو اخر فقيل قل أأتخذ غير الله ولياً وأتدعون غير الله وذلك لانه قد حصل
بالتقديم معنى قولك أيكون غير الله بمثابة ان يتخذ ولياً وان يرضى عاقل
من نفسه ان يفعل ذلك وان يكون جهل اجهل وعمى اعمى من ذلك
ولا يكون شئ من ذلك اذا قيل اأتخذ غير الله ولياً وذلك لانه حينئذ
يتناول الفعل ان يكون فقط ولا يزيد على ذلك فاعرفه وكذلك الحكم
فى قوله تعالى (قالوا ابشراً منا واحدا نتبعه) وذلك لانهم بنوا كفرهم
على ان من كان مثلهم بشراً لم يكن بمثابة ان يتبع ويطاع وينتهى الي
ما يأمر ويصدق أنه مبعوث من الله تعالى وأنهم مأمورون بطاعته كما

جاء في الاخرى (ان انتم الا بشر مثلنا تريدون ان تصدونا) وكقوله
عز وجل (ان هذا الا بشر مثلكم يريد ان يتفضل عليكم ولوشاء الله
لأنزل ملائكة) فهذا هو القول في الضرب الاول وهو ان يكون يفعل
بعد الهمزة لفعل لم يكن

واما الضرب الثاني وهو ان يكون يفعل لفعل موجود فان تقديم الاسم
يقتضى شبها بما اقتضاه في الماضي من الأخذ بان يقر انه الفاعل او الانكار ان
يكون الفاعل فمثال الاول قولك للرجل يبغي ويظلم أأنت تجيء الى الضعيف
فتغصب ماله أانت تزعم ان الامر كيت وكيت وعلى ذلك قوله تعالى « افأنت
تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ومثال الثاني « اهم يقسمون رحمة ربك »

فصل

واذ قد عرفت هذه المسائل فى الاستفهام فهـذه مسائل في النفى
إذ قلت مافعلت كنت نفيت عنك فعـلا لم يثبت انه مفعول واذا قلت
ماأنا فعلت كنت نفيت عنك فعلا ثبت انه مفعول • تفسير ذلك انك
اذا قلت : ماقلت هذا : كنت نفيت ان تكون قـد قلت ذاك وكنت
نوظرت فى شيء لم يثبت أنه مقول • واذا قلت : ماأنا قلت هذا كنت
نفيت ان تكون القائل له وكانت المناظرة فى شيء ثبت أنه مقول
وكذلك اذا قلت : ماضربت زيدا : كنت نفيت عنك ضربه ولم يجب
أن يكون قد ضرب بل يجوز أن يكون قد ضربه غيرك وان لايكون قد
ضرب أصلا : واذا قلت ماأنا ضربت زيدا : لم تقله الا وزيد مضروب
وكان القصد ان تنفى ان تكون انت الضارب ومن أجل ذلك صلح فى
الوجه الاول أن يكون المنفى عاما كقولك : ماقلت شعرا قط وما أكلت

اليوم شيئاً وما رأيت أحدا من الناس : ولم يصلح فى الوجه الثانى فكان خلفا أن تقول ما أنا قلت شعرا قط وما أنا أكلت اليوم شيئاً وما أنا رأيت أحدا من الناس : وذلك لانه يقتضي المحال وهو أن يكون ههنا إنسان قد قال كل شعر فى الدنيا وأكل كل شئ يؤ كل ورأي كل أحد من الناس فنفيت أن تكونه : ومما هو مثال بين فى ان تقديم الاسم يقتضى وجود الفعل قوله :

وما أنا أسقمت جسمى به ولا أنا اضرمت فى القلب نارا

المعني كما لايخفي على ان السقم ثابت موجود وليس القصد بالنفى اليه ولكن الى ان يكون هو الجالب له ويكون قد جره الي نفسه ومثله فى الوضوح قوله : وما أنا وحدى قلت ذا الشعر كله : الشعر مقول على القطع والنفي لان يكون هو وحده القائل له

وهنا أمران يرتفع معهما الشك في وجوب هذا الفرق ويصير العلم به كالضرورة (أحدهما) أنه يصح لك أن تقول : ماقلت هذا ولا قاله أحد من الناس وما ضربت زيدا ولا ضربه أحد سواى : ولا يصح ذلك فى الوجه الآخر : فلو قلت : ماأنا قلت هذا ولا قاله أحد من الناس وما أنا ضربت زيداً ولا ضربه أحد سواى : كان خلفا من القول وكان فى التناقض بمنزلة أن تقول : لست الضارب زيدا أمس فتثبت انه قد ضرب ثم تقول من بعده : وما ضربه أحد من الناس (و)لست القائل ذلك فتثبت انه قد قيل ثم تجىء فتقول وما قاله أحد من الناس : والثانى من الامرين انك تقول: ماضربت الا زيدافيكون كلاما مستقيما ولو قلت : ماأنا ضربت الا زيدا : كان لغوا من القول وذلك لان نقض النفي بالا يقتضي أن تكون ضربت زيدا : وتقديمك

ضميرك وايلاؤه حرف النفي يقتضى نفي أن تكون ضربته فهما يتدافعان فاعرفه

ويجيء لك هذا الفرق على وجهه في تقديم المفعول وتأخيره فاذا قلت : ماضربت زيدا : فقدمت الفعل كان المعنى انك قد نفيت ان يكون قد وقع ضرب منك على زيد ولم تعرض فى امر غيره لنفي ولا إثبات وتركته منهما محتملا : واذا قلت : مازيدا ضربت : فقدمت المفعول كان المعنى على ان ضربا وقع منك على انسان وظن أن ذلك الانسان زيد فنفيت ان يكون اياه فلك ان تقول فى الوجه الاول : ماضربت زيدا ولا أحدا من الناس : وليس لك فى الوجه الثانى : فلو قلت مازيدا ضربت ولا أحدا من الناس : كان فاسدا على مامضي فى الفاعل ومما ينبغى ان تعلمه أنه يصح لك ان تقول : ماضربت زيدا ولكني أكرمته فتعقب الفعل المنفي باثبات فعل هو ضده ولا يصح أن تقول : مازيدا ضربت ولكني أكرمته : وذاك انك لم ترد ان تقول ، لم يكن الفعل هذا ولكن ذاك ؟ ولكنك أردت أنه لم يكن المفعول هذا ولكن ذاك فالواجب اذن أن تقول ؟ مازيدا ضربت ولكن عمرا ؟ وحكم الجار مع المجرور في جميع ماذكرنا حكم المنصوب فاذا قلت ؟ ماامرتك بهذا كان المعني على نفى ان تكون قد امرته بذلك ولم يجب ان تكون قد امرته بشيء آخر واذا قلت : مابهذا امرتك ؟ كنت قد امرته بشيء غيره

واعلم ان هذا الذى بان لك في الاستفهام والنفى من المعني في التقديم قائم مثله في الخبر المثبت فاذا عمدت الى الذي اردت ان تحدث عنه بفعل فقدمت ذكره ثم بنيت الفعل عليه فقلت ؟ زيد قد فعل وانا

فعلت وانت فعلت . اقتضي ذلك ان يكون القصـد الى الفاعل الا ان
المعنى في هذا القصد ينقسم قسمين احدهما جلي لايشكل وهو ان يكون
الفعل فعلا قد اردت ان تنص فيه على واحد فتجعـله له وتزعم انه
فاعله دون واحد آخر أو دون كل احد . ومثال ذلك ان تقول : انا
كتبت فى معني فلان وانا شفعت في بابه، تريد ان تدعى الانفراد بذلك
والاستبداد به وتزيل الاشتباه فيه وترد على من زعم ان ذلك كان من
غيرك أوان غيرك قد كتب فيه كما كتبت ومن البين في ذلك قولهم في
المثل (اتعلمنى بضب انا حرشته)

والقسم الثانى ان لايكون القصد الى الفاعل على هذا المعنى ولكن
على انك أردت أن تحقق على السامع أنه قدفعل وتمنعه من الشك فانت
لذلك تبدأ بذكره وتوقعه أولا ومن قبل أن تذكر الفعل فى نفسه
لكى تباعده بذلك من الشبهة وتمنعه من الانكار أومن ان يظن بك
الغلط أو التزيد ومثاله قولك هو يعطي الجزيل وهو يحب الثناء لاتريد
ان تزعم انه ليس ههنا من يعطي الجزيل ويحب الثناء غـيره ولا أن
تعرض بانسان وتحطه عنه وتجعله لايعطي كما يعطي ولا يرغب كما يرغب
ولكنك تريد ان تحقق على السامع ان اعطاء الجـزيل وحب الثناء
دأبه وان تمكن ذلك في نفسه ؛ ومثاله فى الشعر

هم يفرشون اللبد كل طمرة   وأجرد سباح يبذ المغاليا

لم يرد ان يدعي لهم هذه الصفة دعوي من يفردهـم بها وينص
عليهم فيها حتى كانه يعرض بقوم آخرين فينفي أن يكونوا أصحابها؛ هذا
محال وانما أراد أن يصفهم بانهم فرسان يمتهدون صهوات الخيل وانهـم
يقتعدون الجياد منها وان ذلك دأبهم من غير ان يعرض لنفيه عن غيرهم

الا انه بدأ بذكرهم لينبه السامع لهم ويعلم بديا قصده اليهم بما فى نفسه
من الصفة ليمنعه بذلك من الشك ومن توهم أن يكون قـد وصـفهم
بصفة ليست هي لهم أو ان يكون قد أراد غيرهم فغلط اليهـم وعلى
ذلك قول الآخر

هم يضربون الكبش يبرق بيضه   على وجهه من الدماء سبائب

لم يرد ان يدعي لهم الانفراد ويجعـل هذا الضرب لا يكون إلا
منهم ولكن أراد الذى ذكرت لك من تنبيه السامع لقصدهم بالحديث
من قبل ذكر الحديث ليحقق الأمر ويؤكده . ومن البين فيه قول
عروة ابن اذينة

سليمى أزمعت بينا   فأين تقولها أينا

وذلك انه ظاهر معلوم انه لم يرد ان يجعل هذا الازماع لها خاصة
ويجعلها من جماعة لم يزمع البين منهم أحد سواها هذا محال ولكنه اراد
ان يحقق الامر ويؤكده فأوقع ذكرها فى سمع الذى كلم ابتداء ومن
اول الامر ليعلم قبل هذا الحديث انه ارادها بالحديث فيكون ذلك ابعد
له من الشك ؛ ومثله فى الوضوح قوله

هما يلبسان المجد احسن لبسة   شحيحان ماأستطاعا عليه كلاهما

لاشبهة فى انه لم يرد ان يقصر هذه الصفة عليهما ولكن نبـه لهما
قبل الحديث عنهما ؛ وابين من الجميع قوله تعالي (والذين اتخذوا من
دونه آلهة لايخلقون شيئاً وهم يخلقون) وقوله عز وجل(واذا جاؤكم قالوا
آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به)وهذا الذى قد ذكرت
من ان تقديم ذكر المحـدث عنـه يفيد التنبيه له قـد ذكره صاحب
الكتاب فى المفعول اذا قدم فرفع بالابتداء وبني الفعل الناصب كان له

عليه وعدي الى ضميره فشـغل به كقولنا فى « ضربت عبـد الله »
عبد الله • ضربته • فقال وانما قلت عبد الله فنبهته له ثم بنيت عليـه
الفعل ورفعته بالابتداء

فان قلت فمن اين وجب ان يكون تقديم ذكر المحدث عنه بالفعل
آكد لاثبات ذلك الفعل له وان يكون قوله «هما يلبسان المجد» ابلغ
في جعلهما يلبسانه من ان يقال ؛ يلبسان المجد • فان ذلك من أجل انه
لا يؤتي بالاسم معرًّى من العوامل الا لحديث قد نوى اسناده اليـه
واذا كان كذلك فاذا قلت (عبد الله) فقد اشعرت قلبه بذلك انك قد
اردت الحديث عنه فاذا جئت بالحديث فقلت مثلا قام او قلت خرج
او قلت قدم فقد علم ماجئت به وقد وطأت له وقدمت الاعـلام فيـه
فدخل على القلب دخول المأنوس به وقبـله قبول المتهيء له المطمئن
اليه وذلك لامحالة أشـد لثبوته وأنفى للشبهة وأمنع للشـك وأدخل
في التحقيق

وجملة الامر انه ليس إعلامك الشيء بغتة غفلا مثل إعلامك له
بعد التنبيه عليه والتقدمة له لأن ذلك يجري مجري تكرير الاعـلام
في التأكيد والاحكام ؛ ومن ههنا قالوا ان الشيء اذا أضمر ثم فسر كان
ذلك أفخم له من ان يذكر من غير تقدم إضمار ويدل على صحة ماقالوه
أنا نعلم ضرورة فى قوله تعالى (فانها لاتعمى الابصار) فخامة وشرفا وروعة
لانجد منها شيئاً فى قولنا • فان الابصار لاتعمي • وكذلك السبيل أبدا
في كل كلام كان فيه ضمير قصـة فقوله تعالى «انه لايفلح الكافرون»
يفيد من القوة فى نفي الفلاح عن الكافرين مالو قيـل • ان الكافرين
لايفلحون • لم يفد ذلك • ولم يكن ذلك كذلك الا لانك تعلمه اياه من

بعد تقدمة وتنبيه أنت به في حكم من بدأ وأعاد ووطد ثم بين ولوح ثم
صرح • ولا يخفى مكان المزية فيما طريقه هذا الطريق

ويشهد لما قلنا من أن تقديم المحدث عنـه يقتضي تأكيد الخـبر
وتحقيقه له انا اذا تأملنا وجدنا هذا الضرب من الكلام يجيء فيما سبق
فيه إنكار من منكر نحو أن يقول الرجل • ليس لي علم بالذى تقول
فتقول له • أنت تعلم ان الأمر على ماأقول ولكنك تميل الى خصمي
وكقول الناس • هو يعلم ذاك وان أنكر وهو يعلم الكذب فيما قال
وان حلف عليـه • وكقوله تعالى (ويقولون على الله الكذب وهم
يعلمون) فهذا من أبين شيء وذاك ان الكاذب لاسيما في الدين لايعترف
بانه كاذب واذا لم يعترف بانه كاذب كان أبعد من ذلك أن يعترف بالعلم
بأنه كاذب أو يجيء فيما اعترض فيه شك نحو أن يقول الرجل • كأنك
لاتعلم ماصـنع فلان ولم يبلغك • فيقول • أنا أعلم ولكنى أداريه •
أوفي تكذيب مدع كقوله عزوجل «وإذا جاؤكم قالوا آمنا وقد دخلوا
بالكفر وهم قد خرجوا به » وذلك ان قولهم آمنا دعوى منهم أنهم لم
يخرجوا بالكفر كما دخلوا به فالموضع موضع تكذيب • أو فيما القياس
في مثله أن لا يكون كقوله تعالى « والذين اتخذوا من دونه آلهة
لايخلقون شيئاً وهم يخلقون » وذلك أن عبادتهم لها تقتضى أن لاتكون
مخلوقة • وكذلك في كل شيء كان خبراً على خلاف العادة وعما يستغرب
من الأمر نحو أن تقول • ألا تعجب من فلان يدعي العظيم • وهو
يعيي باليسير • ويزعم انه شجاع • وهو يفزع من أدني شيء

ومما يحسن ذلك فيـه ويكثر الوعد والضمان كقول الرجل • أنا
أعطيك أنا أكفيك أنا أقوم بهـذا الأمر • وذلك أن من شأن من

تعده وتضمن له أن يعترضه الشك في تمام الوعد وفي الوفاء به فهو من
أحوج شيء الى التأكيد . وكذلك يكثر في المدح كقولك . أنت
تعطي الجزيل أنت تقرى في المحل أنت تجود حين لايجود أحد . وكما قال

ولأنت تفري ما خلقت وبعـض القوم يخلق ثم لايفري

وكقول الآخر * نحن في المشتاة ندعو الجفلى * وذلك ان من
شأن المادح أن يمنع السامعين من الشك فيما يمدح به ويباعدهم من الشبهة
وكذلك المفتخر ويزيدك بياناً انه اذا كان الفعل مما لايشك فيه ولا
ينكر بحال لم يكد يجيء على هذا الوجه ولكن يؤتى به غير مبنى على اسم
فاذا أخبرت بالخروج مثلا عن رجل من عادته أن يخرج في كل غداة
قلت . قد خرج . ولم تحتج الى ان تقول . هو قد خرج . ذلك لانه
ليس بشيء يشك فيه السامع فتحتاج ان تحققه والى ان تقدم فيه ذكر
المحدث عنه . وكذلك اذا علم السامع من حال رجل أنه على نية
الركوب والمضي الى موضع ولم يكن شك وتردد انه يركب أو لايركب
كان خبرك فيه أن تقول . قد ركب . ولا تقول . هو قد ركب .
فان جئت بمثل هذا فى صلة كلام ووضعته بعد واو الحال حسن حينئذ
وذلك قولك . جئته وهو قد ركب . وذاك أن الحكم يتغير اذا
صارت الجملة فى مثل هذا الموضع ويصير الأمر بمعرض الشك وذاك
انه انما يقول هذا من ظن أن يصادفه فى منزله وأن يصل اليه من قبل
أن يركب . فان قلت فانك قد تقول . جئته وقد ركب . بهذا المعنى
ومع هذا الشك . فان الشك لايقوى حينئذ قوته فى الوجه الاول أفلا
ترى انك اذا استبطأت انسانا فقلت . أتانا والشمس قد طلعت . كان
ذلك أبلغ فى استبطائك له من أن تقول . أتانا وقد طلعت الشمس .



وعكس هـذا انك اذا قلت . أتى والشمس لم تطلع . كان أقوى فى
وصفك له بالعجلة والمجيء قبل الوقت الذى ظن انه يجيء فيـه من أن
تقول . أتى ولم تطلع الشمس بعد . هذا وهو كلام لا يكاد يجيء إلا
نابياً وانما الكلام البليغ هو أن تبدأ بالاسم وتبني الفعل عليه كقوله
* قد اغتدى والطير لم تكلم * فاذا كان الفعل فيما بعد هذه الواو التي
يراد بها الحال مضارعاً لم يصلح إلا مبنياً على اسم كقولك . رأيتـه
وهو يكتب ودخلت عليه وهو على الحديث . وكقوله

تمززتها والديك يدعو صباحه اذا مابنوا نعش دنوا فتصوبوا

ليس يصلح شيء من ذلك إلا على ماتراه لو قلت . رأيته ويكتب
ودخلت عليه ويملي الحديث وتمززتها ويدعو الديك صباحه لم يكن شيئاً
ومما هو بهذه المنزلة فى انك تجد المعنى لايستقيم إلا على ماجاء عليه
من بناء الفعل على الاسم قوله تعالى (إن وليي الله الذى نزل الكتاب
وهو يتولى الصالحين) وقوله تعالى (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها
فهي تملى عليه بكرة وأصيلا) وقوله تعالى (وحشر لسليمان جنوده من
الجن والانس والطير فهم يوزعون) فانه لايخفى على من له ذوق انه لو
جيء فى ذلك بالفعل غير مبني على الاسم فقيل . ان وليي الله الذى نزل
الكتاب ويتولي الصالحين واكتتبها فتملى عليه وحشر لسليمان جنوده
من الجن والانس والطير فيوزعون ؟ لوجد اللفظ قد نبا عن المعنى
والمعنى قد زال عن صورته والحال التي ينبغي أن يكون عليها
واعلم ان هذا الصنيع يقتضي فى الفعل المنفي ما اقتضاه فى المثبت
فاذا قلت . أنت لاتحسن هذا ؟ كان أشد لنفي إحسان ذلك عنه من أن
تقول . لاتحسن هذا . ويكون الكلام فى الاول مع من هو أشد اعجاباً

بنفسه وأغرض دعوى فى انه يحسن حتى انك لو أتيت بانت فيما بعد تحسن فقلت ، لا تحسن أنت ؟ لم يكن له تلك القوة ؟ وكذلك قوله تعالى (والذين هم بربهم لايشركون) يفيد من التأكيد فى نفى الاشراك عنهم مالو قيل ، والذين لايشركون بربهم أو بربهم لايشركون ؟ لم يفد ذلك وكذا قوله تعالى (لقد حق القول على أكثرهم فهم لايؤمنون) وقوله تعالى (فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لايتساءلون) و(إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون)

ومما يرى تقديم الاسم فيه كاللازم (مثل) و(غير) فى نحو قوله

مثلك يثنى المزن عن صوبه ويسترد الدمع عن غربه

وقول الناس • مثلك رعى الحق والحرمة • وكقول الذى قال له الحجاج • لأحملنك على الأدهم : يريد القيد فقال على سبيل المغالطة ومثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب : وما أشبه ذلك مما لا يقصد فيه بمثل الي إنسان سوى الذى أضيف اليه ولكنهم يعنون ان كل من كان مثله في الحال والصفة كان من مقتضى القياس وموجب العرف والعادة أن يفعل ماذكر أو أن لايفعل : ومن أجل ان المعنى كذلك قال

ولم أقل مثلك أعنى به سواك يا فرداً بلا مشبه

وكذلك حكم (غير) اذا سلك به هذا المسلك فقيل . غيري يفعل ذاك . على معنى اني لا أفعله لا أن يومئ بغير الي انسان فيخبر عنه بأن يفعل كما قال * غيري بأكثر هذا الناس ينخدع * وذاك أنه معلوم انه لم يرد أن يعرض بواحد كان هناك فيستنقصه ويصفه بأنه مضعوف يغر ويخدع بل لم يرد الا أن يقول إني لست ممن ينخدع ويغتر وكذلك لم يرد أبو تمام بقوله

وغيرى يأكل المعروف سحتاً وتشحب عنده بيض الأيادى

أن يعرض مثلا بشاعر سواه فيزعم أن الذى قرف به عند الممدوح من انه هجاه كان من ذلك الشاعر لا منه هذا محال بل ليس الا انه نفى عن نفسه أن يكون ممن يكفر النعمة ويؤم . واستعمال مثل وغير على هذا السبيل شئ مركوز فى الطباع وهو جار فى عادة كل قوم فأنت الآن اذا تصفحت الكلام وجدت هذين الاسمين يقدمان أبداً على الفعل اذا نحي بهما هذا النحو الذي ذكرت لك وترى هذا المعنى لايستقيم فيهما اذا لم يقدما . أفلا ترى انك لو قلت ، يثني المزن عن صوبه مثلك ورعي الحق والحرمة مثلك ويحمل على الادهم والاشهب مثل الامير وينخدع غيرى بأكثر هذا الناس ويأكل غيري المعروف سحتا ، رأيت كلاما مقلوباً عن جهته . ومغيراً عن صورته ورأيت اللفظ قد نبا عن معناه ، ورأيت الطبع يأبى أن يرضاه

واعلم أن معك دستوراً لك فيه إن تأملت غنى عن كل ماسواه وهو أنه لايجوز أن يكون لنظم الكلام وترتيب أجزائه فى الاستفهام معنى لايكون له ذلك المعنى فى الخبر . وذاك ان الاستفهام استخبار والاستخبار هو طلب المخاطب أن يخبرك فاذا كان كذلك كان محالا أن يفترق الحال بين تقديم الاسم وتأخيره في الاستفهام فيكون المعنى اذا قلت . أزيد قام . غيره اذا قلت : أقام زيد : ثم لا يكون هذا الافتراق فى الخبر ويكون قولك « زيد قام » و« قام زيد » سواء ! ذاك لانه يؤدى الي أن تستعلمه أمراً لاسبيل فيه الى جواب وان تستثبته المعنى على وجه ليس عنده عبارة يثبته لك بها على ذلك الوجه وجملة الامر ان المعني في ادخالك حرف الاستفهام على الجملة من الكلام هو أنك تطلب أن

يقفك فى معني تلك الجملة ومؤداها على اثبات أو نفي . فاذا قلت . أزيد منطلق . فأنت تطلب أن يقول لك ؟ نعم هو منطلـق ، أو يقول ، لا ماهو منطلق . واذا كان ذلك كذلك كان محالا أن تكون الجمـلة اذا دخلتها همزة الاستفهام استخبارا عن المعنى على وجه لاتكون هي اذا نزعت منها الهمزة اخباراً به على ذلك الوجه فاعرفه

فصل

(هذا كلام في النكرة اذا قدمت على الفعل أو قدم الفعل عليها)

اذا قلت ، أجاءك رجل . فأنت تريد أن تسأله هل كان مجيء من أحد من الرجال اليه . فان قدمت الاسم فقلت أرجـل جاءك فانت تسأله عن جنس من جاءه أرجل هو أم امرأة ويكون هذا منك اذا كنت علمت أنه قد أتاه آت ولكنك لم تعـلم جنس ذلك الآتي فسبيلك فى ذلك سبيلك اذا أردت أن تعـرف عين الآتي فقلت . أزيد جاءك أم عمرو ، ولا يجوز تقديم الاسم في المسئلة الاولى لان تقديم الاسم يكون اذا كان السؤال عن الفاعل والسؤال عن الفاعل يكون إما عن عينـه أو عن جنسه ولا ثالث ، وإذ كان كذلك كان محالا ان تقـدم الاسم النكرة وأنت لاتريد السؤال عن الجنس لانه لايكون لسؤالك حينئذ متعلق من حيث لايبقى بعد الجنس الا العـين . والنكرة لاتدل على عين شيء فيسئل بها عنه . فان قلت ؟ أرجل طويل جاءك أم قصير . كان السؤال عن أن الجائي من جنس طوال الرجال أم قصارهم ؟ فان وصفت النكرة بالجملة فقلت . أرجل كنت عرفته من قبل أعطاك هذا أم رجل لم تعرفه ؟ كان السؤال عن المعطي أكان ممن عرفه قبل أم كان انسانا

لم تتقدم منه معرفة

واذ قد عرفت الحكم فى الابتداء بالنكرة فى الاستفهام فابن الخبر عليه . فاذا قلت . رجـل جاءنى . لم يصلح حتي تريد أن تعلمه ان الذى جاءك رجل لاامرأة ويكون كلامك مع من قد عرف أن قـد أتاك آت . فان لم ترد ذاك كان الواجب أن تقول جاءنى رجل فتقدم الفعل . وكذلك إن قلت . رجل طويل جاءنى . لم يستقم حتي يكون السامع قد ظن انه قد أتاك قصير أو نزلته منزلة من ظن ذلك . وقولهم شر أهر ذاناب . إنما قدم فيه (شر) لان المراد ان يعـلم ان الذى أهر ذا الناب هو من جنس الشر لاجنس الخير فجرى مجـري ان تقول رجل جاءنى . تريد أنه رجل لاامرأة . وقول العلماء انه انما يصلح لأنه بمعني « ماأهر ذا ناب الاشر » بيان لذلك . ألا ترى أنك لاتقول ماأتاني إلا رجل . الا حيث يتوهم السامع انه قد أتتك امرأة . ذاك لان الخـبر بنقض النـفي يكون حيث يراد ان يقصر الفعل على شيء وينفي عما عداه . فاذا قلت . ماجاءنى الا زيد . كان المعـني انك قد قصرت المجيء على زيد ونفيتـه عن كل من عـداه وانما يتصور قصر الفعل على معـلوم . ومتي لم يرد بالنكرة الجنس لم يقف منها السامع على معـلوم حتي يزعم اني أقصر له الفعل عليـه وأخبره وأنه كان منه دون غيره

واعلم ان لم نرد بما قلناه من انه انما حسن الابتـداء بالنكرة فى قولهم «شر أهر ذاناب» لانه أريد به الجنس أن معنى شروالشر سواء وانما أردنا أن الغرض من الكلام أن نبين ان الذى أهر ذا الناب هو من جنس الشر لاجنس الخير كما أنا اذا قلنا فى قولهم . أرجل أتاك

أم امرأة ان السؤال عن الجنس لم نرد بذلك انه بمنزلة أن يقال • الرجل أم المرأة أتاك • ولكنا نعني ان المعني على انك سألت عن الآتى أهو من جنس الرجال أم جنس النساء . فالنكرة اذن على أصلها من كونها لواحد من الجنس الا ان القصد منك لم يقع الى كونه واحدا وانما وقع الى كونه من جنس الرجال • وعكس هذا انك اذا قلت • أرجل أتاك أم رجلان • كان القصد منك الى كونه واحدا دون كونه رجلا فاعرف ذلك أصلا وهو انه قد يكون فى اللفظ دليل على أمرين ثم يقع القصد الى أحدهما دون الآخر فيصير ذلك الآخر بأن لم يدخل فى القصد كانه لم يدخل في دلالة اللفظ واذا اعتبرت ماقدمته من قول صاحب الكتاب انك قلت عبد الله فنبهته له ثم بنيت عليه الفعل وجدته يطابق هذا • وذاك أن التنبيه لايكون الا علي معلوم كما أن قصر الفعل لايكون الا على معلوم فاذا بدأت بالنكرة فقلت رجل وأنت لاتقصد بها الجنس وأن تعلم السامع ان الذي أردت بالحديث رجل لا امرأة كان محالا ان تقول • انى قدمته لأنبه المخاطب له لانه يخرج بك الى ان تقول • انى أردت أن أنبه السامع لشيء لايعلمه في جملة ولا تفصيل • وذلك مالا يشك فى استحالته فاعرفه

﴿ القول فى الحذف ﴾

هو باب دقيق المسلك . لطيف المأخذ . عجيب الامر . شبيه بالسحر . فانك تري به ترك الذكر . أفصح من الذكر . والصمت عن الافادة . أزيد للافادة . وتجدك أنطق ماتكون اذا لم تنطق . وأتم ماتكون بيانا اذا لم تبن . وهذه جملة قد تنكرها حتي تخبر . وتدفعها

حتى تنظر . وأنا أكتب لك بديئاً أمثلة مما عرض فيه الحذف ثم أنبهك على صحة ما أشرت اليه • وأقيم الحجة من ذلك عليه • صاحب الكتاب

اعتاد قلبك من ليلى عوائده وهاج أهواءك المكنونة الطلل
ربع قواء أذاع المعصرات به وكل حيران سار ماؤه خضل

قال . أراد ذاك ربع قواء أو هو ربع . قال ومثله قول الآخر

هل تعرف اليوم رسم الدار والطللا كما عرفت بجفن الصيقل الخللا
دار لمروة اذ أهلى وأهلهم . بالكانسية نرعي اللهو والغزلا

كأنه قال ! تلك دار . قال شيخنا رحمه الله ولم يحمل البيت الاول على ان الربع بدل من الطلل لان الربع أكثر من الطلل والشيء يبدل مما هو مثله أو أكثر منه فاما الشيء من أقل منه ففاسد لايتصور • وهذه طريقة مستمرة لهم اذا ذكروا الديار والمنازل كما يضمرون المبتدأ فيرفعون فقد يضمرون الفعل فينصبون كبيت الكتاب أيضاً

ديار مية اذ ميٌّ تساعفنا ولا يرى مثلها عجم ولا عرب

أنشده بنصب ديار على اضمار فعل كانه قال . اذكر ديار مية

ومن المواضع التي يطرد فيها حذف المبتدأ القطع والاستئناف يبدؤن بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره ثم يدعون الكلام الاول ويستأنفون كلاما آخر واذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الامر بخبر من غير مبتدإ مثال ذلك قوله

وعلمت أنى يوم ذا ك منازل كعبا ونهدا
قوم اذا لبسوا الحديد تنمروا حلقاً وقداً

وقوله

هم حلوا من الشرف المعلى　　ومن حسب العشيرة حيث شاؤا
بناة مكارم وأساة كلم　　دماؤهم من الكلب الشفاء

وقوله

رآني على مابي عميلة فاشتكي　　الى حاله حالى أسر كما جهر
غلام رماه الله بالخير مقبلا　　له سيمياء لاتشق على البصر

وقوله

اذا ذكر ابنا العنبرية لم يضق　　ذراعي وألقى باسته من أفاخر
هلالان حمالان فى كل شتوة　　من الثقل مالا تستطيع الأباعر

حمالان خبر ثان وليس بصفة كما يكون لو قلت مثلا . رجلان حمالان.

ومما اعتيد فيه أن يجيء خبراً قد بني على مبتدا محذوف قولهم بعد ان يذكروا الرجل . فتي من صفته كذا وأغر من صفته كيت وكيت ! كقوله

ألاالافتى بعد ابن ناشرة الفتى　　ولا عرف الا قد تولى وأدبرا
فتي حنظلى ماتزال ركابه　　تجود بمعروف وتنكر منكرا

وقوله

سأشكر عمراً ان تراخت منيتى　　أيادى لم تمنن وان هي جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه　　ولامظهر الشكوى اذا النعل زلت

ومن ذلك قول جميل

وهل بثينة ياللناس قاضيتي　　ديني وفاعلة خيراً فأجزيها
ترنو بعينى مهاة أقصدت بهما　　قلبى عشية ترميني وأرميها
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة　　ريا العظام بلين العيش غاذيها

وقوله

انى عشية رحت وهي حزينة　　تشكوا الى صبابة لصبور
وتقول بت عندى فديتك ليلة　　أشكوا اليك فان ذاك يسير
غراء مبسام كأن حديثها　　در تحدر نظمه منثور
محطوطة المتنين مضمرة الحشا　　ريا الروادف خلقها ممكور

وقول الاقيشر فى ابن عم له موسر سأله فمنعه وقال . كم أعطيك مالى وأنت تنفقه فيما لايعنيك والله لا أعطيك . فتركه حتى اجتمع القوم في ناديهم وهو فيهم فشكاه الى القوم وذمه فوثب اليه ابن عمه فلطمه فانشأ يقول

سريع الى ابن العم يلطم وجهه　　وليس الى داعي الندى بسريع
حريص على الدنيا مضيع لدينه　　وليس لما في بيته بمضيع

فتأمل الآن هذه الابيات كلها واستقرها واحداً واحداً وانظر الى موقعها فى نفسك والى ماتجده من اللطف والظرف اذا أنت مررت بموضع الحذف منها ثم قلبت النفس عما تجد وألطفت النظر فيما تحس به ثم تكلف أن ترد ماحذف الشاعر وأن تخرجه الى لفظك وتوقعه فى سمعك فانك تعلم ان الذى قلت كما قلت وأن رب حذف هو قلادة الجيد . وقاعدة التجويد. وان أردت ماهو أصدق في ذلك شهادة وأدل دلالة فانظر الى قول عبد الله ابن الزبير يذكر غريما له قد ألح عليه •

عرضت على زيد ليأخذ بعض ما　　يحاوله قبل اعتراض الشواغل
فدب دبيب البغل يألم ظهره　　وقال تعلم انى غير فاعل
تثاءب حتي قلت داسع نفسه　　وأخرج أنيابا له كالمعاول

الاصل حتي قلت هو داسع نفسه ؟ أى حسبته من شدة التثاؤب ومما به من الجهد يقذف نفسه من جوفه ويخرجها من صدره كما يدسع

البعير جرته ثم انك ترى نصبة الكلام وهيئتـه تروم منك ان تنسى هذا المبتدأ وتباعده عن وهمك وتجتهـد ان لا يدور في خلدك . ولا يعرض لخاطرك : وتراك كانك تتوقاه توقي الشيء يكره مكانه • والثقيل يخشى هجومه . ومن لطيف الحذف قول بكر بن النطاح .

العين تبدي الحب والبغضا	وتظهر الابرام والنقضا
درة ما أنصـفتني في الهوي	ولا رحمت الجسـد المنضي
غضبي ولا والله يا أهلهـا	لا أطعم البـارد أو ترضي

يقول في جارية كان يحبها وسعى به الي أهلها فمنعوها منه والمقصود قوله (غضبى) وذلك أن التقدير «هي غضبى» وغضبى هي» لا محالة الا أنك تري النفس كيف تتفادي من إظهار هـذا المحذوف وكيف تأنس الي اضماره وتري الملاحـة كيف تذهب ان أنت رمت التكلم به . ومن جيد الامثلة في هذا الباب قول الآخر يخاطب امرأته وقد لامته على الجود .

قالت سمية قد غويت بان رأت	حقاً تناوب مالنا ووفوداً
غي لعمرك لا أزال أعوده	مادام مال عندنا موجوداً

المعنى (ذاك غي لا أزال أعود اليـه فدعي عنك لومي) واذ قد عرفت هذه الجملة من حال الحذف في المبتدا فاعلم ان ذلك سبيله في كل شيء فما من اسم أو فعل تجده قد حذف ثم أصيب به موضعه وحذف في الحال ينبغي أن يحذف فيها الا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره وترى اضماره في النفس أولي وآنس من النطق به

وإذ قد بدأنا في الحذف بذكر المبتدا وهو حذف اسم اذ لا يكون المبتدا إلا اسما فاني أتبع ذلك ذكر المفعول به اذا حذف خصوصاً فان

الحاجة اليه أمس . وهو بما نحن بصدده أخص . واللطائف كأنها فيه أكثر . وما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب وأظهر . وههنا اصل يجب ضبطه وهو ان حال الفعل مع المفعول الذي يتعدى اليه حاله مع الفاعل . وكما انك اذا قلت . ضرب زيد . فاسندت الفعل الى الفاعل كان غرضك من ذلك ان تثبت الضرب فعلا له لا ان تفيـد وجود الضرب في نفسه وعلى الاطلاق . كذلك اذا عديت الفعل الي المفعول فقلت . ضرب زيد عمرا . كان غرضك ان تفيـد التباس الضرب الواقع من الاول بالثاني ووقوعه عليه فقد اجتمع الفاعل والمفعول في ان عمـل الفعل فيهما انما كان من أجل أن يعلم التباس المعنى الذي اشتق منـه بهما . فعمل الرفع في الفاعل ليعلم التباس الضرب به من جهة وقوعه منه والنصب في المفعول ليعلم التباسه به من جهة وقوعه عليه ولم يكن ذلك ليعلم وقوع الضرب في نفسه بل اذا أريد الاخبار بوقوع الضرب ووجوده في الجملة من غير ان ينسب الي فاعل أو مفعول أو يتعرض لبيان ذلك فالعبارة فيه أن يقال كان ضرب أو وقـع ضرب أو وجد ضرب وما شاكل ذلك من ألفاظ تفيد الوجود المجرد في الشيء

واذ قد عرفت هـذه الجملة فاعلم ان أغراض النـاس تختلف في ذكر الافعال المتعـدية فهم يذكرونها تارة ومرادهم ان يقتصروا على إثبات المعاني التي اشـتقت منها للفاعلين من غير ان يتعـرضوا لذكر المفعولين • فاذا كان الامر كذلك كان الفعل المتعدي كغير المتعدي مثلا في انك لا تري له مفعولا لا لفظا ولا تقديراً • ومثال ذلك قول الناس فلان يحل ويعقد • ويأمر وينهى • ويضر وينفع • وكقولهم هو يعطي ويجزل • ويقري ويضيف • المعني في جميع ذلك على اثبات المعـني في

نفسه للشيَ على الاطلاق وعلى الجملة من غير ان يتعرض لحديث المفعول حتى كانك قلت صار اليه الحل والعقد وصار بحيث يكون منه حل وعقد وأمر ونهي وضر ونفع وعلى هـذا القياس • وعلى ذلك قوله تعالي (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) المعنى هل يستوى من له علم ومن لاعلم له من غير ان يقصد النص على معـلوم • وكذلك قوله تعالى (وأنه هو أضحك وأبكي وأنه هو أمات وأحيى) وقوله (وأنه هو أغنى وأقني) المعنى هو الذى منه الاحياء والاماتة والاغنا والاقناء وهكذا كل موضع كان القصد فيه أن يثبت المعني في نفسه فعلا للشيء وأن يخبر بأن من شأنه أن يكون منه أولا يكون الامنه أو لايكون منه فان الفعل لايعدى هناك لان تعديته تنقض الغرض وتغير المعـنى • ألا ترى أنك اذا قلت هو يعطي الدنانير كان المعنى على أنك قصدت أن تعلم السامع ان الدنانير تدخل في عطائه أو انه يعطيها خصوصاً دون غيرها وكان غرضك على الجملة بيان جنس ماتناوله الاعطاء لاالاعطاء في نفسه ولم يكن كلامك مع من نفى أن يكون كان منه اعطاء بوجه من الوجوه بل مع من أثبت له إعطاء الا أنه لم يثبت إعطاء الدنانير فاعرف ذلك فانه أصل كبير عظيم النفع • فهذا قسم من خلو الفعل عن المفعول وهو أن لايكون له مفعول يمكن النص عليه

وقسم ثان وهو أن يكون له مفعول مقصود قصده معلوم الا أنه يحذف من اللفظ لدليل الحال عليه وينقسم الى جلي لاصنعة فيه وخفي تدخله الصـنعة • فمثال الجلى قولهم أصغيت اليه وهـم يريدون أذنى وأغضيت عليه ، والمعنى جفنى وأما الخفي الذى تدخله الصنعة فيتفنن ويتنوع فنوع منه ان تذكر الفعل وفى نفسك له مفعول مخصوص قد

علم مكانه إما لجرى ذكر أو دليل حال الا أنك تنسيه نفسك وتخفيه وتوهم أنك لم تذكر ذلك الفعل الا لان تثبت نفس معناه من غير أن تعديه الي شئ أو تعرض فيه لمفعول ومثاله قول البحترى

شجو حساده وغيظ عداه   أن يرى مبصر ويسمع واع

المعنى لامحالة أن يرى مبصر محاسنه ويسمع واع أخباره وأوصافه ولكنك تعلم على ذلك أنه كان يسرق علم ذلك من نفسه ويدفع صورته عن وهمه ليحصل له معني شريف وغرض خاص وقال انه يمدح خليفة وهو المعتز ويعرض بخليفة وهو المستعين فاراد ان يقول • ان محاسن المعتز وفضائله المحاسن والفضائل يكفي فيها أن يقع عليها بصر ويعيها سمع حتي يعلم انه المستحق للخلافة والفرد الوحيد الذى ليس لأحـد ان ينازعه مرتبتها فانت ترى حساده وليس شيء أشجي لهم وأغيظ من علمهم بان ههنا مبصراً يري وسامعاً يعي حتى ليتمنون أن لايكون فى الدنيا من له عين يبصر بها وأذن يعى معها كى يخفي مكان اسـتحقاقه لشرف الامامة فيجدوا بذلك سبيلا الى منازعته اياها

(وهذا نوع آخر منه) وهو أن يكون معك مفعول معلوم مقصود قصده قد علم أنه ليس للفعل الذى ذكرت مفعول سواه بدليل الحال أوماسبق من الكلام الا أنك تطرحه وتتناساه وتدعه يلزم ضمير النفس لغرض غير الذى مضي وذلك الغـرض ان تتوفر العناية على إثبات الفعل للفاعل وتخلص له وتنصرف بجملتها وكما هي اليـه • ومثاله قول عمرو بن معدى كرب

فلو أن قومى أنطقتني رماحهم   نطقت ولكن الرماح أجرت

«أجرت» فعل متعد ومعلوم انه لو عداه لما عداه الا الى ضمير

المتكلم نحو ولكن الرماح أجرتني وأنه لايتصور أن يكون ههنا شيء
آخر يتعدي اليه لاستحالة أن يقول • فلو أن قومي أنطقتني رماحهم
ثم يقول • ولكن الرماح أجرت غيري • الا أنك تجد المعنى يلزمك
أن لاتنطق بهذا المفعول ولا تخرجه الى لفظك والسبب في ذلك ان
تعديتك له توهم ماهو خلاف الغرض وذلك ان الغرض هو أن يثبت
انه كان من الرماح إجرار وحبس الالسن عن النطق وان يصحح
وجود ذلك • ولو قال (أجرتني) جاز أن يتوهم أنه لم يعن بان يثبت
للرماح إجراراً بل الذي عناه ان يتبين انها أجرته فقد يذكر الفعل
كثيراً والغرض منه ذكر المفعول مثاله انك تقول • أضربت زيداً •
وأنت لاتنكر أن يكون كان من المخاطب ضرب وانما تنكر ان يكون
وقع الضرب منه على زيد وان يستجيز ذلك او يستطيعه فلما كان في
تعدية (اجرت) مايوهم ذلك وقف فلم يعد البتة ولم ينطق بالمفعول
لتخلص العناية لاثبات الاجرار للرماح ويصحح انه كان منها وتسلم
بكليتها لذلك ومثله قول جرير

امنيت المنى وخلبت حتى   تركت ضمير قلبي مستهاما

الغرض ان يثبت انه كان منها تمنية وخلابة وأن يقول لها : أهكذا
تصنعين وهذه حيلتك في فتنة الناس ؟ ومن بارع ذلك ونادره ماتجده
في هذه الابيات روى المرزباني في كتاب الشعر باسناد قال لما تشاغل
ابو بكر الصديق رضى الله عنه باهل الردة استبطأته الانصار فقال
إما كلفتموني اخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فوالله ماذاك عندي
ولا عند احد من الناس ولكن والله ما أوتي من مودة لكم ولاحسن
رأي فيكم وكيف لانحبكم فوالله ماوجدت مثلا لنا ولكم الا ماقال طفيل

الغنوي لبني جعفر بن كلاب •

جزا الله عنا جعفراً حين أزلقت   بنا نعلنا في الواطئين فزلت
أبوا ان يملونا ولو ان أمنا   تلاقي الذي لاقوه منا لملت
هم خلطونا بالنفوس والجؤا   الى حجرات أدفأت وأظلت

فيها حذف مفعول مقصود قصده في أربعة مواضع قوله • لملت
والجؤا وأدفأت وأظلت • لان الاصل « لملتنا والجؤنا الى حجرات ادفأتنا
وأظلتنا » الا ان الحال على ما ذكرت لك من انه في حد المتناهي حتى
كأن لاقصد الى مفعول وكأن الفعل قد أبهم أمره فلم يقصد به قصد
شيء يقع عليه كما يكون اذا قلت • قد مل فلان • تريد ان تقول •
قد دخله الملال • من غير ان تخص شيئاً بل لا تريد على ان تجعل
الملال من صفته وكما تقول • هذا بيت يدفئ ويظل • تريد انه بهذه الصفة
واعلم ان لك في قوله • أجرت ولملت • فائدة أخرى زائدة على
ماذكرت من توفير العناية على إثبات الفعل وهي ان تقول • كان من
سوء بلاء القوم ومن تكذيبهم عن القتال مايجر مثله وماالقضية فيه انه
لايتفق على قوم الاخرس شاعرهم فلم يستطع نطقاً • وتعديتك الفعل
تمنع من هذا المعنى لانك اذا قلت • ولكن الرماح أجرتني • لم يمكن
ان يتأول على معنى انه كان منها ماشأن مثله أن يجر قضية مستمرة في
كل شاعر قوم بل قد يجوز أن يوجد مثله في قوم آخرين فلا يجر
شاعرهم • ونظيره انك تقول • قد كان منك مايؤلم • تريد ماالشرط
في مثله أن يؤلم كل أحد وكل انسان • ولو قلت • ما يؤلمني • لم يفد
ذلك لانه قد يجوز أن يؤلمك الشيء لا يؤلم غيرك • وهكذا قوله • ولو
أن أمنا تلاقي الذي لاقوه منا لملت • يتضمن ان من حكم مثله في كل

أم ان تمل وتسأم وان المشقة فى ذلك الى حد يعلم ان الام تمل له الابن وتتبرم به مع ما فى طباع الامهات من الصبر على المكاره فى مصالح الاولاد وذلك أنه وان قال (أمنا) فان المعني على ان ذلك حكم كل أم مع أولادها • ولو قلت (لملتنا) لم يحتمل ذلك لانه يجرى مجرى أن تقول لو لقيت أمنا ذلك لدخلها مايملها منا • واذا قلت • مايملها منا • فقيدت لم يصلح لان يراد به معنى العموم وانه بحيث يمل كل أم من كل ابن وكذلك قوله • الي حجرات أدأت وأظلت. لان فيه معني قولك حجرات من شأن مثلها ان تدفئ وتظل أى هي بالصفة التى اذا كان البيت عليها أدفأ وأظل . ولا يجيء هذا المعنى مع إظهار المفعول اذ لاتقول . حجرات من شأن مثلها ان تدفئنا وتظلنا هذا لغو من الكلام فاعرف هذه النكتة فانك تجدها فى كثير من هذا الفن مضمومة الى المعني الآخر الذى هو توفير العناية على اثبات الفعل والدلالة على ان القصد من ذكر الفعل ان تثبته لفاعله لاان تعلم التباسه بمفعوله

وان أردت ان تزداد تبييناً لهذا الاصل أعني وجوب ان تسقط المفعول لتتوفر العناية علي إثبات الفعل لفاعله ولايدخلها شوب فانظر الى قوله تعالى (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ماخطبكما قالتا لانسقى حتي يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير • فسقى لهما ثم تولى الى الظل) ففيها حذف مفعول فى أربعة مواضع اذ المعنى وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم وامرأتين تذودان غنمهما وقالتا لانسقى غنمنا فسقى لهما غنمهما . ثم انه لايخفى على ذي بصر انه ليس فى ذلك كله الا أن يترك ذكره ويؤتي بالفعل مطلقاً وما ذاك الا ان الغرض فى

ان يعلم انه كان من الناس فى تلك الحال سقى ومن المرأتين ذود وانهما قالتا لا يكون منا سقى حتى يصدر الرعاء . وانه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقى . فاما ما كان المسقى أغنما أم إبلا أم غير ذلك فخارج عن الغرض وموهم خلافه وذاك انه لو قيل . وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما . جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود بل من حيث هو ذود غنم حتي لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود كما انك اذا قلت مالك تمنع أخاك . كنت منكراً المنع لا من حيث هو منع بل من حيث هو منع أخ فاعرفه تعلم انك لم تجد لحذف المفعول فى هذا النحو من الروعة والحسن ماوجدت الا لان فى حذفه وترك ذكره فائدة جليلة وان الغرض لايصح الا على تركه•

ومما هو كانه نوع آخر غير مامضي قول البحتري

اذا بعدت أبلت وان قربت شفت ... فهجرانها يبلى ولقيانها يشفى

قد علم ان المعنى اذا بعدت عنى أبلتنى وان قربت منى شفتنى الا انك تجد الشعر يأبي ذكر ذلك ويوجب اطراحه وذلك لانه أراد ان يجعل البلى كانه واجب فى بعادها ان يوجبه ويجلبه وكانه كالطبيعة فيه وكذلك حال الشفاء مع القرب حتي كانه قال أتدري مابعادها . هو الداء المضني . وماقربها ، هو الشفاء والبرء من كل داء . ولا سبيل لك الي هذه اللطيفة وهذه النكتة الا بحذف المفعول البتة فاعرفه وليس لنتائج هذا الحذف أعنى حذف المفعول نهاية فانه طريق الي ضروب من الصنعة والي لطائف لاتحصي

(وهذا نوع منه آخر) اعلم ان ههنا بابا من الاضمار والحذف يسمي الاضمار على شريطة التفسير وذلك مثل قولهم • اكرمنى

وأكرمت عبد الله أردت أكرمني عبد الله وأكرمت عبد الله ثم تركت ذكره في الاول استغناء بذكره في الثاني فهذا طريق معروف ومذهب ظاهر وشيء لا يعبأ به ويظن أنه ليس فيه أكثر مما تريك الامثلة المذكورة منه وفيه اذا أنت طلبت الشيء من معدنه من دقيق الصنعة ومن جليل الفائدة مالا تجده الا في كلام الفحول فمن لطيف ذلك ونادره قول البحتري

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم   كرما ولم تهدم مآثر خالد

الاصل لامحالة لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ثم حذف ذلك من الاول استغناء بدلالته في الثاني عليه ثم هو على ماتراه وتعلمه من الحسن والغرابة وهو على ماذكرت لك من أن الواجب في حكم البلاغة أن لا ينطق بالمحذوف ولا يظهر الى اللفظ فليس يخفى أنك لو رجعت فيه الى ما هو أصله فقلت . لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها صرت الى كلام غث والى شيء يمجه السمع وتعافه النفس وذلك أن في البيان اذا ورد بعد الابهام وبعد التحريك له أبداً لطفاً ونبلا لا يكون اذا لم يتقدم مايحرك وأنت اذا قلت لو شئت . علم السامع انك قد علقت هذه المشيئة في المعنى بشيء فهو يضع في نفسه أن ههنا شيئاً تقتضي مشيئته له أن يكون أو أن لا يكون فاذا قلت لم تفسد سماحة حاتم . عرف ذلك الشيء ومجيء المشيئة بعد لو وبعد حروف الجزاء هكذا موقوفة غير معداة الى شيء كثير شائع كقوله تعالى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) (ولو شاء لهداكم أجمعين) والتقدير في ذلك كله على ماذكرت فالاصل لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم ولو شاء أن يهديكم أجمعين لهداكم الا أن البلاغة في أن يجاء به كذلك محذوفا وقد يتفق في بعضه

أن يكون اظهار المفعول هو الاحسن وذلك نحو قول الشاعر

ولو شئت أن أبكي دما لبكيته   عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

فقياس هذا لو كان على حد (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) أن يقول لو شئت بكيت دما ولكنه كانه ترك تلك الطريقة وعدل الى هذه لانها أحسن في هذا الكلام خصوصاً . وسبب حسنه أنه كانه بدع عجيب أن يشاء الانسان أن يبكي دما فلما كان كذلك كان الاولى أن يصرح بذكره ليقرره في نفس السامع ويؤنسه به

واذا استقريت وجدت الامر كذلك أبداً متى كان مفعول المشيئة أمراً عظيما أو بديعاً غريباً كان الاحسن أن يذكر ولا يضمر يقول الرجل يخبر عن عزة نفسه . لو شئت ان أرد على الامير رددت ولو شئت ان ألقى الخليفة كل يوم لقيت فاذا لم يكن مما يكبره السامع فالحذف كقولك لو شئت خرجت ولو شئت قمت ولو شئت أنصفت ولو شئت قلت وفي التنزيل (لو نشاء لقلنا مثل هذا) وكذا تقول لو شئت كنت كزيد قال

لو شئت كنت ككرز في عبادته   أو كابن طارق حول البيت والحرم

وكذا الحكم في غيره من حروف المجازاة أن تقول . ان شئت قلت وان أردت دفعت قال الله تعالى (فإن يشأ الله يختم على قلبك) وقال عز اسمه (من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) ونظائر ذلك من الآي ترى الحذف فيها المستمر ومما يعلم أن ليس فيه لغير الحذف وجه قول طرفة

وان شئت لم ترقل وان شئت أرقلت   مخافة ملوي من القد محصد

وقول حميد

اذا شئت غنتني باجزاع بيشة أو الزرق من تثليث أو بيلملما
مطوقة ورقاء تسجع كلما دنا الصيف وانجاب الربيع فأنجما

وقول البحتري

اذا شاء غادي صرمة أو غدا على عقائل سرب أو تقنص ربربا

وقوله

لو شئت عدت بلاد نجد عودة فحللت بين عقيقه وزروده

معلوم أنك لو قلت . وان شئت أن لا ترقل لم ترقل أو قلت اذا شئت أن تغنيني باجزاع بيشة غنتني واذا شاء أن يغادي صرمة غادي ولو شئت أن تعود بلاد نجد عودة عدتها . أذهبت الماء والرونق وخرجت الى كلام غث ولفظ رث وأما قول الجوهري

فلم يبق مني الشوق غير تفكري فلو شئت أن أبكي بكيت تفكرا

فقد نحا به نحو قوله . ولو شئت أن أبكي دما لبكيته . فأظهر مفعول شئت ولم يقل فلو شئت بكيت تفكراً . لالاجل ان له غرضاً لا يتم الا بذكر المفعول وذلك انه لم يرد أن يقول . ولو شئت أن أبكي تفكراً بكيت كذلك ولكنه أراد أن يقول قد أفناني النحول فلم يبق مني وفي غير خواطر تجول حتى لو شئت بكاء فمريت شؤوني وعصرت عيني ليسيل منها دمع لم أجده ويخرج بدل الدمع التفكر فالبكاء الذي أراد ايقاع المشيئة عليه مطلق مبهم غير معدي الى التفكر البتة والبكاء الثاني مقيد معدي الى التفكر واذا كان الامر كذلك صار الثاني كأنه شيء غير الاول وجري مجري أن تقول لو شئت أن تعطي درهما اعطيت درهمين فى ان الثاني لا يصلح ان يكون تفسيراً للاول

واعلم ان هذا الذي ذكرنا ليس بصريح «اكرمت وأكرمني عبد

الله ولكنه شبيه به فى انه انما حذف الذي حذف من مفعول المشيئة والارادة لان الذي يأتي في جواب (لو) وأخواتها يدل عليه

وإذا أردت ما هو صريح في ذلك ثم هو نادر لطيف ينطوي على معنى دقيق وفائدة جليلة فانظر الى بيت البحتري

قد طلبنا فلم نجد لك فى السؤ دد والمجد والمكارم مثلا

المعنى قد طلبنا لك مثلا ثم حذف لان ذكره فى الثاني يدل عليه ثم ان في المجيء به كذلك من الحسن والمزية والروعة مالا يخفى. ولو انه قال طلبنا لك في السؤدد والمجد والمكارم مثلا فلم نجده لم تر من هذا الحسن الذي تراه شيئاً . وسبب ذلك ان الذي هو الاصل في المدح والغرض بالحقيقة هو نفي الوجود عن المثل فاما الطلب فكالشيء يذكر ليبنى عليه الغرض ويؤكد به أمره . واذا كان هذا كذلك فلو أنه قال قد طلبنا لك فى السؤدد والمجد والمكارم مثلا فلم نجده لكان يقول قد ترك أن يوقع نفي الوجود على صريح لفظ المثل وأوقعه على ضميره ولن تبلغ الكناية مبلغ الصريح ابدا .

ويبين هذا كلام ذكره أبو عثمان الجاحظ في كتاب البيان والتبيين وانا أكتب لك الفصل حتى يستبين الذى هو المراد قال « والسنة فى خطبة النكاح أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب ألا ترى ان قيس بن خارجة لما ضرب بسيفه مؤخرة راحلة الحاملين فى شأن حمالة داحس وقال مالي فيها أيها العشمتان قالا بل ما عندك قال عندى قري كل نازل ورضى كل ساخط . وخطبة من لدن تطلع الشمس الى أن تغرب . آمر فيها بالتواصل . وأنهي فيها عن التقاطع . قالوا فخطب يوماً الى الليل فما أعاد كلمة ولا معنى . فقيل لابي يعقوب هلا اكتفى بالامر

بالتواصل عن النهي عن التقاطع أو ليس الامر بالصلة هو النهي عن القطيعة؟ قال . أو ما علمت ان الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الايضاح والتكشيف » انتهى الفصل الذي أردت أن أكتبه فقد بصرك هذا ان لن يكون ايقاع نفي الوجود على صريح لفظ المثل كايقاعه على ضميره

وإذ قد عرفت هذا فان هذا المعنى بعينه قد أوجب في بيت ذي الرمة أن يضع اللفظ على عكس ما وضعه البحتري فيعمل الاول من الفعلين وذلك قوله

ولم أمدح لارضيه بشعري   لئيما أن يكون أصاب مالا

أعمل «لم أمدح» الذي هو الاول في صريح لفظ اللئيم و«أرضي» الذي هو الثاني في ضميره وذلك لان إيقاع نفي المدح على اللئيم صريحاً والمجيء به مكشوفاً ظاهراً هو الواجب من حيث كان أصل الغرض وكان الارضاء تعليلا له . ولو أنه قال ولم أمدح لارضي بشعري لئيما . لكان يقول قد أبهم الامر فيما هو الاصل وابانه فيما ليس بالاصل فاعرفه . ولهذا الذي ذكرنا من ان للتصريح عملا لا يكون مثل ذلك العمل للكناية كان لاعادة اللفظ في مثل قوله تعالى « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » وقوله تعالى «قل هو الله أحد الله الصمد » من الحسن والبهجة ومن الفخامة والنبل ما لا يخفى موضعه على بصير وكان لو ترك فيه الاظهار الى الاضمار فقيل . وبالحق أنزلناه وبه نزل. وقل هو الله أحد هو الصمد . لعدمت الذي انت واجده الآن

فصل

قد بان الآن واتضح لمن نظر نظر المتثبت الحصيف الراغب في اقتداح زناد العقل ؛ والازدياد من الفضل ، ومن شأنه التوق الى أن يعرف الاشياء على حقائقها ؛ ويتغلغل الى دقائقها ؛ ويربأ بنفسه عن مرتبة المقلد الذي يجري مع الظاهر ! ولا يعدو الذي وقع في أول الخاطر ، ان الذي قلت في شأن الحذف وفي تفخيم أمره ؛ والتنويه بذكره ؛ وان مأخذه مأخذ « يشبه السحر ! ويبهر الفكر » كالذي قلت وهذا فن آخر من معانيه عجيب وأنا ذاكره لك قال البحتري في قصيدته التي أولها   *أعن سفه يوم الابيرق أم حلم*
وهو يذكر محاماة الممدوح عليه وصيانته له ودفعه نوائب الزمان عنه !

وكم ذدت عني من تحامل حادث   وسورة أيام حززن الى العظم

الاصل لا محالة حززن اللحم الى العظم الا ان في مجيئه به محذوفاً واسقاطه له من النطق وتركه في الضمير مزية عجيبة وفائدة جليلة وذاك أن من حذق الشاعر أن يوقع المعنى في نفس السامع ايقاعاً يمنعه به من أن يتوهم في بدء الامر شيئاً غير المراد ثم ينصرف الى المراد ومعلوم انه لو أظهر المفعول فقال وسورة أيام حززن اللحم الى العظم ؛ لجاز أن يقع في وهم السامع الى أن يجيء الى قوله ؛ الى العظم ؛ ان هذا الحز كان في بعض اللحم دون كله وانه قطع ما يلي الجلد ولم ينته الى ما يلي العظم فلما كان كذلك ترك ذكر اللحم وأسقطه من اللفظ ليبرئ السامع من هذا الوهم ويجعله بحيث يقع المعنى منه في أنف الفهم ويتصور في نفسه من أول الامر ان الحز مضى في اللحم حتى لم يرده الا

العظم • أفيكون دليل أوضح من هذا وأبين وأجلى في صحة ماذكرت لك من انك قد ترى الذكر أفصح من الذكر والامتناع من أن يبرز للفظ من الضمير ؟ أحسن للتصوير !

فصل

القول على فروق في الخبر

أول ماينبغي أن يعلم منه أنه يقسم الى خبر هو جزء من الجملة لا تتم الفائده دونه وخبر ليس بجزء من الجملة ولكنه زيادة في خبر آخر سابق له . فالاول خبر المبتدا كمنطلق في قولك : زيد منطلق : والفعل كقولك ، خرج زيد . فكل واحد من هذين جزء من الجملة وهو الاصل في الفائدة والثاني هو الحال كقولك جاءني زيد راكباً . وذاك لان الحال خبر في الحقيقة من حيث انك تثبت بها المعنى الذى الحال كما تثبته بخبر المبتدا للمبتدا وبالفعل للفاعل . ألا تراك قد أثبت الركوب في قولك . جاني زيد راكباً . لزيد الا أن الفرق أنك جئت به لتزيد معنى فى اخبارك عنه بالمجيء وهو أن تجعله بهذه الهيئة في مجيئه ولم تجرد اثباتك للركوب ولم تباشره به بل ابتدأت فأثبت المجيء ثم وصلت به الركوب فالتبس به الاثبات على سبيل التبع للمجيء وبشرط أن يكون في صلته . وأما في الخبر المطلق نحو (زيد منطلق وخرج عمرو) فانك مثبت للمعنى إثباتاً جردته له وجعلته يباشره من غير واسطة ومن غير أن يتسبب بغيره اليه فاعرفه :

واذ قد عرفت هذا الفرق فالذي يليه من فروق الخبر هو الفرق بين الاثبات اذا كان بالاسم وبينه اذا كان بالفعل وهو فرق لطيف تمس

الحاجة في علم البلاغة اليه . وبيانه ان موضوع الاسم على ان يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء فاذا قلت . زيد منطلق . فقد أثبت الانطلاق فعلا له من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئاً فشيئاً بل يكون المعني فيه كالمعنى في قولك . زيد طويل وعمر وقصير . فكما لا يقصد ههنا الى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث بل توجبهما وتثبتهما فقط وتقضي بوجودهما على الاطلاق كذلك لا تتعرض في قولك . زيد منطلق ، لأكثر من اثباته لزيد

وأما الفعل فانه يقصد فيه الى ذلك فاذا قلت ، زيد ها هو ذا ينطلق فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءا فجزءا وجعلته يزاوله ويزجيه وان شئت أن تحس الفرق بينهما من حيث يلطف فتأمل هذا البيت .

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا   لكن يمر عليها وهو منطلق

هذا هو الحسن اللائق بالمعنى ولو قلته بالفعل . لكن يمر عليها وهو ينطلق . لم يحسن . واذا أردت أن تعتبره بحيث لا يخفى أن أحدهما لا يصلح في موضع صاحبه فانظر الى قوله تعالى (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) فان أحداً لا يشك في امتناع الفعل ههنا وان قولنا ، كلبهم يبسط ذراعيه ، لا يؤدى الغرض وليس ذلك الا لان الفعل يقتضي مزاولة وتجدد الصفة في الوقت ويقتضى الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل ومعنى يحدث شيئاً فشيئاً ولا فرق بين (وكلبهم باسط) وبين أن يقول . وكلبهم واحد . مثلا في أنك لا تثبت مزاولة ولا تجعل الكلب يفعل شيئاً بل تثبته بصفة هو عليها فالغرض إذن تأدية هيئة الكلب ، ومتى اعتبرت الحال في

الصفات المشبهة وجدت الفرق ظاهراً بيناً ولم يعترضك الشك في أن أحدهما لا يصلح في موضع صاحبه فاذا قلت. زيد طويل وعمرو قصير لم يصلح مكانه يطول ويقصر وانما تقول . يطول ويقصر . اذا كان الحديث عن شيء يزيد وينمو كالشجر والنبات والصبى ونحو ذلك مما يتجدد فيه الطول أو يحدث فيه القصر فأما وانت تحدث عن هيئة ثابتة وعن شيء قد استقر طوله ولم يكن ثم تزايد وتجدد فلا يصلح فيه الا الاسم .

واذا ثبت الفرق بين الشيئين في مواضع كثيرة وظهر الامر بان ترى أحدهما لا يصلح في موضع صاحبه وجب أن تقضي بثبوت الفرق حيث ترى أحدهما قد صلح في مكان الآخر وتعلم أن المعنى مع أحدهما غيره مع الآخر كما هو العبرة في حمل الخفيّ على الجليّ . وينعكس لك هذا الحكم أعنى أنك كما وجدت الاسم يقع حيث لا يصلح الفعل مكانه كذلك تجد الفعل يقع ثم لا يصلح الاسم مكانه ولا يؤدى ما كان يؤديه . فمن البين في ذلك قول الاعشى

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة الي ضوء نار في يفاع تحرق
تشب المقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

معلوم انه لو قيل الى ضوء نار متحرقة لنبا عنه الطبع وانكرته النفس ثم لا يكون ذاك النبو وذاك الانكار من أجل القافية وأنها تفسد به بل من جهة أن لا يشبه الغرض ولا يليق بالحال وكذلك قوله .

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا الي عريفهم يتوسم

وذاك لأن المعنى فى بيت الأعشى على ان هناك موقداً يتجدد منه الالهاب والاشعال حالا فحالا واذا قيل متحرقة كان المعنى ان هناك ناراً

قد ثبتت لها وفيها هذه الصفة وجرى مجرى أن يقال • الى ضوء نار عظيمة • فى انه لا يفيد فعلا يفعل وكذلك الحال فى قوله • بعثوا الي عريفهم يتوسم • وذلك لان المعنى على توسم وتأمل ونظر يتجدد من العريف هناك حالا فحالا وتصفح منه الوجوه واحداً بعد واحد ولو قيل . بعثوا الي عريفهم متوسما • لم يفد ذلك حق الافادة ومن ذلك قوله تعالى « هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض » لو قيل • هل من خالق غير الله رازق لكم . لكان المعنى غير ما أريد • ولا ينبغي أن يغرك أنا إذ تكلمنا فى مسائل المبتدا والخبر قدرنا الفعل فى هذا النحو تقديم الاسم كما نقول • فى (زيد يقوم) إنه فى موضع (زيد قائم) فان ذلك لا يقتضي أن يستوى المعني فيها استواء لا يكون من بعده افتراق فانهما لو استويا هذا الاستواء لم يكن أحدهما فعلا والآخر اسما بل كان ينبغي أن يكونا جميعاً فعلين أو يكونا اسمين

ومن فروق الاثبات انك تقول . زيد منطلق وزيد المنطلق والمنطلق زيد • فيكون لك فى كل واحد من هذه الأحوال غرض خاص وفائدة لا تكون فى الباقي وأنا أفسر لك ذلك • اعلم انك اذا قلت . زيد منطلق . كان كلامك مع من لم يعلم ان انطلاقاً كان لا من زيد ولا من عمرو فأنت تفيده ذلك ابتداء واذا قلت زيد المنطلق كان كلامك مع من عرف ان انطلاقا كان اما من زيد واما من عمرو فأنت تعلمه انه كان من زيد دون غيره والنكتة انك تثبت فى الاول الذى هو قولك • زيد منطلق • فعلا لم يعلم السامع من اصله انه كان وتثبت فى الثاني الذى هو (زيد المنطلق) فعلا قد علم السامع أنه كان ولكنه لم يعلمه لزيد فأفدته ذلك فقد وافق الاول فى المعنى الذى له كان

الخبر خبراً وهو اثبات المعنى للشيء وليس يقدح فى ذلك أنك كنت قد
علمت ان انطلاقا كان من أحد الرجلين لانك اذا لم تصل الى القطع
على انه كان من زيد دون عمرو كان حالك فى الحاجة الى من كان يثبته
لزيد كحالك اذا لم تعلم انه كان من أصله

وتمام التحقيق ان هذا كلام يكون معك اذا كنت قد بلغت انه
كان من انسان انطلاق من موضع كذا فى وقت كذا الغرض كذا
فجوزت أن يكون ذلك كان من زيد فاذا قيل لك • زيد المنطلق • صار
الذى كان معلوماً على جهة الجواز معلوماً على جهة الوجوب • ثم انهم
اذا أرادوا تأكيد هذا الوجوب أدخلوا الضمير المسمي فصلا بين الجزئين
فقالوا • زيد هو المنطلق

ومن الفرق بين المسئلتين وهو مما تمس الحاجة الى معرفته أنك
اذا نكرت الخبر جاز ان تأتى بمبتدا ثان على ان تشركه بحرف العطف
فى المعنى الذى أخبرت به عن الاول واذا عرفت لم يجز ذلك • تفسير
هذا أنك تقول • زيد منطلق وعمرو • تريد (وعمرو منطلق أيضا)
ولا تقول • زيد المنطلق وعمرو • ذلك لان المعنى مع التعريف على
انك أردت ان تثبت انطلاقا مخصوصا قد كان من واحد فاذا أثبته لزيد
لم يصح اثباته لعمرو ثم ان كان قد كان ذلك الانطلاق من اثنين فانه
ينبغي ان تجمع بينهما فى الخبر فتقول • زيد وعمرو هما المنطلقان • لا
أن تفرق فتثبته أولا لزيد ثم تجيء فتثبته لعمرو • ومن الواضح فى
تمثيل هذا النحو قولنا • هو القائل بيت كذا • كقولك • جرير هو
القائل * وليس لسيفى فى العظام بقية * فأنت لو حاولت ان تشرك فى
هذا الخبر غيره فتقول • جرير هو القائل هذا البيت وفلان • حاولت

محالا لانه قوله بعينه فلا يتصور ان يشرك جريراً فيه غيره

واعلم انك تجد الالف واللام فى الخبر على معنى الجنس ثم ترى له
فى ذلك وجوها (أحدها) ان تقصر جنس المعنى على المخبر عنه لقصدك
المبالغة وذلك قولك • زيد هو الجواد وعمرو هو الشجاع تريد انه
الكامل الا انك تخرج الكلام فى صورة توهم ان الجود أو الشجاعة لم
توجد الا فيه وذلك لانك لم تعتد بما كان من غيره لقصوره عن ان يبلغ
الكمال فهذا كالاول في امتناع العطف عليه للاشراك فلو قلت • زيد
هو الجواد وعمرو • كان خلفاً من القول

(والوجه الثانى) ان تقصر جنس المعنى الذى تفيده بالخبر على
المخبر عنه لا على معنى المبالغة وترك الاعتداد بوجوده في غير المخبر عنه
بل على دعوى انه لايوجد الا منه ولا يكون ذلك الا اذا قيدت المعنى
بشيء يخصصه ويجعله في حكم نوع برأسه وذلك كنحو ان يقيد بالحال
والوقت كقولك • هو الوفي حين لاتظن نفس بنفس خيراً • وهكذا
اذا كان الخبر بمعنى يتعدى ثم اشترطت له مفعولا مخصوصاً كقول
الأعشي :

هو الواهب المائة المصطفاة   إما مخاضا وإما عشارا

فأنت تجعل الوفاء فى الوقت الذى لايفى فيه أحد نوعا خاصا من
الوفاء وكذلك تجعل هبة المائة من الابل نوعا خاصا وكذا الباقي • ثم
انك تجعل كل هذا خبرا على معني الاختصاص وانه للمذكور دون
من عداه ألا ترى ان المعنى في بيت الاعشي انه لايهب هذه الهبة الا
الممدوح • وربما ظن الظان ان اللام فى (هو الواهب المائة المصطفاة)
بمنزلتها في نحو (زيد هو المنطلق) من حيث كان القصد الى هبة مخصوصة

كما كان القصد الى انطلاق مخصوص وليس الامر كذلك لان القصد ههنا الى جنس من الهبة مخصوص لا الى هبة مخصوصة بعينها • يدلك على ذلك ان المعنى على أنه يتكرر منه وعلى أنه يجعله يهب المائة مرة بعد أخرى وأما المعنى في قولك . زيد هو المنطلق فعلى القصد الى انطلاق كان مرة واحدة لا إلى جنس من الانطلاق فالتكرر هناك غير متصور كيف وأنت تقول . جرير هو القائل * وليس لسيفي فى العظام بقية * تريد أن تثبت له قيل هذا البيت وتأليفه . فافصل بين أن تقصد الى نوع فعل وبين أن تقصد الى فعل واحد متعين حاله فى المعانى حال زيد فى الرجال فى أنه ذات بعينها

(والوجه الثالث) أن لا يقصد قصر المعنى فى جنسه على المذكور لا كما كان في زيد هو الشجاع تريد أن لا تعتد بشجاعة غيره ولا كما تري في قوله هو الواهب المائة المصطفاة لكن على وجه ثالث وهو الذى عليه قول الخنساء

اذا قبح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلا

لم ترد أن ماعدا البكاء عليه فليس بحسن ولا جميل ولم تقيد الحسن بشيء فيتصور أن يقصر على البكاء كما قصر الأعشي هبة المائة على الممدوح ولكنها أرادت أن تقره فى جنس ماحسنه الحسن الظاهر الذى لا ينكره أحد ولا يشك فيه شاك : ومثله قول حسان

وان سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

أراد أن يثبت العبودية ثم يجعله ظاهر الأمر فيها ومعروفاً بها ولو قال . ووالدك عبد • لم يكن قد جعل حاله في العبودية حالة ظاهرة متعارفة وعلى ذلك قول الآخر

أسود اذا ما أبدت الحرب نابها وفي سائر الدهر الغيوث المواطر

واعلم أن للخبر المعرف بالألف واللام معنى غير ماذكرت لك وله مسلك ثم دقيق ولمحة كالخلس يكون المتأمل عنده كما يقال يعرف وينكر وذلك قولك . هو البطل المحامى وهو المتقي المرتجي • وأنت لا تقصد شيئاً مما تقدم فلست تشير الى معني قد علم المخاطب انه كان ولم يعلم انه ممن كان كما مضى في قولك . زيد هو المنطلق • ولا تريد أن تقصر معني عليه على معنى انه لم يحصل لغيره على الكمال كما كان في قولك • زيد هو الشجاع • ولا أن تقول انه ظاهر بهذه الصفة كما كان فى قوله • ووالدك العبد • ولكنك تريد أن تقول لصاحبك • هل سمعت بالبطل المحامي • وهل حصلت معني هذه الصفة وكيف ينبغي أن يكون الرجل حتى يستحق أن يقال ذلك له وفيه • فان كنت قبلته علما وتصورته حق تصوره فعليك صاحبك واشدد به يدك فهو ضالتك وعنده بغيتك وطريقه كطريق قولك • هل سمعت بالأسد وهل تعرف ماهو • فان كنت تعرفه فزيد هو هو بعينه

ويزداد هذا المعنى ظهوراً بأن تكون الصفة التى تريد الاخبار بها عن المبتدا مجراة على موصوف كقول ابن الرومي

هو الرجل المشروك فى جل ماله ولكنه بالمجد والحمد مفرد

تقديره كأنه يقول للسامع فكر فى رجل لا يتميز عفاته وجيرانه ومعارفه عنه فى ماله وأخذ ماشاؤوا منه فاذا حصلت صورته فى نفسك فاعلم أنه ذاك الرجل • وهذا فن عجيب الشأن وله مكان من الفخامة والنبل وهو من سحر البيان الذي تقصر العبارة عن تأدية حقه والمعول فيه على مراجعة النفس واستقصاء التأمل فاذا علمت أنه لا يريد بقوله

* الرجل المشروك في جل ماله * أن يقول . هو الذي بلغك حديثه
وعرفت من حاله وقصته أنه يشرك في جل ماله . على حد قولك .
هو الرجل الذي بلغك انه أنفق كذا والذى وهب المائة المصطفاة من
الابل . ولا أن يقول انه على معنى « هو الكامل في هذه الصفة حتى
كأن ههنا أقواماً يشركون في جل أموالهم الا انه في ذلك أكمل وأتم »
لان ذلك لايتصور . وذاك أن كون الرجل بحيث يشرك في جل ماله
ليس معنى يقع فيه تفاضل كما أن بذل الرجـل كل مايملك كذلك ولو
قيل . الذى يشرك في ماله . جاز أن يتفاوت . واذا كان كذلك علمت
أنه معنى ثالث وليس الا ما أشرت اليه من أنه يقول للمخاطب ضع في
نفسـك معنى قولك رجـل مشروك في جل ماله ثم تأمل فلانا فانك
تستملي هذه الصورة منه وتجده يؤديها لك نصا ويأتيك بها كملا . وان
أردت ان تسمع في هذا المعنى ما تسكن النفس اليه سكون الصادى الي
برد الماء فاسمع قوله

أنا الرجل المدعو عاشق فقره   اذالم تكارمني صروف زماني

وان أردت أعجب من ذلك فقوله

أهدى الي أبو الحسين يدا   أرجو الثواب بها لديه غدا
وكذاك عادات الكريم اذا   أولى يدا حسبت عليـه يدا
ان كان يحسـد نفسه أحد   فلأزعمنك ذلك الا حـدا

فهذا كله على معنى الوهم والتقدير وان يصور في خاطره شيئاً لم
يره ولم يعلمه ثم يجريه مجرى ماعهد وعلم . وليس شيء أغلب على هذا
الضرب الموهوم من (الذى) فانه يجيء كثيراً على انك تقدر شيئا في
وهمك ثم تعبر عنه بالذى ومثال ذلك قوله

أخوك الذى ان تدعه لملمة   يجبك وان تغضب الى السيف يغضب

(وقول الآخر)

أخوك الذي ان ربته قال انما   أربت وان عاتبته لان جانبه

فهذا ونحوه على انك قدرت انسانا هذه صفته وهذا شأنه وأحلت
السامع على من يتعين في الوهم دون أن يكون قد عرف رجلا بهذه
الصـفة فأعلمته أن المستحق لاسم الاخوة هو ذلك الذى عرفه حتى
كأنك قلت . أخوك زيد الذي عرفت أنك ان تدعـه لملمة يجبك .
ولكون هـذا الجنس معهوداً من طريق الوهم والتخيل جري على
مايوصف بالاستحالة كقولك للرجل وقد تمنى . هذا هوالذي لايكون
وهذا مالايدخل في الوجود . وكقوله

مالا يكون فلا يكون بحيلة   أبداً وما هو كائن سيكون

ومن لطيف هذا الباب قوله

واني لمشتاق الى ظل صاحب   يروق ويصفو ان كدرت عليه

قد قدر كما ترى مالم يعلمه موجوداً ولذلك قال المأمون . خذ
مني الخلافة وأعطني هـذا الصاحب . فهذا التعريف الذى تراه في
الصاحب لايعرض فيه شك أنه موهوم

وأما قولنا . المنطلق زيد . والفرق بينه وبين « زيد المنطلق »
فالقول في ذلك انك وان كنت ترى في الظاهر أنهما سواء من حيث
كون الغرض في الحالين إثبات انطلاق قد سبق العلم به لزيد فليس
الأمر كذلك بل بين الكلامين فصـل ظاهر وبيانه انك اذا قلت .
زيد المنطلق . فانت في حديث انطلاق قد كان وعرف السامع كونه
الا أنه لم يعلم أمن زيد كان أم من عمرو . فاذا قلت . زيد المنطلق .

أزلت عنه الشك وجعلته يقطع بأنه كان من زيد بعد انكان يرى ذلك على سبيل الجواز وليس كذلك اذ قدمت « المنطلق » فقلت . المنطلق زيد • بل يكون المعنى حينئذ على انك رأيت إنساناً ينطلق بالبعد منك فلم يثبت ولم تعلم أزيد هو أم عمرو فقال لك صاحبك • المنطلق زيد أى هذا الشخص الذى تراه من بعد هو زيد • وقد ترى الرجل قائماً بين يديك وعليه ثوب ديباج والرجل ممن عرفته قديماً ثم بعد عهدك به فتناسيته فيقال لك اللابس الديباج صاحبك الذى كان يكون عندك فى وقت كذا أما تعرفه لشد ما نسيت • ولا يكون الغرض أن يثبت له لبس الديباج لاستحالة ذلك من حيث ان رؤيتك الديباج عليه تغنيك عن إخبار مخبر وإثبات مثبت لبسه له • فمتى رأيت اسم فاعل أو صفة من الصفات قد بدئ به فجعل مبتدأ وجعل الذي هو صاحب الصفة فى المعنى خبراً فاعلم ان الغرض هناك غير الغرض اذا كان اسم الفاعل أو الصفة خبراً كقولك • زيد المنطلق

واعلم انه ربما اشتبهت الصورة في بعض المسائل من هذا الباب حتى يظن ان المعرفتين اذا وقعتا مبتدأ وخبراً لم يختلف المعني فيهما بتقديم وتأخير ومما يوهم ذلك قول النحويين فى (باب كان) اذا اجتمع معرفتان كنت بالخيار في جعل أيهما شئت اسما والآخر خبراً كقولك كان زيد أخاك وكان أخوك زيداً . فيظن من ههنا ان تكافؤ الاسمين في التعريف يقتضي أن لا يختلف المعني بان تبدأ بهذا وتثني بذاك وحتى كان الترتيب الذي يدعي بين المبتدا والخبر وما يوضع لهما من المنزلة فى التقدم والتأخر يسقط ويرتفع اذا كان الجزآن معا معرفتين

ومما يوهم ذلك انك تقول • الامير زيد وجئتك والخليفة عبد

الملك • فيكون المعنى على إثبات الامارة لزيد والخلافة لعبد الملك كما يكون اذا قلت • زيد الامير وعبد الملك الخليفة • وتقوله لمن يشاهد ومن هو غائب عن حضرة الامارة ومعدن الخلافة وهكذا من يتوهم فى نحو قوله •

أبوك حبابٌ سارق الضيف برده وجدي يا حجاج فارس شمرا

أنه لا فصل بينه وبين أن يقال . حبابٌ ابوك وفارس شمر جدي . وهو موضع غامض ، والذي يبين وجه الصواب ويدل على وجوب الفرق بين المسئلتين انك اذا تأملت الكلام وجدت ما لا يحتمل التسوية وما تجد الفرق قائما فيه قياماً لا سبيل الى دفعه هو الاعمّ الاكثر وان أردت ان تعرف ذلك فانظر الى ما قدمت لك من قولك . اللابس الديباج زيد . وأنت تشير له الى رجل بين يديه ثم انظر الى قول العرب ، ليس الطيب إلا المسك . وقول جرير *ألستم خير من ركب المطايا* ونحو قول المتنبي * ألست ابن الاولى سعدوا وسادوا *وأشباه ذلك مما لا يحصى ولا يعد وأرد المعني على ان يسلم لك مع قلب طرفي الجملة وقل • ليس المسك الا الطيب • وأليس خير من ركب المطايا إياكم • وأليس ابن الاولى سعدوا وسادوا اياك • تعلم أن الامر على ما عرفتك من وجوب اختلاف المعنى بحسب التقديم والتأخير •

وههنا نكتة يجب القطع معها بوجوب هذا الفرق أبدا وهي أن المبتدا لم يكن مبتدأ لأنه منطوق به أولا ولا كان الخبر خبرا لأنه مذكور بعد المبتدا بل كان المبتدأ مبتدأ لانه مسند اليه ومثبت له المعني والخبر خبرا لأنه مسند ومثبت به المعني • تفسير ذلك أنك اذا قلت • زيد منطلق • فقد أثبت الانطلاق لزيد واسندته اليه فزيد مثبت له ومنطلق

مثبت به وأما تقديم المبتدا على الخبر لفظاً فحكم واجب من هذه الجهة
أي من جهة أن كان المبتدا هو الذى يثبت له المعني ويسند اليه والخبر
هو الذي يثبت به المعني ويسند ولوكان المبتدأ مبتدا لأنه في اللفظ مقدم
مبدوء به لكان ينبغي أن يخرج عن كونه مبتدأ بأن يقال • منطلق
زيد • ولوجب ان يكون قولهم • إن الخبر مقدم في اللفظ والنية به
التأخير • محالا • واذا كان هذا كذلك ثم جئت بمعرفتين فجعلتهما
مبتدأوخبرا فقدوجب وجوباً أن تكون مثبتا بالثاني معني للاول فاذا
قلت • زيد أخوك • كنت قد أثبتَّ بأخوك معنى لزيد واذا قدمت
وأخرت فقلت • أخوك زيد • وجب أن تكون مثبتا بزيد معنى
لاخوك والا كان تسميتك له الآن مبتدأ واذ ذاك خبرا تغييرا للاسم
عليه من غير معني ولأدي الا أن لا يكون لقولهم (المبتدا والخبر)
فائدة غير أن يتقدم اسم في اللفظ على اسم من غيرأن ينفرد كل واحد
منهما بحكم لا يكون لصاحبه وذلك ممالا يشك في سقوطه •

ومما يدل دلالة واضحة على اختلاف المعنى ــ اذاجئت بمعرفتين
ثم جعلت هذامبتدا وذاك خبرا تارة وتارة بالعكس ــ قولهم • الحبيب
انت وانت الحبيب • وذاك أن معني (الحبيب انت) أنه لافصل بينك
وبين من تحبه اذا صدقت المحبة وان مثل المتحابين مثل نفس يقتسمها
شخصان كما جاء عن بعض الحكماء أنه قال • الحبيب انت الاأنه غيرك
فهذا كما ترى فرق لطيف ونكتة شريفة ولو حاولت ان تفيدها بقولك
انت الحبيب • حاولت مالا يصح لأن الذى يعقل من قولك • انت
الحبيب . هو ماعناه المتنبي فى قوله .

أنت الحبيب ولكنى أعوذ به   من ان أكون محباً غير محبوب

ولا يخفي بعد مابين الغرضين . فالمعني فى قولك « أنت الحبيب »
انك الذى أختصه بالمحبة من بين الناس . واذاكان كذلك عرفت ان
الفرق واجب أبداًوانه لايجوز ان يكون «أخوك زيد» و (زيدأخوك)
بمعنى واحد

وههنا شيء يجب النظر فيه وهو ان قولك «أنت الحبيب» :كقولنا
«أنت الشجاع . تريد انه الذى كملت فيه الشجاعة أو كقولنا : زيد
المنطلق . تريد انه الذى كان منه الانطلاق الذىسمع المخاطب به.واذا
نظرنا وجدناه لايحتمل ان يكون كقولنا . أنت الشجاع.لانه يقتضىان
يكون المعنى انه لامحبة فى الدنيا الا ماهو به حبيب كما ان المعني في (هو
الشجاع) انه لاشجاعة في الدنيا الا ماتجده عنده وماهو شجاع به وذلك محال؟

وأمر آخر وهو ان الحبيب فعيل بمعني مفعول فالمحبة اذن ليست
هي له بالحقيقة وإنما هي صفة لغيره قد لابسته وتعلقت به تعلق الفعل
بالمفعول . والصفة اذا وصفت بكمال وصفت به على ان يرجع ذلك
الكمال الى من هي صفة له دون من تلابسه ملابسة المفعول . واذا
كان كذلك بعدان تقول أنت المحبوب . على معنى أنت الكامل في
كونك محبوبا كما ان بعيداً أن يقال . هو المضروب . على معنى انه
الكامل فى كونه مضروبا وان جاء شيء من ذلك جاء على تعسف فيه
وتأويل لايتصور ههنا وذلك ان يقال مثلا .زيد هو المظلوم. على معنى
أنه لم يصب أحدا ظلم يبلغ فى الشدة والشناعة الظلم الذى لحقه فصار
كل ظلم سواه عدلا فى جنبه ولا يجيء هذا التأويل فى قولنا . أنت
الحبيب . لانا نعلم أنهم لايريدون بهذا الكلام ان يقولوا ان أحدا لم
يحب أحداً محبتى لك وان ذلك قد أبطل المحبات كلهاحتي صرت الذى

لايعقل للمحبة معنى الا فيه وانما الذى يريدون ان المحبة مني بجملتها مقصورة عليك وانه ليس لاحد غيرك حظ في محبة منى

واذا كان كذلك بان انه لا يكون بمنزلة أنت الشجاع تريد الذى تكامل الوصف فيه الا انه ينبغي من بعد أن تعلم ان بين أنت الحبيب وبين زيد المنطلق فرقا وهو انك فى المحبة التي أثبتها طرفا من الجنسية من حيث كان المعنى ان المحبة منى بجملتها مقصورة عليك ولم تعمد الي محبة واحدة من محباتك . ألا ترى انك قد أعطيت بقولك .أنت الحبيب . أنك لاتحب غيره وأن لامحبة لاحد سواه عندك .ولا يتصور هذا فى زيد المنطلق لانه لاوجه هناك للجنسية اذ ليس ثم الا انطلاق واحد قد عرف المخاطب انه كان واحتاج ان يعين له الذى كان منه وينص له عليه !فان قلت !زيد المنطلق فى حاجتك . تريد الذى من شأنه ان يسعي فى حاجتك عرض فيه معنى الجنسية حينئذ على حدها فى أنت الحبيب

وههنا أصل يجب ان تحكمه وهو ان من شأن أسماء الاجناس كلها اذا وصفت ان تتنوع بالصفة فيصير الرجل الذى هو جنس واحد اذا وصفته فقلت ! رجل ظريف ورجل طويل ورجل قصير ورجل شاعر ورجل كاتب ! أنواعا مختلفة يعد كل نوع منها شيئاً على حدة ويستأنف فى اسم الرجل بكل صفة تقرنها اليه جنسية ! وهكذا القول فى المصادر تقول! العلم والجهل والضرب والقتل والسير والقيام والقعود فتجد كل واحد من هذه المعانى جنساً كالرجل والفرس والحمار فاذا وصفت فقلت ! علم كذا وعلم كذا كقولك علم ضروري وعلم مكتسب وعلم جلى وعلم خفي وضرب شديد وضرب خفيف وسير سريع وسير

بطيء وما شا كل ذلك • انقسم الجنس منها أقساما وصار أنواعا وكان مثلها مثل الشيء المجموع المؤلف تفرقه فرقا وتشعبه شعباً وهذا مذهب معروف عندهم وأصل متعارف في كل جيل وأمة

ثم ان ههنا أصلا هو كالمتفرع على هذا الاصل أو كالنظير له وهو أن من شأن المصدر ان يفرق بالصلات كما يفرق بالصفات ومعنى هذا الكلام أنك تقول الضرب فتراه جنساً واحداً فاذا قلت • الضرب بالسيف صار تعديتك له الى السيف نوعا مخصوصاً • ألا تراك تقول الضرب بالسيف غير الضرب بالعصا • تريد أنهما نوعان مختلفان وان اجتماعهما فى اسم الضرب لايوجب اتفاقهما لأن الصلة قد فصلت بينهما وفرقتهما ومن المثال البين فى ذلك قول المتنبي

وتوهموا اللعب الوغا والطعن في الـــهيجاء غير الطعن في الميدان

لولا ان اختلاف صلة المصدر تقتضي اختلافه في نفسه وأن يحدث فيه انقسام وتنوع لما كان لهذا الكلام معنى ولكان في الاستحالة كقولك والطعن غير الطعن . فقد بان اذن أنه انما كان كل واحد من الطعنين جنسا برأسه غير الآخر بان كان هذا في الهيجاء وذاك فى الميدان • وهكذا الحكم فى كل شيء تعدى اليه المصدر وتعلق به فاختلاف مفعولى المصدر يقتضى اختلافه وأن يكون المتعدي الى هذا المفعول غير المتعدى الي ذاك وعلى ذلك تقول •ليس اعطاؤك الكثير كاعطائك القليل • وهكذا اذا عديته الى الحال كقولك • ليس اعطاؤك معسراً كاعطائك موسراً ! وليس بذلك وأنت مقل كبذلك وأنت مكثر • واذ قد عرفت هذا من حكم المصدر فاعتبر به حكم الاسم المشتق منه واذ اعتبرت ذلك علمت ان قولك• هو الوفى حين لا يفى أحد وهو

الواهب المائة المصطفاة وقوله

وهو الضارب الكتيبه والطعـ ... ـنة تغلو والضرب أغلى وأعلى

وأشباه ذلك كلها أخبار فيها معنى الجنسية وانها في نوعها الخاص بمنزلة الجنس المطلق اذا جعلته خبراً فقلت • أنت الشجاع • وكانك لاتقصد بقولك • أنت الشجاع • الي شجاعة بعينها قد كانت وعرفت من انسان وأردت أن تعرف ممن كانت بل تريد أن تقصر جنس الشجاعة عليه ولا تجعل لاحد غيره فيه حظا كذلك لاتقصد بقولك أنت الوفى حين لايفي أحد • الى وفاء واحد كيف وأنت تقول حين لايفي أحد وهكذا محال أن يقصد فى قوله • هو الواهب المائة المصطفاة الى هبة واحدة لانه يقتضى أن يقصد الى مائة من الابل قد وهبها مرة ثم لم يعد لمثلها ومعلوم أنه خلاف الغرض لان المعنى انه الذى من شأنه أن يهب المائة أبداً والذى يبلغ عطاؤه هذا المبلغ كما تقول • هو الذى يعطي مادحه الالف والالفين • وكقوله وحاتم الطائى وهاب المئى وذلك اوضح من أن يخفي

(وأصل آخر) وهو ان من حقنا ان نعلم ان مذهب الجنسية فى الاسم وهو خبر غير مذهبها وهو مبتدأ • تفسير هذا انا وان قلنا ان اللام في قولك • أنت الشجاع • للجنس كما هو له في قولهم • الشجاع موقي والجبان ملقي • فان الفرق بينهما عظيم • وذلك ان المعنى فى قولك الشجاع موقي أنك تثبت الوقاية لكل ذات من صفتها الشجاعة فهو في معني قولك الشجعان كلهم موقون • ولست أقول ان الشجاع كالشجعان على الاطلاق وان كان ذلك ظن كثير من الناس ولكني أريد أنك تجعل الوقاية تستغرق الجنس وتشمله وتشيع فيه • وأما في قولك • أنت

الشجاع فلا معني فيه للاستغراق اذ لست تريد أن تقول أنت الشجعان كلهم حتى كأنك تذهب به مذهب قولهم • أنت الخلق كلهم • وأنت العالم • كما قال •

ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحد

ولكن لحديث الجنسية ههنا مأخذ آخر غير ذلك وهو أنك تعمد بها الى المصدر المشتق منه الصفة وتوجهها اليه لاالي نفس الصفة ثم لك في توجيهها اليه مسلك دقيق وذلك انه ليس القصد أن تأتى الي شجاعات كثيرة فتجمعها له وتوجدها فيه ولا ان تقول ان الشجاعات التى يتوهم وجودها في الموصوفين بالشجاعة هي موجودة فيه لا فيهم هذا كله محال بل المعنى على أنك تقول كنا قد عقلنا الشجاعة وعرفنا حقيقتها وماهي وكيف ينبغي أن يكون الانسان في إقدامه وبطشه حتي يعلم انه شجاع على الكمال واستقرينا الناس فلم نجد فى واحد منهم حقيقة ماعرفناه حتي اذا صرنا الى المخاطب وجدناه قد استكمل هذه الصفة واستجمع شرائطها وأخلص جوهرها ورسخ فيه سنخها • ويبين لك ان الامر كذلك اتفاق الجميع على تفسيرهم له بمعنى الكامل ولو كان المعني على انه استغرق الشجاعات التي يتوهم كونها في الموصوفين بالشجاعة لماقالوا انه بمعني الكامل في الشجاعة لان الكمال هو ان تكون الصفة على ماينبغى ان تكون عليه وأن لايخالطها مايقدح فيها وليس الكمال ان تجتمع آحاد الجنس وينضم بعضها الى بعض فالغرض اذن بقولنا أنت الشجاع، هو الغرض بقولهم، هذه هي الشجاعة على الحقيقة وماعداها جبن وهكذا يكون العلم وما عداه تخيل وهذا هو الشعر وما سواه فليس بشيء. وذلك أظهر من أن يخفى

(وضرب آخر) من الاستدلال في إبطال أن يكون أنت الشجاع بمعنى أنك كانك جميع الشجعان على حد « أنت الخلق كلهم » وهو أنك في قولك أنت الخلق وأنت الناس كلهم وقد جمع العالم منك في واحد تدعي له جميع المعاني الشريفة المتفرقة في الناس من غير أن تبطل تلك المعاني وتنفيها عن الناس بل على أن تدعي له أمثالها . ألا تري أنك اذا قلت في الرجل . انه معدود بألف رجل فلست تعنى أنه معدود بالف رجل لامعنى فيهم ولا فضيلة لهم بوجه بل تريد أن تعطيه من معاني الشجاعة أو العلم أو كذا أو كذا مجموعاً مالا تجد مقداره مفرقاً الا في ألف رجل . وأما في نحو (أنت الشجاع) فانك تدعى له أنه قد انفرد بحقيقة الشجاعة وأنه قد أوتي فيها مزية وخاصية لم يؤتها أحد حتى صار الذى كان يعده الناس شجاعة غير شجاعة وحتى كان" كل اقدام احجام وكل قوة عرفت في الحرب ضعف وعلى ذلك قالوا جاد حتى بخل كل جواد وحتي منع أن يستحق اسم الجواد أحد كما قال

وأنك لا تجود على جواد ۞ هباتك أن يلقب بالجواد

وكما قال . جاد حتي كأن لم يعرف لاحد جود وحتي كأن قد كذب الواصفون الغيث بالجود . كما قال

أعطيت حتي تركت الريح حاسرة ۞ وجدت حتى كأن الغيث لم يجد

هذا

فصل

في « الذى » خصوصاً

اعلم أن لك في « الذي » علماً كثيراً وأسراراً جمة وخفايا اذا بحثت عنها وتصورتها اطلعت على فوائد تؤنس النفس . وتثلج الصدر

بما يفضي بك اليه من اليقين، ويؤديه اليك من حسن التبيين، والوجه في ذلك أن تتأمل عبارات لهم فيه لم وضع . ولاي غرض اجتلب وأشياء وصفوه بها فمن ذلك قولهم، ان « الذى » اجتلب ليكون وصلة الى وصف المعارف بالجمل كما اجتلب (ذو) ليتوصل به الي الوصف باسماء الاجناس ؛ يعنون بذلك أنك تقول ؛ مررت بزيد الذي أبوه منطلق وبالرجل الذي كان عندنا أمس ؛ فتجدك قد توصلت بالذي الى أن أبنت زيداً من غيره بالجملة التى هي قولك (أبوه منطلق) ولولا (الذي) لم تصل الى ذلك كما انك تقول مررت برجل ذى مال فالتوصل بذى الى أن يبين الرجل من غيره بالمال ولولا (ذو) لم يتأت لك ذلك اذ لا تستطيع أن تقول برجل مال . فهذه جملة مفهومة الا ان تحتها خبايا تحتاج الى الكشف عنها . فمن ذلك أن تعلم من أين امتنع أن توصف المعرفة بالجملة ولم لم يكن حالها فى ذلك حال النكرة التي تصفها بها فى قولك ؛ مررت برجل أبوه منطلق ورأيت انسانا تقاد النجنائب بين يديه . وقالوا ان السبب فى امتناع ذلك أن الجمل نكرات كلها بدلالة انها تستفاد وانما يستفاد المجهول دون المعلوم . قالوا فلما كانت كذلك كانت وفقاً للنكرة فجاز وصفها بها ولم يجز أن توصف بها المعرفة اذ لم تكن وفقاً لها

والقول المبين في ذلك أن يقال انه انما اجتلب حتي اذا كان قد عرف رجل بقصة وأمر جرى له فتخصص بتلك القصة وبذلك الامر عند السامع ثم أريد القصد اليه ذكر (الذى) تفسير هذا انك لا تصل (الذي) الا بجملة من الكلام قد سبق من السامع علم بها وأمر قد عرفه له نحو أن تري عنده رجلا ينشده شعراً فتقول له من غد .

مافعل الرجل الذى كان عندك بالامس ينشدك الشعر • هذا حكم الجملة بعد (الذى) اذا أنت وصفت به شيئاً فكان معنى قولهم انه اجتلب ليتوصل به الى وصف المعارف بالجمل • أنه جيء به ليفصل بين أن يراد ذكر الشيء بجملة قد عرفها السامع له وبين أن لا يكون الامر كذلك فان قلت قد يؤتى بعد الذي بالجملة غير المعلومة للسامع وذلك حيث يكون (الذى) خبراً كقولك (هذا الذي كان عندك بالامس وهذا الذى قدم رسولا من الحضرة) أنت فى هذا وشبهه تعلم المخاطب أمراً لم يسبق له به علم وتفيده فى المشار اليه شيئاً لم يكن عنده ولو لم يكن كذلك لم يكن الذى خبراً اذ كان لا يكون الشيء خبراً حتي يفاد به • فالقول فى ذلك ان الجملة فى هذا النحو وان كان المخاطب لا يعلمها لعين من أشرت اليه فانه لابد من أن يكون قد علمها على الجملة وحدث بها فانك على كل حال لا تقول • هذا الذى قدم رسولا • لمن لم يعلم أن رسولا قدم ولم يبلغه ذلك فى جملة ولا تفصيل • وكذا لا تقول • هذا الذي كان عندك أمس لمن قد نسي انه كان عنده إنسان وذهب عن وهمه وانما تقوله لمن ذاك على ذكر منه الا انه رأى رجلا يقبل من بعيد فلا يعلم انه ذاك ويظنه إنسانا غيره

وعلى الجملة فكل عاقل يعلم بون ما بين الخبر بالجملة مع الذى وبينها مع غير الذى فليس من أحد به طرق الا وهو لا يشك ان ليس المعنى فى قولك • هذا الذى قدم رسولا من الحضرة • كالمعنى إذا قلت • هذا قدم رسولا من الحضرة • ولا هذا الذى يسكن فى محلة كذا كقولك هذا يسكن محلة كذا • وليس ذاك الا انك في قولك (هذا قدم رسولا من الحضرة) مبتدئ خبراً بامر لم يبلغ السامع ولم يبلغه

ولم يعلمه أصلا وفى قولك (هذا الذي قدم رسولا) معلم فى أمر قد بلغه ان هذا صاحبه فلم يخل اذاً من الذى بدأنا به فى أمر الجملة مع (الذي) من انه ينبغى أن تكون جملة قد سبق من السامع علم بها فاعرفه فانه من المسائل التي من جهلها جهل كثيراً من المعاني ودخل عليه الغلط فى كثير من الامور والله الموفق للصواب

﴿ فروق في الحال لها فضل تعلق بالبلاغة ﴾

اعلم ان اول فرق فى الحال أنها تجيء مفرداً وجملة والقصد ههنا الى الجملة وأول ما ينبغى ان يضبط من أمرها أنها تجيء تارة مع الواو وأخري بغير الواو فمثال مجيئها مع الواو قولك أتاني وعليه ثوب ديباج ورأيته وعلى كتفه سيف ولقيت الامير والجند حواليه وجاءني زيد وهو متقلد سيفه ومثال مجيئها بغير واو « جاءني زيد يسعي غلامه بين يديه وأتانى عمرو يقود فرسه » وفى تمييز ما يقتضي الواو مما لا يقتضيه صعوبة والقول فى ذلك أن الجملة اذا كانت من مبتدا وخبر فالغالب عليها أن تجيء مع الواو كقولك • جاءني زيد وعمرو أمامه وأتاني وسيفه على كتفه • فان كان المبتدا من الجملة ضمير ذي الحال لم يصلح بغير الواو البتة وذلك كقولك جاءني زيد وهو راكب ورأيت زيداً وهو جالس ودخلت عليه وهو يملى الحديث وانتهيت الي الامير وهو يعبئ الجيش • فلو تركت الواو فى شيء من ذلك لم يصلح فلو قلت • جاءنى زيد هو راكب ودخلت عليه هو يملى الحديث لم يكن كلاما • فان كان الخبر فى الجملة من المبتدا والخبر ظرفا ثم كان قد قدم على

المبتدا كقولنا عليه سيف وفى يده سوط • كثر فيها أن تجيء بغير واو
فما جاء منه كذلك قول بشار

اذا أنكرتني بلدة أو نكرتها   خرجت مع البازي عليّ سواد

يعنى عليّ بقية من الليل • وقول أمية

فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً   في رأس غمدان دار منك محلالا

وقول الآخر •

لقد صبرت للذل أعواد منبر   تقوم عليها فى يديك قضيب

كل ذلك فى موضع الحال وليس فيه واو كما ترى ولا هو محتمل
لها اذا نظرت . وقد يجيء ترك الواو فيما ليس الخبر فيه كذلك ولكنه
لا يكثر فمن ذلك قولهم كلمته فوه الي فى ورجع عوده على بدئه فى قول
من رفع ومنه بيت الاصلاح

نصف النهار الماء غامره   ورفيقه بالغيب لايدري

ومن ذلك ما أنشده الشيخ أبو على فى الاغفال

ولولا جنان الليل ما آب عامر   الى جعفر سرباله لم يمزق

ومما ظاهره أنه منه قوله

اذا أتيت أبامروان تسأله   وجدته حاضراه الجود والكرم

فقوله حاضراه الجود جملة من المبتدا والخبر كما ترى وليس فيها
واو والموضع موضع حال الاتراك تقول أتيته فوجدته جالساً • فيكون
جالساً حالا ذاك لان وجدت فى مثل هذا من الكلام لا تكون المتعدية
الى مفعولين ولكن المتعدية الي مفعول واحد كقولك • وجدت
الضالة الا انه ينبغي ان تعلم ان لتقديمة الخبر الذى هو حاضراه تأثيراً
فى معني الغني عن الواو وانه لو قال • وجدته الجود والكرم حاضراه

لم يحسن حسنه الآن وكان السبب فى حسنه مع التقديم أنه يقرب فى
المعنى من قولك وجدته حاضره الجود والكرم أو حاضراً عنده
الجود والكرم

وان كانت الجملة من فعل وفاعل والفعل مضارع مثبت غير منفي
لم يكد يجيء بالواو بل ترى الكلام على مجيئها عارية من الواو كقولك
جاءني زيد يسعى غلامه بين يديه . وكقوله

وقد علوت قتود الرجل يسفعني   يوم قديديمة الجوزاء مسموم

وقوله

ولقد أغتدي يدافع ركني   أحوذي ذو ميعة إضريج

وكذلك قولك . جاءنى زيد يسرع ، لا فصل بين أن يكون الفعل لذي
الحال وبين أن يكون لمن هو من سببه فان ذلك كله يستمر على الغني
عن الواو وعليه التنزيل والكلام ومثاله فى التنزيل قوله عز وجل
(ولا تمنن تستكثر) وقوله تعالي « وستجنبها الاتقى الذى يؤتى ماله
يتزكي) وكقوله عز اسمه (ويذرهم في طغيانهم يعمهون) فأما قول
ابن همام السلولي .

فلما خشيت أظافيرهم   نجوت وأرهنهم مالكا

فى رواية من روى (وأرهنهم) وما شبهوه به من قولهم قمت وأصك
وجهه . فليست الواو فيها للحال وليس المعنى (نجوت راهناً مالكا وقمت
صاكا وجهه) ولكن أرهن وأصك حكاية حال مثل قوله ،

ولقد أمر على اللئيم يسبني   فمضيت ثمت قلت لا يعنيني

فكما ان (أمر) ههنا فى معني (مررت) كذلك يكون (أرهن وأصك)
هناك فى معنى (رهنت وصككت) ويبين ذلك انك ترى الفاء تجيء

مكان الواو فى مثل هذا وذلك كنحو مافي الخبر فى حديث عبد الله ابن عتيك حين دخل على أبى رافع اليهودى حصنه قال (فانتهيت اليه فاذا هو فى بيت مظلم لا أدرى أنى هو من البيت فقلت . أبا رافع . فقال من هذا فأهويت نحو الصوت فأضربه بالسيف وأنا دهش)فكما أن (أضربه) مضارع قد عطفه بالفاء على ماض لانه فى المعنى ماض كذلك يكون (أرهنهم) معطوفاً على الماضى قبله وكما لا يشك فى ان المعنى فى الخبر (فأهويت فضربت) كذلك يكون المعني فى البيت (نجوت ورهنت) الا ان الغرض فى اخراجه على لفظ الحال أن يحكي الحال فى أحد الخبرين ويدع الآخر على ظاهره كما كان ذلك في (ولقد أمر على اللئيم يسبنى فمضيت) الا ان الماضي فى هذا البيت مؤخر معطوف وفى بيت ابن همام وما ذكرناه معه مقدم معطوف عليه فاعرفه

فان دخل حرف نفي على المضارع تغير الحكم فجاء بالواو وبتركها كثيراً وذلك مثل قولهم كنت ولاأخشي بالذئب وقول مسكين الدارمي

اكسبته الورق البيض أبا   ولقد كان ولا يدعي لاب

وقول مالك بن رفيع وكان جنى جناية فطلبه مصعب بن الزبير

أتاني مصعب وبنو أبيه   فاين أحيد عنهم لا أحيد

أقادوا من دمي وتوعدوني   وكنت ومايننهنهني الوعيد

(كان) فى هذا كله تامة والجملة الداخل عليها الواو فى موضع الحال ألا ترى ان المعنى (وجدت غير خاش للذئب• ولقد وجد غير مدعو لاب.ووجدت غير منهنه بالوعيد وغير مبال به) ولا معني لجعلها ناقصة وجعل الواو مزيدة. وليس مجيء الفعل المضارع حالا على هذا الوجه بعزيز فى الكلام ألا تراك تقول . جعلت أمشي وما أدري أين أضع

رجلى وجعل يقول ولا يدرى.وقال أبو الاسود(يصيب وما يدرى) وهوشائع كثير فاما مجيء المضارع منفياً حالا من غير الواو فيكثر أيضاً ويحسن فمن ذلك قوله .

مضوا لا يريدون الرواح وغالهم   من الدهر أسباب جرين على قدر

وقال ارطاة بن سهية وهو لطيف جداً

إن تلقني لا ترى غيرى بناظرة   تنس السلاح وتعرف جبهة الأسد

فقوله . لاترى. فى موضع حال ومثله فى اللطف والحسن قول أعشى همدان وصحب عباد بن ورقاء الى اصبهان فلم يحمده فقال

أتينا إصبهان فهزلتنا   وكنا قبل ذلك فى نعيم

وكان سفاهة منى وجهلا   مسيرى لاأسير الى حميم

قوله . لا أسير الى حميم . حال من ضمير المتكلم الذى هو الياء فى (مسيرى) وهو فاعل فى المعنى فكأنه قال . وكان سفاهة مني وجهلا ان سرت غير سائر الى حميم وان ذهبت غير متوجه الى قريب . وقال خالد بن يزيد بن معاوية

لو أن قوما لارتفاع قبيلة   دخلوا السماء دخلتها لاأحجب

وهو كثير الا انه لا يهتدى الى وضعه بالموضع المرضي الا من كان صحيح الطبع .

ومما يجيء بالواو وغير الواو الماضي وهو لا يقع حالا الا مع (قد) مظهرة أو مقدرة أما مجيئها بالواو فالكثير الشائع كقولك . أتانى وقد جهده السير . وأما بغير الواو فكقوله

متى أرى الصبح قد لاحت مخايله   والليل قد مزقت عنه السرابيل

وقول الآخر

فآبوا بالرماح مكسرات   وأبنا بالسيوف قد انحنينا

وقال آخر وهو لطيف جداً

يمشون قد كسروا الجفون الى الوغى   متبسمين وفيهم استبشارا

ومما يجيء بالواو فى الاكثر الأشيع ثم يأتى فى مواضع بغير الواو فيلطف مكانه ويدل على البلاغة الجملة قد دخلها (ليس تقول أتانى وليس عليه ثوب ورأيته وليس معه غيره فهذا هو المعروف المستعمل ثم قد جاء بغير الواو فكأن من الحسن على ماترى وهو قول الاعرابى ·

لنا فتى وحبذا الافتاء   تعرفه الارسان والدلاء

اذا جري فى كفه الرشاء   خلى القليب ليس فيه ماء

ومما ينبغي ان يراعى فى هذا الباب أنك ترى الجملة قد جاءت حالا بغير واو ويحسن ذلك ثم تنظر فترى ذلك انما حسن من أجل حرف دخل عليها مثاله قول الفرزدق

فقلت عسى أن تبصرني كأنما   بني حوالي الاسود الحوارد

قوله (كأنما بني) الى آخره فى موضع الحال من غير شبهة ولو أنك تركت (كأن) فقلت عسى ان تبصرني بني حوالي كالاسود رأيته لا يحسن حسنه الاول ورأيت الكلام يقتضي الواو كقولك . عسى أن تبصرني وبنيّ حوالي كالاسود الحوارد . وشبيه بهذا أنك ترى الجملة قد جاءت حالا بعقب مفرد فلطف مكانها ولو انك أردت أن تجعلها حالا من غير أن يتقدمها ذلك المفرد لم يحسن · مثال ذلك قول ابن الرومي

والله يبقيك لنا سالماً   برداك تبجيل وتعظيم

فقوله برداك تبجيل . فى موضع حال ثانية ولو انك اسقطت (سالماً) من البيت فقلت والله يبقيك برداك تبجيل . لم يكن شيئاً

وإذ قد رأيت الجمل الواقعة حالا قد اختلف بها الحال هذا الاختلاف الظاهر فلا بد من أن يكون ذلك انما كان من أجل علل توجبه وأسباب تقتضيه فمحال ان يكون ههنا جملة لا تصلح الا مع الواو وأخرى لا تصلح فيها الواو وثالثة تصلح ان تجيء فيها بالواو وان تدعها فلا تجيء بها ثم لا يكون لذلك سبب وعلة وفى الوقوف على العلة فى ذلك اشكال وغموض · ذاك لان الطريق اليه غير مسلوك والجهة التي منها تعرف غير معروفة وانا أكتب لك اصلا فى الخبر اذا عرفته انفتح لك وجه العلة فى ذلك

واعلم ان الخبر ينقسم الى خبر هو جزء من الجملة لا تتم الفائدة دونه وخبر ليس بجزء من الجملة ولكنه زيادة فى خبر آخر سابق له فالاول خبر المبتدا كمنطلق فى قولك · زيد منطلق · والفعل كقولك خرج زيد · وكل واحد من هذين جزء من الجملة وهو الاصل فى الفائدة · والثانى هو الحال كقولك · جاءنى زيد راكباً · وذاك لان الحال خبر في الحقيقة من حيث انك تثبت بها المعنى لذى الحال كما تثبته بالخبر للمبتدا وبالفعل للفاعل ألا تراك قد أثبت الركوب فى قولك جاءنى زيد راكبا · لزيد الا ان الفرق أنك جئت به لتزيد معنى فى إخبارك عنه بالمجيء وهو أن تجعله بهذه الهيئة في مجيئه ولم تجرد إثباتك للركوب ولم تباشره به ابتداء بل بدأت فأثبت المجيء ثم وصلت به الركوب فالتبس به الاثبات على سبيل التبع لغيره وبشرط أن يكون فى صلته وأما فى الخبر المطلق نحو زيد منطلق وخرج عمرو فانك أثبت المعنى إثباتا جردته له وجعلته مباشرة من غير واسطة ومن غير أن تتسبب بغيره اليه ·

واذ قد عرفت هذا فاعلم ان كل جملة وقعت حالا ثم امتنعت من الواو فذاك لاجل أنك عمدت الى الفعل الواقع فى صدرها فضممته الى الفعل الاول فى إثبات واحد وكل جملة جاءت حالا ثم اقتضت الواو فذاك لانك مستأنف بها خبراً وغير قاصد الى أن تضمها الى الفعل الاول في الاثبات •

تفسير هذا انك اذا قلت جاءني زيد يسرع كان بمنزلة قولك جاءنى زيد سرعا• في انك تثبت مجيئاً فيه اسراع وتصل احد المعنيين بالآخر وتجعل الكلام خبراً واحداً وتريد أن تقول • جاءنى كذلك وجاءنى بهذه الهيئة •وهكذاقوله

وقد علوت قتود الرحل يسفعنى يوم قديديمة الجوزاء مسموم

كانه قال ٠ وقد علوت قتود الرحل بارزاً للشمس ضاحياً وكذلك قوله * متي أرى الصبح قد لاحت مخايله * لانه فى معنى . متى أرى الصبح باديا لائحا بيناًمتجليا .وعلى هذا القياس أبدا • واذاقلت •جاءنى وغلامه يسعي بين يديه ورأيت زيدا وسيفه على كتفه • كان المعنى على أنك بدأت فأثبت المجيء والرؤية ثم استأنفت خبراً وابتدأت اثباتا ثانياً لسعى الغلام بين يديه ولكون السيف على كتفه • ولما كان المعنى علي استئناف الاثبات احتيج الى مايربط الجملة الثانية بالاولى فجيء بالواو كما جيء بها فى قولك • زيد منطلق وعمرو ذاهب والعلم حسن والجهل قبيح . وتسميتنا لها (واو حال) لايخرجها عن ان تكون مجتابة لضم جملة الى جملة .ونظيرها فى هذا الفاء في جواب الشرط نحو .ان تأتني فأنت مكرم .فانها وان لم تكن عاطفة فان ذلك لايخرجها من أن تكون بمنزلة العاطفة في أنها جاءت لتربط جملة ليس من شأنها أن

تربط بنفسها فاعرف ذلك ونزل الجملة في نحو .جاءني زيد يسرع وقد علوت قتود الرحل يسفعنى يوم منزلة الجزاء الذى يستغنى عن الفاء لان من شأنه أن يرتبط بالشرط من غير رابط وهو قولك •ان تعطنى أشكرك . ونزل الجملة في.جاءنى زيد وهو راكب، منزلة الجزاء الذى ليس من شأنه ان يرتبط بنفسه ويحتاج الي الفاء كالجملة فى نحو .ان تأتنى فانت مكرم قياسا سويا وموازنة صحيحة

فان قلت قد علمنا أن علة دخول الواو على الجملة أن تستأنف الاثبات ولا تصل المعنى الثانى بالاول فى إثبات واحد ولا تنزل الجملة منزلة المفرد ولكن بقى ان تعلم لم كان بعض الجمل بان يكون تقديرها تقدير المفرد فى ان لا يستأنف بها الاثبات أولى من بعض وما الذي منع فى قولك جاءنى زيد وهو يسرع أو وهو مسرع • أن يدخل الاسراع فى صلة المجيء ويضامه في الاثبات كما كان ذلك حين قلت جاءنى زيد يسرع • فالجواب ان السبب فى ذلك ان المعني في قولك • جاءنى زيد وهو يسرع • على استئناف إثبات للسرعة ولم يكن ذلك في. جاءنى زيد يسرع . وذلك انك اذا أعدت ذكر زيد فجئت بضميره المنفصل المرفوع كان بمنزلة أن تعيد اسمه صريحا فتقول • جاءني زيد وزيد يسرع • فى انك لاتجد سبيلا الى أن تدخل .يسرع فى صلة المجيء وتضمه اليه فى الاثبات وذلك أن اعادتك ذكر زيد لايكون حتى تقصد استئناف الخبر عنه بانه يسرع وحتى تبتدئ اثباتا للسرعة لانك ان لم تفعل ذلك تركت المبتدأ الذى هو ضمير زيد أو اسمه الظاهر بضيعة وجعلته لغواً فى البين وجرى مجرى أن تقول •جاءني زيدوعمرو يسرع امامه ثم تزعم أنك لم تستأنف كلاما ولم تبتدئ للسرعة اثباتا وان حال يسرع

ههنا حاله اذا قلت • جاءنى زيد يسرع • فجعلت السرعة ولم تذكر عمراً وذلك محال

فان قلت انما استحال فى قولك •جاءني زيد وعمر يسرع امامه أن ترد يسرع الى زيد وتنزله منزلة قولك • جاءنى زيد يسرع • من حيث كان فى يسرع ضمير لعمرو وتضمنه ضمير عمرو يمنع أن يكون لزيد وان يقدر حالا له وليس كذلك جاءنى زيد وهو يسرع لان السرعة هناك لزيد لامحالة فكيف ساغ ان تقيس احدى المسئلتين على الاخرى. قيل ليس المانع ان يكون يسرع في قولك •جاءنى زيدوعمرو يسرع امامه • حالا من زيد أنه فعل لعمرو فانك لو أخرت عمرا فرنعته بيسرع وأوليت يسرع زيداً فقلت جاءني زيد يسرع عمروامامه وجدته قد صلح حالا لزيد مع أنه فعل لعمرو وانما المانع ماعرفتك من انك تدع عمرا بمضيعة وتجيء به مبتدأ ثم لاتعطيه خبراً •ومما يدل على فساد ذلك انه يؤدى الى ان يكون يسرع قد اجتمع في موضعه النصب والرفع وذلك أن جعله حالا من زيد يقتضى ان يكون في موضع نصب وجعله خبراً عن عمرو المرفوع بالابتداء يقتضى أن يكون فى موضع رفع وذلك بين التدافع ولا يجب هذا التدافع اذا أخرت عمرا فقلت • جاءنى زيد يسرع عمرو امامه . لانك ترفعه بيسرع على انه فاعل له واذا ارتفع به لم يوجب في موضعه اعرابا أى إن ، عمرو. اذا ارتفع بيسرع فلا يمكن ان يكون عاملا في موضع • يسرع بشيء من الاعراب فانه لايتأتي ان يكون عاملا معمولا لشيء واحد فيبقى موضع يسرع مفرغا لان يقدر فيه النصب على الحالية بخلاف مالو كان يسرع مؤخرا عن عمرو امامه فانه ان اتصل يسرع بزيد كان محله النصب مع

ان عمرو المبتدا عمل فى موضعه الرفع فيأتى التدافع كما سبق فيبقى مفرغا لان يقدر فيه النصب على أنه حال من زيد وجرى مجرى أن تقول • جاءني زيد مسرعا عمرو أمامه

فان قلت فقد ينبغى على هذا الاصل أن لاتجيء جملة من مبتدا وخبر حالا الا مع الواو وقد ذكرت قبل أن ذلك قد جاء في مواضع من كلامهم » فالجواب أن القياس والاصل أن لاتجيء جملة من مبتدإ وخبر حالا الا مع الواو وأما الذى جاء من ذلك فسبيله سبيل الشيء يخرج عن أصله وقياسه والظاهر فيه بضرب من التأويل ونوع من التشبيه فقولهم كلمته فوه الى فيّ انما حسن بغير واو من أجل ان المعني كلمته مشافهاً له • وكذلك قولهم رجع عوده على بدئه انما جاء الرفع فيه والابتداء من غير واو لان المعني رجع ذاهباً فى طريقه الذى جاء فيه وأما قوله • وجدته حاضراه الجود والكرم •فلان تقديم الخبر الذى هو حاضراه يجعله كانه قال وجدته حاضراً عنده الجود والكرم وليس الحمل على المعنى وتنزيل الشيء منزلة غيره بعزيز في كلامهم وقد قالوا • زيداً ضربته • • فأجازوا ان يكون مثال الامر فى موضع الخبر لان المعنى على النصب نحو •اضرب زيداً ووضعوا الجملة من المبتدا والخبر موضع الفعل والفاعل فى نحو قوله تعالى ؟ أدعوتموهم أم أنتم صامتون ؟ لان الاصل فى المعادلة ان تكون الثانية كالاولى نحو أدعوتموهم أم صمتم ويدل على ان ليس مجيء الجملة من المبتدا والخبر حالا بغير الواو أصلا قلته وانه لايجيء الا في الشيء بعد الشيء هذا ويجوز ان يكون ماجاء من ذلك انما جاء على إرادة الواو كما جاء الماضى على إرادة (قد)

واعلم ان الوجه فيما كان مثل قول بشار * خرجت مع البازي على
سواد * ان يؤخذ فيه بمذهب أبي الحسن الاخفش فيرفع سواد بالظرف
دون الابتدا ويجرى الظرف ههنا مجراه اذا جرت الجملة صفة على
النكرة نحو مررت برجل معه صقر صائداً به غداً وذلك ان صاحب
الكتاب يوافق أبا الحسن فى هذا الموضع فيرفع صقر بما في معه من
معنى الفعل فلذلك يجوز ان يجرى الحال مجرى الصفة فيرفع الظاهر
بالظرف اذ هو جاء حالا فيكون ارتفاع (سواد) بما في (على) من معنى الفعل
لا بالابتداء ثم ينبغي ان يقدر ههنا خصوصاً ان الظرف في تقدير اسم فاعل
لا فعل أعني ان يكون المعني خرجت كائناً على سواد وباقياً على سواد ولا
يقدر ان يكون على سواد وبقي على سواد اللهم الا ان تقدر فيه فعلا ماضياً مع
قد كقولك خرجت مع البازي قد بقي على سواد . والاول أظهر واذا
تأملت الكلام وجدت الظرف وقد وقع مواقع لا يستقيم فيها الا ان
يقدر تقدير اسم فاعل ولذلك قال أبو بكر بن السراج في قولنا؟ زيد في
الدار انك مخير بين أن تقدر فيه فعلا فتقول ،استقر في الدار ، وبين
أن تقدر اسم فاعل فتقول. مستقر في الدار ، واذا عاد الامر الى هذا
كان الحال في ترك الواو ظاهرة وكان (سواد) في قوله. خرجت مع
البازي على سواد ، بمنزلة قضاء الله في قوله ،

سأغسل عني العار بالسيف جالباً   عليّ قضاء الله ما كان جالبا

في كونه اسما ظاهراً قد ارتفع باسم فاعل قد اعتمد على ذي حال فعمل
عمل الفعل . ويدلك على ان التقدير فيه ما ذكرت وانه من أجل ذلك
حسن أنك تقول جاءني زيد والسيف على كتفه وخرج والتاج عليه .
فتجده لا يحسن الا بالواو وتعلم أنك لو قلت ؟ جاءني زيد السيف على

كتفه وخرج التاج عليه ؛ كان كلاماً نافراً لا يكاد يقع في الاستعمال
وذلك لانه بمنزلة قولك . جاءني وهو متقلد سيفه وخرج وهو لابس
التاج ؛ في ان المعنى على انك استأنفت كلاماً وابتدأت إثباتاً وأنك
لم ترد . جاءني كذلك ولكن « جاءني وهو كذلك » فاعرفه

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

« القول في الفصل والوصل »

اعلم ان العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض
أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى
من أسرار البلاغة ومما لا يأتي لتمام الصواب فيه الا الاعراب الخلص
والاقوام طبعوا على البلاغة وأتوا فناً من المعرفة في ذوق الكلام هم
بها أفراد . وقد بلغ من قوة الامر في ذلك أنهم جعلوه حداً للبلاغة
فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال ، معرفة الفصل من الوصل
ذاك لغموضه ودقة مسلكه وانه لا يكمل لاحراز الفضيلة فيه أحد الا
كمل لسائر معاني البلاغة

واعلم أن سبيلنا أن ننظر الى فائدة العطف في المفرد ثم نعود الى
الجملة فننظر فيها ونتعرف حالها . ومعلوم أن فائدة العطف في المفرد
أن يشرك الثاني في اعراب الاول وانه اذا أشركه في اعرابه فقد
أشركه في حكم ذلك الاعراب نحو ان المعطوف على المرفوع بانه فاعل
مثله والمعطوف على المنصوب بانه مفعول به أو فيه أو له شريك له في
ذلك . واذا كان هذا أصله في المفرد فان الجمل المعطوف بعضها على

بعض على ضربين أحدهما أن يكون للمعطوف عليها موضع من الاعراب واذا كانت كذلك كان حكمها حكم المفرد اذ لا يكون للجملة موضع من الاعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد واذا كانت الجملة الاولى واقعة موقع المفرد كان عطف الثانية عليها جارياً مجري عطف المفرد وكان وجه الحاجة الى الواو ظاهراً والاشراك بها فى الحكم موجوداً. فاذا قلت . مررت برجل خُلقه حسن وخَلقه قبيح. كنت قد أشركت الجملة الثانية فى حكم الاولى وذلك الحكم كونها فى موضع جر بانها صفة للنكرة ونظائر ذلك تكثر ؛ والامر فيها يسهل •

والذي يشكل أمره هو الضرب الثاني وذلك أن تعطف على الجملة العارية الموضع من الاعراب جملة أخرى كقولك! زيد قائم وعمرو قاعد والعلم حسن والجهل قبيح • لاسبيل لنا الي أن ندعي ان الواو أشركت الثانيـة في اعراب قـد وجب للاولى بوجه من الوجوه • واذا كان كذلك فينبغي ان تعلم المطلوب من هذا العطف والمغزى منه ولم لم يسـتو الحال بين ان تعطف وبين أن تدع العطف فتقول • زيد قائم عمرو قاعد • بعد أن لايكون هنا أمر معقول يؤتي بالعاطف ليشرك بين الاولى والثانية فيه

واعلم انه انما يعرض الاشكال فى الواو دون غيرها من حروف العطف وذاك لان تلك تفيد مع الاشراك معاني مثل أن الفاء توجب الترتيب من غير تراخ (وثم) توجبه مع تراخ و(أو) تردد الفعل بين شيئين وتجعله لاحدهما لا بعينه فاذا عطفت بواحد منها الجملة على الجملة ظهرت الفائدة فاذا قلت • أعطاني فشكرته ظهـر بالفاء ان الشكر كان معقباً على العطاء ومسبباً عنه • واذا قلت خرجت ثم خرج زيد • أفادت ثم

ان خروجه كان بعـد خروجك وان مهلة وقعت بينهما • واذا قلت يعطيك أو يكسوك دلت (أو) على أنه يفعل واحداً منهما لا بعينه وليس للواو معـنى سوي الاشراك في الحكم الذي يقتضـيه الاعراب الذى أتبعت فيه الثاني الاول • فاذا قلت جاءنى زيد وعمرو • لم تفد بالواو شيئاً أكثر من إشراك عمرو في المجيء الذى أثبته لزيد والجمع بينـه وبينه ولا يتصور إشراك بين شيئين حتى يكون هناك معـني يقع ذلك الاشراك فيه واذا كان ذلك كذلك ولم يكن معنا في قولنا • زيد قائم وعمرو قاعد • معنى تزعم ان الواو أشركت بين هاتين الجملتين فيـه ثبت إشكال المسئلة •

ثم ان الذى يوجبـه النظر والتأمل ان يقال في ذلك انا وان كنا اذا قلنا • زيد قائم وعمرو قاعد • فانا لانرى ههنا حكما نزعم ان الواو جاءت للجمع بين الجملتين فيه فانا نري أمرا آخر نحصل معه على معنى الجمع وذلك أن لانقول زيد قائم وعمرو قاعـد • حـتي يكون عمرو بسبب من زيد وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين وبحيث اذا عرف السامع حال الاول عناه ان يعرف حال الثاني • يدلك على ذلك انك ان جئت فعطفت علي الاول شيئاً ليس منه بسبب ولا هو مما يذكر بذكره ويتصل حديثه بحديثه لم يستقم فلو قلت • خرجت اليوم من داري. ثم قلت . وأحسن الذى يقول بيت كذا . قلت مايضحك منه .
ومن هنا عابوا أبا تمام فى قوله

لا والذى هو عالم ان النوى صبر وان أبا الحسين كريم

وذلك لأنه لامناسبة بين كرم أبي الحسين ومرارة النوى ولا تعلق لاحدهما بالآخر وليس يقتضى الحديث بهذا الحديث بذاك

واعلم انه كما يجب ان يكون المحدث عنه فى احدى الجملتين بسبب
من المحدث عنه فى الاخرى كذلك ينبغى أن يكون الخبر عن الثانى
مما يجرى مجرى الشبيه والنظير أو النقيض للخبر عن الاول فلو قلت
.زيد طويل القامة وعمرو شاعر . كان خلفاً لانه لامشاكلة ولا تعلق
بين طول القامة وبين الشعر وانما الواجب أن يقال .زيد كاتب وعمرو
شاعر وزيد طويل القامة وعمرو قصير . وجملة الامر أنها لاتجيء حتى
يكون المعنى في هذة الجملة لفقاً لمعنى فى الاخرى ومضاماً له مثل أن زيداً
وعمراً اذا كانا أخوين أو نظيرين أو مشتبكى الاحوال على الجملة كانت
الحال التى يكون عليها أحدهما من قيام أو قعود أو ماشاكل ذلك مضمومة
فى النفس الي الحال التي عليها الآخر من غير شك وكذا السبيل أبداً
والمعانى في ذلك كالاشخاص فانما قلت مثلا .العلم حسن والجهل قبيح
.لان كون العلم حسناً مضموما في العقول الى كون الجهل قبيحاً

واعلم أنه اذا كان المخبر عنه فى الجملتين واحداً كقولنا . هو يقول
ويفعل ويضر وينفع ويسيء ويحسن ويأمر وينهي ويحل ويعقد ويأخذ
ويعطي ويبيع ويشترى ويأكل ويشرب وأشباه ذلك ازداد معنى الجمع
في الواو قوة وظهوراً وكان الامر حينئذ صريحاً وذلك أنك اذا قلت
هو يضر وينفع كنت قد أفدت بالواو انك أوجبت له الفعلين جميعاً
وجعلته يفعلهما معاً . ولو قلت يضر ينفع من غير واو لم يجب ذلك
بل قد يجوز أن يكون قولك (ينفع) رجوعاً عن قولك (يضر)
وابطالا له . واذا وقع الفعلان في مثل هذا في الصلة ازداد الاشتباك
والاقتران حتي لا يتصور تقدير افراد فى أحدهما عن الآخر وذلك
في مثل قولك ! العجب من اني أحسنت وأسأت ويكفيك ما قلت

وسمعت وأيحسن أن تنهي عن شيء وتأتي مثله ! وذلك أنه لا يشتبه
على عاقل أن المعني على جعل الفعلين في حكم فعل واحد . ومن البين
فى ذلك قوله

لاتطمعوا أن تهينونا ونكرمكم ... وان نكف الاذي عنكم وتؤذونا

المعنى لاتطمعوا ان تروا اكرامنا قد وجد مع اهانتكم وجامعها فى
الحصول . ومما له مأخذ لطيف فى هذا الباب قول أبي تمام

لهان علينا أن نقول وتفعلا ... ونذكر بعض الفضل منك وتفضلا

واعلم أنه كما كان فى الاسماء مايصله معناه بالاسم قبله فيستغني بصلة
معناه له عن واصل يصله ورابط يربطه ـ وذلك كالصفة التي لاتحتاج
فى اتصالها بالموصوف الي شيء يصلها به وكالتأكيد الذي لا يفتقر
كذلك الى ما يصله بالمؤكد ـ كذلك يكون فى الجمل ما تتصل من ذات
نفسها بالتي قبلها وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها وهي
كل جملة كانت مؤكدة للتي قبلها ومبينة لها وكانت اذا حصلت لم تكن
شيئاً سواها كما لاتكون الصفة غير الموصوف والتأكيد غير المؤكد فاذا
قلت جاءنى زيد الظريف وجاءني القوم كلهم . لم يكن (الظريف)
و «كلهم» غير زيد وغير القوم .

ومثال ماهو من الجمل كذلك قوله تعالي (الم ذلك الكتاب لا
لاريب فيه) وقوله (لا ريب فيه) بيان وتوكيد وتحقيق لقوله (ذلك
الكتاب) وزيادة تثبيت له وبمنزلة أن تقول . هو ذلك الكتاب هو
ذلك الكتاب فتعيده مرة ثانية لتثبته وليس يثبت الخبر غير الخبر ولا
شيء يتميز به عنه فيحتاج الى ضام يضمه اليه وعاطف يعطفه عليه .
ومثل ذلك قوله تعالي (ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم

تنذرهم لايؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) قوله تعالى (لايؤمنون) تأكيد لقوله (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) وقوله (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) تأكيد ثان أبلغ من الاول لان من كان حاله اذا أنذر مثل حاله اذا لم ينــذر كان فى غاية الجهل وكان مطبوعاً على قلبه لامحالة . وكذلك قوله عز وجل (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله) إنما قال يخادعون ولم يقل ويخادعون لان هذه المخادعة ليست شيئاً غير قولهم (آمنا من غــير أن يكونوا مؤمنين فهو اذن كلام أكد به كلام آخر هو فى معناه • وليس شيئاً سواه وهكذا قوله عز وجل (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنــا واذا خــلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم انما نحن مستهزؤن) وذلك لان معنى قولهم إنا معكم إنا لم نؤمن بالنبى صلى الله عليه وسلم ولم نترك اليهودية وقولهم انما نحن مستهزؤن . خبر بهذا المعنى بعينه لانه لافرق بين ان يقولوا . انا لم نقل ماقلناه من أنا آمنا الا استهزاء . وبين أن يقولوا . انا لم نخرج من دينكم وإنا معكم . بل هما في حكم الشيء الواحد فصاركانهم قالوا إنا معكم لم نفارقكم . فكما لايكون (إنا لم نفارقكم) شيئاً غــير (إنامعكم) كذلك لايكون إنما نحن مستهزؤن غيره فاعرفه

ومن الواضح البين فى هذا المعنى قوله تعالي وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن فى أذنيــه وقراً لم يأت معطوفا نحو وكأن فى أذنيه وقراً لان المقصود من التشبيه بمن فى أذنيه وقر وهو بعينه المقصود من التشبيه بمن لم يسمع الاأن الثانى أبلغ وآكد في الذى أريد وذلك أن المعنى في التشبيهين جميعاً ان ينفي أن يكون لتلاوة ماتلى

عليه من الآيات فائدة معه ويكون لها تأثير فيه وأن يجعــل حاله اذا تليت عليه كحاله اذا لم تتل ولا شبهة في أن التشبيه بمن في أذنيه وقر أبلغ وآكد في جعله كذلك من حيث كان من لا يصح منه السمع ــ وان أراد ذلك ــ أبعد من أن يكون لتلاوة ما يتلى عليه فائدة من الذى يصح منه السمع الا أنه لا يسمع إما اتفاقاً وإما قصــداً الى أن لا يسمع فاعرفه وأحسن تدبره

ومن اللطيف في ذلك قوله تعالى (ماهذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم) وذلك أن قوله (إن هذا إلا ملك كريم) مشابك لقوله (ماهذا بشراً) ومداخل فى ضمنه من ثلاثة أوجه وجهان هو فيهما شبيه بالتأكيد ووجه هو فيه شبيه بالصفة : فأحد وجهى كونه شبيها بالتأكيد هو أنه اذا كان ملكا لم يكن بشراً واذا كان كذلك كان اثبات كونه ملكا تحقيقاً لامحالة وتأكيداً لنفي أن يكون بشراً والوجه الثاني أن الجارى فى العرف والعادة انه اذا قيل : ماهذا بشراً وما هذا بآدمى والحال حال تعظيم وتعجب مما يشاهد فى الانسان من حسن خلق أو خلق ــ أن يكون الغرض والمراد من الكلام أن يقال إنه ملك وانه يكنى به عن ذلك حــتى انه يكون مفهوم اللفظ واذا كان مفهوماً من اللفظ قبــل أن يذكر كان ذكره اذا ذكر تأكيداً لامحالة لأن حد التأكيد ان تحقق باللفظ معني قد فهم من لفظ آخر قد سـبق منك أفلا ترى انه انما كان (كلهم) فى قولك : جاءنى القوم كلهم : تأكيداً من حيث كان الذى فهم منه الشمول قد فهم بديئاً من ظاهر لفظ القوم ولو أنه لم يكن فهم الشمول من لفظ القوم ولا كان هو من موجبه لم يكن (كل) تأكيداً ولكان الشمول مستفاداً من (كل) ابتداء

وأما الوجه الثالث الذى هو فيه شبيه بالصفة فهو انه اذا نفى أن يكون بشراً فقد أثبت له جنس سواه إذ من المحال ان يخرج من جنس البشر ثم لا يدخل فى جنس آخر واذا كان الأمر كذلك كان إثباته ملكا تبييناً وتعييناً لذلك الجنس الذى أريد إدخاله فيه وإغناء عن أن تحتاج الى ان تسأل فتقول : فان لم يكن بشراً فما هو وما جنسه : كما أنك اذا قلت : مررت بزيد الظريف : كان (الظريف) تبييناً وتعييناً للذي أردت من بين من له هذا الاسم وكنت قد أغنيت المخاطب عن الحاجة الى أن يقول : أي الزيدين أردت ؟

ومما جاء فيه الاثبات بان وإلا على هذا الحد قوله عزوجل (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) وقوله (وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحي) أفلا تري أن الاثبات في الآيتين جميعاً تأكيد وتثبيت لنفى مانفي فاثبات ما علمه النبى صلى الله عليه وسلم وأوحي اليه ذكراً وقرآناً تأكيد وتثبيت لنفى أن يكون قد علم الشعر وكذلك إثبات ما يتلوه عليهم وحياً من الله تعالى تقرير لنفى أن يكون نطق به عن هوى

واعلم أنه مامن علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه أنه خفى غامض ودقيق صعب إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب وقد قنع الناس فيه بان يقولوا اذا رأوا جملة قد ترك فيها العطف : ان الكلام قد استؤنف وقطع عما قبله : لاتطلب أنفسهم منه زيادة على ذلك ولقد غفلوا غفلة شديدة

ومما هو أصل فى هذا الباب أنك ترى الجملة وحالها مع التى قبلها حال ما يعطف ويقرن الى ماقبله ثم تراها قد وجب فيها ترك العطف

لأمر عرض فيها صارت به أجنبية مما قبلها : مثال ذلك قوله تعالى (الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) الظاهر كما لايخفى يقتضي أن يعطف على ماقبله من قوله (إنما نحن مستهزؤن) وذلك أنه ليس بأجنبى منه بل هو نظير ما جاء معطوفا من قوله تعالى (يخادعون الله وهو خادعهم) وقوله (ومكروا ومكر الله) وما أشبه ذلك مما يرد فيه العجز على الصدر : ثم انك تجده قد جاء غير معطوف وذلك لأمر واجب أن لا يعطف وهو أن قوله (انما نحن مستهزؤن) حكاية عنهم انهم قالوا وليس بخبر من الله تعالى : وقوله تعالى (الله يستهزئ بهم) خبر من الله تعالى انه يجازيهم على كفرهم واستهزائهم : واذا كان كذلك كان العطف ممتنعا لاستحالة أن يكون الذى هو خبر من الله تعالى معطوفا على ماهو حكاية عنهم ولا يجاب ذلك ان يخرج من كونه خبراً من الله تعالى الى كونه حكاية عنهم والى ان يكونوا قد شهدوا على أنفسهم بانهم مؤاخذون وان الله تعالى يعاقبهم عليه وليس كذلك الحال في قوله تعالى (يخادعون الله وهو خادعهم : ومكروا ومكر الله) لان الأول من الكلامين فيهما كالثاني فى انه خبر من الله تعالى وليس بحكاية وهذا هو العلة فى قوله تعالى (واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون الا انهم هم المفسدون ولكن لايشعرون) انما جاء (انهم هم المفسدون) مستأنفا مفتتحا بألا لانه خبر من الله تعالي بانهم كذلك والذى قبله من قوله (انما نحن مصلحون) حكاية عنهم فلو عطف للزم عليه مثل الذى قدمت ذكره من الدخول فى الحكاية ولصار خبراً من اليهود ووصفا منهم لأنفسهم بانهم مفسدون ولصار كأنه قيل : قالوا انما نحن مصلحون وقالوا انهم هم المفسدون : وذلك مالا يشك

في فساده : وكذلك قوله تعالي (وإذا قيــل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء ولكن لايعلمون) ولو عطف (انهم هم السفهاء) على ماقبله لكان يكون قدأدخل فى الحكاية ولصار حديثا منهم عن أنفسهم بانهم هم السفهاء من بعد أن زعموا انهم انما تركوا أن يؤمنوا لئلا يكونوا من السفهاء على ان فى هذا أمراً آخر وهو أن قوله (أنؤمن) استفهام ولا يعطف الخبر على الاستفهام فان قلت هل كان يجوز ان يعطف قوله تعالي الله يستهزيء بهم على(قالوا) من قوله : قالوا انا معكم : لاعلى ما بعــده وكذلك كان يفعل فى أنهم هم المفسدون وانهــم هم السفهاء وكان يكون نظير قوله تعالي : وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولولا أنزلنا ملكا لقضى الأمر : وذلك أن قوله (ولو أنزلنا ملكا) معطوف من غير شك على (قالوا) دون ما بعده قيل ان حكم المعطوف على (قالوا) فيما نحن فيــه مخالف لحكمه في الآية التي ذكرت وذلك أن (قالوا) هاهنا جواب شرط فلو عطف قوله (الله يســتهزيء بهم) عليه للزم ادخاله في حكمه من كونه جوابا وذلك لايصح وذاك أنه متى عطف على جواب الشرط شيء بالواو كان ذلك على ضربين أحدهما أن يكونا شيئين يتسور وجود كل واحد منهما دون الآخر ومثاله قولك : أن تأتني أكرمك أعطك واكسك : والثاني أن يكون المعطوف شيئا لا يكون حتي يكون المعطوف عليــه ويكون الشرط لذلك سببا فيه بواسطة كونه سببا للأول ومثاله قولك اذا رجع الأمير الي الدار استأذنته وخرجت : فالخروج لايكون حتي يكون الاستئذان وقد صار الرجوع سببا في الخروج من أجل كونه سببا فى الاستئذان فيكون المعنى في مثل هذا على كلامين نحو اذا رجع

الأمير استأذنت واذا استأذنت خرجت

واذ قد عرفت ذلك فانه لو عطف قوله تعالي : الله يستهزيء بهم : على (قالوا) كما زعمت كان الذي يتصوره فيــه أن يكون من هــذا الضرب الثاني وان يكون المعني : واذا خلوا الي شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤن : فاذا قالوا ذلك استهزأ الله بهم ومدهم فى طغيانهم يعمهون : وهذا وان كان يرى انه يستقيم فليس هو بمستقيم وذلك ان الجزاء انما هو على نفس الاستهزاء وفعلهم له وارادتهم اياه فى قولهم : آمنا : لا على انهم حدثوا عن أنفسهم بأنهم مســتهزؤن والعطف على : قالوا : يقتضي أن يكون الجزاء على حديثهم عن أنفســهم بالاستهزاء لا عليه نفســه : ويبين ماذكرناه من أن الجزاء ينبغي أن يكون على قصدهم الاستهزاء وفعلهم له لا على حديثهم عن أنفسهم بانا مستهزؤن أنهم لو كانوا قالوا لكبرائهم : انما نحن مستهزؤن : وهم يريدون بذلك دفعهم عن أنفسهم بهذا الكلام وان يسلموا من شرهم وأن يوهموهم أنهم منهم وان لم يكونوا كذلك لكان لا يكون عليهم مؤاخذة فيما قالوه من حيث كانت المؤاخذة تكون على اعتقاد الاســتهزاء والخديعة فى اظهار الايمان لا في قول : انا اســتهزأنا : من غــير أن يقترن بذلك القول اعتقاد ونية

هذا ــ وههنا أمر سوى مامضي يوجب الاستئناف وترك العطف وهو ان الحكاية عنهم بأنهــم قالوا كيت وكيت تحرك السامعين لان يعلموا مصير أمرهم وما يصنع بهم أوتنزل بهم النقمة عاجلا أم لا تنزل ويمهلون وتوقع في أنفسهم التمنى لأن يتبين لهم ذلك : واذا كان كذلك كان هذا الكلام الذى هو قوله : الله يستهزيء بهم : في معني ماصدر

جوابا عن هذا المقدر ووقوعه فى أنفس السامعين : واذا كان مصدره كذلك كان حقه أن يؤتي به مبتدأ غير معطوف ليكون في صورته : اذا قيل فان سألتم قيل لكم : الله يستهزيء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون :

واذا استقريت وجدت هذا الذى ذكرت لك من تنزيلهم الكلام اذا جاء بعقب مايقتضي سؤالا منزلتــه اذا صرح بذلك السؤال كثيراً فمن لطيف ذلك قوله

زعم العواذل أننى فى غمرة صدقوا ولكن غمرتى لاتنجلي

لما حكى عن العواذل انهم قالوا : هو فى غمرة : وكان ذلك مما يحرك السامع لأن يسأله فيقول : فما قولك في ذلك وما جوابك عنه أخرج الكلام مخرجه اذا كان ذلك قد قيل له وصار كأنه قال : أقول صدقوا انا كما قالوا ولكن لامطمع لهم فى فلاحي : ولو قال : زعم العواذل أنني في غمرة : وصدقوا : لكان يكون لم يصح فى نفســه أنه مسؤل وان كلامه كلام مجيب : ومثله قول الآخر في الحماسة

زعم العواذل أن ناقة جندب بجنوب خبت عريت وأجمت

كذب العواذل لو رأين مناخنا بالقادسية قلن لج وذلت

وقد زاد هذا أمر القطع والاستئناف وتقدير الجواب تأكيداً بان وضع الظاهر موضع المضمر فقال : كذب العواذل : ولم يقل : كذبن : وذلك انه لما أعاد ذكر العواذل ظاهراً كان ذلك أبين وأقوى لكونه كلاما مستأنفا من حيث وضعه وضعا لايحتاج فيه الى ماقبله وأتي به مأتى ماليس قبله كلام : ومما هو على ذلك قول الآخر

زعمتم ان اخوتكم قريش لهم إلف وليس لكم إلاف

وذلك أن قوله : لهم إلف : تكذيب لدعواهم أنهم من قريش

فهو اذن بمنزلة ان يقول : كذبتم لهم إلف وليس لكم ذلك : ولو قال زعمتم أن اخوتكم قريش ولهم إلف وليس لكم إلاف : لصار بمنزلة أن يقول : زعمتم أن اخوتكم قريش وكذبتم : في أنه كان يخرج عن ان يكون موضوعا على انه جواب سائل يقول له : فما ذا تقول فى زعمهم ذلك وفي دعواهم : فاعرفه

واعلم أنه لو أظهر : كذبتم : لكان يجوز له ان يعطف هذا الكلام الذي هو قوله : لهم إلف : عليه بالفاء فيقول : كذبتم فلهم إلف وليس لكم ذلك : فاما الآن فلا مساغ لدخول الفاء البتة لأنه يصير حينئذ معطوفا بالفاء على قوله : زعمتم أن اخوتكم قريش : وذلك يخرج الى المحال من حيث يصير كأنه يستشهد بقوله : لهم إلف : على ان هذا الزعم كان منهم كما انك اذا قلت : كذبتم فلهم إلف : كنت قد استشهدت بذلك على انهم كذبوا فاعرف ذلك : ومن اللطيف فى الاستئناف على معنى جعل الكلام جوابا فى التقدير قول اليزيدى

ملكته حبلى ولكنه ألقاه من زهد على غاربي

وقال انى فى الهوى كاذب انتقم الله من الكاذب

استأنف قوله : انتقم الله من الكاذب : لانه جعل نفسه كأنه يجيب سائلا قال له : فما تقول فيما اتهمك به من انك كاذب • فقال أقول • انتقم الله من الكاذب • ومن النادر أيضا في ذلك قول الآخر

قال لي كيف أنت قلت عليل سهر دائم وحزن طويل

لما كان فى العادة اذا قيل للرجل كيف أنت فقال عليل ان يسأل ثانيا فيقال ما بك وما علتك • قدر كأنه قد قيل له ذلك فأتي بقوله سهر دائم جوابا عن هذا السؤال المفهوم من فحوى الحال فاعرفه

ومن الحسن البين في ذلك قول المتنبي

وما عفت الرياح له محلا   عفاه من حدا بهم وساقا

لما نفى أن يكون الذى يرى به من الدروس والعفاء من الرياح وان تكون التى فعلت ذلك وكان في العادة اذا نفي الفعل الموجود الحاصل عن واحد فقيل لم يفعله فلان أن يقال فمن فعله قدر كأن قائلا قال • قد زعمت أن الرياح لم تعف له محلا فما عفاه اذن • فقال مجيبا له • عفاه من حدابهم وساقا • ومثله قول الوليد بن يزيد

عرفت المنزل الخالي   عفا من بعد احوال
عفاه كل حنان   عسوف الوبل هطال

لما قال عفا من بعد أحوال • قدر كأنه قيل له • فما عفاه • فقال • عفاه كل حنان •

واعلم ان السؤال اذا كان ظاهراً مذكوراً فى مثل هذا كان الاكثر أن لايذكر الفعل فى الجواب ويقتصر على الاسم وحده فامامع الاضمار فلا يجوز الا ان يذكر الفعل • تفسير هذا انه يجوز لك اذا قيل • ان كانت الرياح لم تعفه فما عفاه • أن تقول • من حدا بهم وساقا • ولا تقول • عفاه من حدا • كما تقول فى جواب من يقول • من فعل هذا • زيد • ولا يجب ان تقول فعله زيد وأما اذا لم يكن السؤال مذكورا كالذى عليه البيت فانه لايجوز ان يترك ذكر الفعل • فلو قلت مثلا • وما عفت الرياح له محلا من حدابهم وساقا • تزعم أنك أردت (عفاه من حدابهم) ثم تركت ذكر الفعل أحلت لانه انما يجوز تركه حيث يكون السؤال مذكورا لان ذكره فيه يدل على ارادته فى الجواب فاذا لم يؤت بالسؤال لم يكن الى العلم به سبيل فاعرف ذلك

واعلم ان الذى تراه فى التنزيل من لفظ قال مفصولا غير معطوف هذا هو التقدير فيه والله أعلم أعنى مثل قوله تعالى هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون. فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين. فقربه اليهم قال الا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف. جاء على مايقع في أنفس المخلوقين من السؤال فلما كان فى العرف والعادة فيما بين المخلوقين اذا قيل لهم دخل قوم على فلان فقالوا كذا ان يقولوا فما قال هو. ويقول المجيب قال كذا أخرج الكلام ذلك المخرج لان الناس خوطبوا بما يتعارفونه وسلك باللفظ معهم المسلك الذى يسلكونه ! وكذلك قوله قال ألا تأكلون وذلك ان قوله فجاء بعجل سمين فقربه اليهم يقتضي أن يتبع هذا الفعل بقول فكانه قيل والله أعلم. فما قال حين وضع الطعام بين أيديهم فأتى قوله. قال ألا تأكلون: جوابا عن ذلك: وكذا قالوا (لاتخف) لان قوله: فاوجس منهم خيفه: يقتضي أن يكون من الملائكة كلام فى تأنيسه وتسكينه مما خامره فكانه قيل: فما قالوا حين رأوه وقد تغير ودخلته الخيفة: فقيل قالوا لاتخف: وذلك والله أعلم المعنى في جميع مايجيء منه على كثرته كالذى يجيء في قصة فرعون عليه اللعنة وفى رد موسى عليه السلام كقوله قال فرعون وما رب العالمين: قال رب السموات والارض وما بينهما إن كنتم موقنين: قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الاولين: قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون: قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون: قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين قال أولو جئتك بشي مبين: قال فأت به ان كنت من الصادقين جاء ذلك كله والله أعلم على

تقدير السؤال والجواب كالذى جرت به العادة فيما بين المخلوقين فلما
كان السامع منا اذا سمع الخبر عن فرعون بانه قال : وما رب العالمين
وقع فى نفسه أن يقول : فما قال موسى له : أتى قوله قال رب السموات
والارض : ماتي الجواب مبتدأ مفصولا غير معطوف وهكذا التقدير
والتفسير أبداً فى كل ما جاء فيه لفظ قال هذا المجيء وقد يكون الامر
فى بعض ذلك أشد وضوحا

ومما هو فى غاية الوضوح قوله تعالى قال فما خطبكم أيها المرسلون
قال انا أرسلنا الي قوم مجرمين وذلك أنه لايخفي على عاقل أنه جاء على
معني الجواب وعلى أن ينزل السامعون كانهم قالوا : فما قال له الملائكة
فقيل (قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين) وكذلك قوله عز وجل فى سورة
يس واضرب لهم مثلا أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا اليهم
اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا انا اليكم مرسلون : قالوا ما أنتم الا
بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء ان أنتم الا تكذبون : قالوا ربنا
يعلم إنا اليكم لمرسلون وما علينا الا البلاغ المبين : قالوا انا تطيرنا بكم
لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم : قالوا طائركم معكم أئن
ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون : وجاء من أقصي المدينة رجل يسعي
قال يا قوم اتبعوا المرسلين : اتبعوا من لايسألكم أجراً وهم مهتدون
التقدير الذى قدرناه من معني السؤال والجواب بين ظاهر فى ذلك
كله ونسأل الله التوفيق للصواب والعصمة من الزلل

فصل

واذ قد عرفت هذه الاصول والقوانين فى شأن فصل الجمل ووصلها

فاعلم انا قد حصلنا من ذلك على ان الجمل على ثلاثة أضرب جملة
حالها مع التى قبلها حال الصفة مع الموصوف والتأكيد مع المؤكد فلا
يكون فيها العطف البتة لشبه العطف فيها لو عطفت بعطف الشيء على
نفسه : وجملة حالها مع التى قبلها حال الاسم يكون غير الذي قبله الا
أنه يشاركه فى حكم ويدخل معه فى معني مثل ان يكون كلا الاسمين
فاعلا أو مفعولا أو مضافا اليه فيكون حقها العطف : وجملة ليست فى
شيء من الحالين بل سبيلها مع التى قبلها سبيل الاسم مع الاسم لايكون
منه فى شيء فلا يكون إياه ولا مشاركا له فى معنى بل هو شيء انذكر
لم يذكر الا بأمر ينفرد به ويكون ذكر الذى قبله وترك الذكر سواء
فى حاله لعدم التعلق بينه وبينه رأسا : وحق هذا ترك العطف البتة
فترك العطف يكون إما للاتصال الي الغاية او الانفصال الي الغاية
والعطف لما هو واسطة بين الامرين : وكان له حال بين حالين
: فاعرفه

فصل

هذا فن من القول خاص دقيق اعلم ان مما يقل نظر الناس فيه
من أمر العطف انه قد يؤتي بالجملة فلا تعطف على مايليها ولكن
تعطف على جملة بينها وبين هذه التي تعطف جملة أو جملتان مثال
ذلك قول المتنبي:

تولوا بغتة فكأن بينا   تهيبني ففاجأني اغتيالا
فكان مسير عيسهم ذميلا   وسير الدمع إثرهم انهمالا

قوله فكان مسير عيسهم : معطوف على (تولوا بغتة) دون مايليه

من قوله : ففاجأني: لانا ان عطفناه علي هذا الذى يليه أفسدنا المعنى
من حيث انه يدخل فى معنى كأن وذلك يؤدي الي أن لايكون مسير
عيسهم حقيقة ويكون متوهما كما كان تهيب البين كذلك وهذا أصل
كبير والسبب فى ذلك ان الجملة المتوسطة بين هذه المعطوفة أخيراً
وبين المعطوف عليها الاولي ترتبط فى معناها بتلك الاولي كالذي ترى
ان قوله فكأن بينا تهيبني : مرتبط بقوله: تولوا بغتة : وذلك ان الثانية
مسبب والاولي سبب ألا تري ان المعني تولوا بغتة فتوهمت أن بينا تهيبني
ولا شك ان هذا التوهم كان بسبب ان كان التولي بغتة واذا كان كذلك
كانت مع الاولي كالشيء الواحد وكان منزلتها منها منزلة المفعول
والظرف وسائر مايجيء بعد تمام الجملة من معمولات الفعل مما لايمكن
افراده على الجملة وان يعتد كلاما على حدته

وههنا شيء آخر دقيق وهو انك اذا نظرت الي قوله :فكان سير
عيسهم ذميلا :وجدته لم يعطف هو وحده على ماعطف عليه ولكن
تجد العطف قد تناول جملة البيت مربوطا آخره باوله : ألا تري أن
الغرض من هذا الكلام ان يجعل توليهم بغتة وعلى الوجه الذي توهم
من أجله ان البين تهيبه مستدعياً بكاءه وموجباً أن ينهمل دمعه فلم
يعنه أن يذكر زملان العيس الا ليذكر هملان الدمع وأن يوفق
بينهما : وكذلك الحكم في الاول فنحن وان كنا قلنا ان العطف على
تولوا بغتة فانا لانعني أن العطف عليه وحده مقطوعا عما بعده بل
العطف عليه مضموما اليه مابعده الي آخره وانما أردنا بقولنا ان العطف
عليه ان نعلمك انه الاصل والقاعدة وان نصرفك عن ان تطرحه
وتجعل العطف على مايلى هذا الذي تعطفه فتزعم ان قوله فكان سير

عيسهم :معطوف على فاجأني فتقع فى الخطأ كالذي أريناك فأمر العطف
اذن موضوع على أنك تعطف تارة جملة على جملة وتعمد أخري
الي جملتين أو جمل فتعطف بعضاً على بعض ثم تعطف مجموع هذي
علي مجموع تلك

وينبغي ان يجعل مايصنع فى الشرط والجزاء من هذا المعنى أصلا
يعتبر به وذلك انك تري متى شئت جملتين قد عطفت احداها علي
الاخرى ثم جعلتا مجموعهما شرطا ومثال ذلك قوله تعالي ومن يكسب
خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثما مبينا الشرط كما
لايخفي في مجموع الجملتين لافي كل واحدة منهما على الانفراد ولا فى
واحدة دون الاخري لانا إن قلنا انه فى كل واحدة منهما على الانفراد
جعلناهما شرطين واذا جعلناهما شرطين اقتضتا جزاءين وليس معنا
الاجزاء واحد :وان قلنا ان في واحدة منهما دون الاخري لزم منه
إشراك ماليس بشرط في الجزم بالشرط وذلك مالا يخفى فساده : ثم انا
نعلم من طريق المعنى ان الجزاء الذي هو احتمال البهتان والاثم المبين
أمر يتعلق ايجابه لمجموع ماحصل من الجملتين فليس هو لاكتساب
الخطيئة على الانفراد ولا لرمي البرىء بالخطيئة أو الاثم على الاطلاق
بل لرمى الانسان البرىء بخطيئة أو اثم كان من الرامي وكذلك الحكم
أبداً : فقوله تعالي ومن يخرج من بيته مهاجراً الي الله ورسوله ثم
يدركه الموت فقد وقع أجره على الله لم يعلق الحكم فيه بالهجرة على
الانفراد بل بها مقروناً اليها أن يدركه الموت عليها

واعلم ان سبيل الجملتين فى هذا وجعلهما بمجموعهما بمنزلة الجملة
الواحدة سبيل الجزاءين تعقد منهما الجملة ثم تجعل المجموع خبراً أو

صفة أوحالا كقولك : زيد قام غلامه وزيد أبوه كريم ومررت برجل
أبوه كريم وجاءني زيد يعدو به فرسه : فكما يكون الخبر والصفة
والحال لا محالة في مجموع الجزأين لافي أحدهما كذلك يكون الشرط في
مجموع الجملتين لافي إحداها : واذا علمت ذلك في الشرط فاحتذه في
العطف فانك تجده مثله سواء

ومما لايكون العطف فيه الا على هذا الحد قوله تعالي وما كنت
بجانب الغربي اذ قضينا الي موسي لامر وما كنت من الشاهدين
:ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل مدين
تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين لو جريت على الظاهر فجعلت كل
جملة معطوفة على ماليها منع منه المعني وذلك انه يلزم منه ان يكون
قوله وما كنت ثاويا فى أهل مدين معطوفا على قوله فتطاول عليهم العمر
وذلك يقتضي دخوله فى معنى لكن ويصير كانه قيل : ولكنك ما كنت
ثاويا : وذلك مالا يخفي فساده : واذا كان كذلك بان من أنه ينبغي أن
يكون قد عطف مجموع وما كنت ثاويا في أهل مدين ـ الى ـ مرسلين
على مجموع قوله وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر الى
قوله العمر

فان قلت فهلا قدرت ان يكون وما كنت ثاويا فى أهل مدين
معطوفا على وما كنت من الشاهدين دون ان تزعم انه معطوف عليه
مضموما اليه مابعده الى قوله العمر قيل لانا ان قدرنا ذلك وجب ان
ينوى به التقديم على قوله ولكنا أنشأنا قروناً وان يكون الترتيب وما
كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسي الامر وما كنت من الشاهدين
وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا أنشأنا قروناً

فتطاول عليهم العمر ولكنا كنا مرسلين : وفي ذلك ازالة (لكن) عن
موضعها الذي ينبغي أن تكون فيه : ذاك لان سبيل (لكن) سبيل (الا)
لكما لايجوز ان تقول جاءني القوم وخرج أصحابك الا زيداً والا عمرا
بجعل الا زيداً استثناء من جاءني القوم الا عمراً من خرج أصحابك
كذلك لايجوز ان تصنع مثل ذلك بلكن فتقول ماجاءني زيد وما
خرج عمرو ولكن بكرا حاضر ولكن أخاك خارج : فاذا لم يجز
ذلك وكان تقديرك الذي زعمت يؤدي اليه وجب ان تحكم بامتناعه
فاعرفه :

هذا وانما تجوز نية التأخير فى شئ معناه يقتضي له ذلك التأخير
مثل ان كون الاسم مفعولا يقتضى له ان يكون بعد الفاعل فاذا قدم
على الفاعل نوى به التأخير ومعنى (لكن) في الآية يقتضي أن تكون
في موضعها الذى هي فيه فكيف يجوز ان ينوى بها التأخير عنه الي
موضع آخر

هذه فصول شتي في أمر اللفظ والنظم فيها فضل شحذ للبصيرة وزيادة
كشف عما فيها من السريرة .

﴿ فصل ﴾

وغلط الناس فى هذا الباب كثير فمن ذلك انك تجد كثيرا ممن
يتكلم فى شأن البلاغة اذا ذكر أن للعرب الفضل والمزية في حسن
النظم والتأليف وأن لها في ذلك شأوا لايبلغه الدخلاء فى كلامهم والمولدون
جعل يعلل ذلك بان يقول لاغرو فان اللغة لها بالطبع ولنا بالتكليف
ولن يبلغ الدخيل فى اللغات والألسنة مبلغ من نشأ عليها وبدئ من

أول خلقه بها • وأشباه هذا مما يوهم ان المزية أتها من جانب العلم باللغة وهو خطأ عظيم وغلط منكر يفضي بقائله الي رفع الاعجاز من حيث لايعلم • وذلك انه لايثبت اعجاز حتي تثبت مزايا تفوق علوم البشر وتقصر قوي نظرهم عنها ومعلومات ليس فى متن أفكارهم وخواطرهم ان تفضى بهم اليها ، وأن تطلعهم عليها ، وذلك محال فيما كان علماً باللغة لانه يؤدي الى ان يحدث فى دلائل اللغة مالم يتواضع عليه أهل اللغة وذلك مالايخفى امتناعه على عاقل

واعلم انا لم نوجب المزية من أجل العلم بانفس الفروق والوجوه فنستند الى اللغة ولكنا أوجبناها للعلم بمواضعها وما ينبغي أن يصنع فيها فليس الفضل للعلم بأن الواو للجمع والفاء للتعقيب بغير تراخ «وثم» له بشرط التراخى و «إن» لكذا و«اذا» لكذا ولكن لايتأتي لك اذا نظمت شعراً والفت رسالة ان تحسن التخير وان تعرف لكل من ذلك موضعه • وأمر آخر اذا تأمله انسان أنف من حكاية هذا القول فضلا عن اعتقاده وهو ان المزية لو كانت تجب من أجل اللغة والعلم بأوضاعها وما أراده الواضع فيها لكان ينبغي أن لاتجب الا بمثل الفرق بين الفاء وثم وان واذا وما أشبه ذلك مما يعبر عنه وضع لغوي فكانت لاتجب بالفصل وترك العطف وبالحذف والتكرار والتقديم والتأخير وسائر ماهو هيئة يحدثها لك التأليف ويقتضيها الغرض الذى تؤم والمعني الذى تقصد وكان ينبغي أن لاتجب المزيه بما يبتدئه الشاعر والخطيب فى كلامه من استعارة اللفظ للشيء لم يستعر له وأن لاتكون الفضيلة الا فى استعارة قد تعورفت في كلام العرب وكفى بذلك جهلا • ولم يكن هذا الاشتباه وهذا الغلط الا لانه ليس فى جملة الخفايا والمشكلات

اغرب مذهبا فى الغموض ولا أعجب شأناً من هذه التى نحن بصددها ولا أكثر تفلتاً من الفهم وانسلالا منها وان الذي قاله العلماء والبلغاء فى صفتها والاخبار عنها رموز لا يفهمها الا من هو في مثل حالهم من لطف الطبع ومن هو مهيأ لفهم تلك الاشارات حتى كأن تلك الطباع اللطيفة وتلك القرائح والاذهان قد تواضعت فيما بينها على ماسبيله سبيل الترجمة يتواطأ عليها قوم فلا تعدوهم ولا يعرفها من ليس منهم

وليت شعرى من أين لمن لم يتعب فى هذا الشأن ولم يمارسه ولم يوفر عنايته عليه أن ينظر الى قول الجاحظ وهو يذكر اعجاز القرآن: (ولو أن رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة قصيرة أو طويلة لتبين له فى نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها انه عاجز عن مثلها ولو تحدى بها أبلغ العرب لأظهر عجزه عنها) وقوله وهو يذكر رواة الاخبار (ورأيت عامتهم فقد طالت مشاهدتى لهم وهم لايقفون على الالفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلي الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق) وقوله فى بيت الحطيئة

متي تأته تعشو الى ضوء ناره   تجد خير نار عندها خير موقد

(وما كان ينبغي أن يمدح بهذا البيت الا من هو خير أهل الارض على انى لم أعجب بمعناه أكثر من عجبى بلفظه وطبعه ونحته وسبكه فيفهم منه شيئاً أو يقف للطابع والنظام والنحت والسبك والمخارج السهلة على معنى أو يحلى منه بشيء وكيف بان يعرفه ولربما خفى على كثير من أهله)

واعلم ان الداء الدوى والذى أعيي أمره فى هذا الباب غلط من

قدم الشعر بمعناه وأقل الاحتفال باللفظ وجعل لا يعطيه من المزية ان
هو أعطي الا ما فضل عن المعنى • يقول ما في اللفظ لولا المعنى وهل
الكلام الا بمعناه • فأنت تراه لا يقدم شعراً حتى يكون قد أودع حكمة
وأدبا واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر فان مال الى اللفظ شيئاً
وأري أن يخله بعض الفضيلة لم يعرف غير الاستعارة ثم لا ينظر فى حال
تلك الاستعارة أحسنت بمجرد كونها استعارة أم من أجل فرق ووجه
للامرين • لا يحفل بهذا وشبهه قد قنع بظواهر الأمور وبالجمل وبان
يكون كمن يجاب المتاع للبيع انما همه أن يروج عنه • يرى انه اذا تكلم
فى الاخذ والسرقة وأحسن أن يقول • أخذه من فلان وألمّ فيه بقول
كذا فقد استكمل الفضل وبلغ أقصى ما يراد

واعلم انا وان كنا اذا اتبعنا العرف والعادة وما يهجس فى الضمير
وما عليه العامــة أرانا ذلك ان الصواب معهم وان التعويل ينبغي أن
يكون على المعنى وانه الذى لا يسوغ القول بخلافه فان الأمر بالضد اذا
جئنا الى الحقائق والى ما عليه المحصلون لانا لانرى متقدماً فى علم البلاغة
مبرزا فى شأوها الا وهو ينكر هذا الرأى ويعيبه ويزرى على القائل به
ويغض منه • ومن ذلك ما روى عن البحترى • روى ان عبيدالله بن
عبد الله بن طاهر سأله عن مسلم وأبى نواس أيهما أشعر؟ فقال أبو نواس
فقال ان أبا العباس ثعلبا لا يوافقك على هذا فقال • ليس هــذا من
شأن ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله انما يعلم ذلك من
دفع فى سلك طريق الشعر الى مضايقــه وانتهى الى ضروراته وعن
بعضــهم انه قال رآنى البحتري ومعي دفتر شعر فقال ماهــذا فقلت
شــعر الشنفرى فقال والى أين تمضى فقلت الى أبى العباس أقرأه

عليه فقال • قد رأيت أبا عباسكم هذا منذ أيام عند ابن ثوابة فما رأيته
ناقداً للشعر ولا مميزاً للالفاظ ورأيته يستجيد شيئا وينشده وما هو
بأفضل الشعر • فقلت له • أما نقــده وتمييزه فهذه صناعة أخرى
ولكنه أعرف الناس باعرابه وغريبه فما كان ينشد؟ قال قول
الحارث بن وعلة

قومي هم قتلوا أميم أخي / فاذا رميت يصيبني سهمي
فلئن عفوت لاعفون جللا / ولئن سطيت لأوهنن عظمي

فقلت والله ما أنشد الا أحسن شعر فى أحسن معنى ولفظ • فقال •
أين الشعر الذى فيه عروق الذهب • فقلت مثل ماذا • فقال مثل
قول أبى ذؤاب

ان يقتلوك فقد ثللت عروشهم / بعتيبة بن الحارث بن شهاب
بأشدهم كلبا على أعدائهم / وأعزهم فقداً على الاصحاب

وفى مثل هذا قال الشاعر

زوامل للاشعار لا علم عندهم / بجيدها الا كعلم الاباعر
لعمرك ما يدرى البعير اذا غدا / بأوساقه أو راح ما في الغرائر

وقال الآخر

يا أبا جعفر تحكم فى الشعــــر / وما فيك آلة الحكام
ان نقد الدينار الاعلى الصيــــرف / صعب فكيف نقد الكلام
قد رأيناك لست تفرق فى الاشــــعار / بين الارواح والاجسام

واعلم انهم لم يعيبوا تقديم الكلام بمعناه من حيث جهلوا ان المعنى
اذا كان أدبا وحكمة وكان غريبا نادراً فهو أشرف ممن ليس كذلك
بل عابوه من حيث كان من حكم من قضي في جنس من الاجناس بفضل

أو نقص ان لا يعتبر في قضيته تلك الا الاوصاف الذي تخص ذلك الجنس
وترجع الى حقيقته وأن لاينظر فيها الى جنس آخر وان كان من الاول
بسبيل أو متصلا به اتصال مالا ينفك منه • ومعلوم ان سبيل الكلام
سبيل التصوير والصياغة وان سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء
الذي يقع التصوير والصوغ فيه كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو
سوار فكما أن محالا اذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة
العمل ورداءته أن تنظر الى الفضة الحاملة لتلك الصورة أو الذهب
الذي وقع فيه العمل وتلك الصنعة ـ كذلك محال اذا أردت أن
تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه •
وكما انا لو فضلنا خاتما على خاتم بأن تكون فضة هذا أجود أو فصه
أنفس لم يكن ذلك تفضيلا له من حيث هو خاتم كذلك ينبغي اذا
فضلنا بيتا على بيت من أجل معناه أن لا يكون تفضيلا له من حيث
هو شعر وكلام وهذا قاطع فاعرفه

واعلم انك لست تنظر في كتاب صنف في شأن البلاغة وكلام جاء
عن القدماء الا وجدته يدل على فساد هذا المذهب ورأيتهم يتشددون
في انكاره وعيبه والعيب به • واذا نظرت في كتاب الجاحظ وجدته
يبلغ في ذلك كل مبلغ ويتشدد غاية التشدد وقد انتهى في ذلك الى أن جعل
العلم بالمعاني مشتركا وسوّى فيه بين الخاصة والعامة فقال (ورأيت ناسا
يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها ولم أر ذلك قط
الا في رواية غير بصير بجوهر ما يروى ولو كان له بصر لعرف موضع
الجيد ممن كان وفي أي زمان كان ! وأنا سمعت أبا عمرو الشيباني وقد
بلغ من استجادته لهذين البيتين ونحن في المسجد الجامع يوم الجمعة

أن كلف رجلا حتى أحضره قرطاساً ودواة حتى كتبهما. قال الجاحظ
وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا أبداً ولولا أن
أدخل في الحكومة بعض الغيب لزعمت أن ابنه لا يقول الشعر أيضاً
وهما قوله

لاتحسبن الموت موت البلى ... وانما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا ... أشد من ذاك على كل حال

ثم قال . وذهب الشيخ الى استحسان المعاني والمعاني مطروحة في
الطريق يعرفها العجمي والعربي . والقروي . والبدوي . وانما الشأن
في اقامة الوزن . وتخير اللفظ . وسهولة المخرج ! وصحة الطبع وكثرة
الماء . وجودة السبك ؛ وانما الشعر صياغة وضرب من التصوير »
فقد تراه كيف أسقط أمر المعاني وأبى أن يجب لها فضل فقال . وهي
مطروحة في الطريق ثم قال . وأنا أزعم ان صاحب هذين البيتين لا
يقول شعراً أبداً . فاعلمك ان فضل الشعر بلفظه لا بمعناه وانه اذا
عدم الحسن في لفظه ونظمه لم يستحق هذا الاسم بالحقيقة وأعاد طرفا
من هذا الحديث في « البيان » فقال « ولقد رأيت أبا عمرو الشيباني
يكتب أشعاراً من أفواه جلسائه ليدخلها في باب التحفظ والتذكر
وربما خيل الي ان أبناء اولئك الشعراء لا يستطيعون أبداً أن يقولوا شعراً
جيداً لمكان أعراقهم من أولئك الآباء ! (ثم قال) ولولا أن أكون
عياباً ثم للعلماء خاصة لصورت لك بعض ماسمعت من أبي عبيدة ومن
هو أبعد في وهمك من أبي عبيدة » ؛

واعلم انهم لم يبلغوا في انكار هذا المذهب ما بلغوه الا لان الخطأ
فيه عظيم وانه يفضي بصاحبه الي ان ينكر الاعجاز ويبطل التحدي

من حيث لا يشعر :وذلك انه ان كان العمل على ما يذهبون اليه من أن لا يجب فضل ومزية الا من جانب المعني وحتي يكون قد قال حكمة أو أدبا واستخرج معني غريباً أو شبهاً نادراً فقد وجب اطراح جميع ما قاله الناس في الفصاحة والبـلاغة وفي شأن النظم والتأليف وبطل أن يجب بالنظم فضل وان تدخله المزية وان تتفاوت فيه المنازل واذا بطل ذلك فقد بطل ان يكون فى الكلام معجز وصار الامر الي ما يقوله اليهود ومن قال بمثل مقالهم في هذا الباب ودخل فى مثل تلك الجهالات ونعوذ بالله من العمى بعد الابصار

﴿ فصل ﴾

لا يكون لاحدي العبارتين مزية على الاخري حتي يكون لها فى المعني تأثير لا يكون لصاحبتها فان قلت : فاذا أفادت هذه ما لا تفيد تلك فليستا عبارتين عن معني واحد بل هما عبارتان عن معنيين اثنين قيل لك ان قولنا (المعنى) في مثل هذا يراد به الغرض والذى أراد المتكلم أن يثبته أو ينفيه نحو ان تقصد تشبيه الرجل بالاسد فتقول : زيد كالاسـد : ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول : كأن زيداً الاسد : فتفيد تشبيهه أيضاً بالاسد إلا انك تزيد فى معنى تشبيهه به زيادة لم تكن فى الاول وهي أن تجعله من فرط شجاعته وقوة قلبه وانه لا يروعه شيء بحيث لا يتميز عن الاسد ولا يقصر عنه حتى يتوهم انه أسـد فى صورة أدمي" • واذا كان هذا كذلك فانظر هل كانت هذه الزيادة وهذا الفرق الا بما توخي فى نظم اللفظ وترتيبه حيث قدم الكاف الى صدر الكلام وركبت مع (ان) واذا لم يكن الي الشك سبيل أن ذلك كان

بالنظم فاجعله العبرة فى الكلام كله ورض نفسك على تفهم ذلك وتتبعه واجعل فيها انك تزاول منه أمراً عظيما لايقادر قدره : وتدخل فى بحر عميق لا يدرك قعره :

﴿ فصل ﴾

(هو فن آخر يرجع الى هذا الكلام)

قد علم أن المعارض للكلام معارض له من الجهة التي منها يوصف بانه فصيح وبليغ ومتخير اللفظ جيد السبك ونحو ذلك من الاوصاف التي نسبوها الى اللفظ : واذا كان هذا هكذا فبنا أن ننظر فيما اذا أتي به كان معارضاً ما هو : أهو أن يجيء بلفظ فيضعه مكان لفظ آخر نحو أن يقول بدل أسد ليث وبدل بعُد نأى ومكان قرب دنا أم ذلك مالا يذهب اليـه عاقل ولا يقوله من به طرق : كيف ولو كان ذلك معارضة لكان الناس لا يفصلون بين الترجمة والمعارضة ولكان كل من فسر كلاماً معارضاً له • واذا بطل أن يكون جهة للمعارضة وأن يكون الواضع نفسه فى هذه المنزلة معارضاً على وجه من الوجوه علمت ان الفصاحة والبلاغة وسائر ما يجري فى طريقهما أوصاف راجعة الي المعانى والى ما يدل عليه بالألفاظ دون الالفاظ أنفسها لانه اذا لم يكن في القسمة الا المعاني والالفاظ وكان لا يعقل تعارض فى الالفاظ المجردة الا ما ذكرت لم يبق الا أن تكون المعارضة معارضة من جهة ترجع الى معانى الكلام المعقولة دون ألفاظه المسموعة: واذا عادت المعارضة الى جهـة المعني وكان الكلام يعارض من حيث هو فصيح وبليغ ومتخير اللفظ حصل من ذلك ان الفصاحة والبلاغة وتخير اللفظ عبارة

عن خصائص ووجوه تكون معانى الكلام عليها وعن زيادات تحدث في أصول المعانى كالذي أريتك فيما بين «زيد كالاسد» و«كأن زيداً الاسد» وبان لانصيب للالفاظ من حيث هي الفاظ فيها بوجه من الوجوه

واعلم أنك لا تشفي العلة ولا تنتهي الى ثلج اليقين حتي تجاوز حد العلم بالشيء مجملا الى العلم به مفصلا وحتى لا يقنعك الا النظر فى زواياه والتغلغل فى مكامنه وحتى تكون كمن تتبع الماء حتي عرف منبعه وانتهى فى البحث عن جوهر العود الذي يصنع فيه الي أن يعرف منبته ومجري عروق الشجر الذي هو منه : وانا لنراهم يقيسون الكلام فى معنى المعارضة على الاعمال الصناعية كنسج الديباج وصوغ الشنف والسوار وأنواع مايصاغ وكل ما هو صنعة وعمل يد بعد أن يبلغ مبلغاً يقع التفاضل فيه ثم يعظم حتى يزيد فيه الصانع على الصانع زيادة يكون له بها صيت ويدخل فى حد ما يعجز عنه الاكثرون : وهذا القياس وان كان قياساً ظاهراً معلوماً وكالشيء المركوز فى الطباع حتى تري العامة فيه كالخاصة فان فيه أمرا يجب العلم به وهو انه يتصور ان يبدأ هذا فيعمل ديباج ويبدع في نقشه وتصويره فيجيء آخر ويعمل ديباجاً آخر مثله في نقشه وهيئته وجملة صفته حتى لا يفصل الرائي بينهما ولا يقع لمن لم يعرف القصة ولم يخبر الحال الا انهما صنعة رجل واحد وخارجان من تحت يد واحدة : وهكذا الحكم في سائر المصنوعات كالسوار يصيغه هذا ويجيء ذاك فيعمل سواراً مثله ويؤدي صنعته كما هي حتي لا يغادر منها شيئاً البتة : وليس يتصور مثل ذلك الكلام لانه لا سبيل الى أن تجيء الى معني بيت من الشعر أو فصل من النثر

فتؤديه بعينه وعلى خاصيته وصنعته بعبارة أخري حتي يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك لايخالفه في صفة ولا وجه ولا أمر من الامور ولا يغرنك قول الناس : قد أتى بالمعنى بعينه وأخذ معنى كلامه فاداه على وجهه : فانه تسامح منهم والمراد انه أدي الغرض فاما أن يؤدي المعنى بعينه على الوجه الذي يكون عليه في كلام الاول حتي لا تعقل ههنا الا ما عقلته هناك وحتى يكون حالهما في نفسك حال الصورتين المشتبهتين فى عينك كالسوارين والشنفين ففى غاية الاحالة وظن يفضى بصاحبه الى جهالة عظيمة وهي أن تكون الالفاظ مختلفة المعانى اذا فرقت ومتفقتها اذا جمعت وألف منها كلام وذلك أن ليس كلا منا فيما يفهم من لفظتين مفردتين نحو قعد وجلس ولكن فيما فهم من مجموع كلام ومجموع كلام آخر نحو أن تنظر فى قوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة) وقول الناس : قتل البعض إحياء للجميع : فانه وان كان قد جرت عادة الناس بأن يقولوا فى مثل هذا : انهما عبارتان معبرهما واحد فليس هذا القول قولا يمكن الاخذ بظاهره أو يقع لعاقل شك ان ليس المفهوم من أحد الكلامين المفهوم من الآخر

﴿ فصل ﴾

الكلام على ضربين ضرب انت تصل منه الى الغرض بدلالة اللفظ وحده وذلك اذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت : خرج زيد : وبالانطلاق عن عمرو فقلت : عمرو منطلق : وعلى هذا القياس • وضرب آخر أنت لا تصل منه الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذى يقتضيه موضوعه

فى اللغة ثم تجد لذلك المعني دلالة ثانية تصل بها الى الغرض ومدار هذا الامر على الكناية والاستعارة والتمثيل وقد مضت الامثلة فيها مشروحة مستقصاة أو لا تري أنك اذا قلت: هو كثير رماد القدر: أو قلت: طويل النجاد: أو قلت في المرأة: نؤوم الضحى: فانك فى جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعنى من مجرد اللفظ ولكن يدل اللفظ على معناه الذى يوجبه ظاهره ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معني ثانياً هو غرضك كمعرفتك من كثير رماد القدر أنه مضياف ومن طويل النجاد أنه طويل القامة ومن نؤوم الضحى فى المرأة انها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها . وكذا إذا قال: رأيت أسداً: ـ ودلك الحال على انه لم يرد السبع ـ علمت انه أراد التشبيه الا انه بالغ فجعل الذي رآه بحيث لا يتميز عن الأسد فى شجاعته وكذلك تعلم من قوله: بلغنى أنك تقدم رجلا وتؤخر أخري: أنه أراد التردد فى أمر البيعة واختلاف العزم فى الفعل وتركه على ما مضى الشرح فيه

وإذ قد عرفت هذه الجملة فهاهنا عبارة مختصرة وهي أن تقول المعني ومعنى المعنى تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذى تصل اليه بغير واسطة وبمعني المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضى بك ذلك المعنى الى معنى آخر كالذى فسرت لك

واذ قد عرفت ذلك فاذا رأيتهم يجعلون الالفاظ زينة للمعانى وحلية عليها أو يجعلون المعانى كالجوارى والالفاظ كالمعارض لها وكالوشي المحبر واللباس الفاخر والكسوة الرائقة الى أشباه ذلك مما يفخمون به أمر اللفظ ويجعلون المعنى ينبل به ويشرف ـ فاعلم انهم يضعون كلاما قد

يفخمون به أمر اللفظ ويجعلون المعني اعطاءك المتكلم أغراضه فيه من طريق معنى المعنى فكنى وعرض ومثل واستعار ثم أحسن فى ذلك كله وأصاب ووضع كل شيء منه في موضعه وأصاب به شاكلته وعمد فيما كنى به وشبه ومثل لما حسن مأخذه ودق مسلكه ولطفت اشارته وان المعرض وما فى معناه ليس هو اللفظ المنطوق به ولكن معني اللفظ الذى دللت به على المعنى الثانى كمعنى قوله

* فانى . جبان الكلب مهزول الفصيل * الذي هو دليل على انه مضياف فالمعانى الاول المفهومة من أنفس الالفاظ هي المعارض والوشي والحلى وأشباه ذلك والمعاني الثوانى التى يوما اليها بتلك المعانى هى التى تكسى تلك المعارض وتزين بذلك الوشي والحلى • وكذلك اذا جعلوا المعنى يتصور من أجل اللفظ بصورة ويبدو فى هيئة ويتشكل بشكل يرجع المعني في ذلك كله الى الدلالات المعنوية ولا يصلح شيء منه حيث الكلام على ظاهره وحيث لا يكون كناية وتمثيل به ولا استعارة ولا استعانة فى الجملة بمعنى على معنى وتكون الدلالة على الغرض من مجرد اللفظ فلو أن قائلا قال: رأيت الاسد: وقال آخر: لقيت الليث: لم يجز أن يقال فى الثانى انه صور المعنى فى غير صورته الأولى ولا أن يقال أبرزه في معرض سوي معرضه ولا شيئاً من هذا الجنس • وجملة الامر ان صور المعانى لا تتغير بنقلها من لفظ الى لفظ حتى يكون هناك اتساع ومجاز وحتي لا يراد من الالفاظ ظواهر ما وضعت له فى اللغة ولكن يشار بمعانيها الى معان أخر

واعلم ان هذا كذلك ما دام النظم واحدا فأما اذا تغير النظم فلا بد حينئذ من أن يتغير المعنى على ما مضي من البيان فى مسائل التقديم

والتأخير وعلى ما رأيت في المسئلة التي مضت الآن اعني قولك ان زيداً كالاسد وكأن زيداً الاسد : ذاك لانه لم يتغير من اللفظ شيء وانما تغير النظم فقط واما فتحك (ان) عند تقديم الكاف وكانت مكسورة فلا اعتداد بها لان معنى الكسر باق بحاله

واعلم ان السبب فى أن أحالوا في أشباه هذه المحاسن التى ذكرتها لك على اللفظ انها ليست بأنفس المعانى بل هى زيادات فيها وخصائص ألا ترى ان ليست المزية التي تجدها لقولك : كأن زيداً الاسد : على قولك : زيد كالاسد : شيئاً خارجاً عن التشبيه الذى هو أصل المعنى وانما هو زيادة فيه وفي حكم الخصوصية في الشكل نحو أن يصاغ خاتم على وجه وآخر على وجه آخر تجمعهما صورة الخاتم ويفترقان بخاصة وشيء يعلم الا انه لا يعلم منفرداً • ولما كان الامر كذلك لم يمكنهم أن يطلقوا اسم المعانى على هذه الخصائص اذ كان لا يفترق الحال حينئذ بين أصل المعني و بين ما هو زيادة في المعنى وكيفية له وخصوصية فيه فلما امتنع ذلك توصلوا الى الدلالة عليها بأن وصفوا اللفظ فى ذلك بأوصاف يعلم أنها لا تكون أوصافا له من حيث هو لفظ كنحو وصفهم له بأن لفظ شريف وأنه قد زان المعنى وان له ديباجة وان عليه طلاوة وان المعني منه في مثل الوشى وأن عليه كالحلى الى أشباه ذلك مما يعلم ضرورة أنه لا يعني بمثله الصوت والحرف ثم انه لما جرت به العادة واستمر عليه العرف وصار الناس يقولون اللفظ واللفظ لزّ ذلك بأنفس أقوام باباً من الفساد وخامرهم منه شيء لست أحسن وصفه

****

﴿ فصل ﴾

ومن الصفات التى تجدهم يجرونها على اللفظ ثم لا تعترضك شبهة ولا يكون منك توقف في أنها ليست له ولكن لمعناه قولهم : لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتي يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ولا يكون لفظه أسبق الى سمعك من معناه الى قلبك • وقولهم : يدخل فى الاذن بلا إذن : فهذا مما لا يشك العاقل في انه يرجع الى دلاله المعنى على المعنى وانه لا يتصور ان يراد به دلالة اللفظ على معناه الذى وضع له في اللغة ذاك لانه لا يخلو السامع من أن يكون عالما باللغة وبمعاني الالفاظ التى يسمعها أو يكون جاهلا بذلك فان كان عالماً لم يتصور أن يتفاوت حال الالفاظ معه فيكون معني لفظ أسرع الى قلبه من معنى لفظ آخر وان كان جاهلا كان ذلك فى وصفه أبعد • وجملة الامر انه انما يتصور أن يكون لمعني أسرع فهما منه لمعني آخر اذا كان ذلك مما يدرك بالفكر واذا كان مما يجدد له العلم به عند سمعه للكلام وذلك محال فى دلالات الالفاظ اللغوية لان طريق معرفتها التوقيف • والتقدم بالتعريف

واذا كان ذلك كذلك علم علم الضرورة ان مصرف ذلك الى دلالات المعانى على المعانى وانهم أرادوا ان من شرط البلاغة أن يكون المعني الاول الذى تجعله دليلا على المعنى الثانى ووسيطاً بينك وبينه متمكناً في دلالته • مستقلا بوساطته • يسفر بينك وبينه أحسن سفارة • ويشير لك اليه أبين اشاره • حتى يخيل اليك أنك فهمته من حق اللفظ وذلك لقلة الكلفة فيه عليك • وسرعة وصوله اليك • فكان من الكناية مثل قوله:

لا أمتع العوذ بالفصال ولا   أبتاع إلا قريبة الاجل

ومن الاستعارة مثل قوله

وصدر أراح الليل عازب همه   تضاعف فيه الحزن من كل جانب

ومن التمثيل مثل قوله

لا أذود الطير عن شجر   قد بلوت المر من ثمره

وان أردت أن تعرف ماله بالضد من هذا فكان منقوص القوة فى تأدية ما أريد منه لانه يعترضه ما يمنعه أن يقضى حق السفارة فيما بينك وبين معناك • ويوضح تمام الايضاح عن مغزاك • فانظر الى قول العباس بن الاحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا   وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

بدأ فدل بسكب الدموع على ما يوجبه الفراق من الحزن والكمد فأحسن وأصاب لأن من شأن البكاء أبداً أن يكون أمارة للحزن وأن يجعل دلالة عليه وكناية عنه كقولهم : أبكانى وأضحكنى : على معنى (ساءنى وسرنى) وكما قال:

أبكانى الدهر ويا ربما   أضحكنى الدهر بما يرضى

ثم ساق هذا القياس الى نقيضه فالتمس أن يدل علي ما يوجبه دوام التلاقى من السرور بقوله (لتجمدا) وظن ان الجمود يبلغ له فى إفادة المسرة والسلامة من الحزن ما بلغ سكب الدمع فى الدلالة على الكآبة والوقوع فى الحزن ونظر الى أن الجمود خلو العين من البكاء وانتفاء الدموع عنها وانه اذا قال (لتجمدا) فكأنه قال : أحزن اليوم لئلا أحزن غدا : وتبكي عيناي جهدهما لئلا تبكيا أبدا : وغلط فيما ظن وذاك ان الجمود هو أن لا تبكى العين مع ان الحال حال بكاء ومع ان العين يراد

منها أن تبكي ويشتكي من أن لا تبكي ولذلك لا ترى أحداً يذكر عينه بالجمود إلا وهو يشكوها ويذمها وينسبها الى البخل ويعد امتناعها من البكاء تركا لمعونة صاحبها على ما به من الهم ألا تري الي قوله

ألا ان عيناً لم تجد يوم واسط   عليك بجارى دمعها لجمود

فأتى بالجمود تأكيدا لنفي الجود ومحال أن يجعلها لا تجود بالبكاء وليس هناك التماس بكاء لان الجود والبخل يقتضيان مطلوبا يبذل أو يمنع ولو كان الجمود يصلح لان يراد به السلامة من البكاء ويصح أن يدل به على ان الحال حال مسرة وحبور لجاز أن يدعي به للرجل فيقال : لازالت عينك جامدة : كما يقال : لا أبكى الله عينك : وذاك مما لا يشك فى بطلانه • وعلى ذلك قول أهل اللغة : عين جمود لاماء فيها وسنة جماد لامطر فيها وناقة جماد لا لبن فيها : وكما لا تجعل السنة والناقة جماداً الا على معنى ان السنة بخيلة بالقطر • والناقة لا تسخوا بالدر • كذلك حكم العين لا تجعل جموداً إلا وهناك ما يقتضى ارادة البكاء منها وما يجعلها اذا بكت محسنة موصوفة بان قد جادت وسخت واذا لم تبك مسيئة موصوفة بان قد ضنت وبخلت

فان قيل انه أراد أن يقول : انى اليوم أتجرع غصص الفراق وأحمل نفسى على مره وأحتمل ما يؤدينى اليه من حزن يفيض الدموع من عينى ويسكبها لكي أتسبب بذلك الى وصل يدوم ومسرة تتصل حتي لا أعرف بعد ذلك الحزن أصلا ولا تعرف عينى البكاء وتصير في أن لا ترى باكية أبداً كالجمود التي لا يكون لها دمع : فان ذلك لا يستقيم ولا يستتب لانه يوقعه فى التناقض ويجعله كأنه قال : أحتمل البكاء لهذا الفراق عاجلا لاصير في الآجل بدوام الوصل واتصال السرور فى

صورة من يريد من عينه أن تبكي ثم لا تبكي لانها خلقت جامدة لاماء
فيها : وذلك من التهافت والاضطراب بحيث لاتجيع الحيلة فيه . وجملة
الامر انا لا نعلم أحداً جعل جمود العين دليـل سرور وامارة غبطة
وكناية عن ان الحال حال فرح . فهذا مثال فيما هو بالضد مما شرطوا
من أن لا يكون لفظه أسبق الى سمعك . من معناه الى قلبك .لانك
ترى اللفظ يصل الي سمعك وتحتاج الى أن تخب وتوضع في طلب المعنى
ويجرى لك هذا الشرح والتفسير في النظم كما جرى في اللفظ لانه اذا
كان النظم سويا والتأليف مستقيما كان وصول المعنى الى قلبك . تلو
وصول اللفظ الي سمعك . واذا كان على خلاف ما ينبغي وصل اللفظ
الى السمع وبقيت في المعنى تطلبه وتتعب فيه وإذا أفرط الامر في ذلك
صار الى التعقيد الذى قالوا أنه يستهلك المعنى

واعلم ان لم تضق العبارة ولم يقصر اللفظ ولم ينغلق الـكلام في هذا
الباب الا لانه قد تناهي في الغموض والخفاء الى أقصى الغايات وانك
لا ترى أغرب مذهباً وأعجب طريقاً وأحرى بأن تضطرب فيه الآراء
منه ، وما قولك في شيء قد بلغ من أمره أن يدعي على كبار العلماء بأنهم
لم يعلموه ولم يفطنوا له فقد ترى ان البحترى قال حين سئل عن مسلم وأبي
نواس أيهما أشعر فقال أبو نواس فقيل : فان أبا العباس ثعلبا لا يوافقك
على هذا : فقال : ليس هذا من شأن ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر
دون عمله انما يعلم ذلك من دفع في مسلك طريق الشعر الى مضايقـه
وانتهى الى ضروراته

ثم لم ينفك العالمون به والذين هم من أهله من دخول الشبهة فيه
عليهم ، ومن اعتراض السهو والغلط لهم. روى عن الاصمعي انه قال :

كنت أسير مع أبي عمرو بن أبي العلاء وخلف الاحمر وكانا يأتيان
بشاراً فيسلمان عليه بغاية الاعظام ثم يقولان يا أبا معاذ ما أحـدثت :
فيخبرهما وينشدهما ويسألانه ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتي وقت
الزوال ثم ينصرفان . وأتياه يوما فقالا : ما هذه القصيدة التي أحدثتها
في سلم بن قتيبة قال هي بلغتكم . قالوا : بلغنا انك أكثرت فيها من
الغريب قال نعم : بلغني ان سلم بن قتيبة يتباصر بالغريب فأحببت أن
أورد عليه ما لا يعرف : قالوا فأنشدناها يا أبا معاذ فأنشدهما

بكرا صاحبيّ قبل الهجير   ان ذاك النجاح في التبكير

حتى فرغ منها فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان

* ان ذاك النجاح في التبكير *   * بكرا فالنجاح في التبكير *

كان أحسن . فقال بشار : إنما بنيتها اعرابية وحشية فقلت :
* ان ذاك النجاح في التبكير * كما تقول الاعراب البدويون ولو قلت
(بكرا فالنجاح) كان هذا من كلام المولدين ولا يشبه ذاك الكلام ولا
يدخل في معنى القصيدة : قال فقام خلف فقبل بين عينيه . فهل كان
هذا القول من خلف والنقد على بشار الا للطف المعنى في ذلك وخفائه

واعلم ان من شأن (إنّ) اذا جاءت على هذا الوجه ان تغني غناء
الفاء العاطفـة مثلا وان تفيد من ربط الجملـة بما قبلها أمراً عجيبا
فانت ترى الكلام بها مستأنفا غير مستأنف مقطوعا موصولا معا. أفلا
ترى انك لو أسقطت (ان) من قوله :   إن ذاك النجاح في التبكير :
لم تر الـكلام يلتئم ولرأيت الجملة الثانية لاتتصل بالاولى ولاتكون منها
بسبيل حتي تجيء بالفاء فتقول

بكرا صاحبي قبل الهجير   فذاك النجاح في التبكير

ومثله قول بعض العرب:

فغنها وهي لك الفداء   ان غناء الابل الحداء

فانظر الى قوله * ان غناء الابل الحداء * والى ملاءمته الكلام قبله وحسن تشبثه به والى حسن تعطف الكلام الاول عليه ثم انظر اذا تركت (ان) فقلت

فغنها وهي لك الفداء   غناء الابل الحداء

كيف تكون الصورة وكيف ينبو أحد الكلامين عن الآخر وكيف يشئم هذا ويعرق ذاك حتى لا تجد حيلة فى ائتلافهما حتى تجتلب لهما الفاء فتقول

فغنها وهي لك الفداء   فغناء الابل الحداء

ثم تعلم ان ليست الالفة بينهما من جنس ماكان وان قد ذهبت الأنسة التى كنت تجد والحسن الذى كنت ترى • وروى عن عنبسة انه قال قدم ذو الرمة الكوفة فوقف ينشد الناس بالكناسة قصيدته الحائية التى منها :

هي البرء والاسقام والهم والمنى   وموت الهوى فى القلب منى المبرح
وكان الهوى بالنأى يمحي فيمحي   وحبك عندى يستجد ويربح
اذا غير النأى المحبين لم يكد   رسيس الهوى من حب مية يبرح

قال فلما انتهى الى هذا البيت ناداه ابن شبرمة : يا غيلان أراه قد برح
قال فشنق ناقته وجعل يتأخر بها ويتفكر ثم قال

اذا غير النأى المحبين لم أجد   رسيس الهوى من حب مية يبرح

قال فلما انصرفت حدثت أبي قال : أخطا ابن شبرمة حين انكر على ذى الرمة وأخطأ ذو الرمة حين غير شعره لقول ابن شبرمة انما

هذا كقول الله تعالى (ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها) وانما هو لم يرها ولم يكد :

واعلم ان سبب الشبهة فى ذلك انه قد جرى فى العرف أن يقال : ما كاد يفعل ولم يكد يفعل : فى فعل قد فعل على معنى انه لم يفعل الا بعد الجهد وبعد أن كان بعيداً فى الظن أن يفعله كقوله تعالى (فذبحوها وما كادوا يفعلون) فلما كان مجيء النفى فى كاد على هذا السبيل توهم ابن شبرمة انه اذا قال * لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح * فقد زعم : أن الهوى قد برح ووقع لذي الرمة مثل هذا الظن وليس الامر كالذي ظناه فان الذى يقتضيه اللفظ اذا قيل : لم يكد يفعل وما كاد يفعل : ان يكون المراد ان الفعل لم يكن من أصله ولا قارب أن يكون ولا ظن انه يكون • وكيف بالشك فى ذلك وقد علمنا ان (كاد) موضوع لان يدل على شدة قرب الفعل من الوقوع وعلى أنه قد شارف الوجود • واذا كان كذلك كان محالا أن يوجب نفيه وجود الفعل لأنه يؤدى الى أن يوجب نفى مقاربة الفعل الوجود وجوده وان يكون قولك : ما قارب أن يفعل : مقتضياً على البت انه قد فعل • واذ قد ثبت ذلك فمن سبيلك أن تنظر فمتى لم يكن المعنى على انه قد كان هناك صورة تقتضى ان لا يكون الفعل وحال يبعد معها ان يكون ثم تغير الامر كالذى تراه فى قوله تعالى (فذبحوها وما كادوا يفعلون) فليس الا أن تلزم الظاهر وتجعل المعنى على أنك تزعم ان الفعل لم يقارب أن يكون فضلا عن أن يكون فالمعنى إذن فى بيت ذى الرمة على ان الهوى من رسوخه فى القلب وثبوته فيه وغلبته على طباعه بحيث لا يتوهم عليه البراح وان ذلك لا يقارب أن يكون فضلا عن أن يكون كما تقول

اذا سلا المحبون وفتروا فى محبتهم لم يقع لى وهم ولم يجر مني على بال انه يجوز عليّ ما يشبه السلوة وما يعد فترة فضلا عن أن يوجد ذلك منى وأصير اليه : وينبغي أن تعلم أنهم انما قالوا فى التفسير • لم يرها ولم يكد • فبدأوا فنفوا الرؤية ثم عطفوا (لم يكد) عليه ليعلموك أن ليس سبيل (لم يكد) هاهنا سبيل (ما كادوا) في قوله تعالي (فذبحوها وما كادوا يفعلون) فى أنه نفى معقب على اثبات • وان ليس المعني على ان رؤية كانت من بعد أن كادت لا تكون ولكن المعني على أن رؤيتها لا تقارب أن تكون فضلا عن أن تكون ولو كان (لم يكد) يوجب وجود الفعل لكان هذا الكلام منهم محالا جارياً مجري أن تقول • لم يرها ورآها • فاعرفه

وهاهنا نكتة وهي ان (لم يكد) في الآية والبيت واقع فى جواب اذا والماضى اذا وقع في جواب الشرط على هذا السبيل كان مستقبلا فى المعنى فاذا قلت • اذا خرجت لم أخرج • كنت قد نفيت خروجا فيما يستقبل • واذا كان الأمر كذلك استحال ان يكون المعنى فى البيت أو الآية على ان الفعل قد كان لانه يؤدى الى أن يجيء بلم أفعل ماضياً صريحاً فى جواب الشرط فتقول • اذا خرجت لم أخرج أمس • وذلك محال • ومما يتضح فيه هذا المعنى قول الشاعر

ديار لجهمة بالمنحنى　　سقاهن مرتجز باكر
وراح عليهن ذو هيدب　　ضعيف القوى ماؤه زاخر
اذا رام نهضاً بها لم يكد　　كذى الساق أخطأها الجابر

وأعود الى الغرض • فاذا بلغ من دقة هذه المعانى أن يشتبه الأمر فيها على مثل خلف الاحمر وابن شبرمة وحتى يشتبه على ذى

الرمة فى صواب قاله فيري انه غير صواب فما ظنك بغيرهم وما تعجبك من أن يكثر التخليط فيه • ومن العجب فى هذا المعني قول أبي النجم

قد أصبحت أم الخيار تدعى　　على ذنباً كله لم أصنع

قد حمله الجميع على أنه أدخل نفسه من رفع (كل) فى شيء انما يجوز عند الضرورة من غير أن كانت به اليه ضرورة • قالوا لأنه ليس فى نصب (كل) ما يكسر له وزناً أو يمنعه من معنى أراده • واذا تأملت وجدته لم يرتكبه ولم يحمل نفسه عليه الا لحاجة له الى ذلك والا لأنه رأي النصب يمنعه ما يريد • وذاك انه أراد انها تدعى عليه ذنباً لم يصنع منه شيئاً البتة لا قليلا ولا كثيراً ولا بعضاً ولا كلا • والنصب يمنع من هذا المعنى ويقتضى أن يكون قد أتى من الذنب الذى ادعته بعضه • وذلك انا إذا تأملنا وجدنا اعمال الفعل فى (كل) والفعل منفي لا يصلح أن يكون الا حيث يراد أن بعضا كان وبعضا لم يكن • تقول : لم ألق كل القوم ولم آخذ كل الدراهم : فيكون المعنى أنك لقيت بعضاً من القوم ولم تلق الجميع وأخذت بعضا من الدراهم وتركت الباقي • ولا يكون أن تريد انك لم تلق واحداً من القوم ولم تأخذ شيئاً من الدراهم • وتعرف ذلك بان تنظر الى (كل) فى الاثبات وتتعرف فائدته فيه •

واذا نظرت وجدته قد اجتلب لان يفيد الشمول فى الفعل الذى تسنده الى الجملة أو توقعه بها • تفسير ذلك انك انما قلت : جاءنى القوم كلهم: لانك لو قلت : جاءني القوم : وسكت لكان يجوز أن يتوهم السامع انه قد تخلف عنك بعضهم الا انك لم تعتد بهم أو انك جعلت الفعل اذا وقع من بعض القوم فكانما وقع من الجميع لكونهم فى حكم الشخص الواحد كما يقال للقبيلة : فعلتم وصنعتم : يراد فعل قد كان من بعضهم أو واحد منهم •

وهكذا الحكم أبداً فاذا قلت • رأيت القوم كلهم ومررت بالقوم كلهم • كنت قد جئت بكل لئلا يتوهم انه قد بقى عليك من لم تره ولم تمر به • وينبغي أن يعلم انا لنعني بقولنا يفيد الشمول أن سبيله فى ذلك سبيل الشيء يوجب المعنى من أصله وانه لولا مكان (كل) لما عقل الشمول ولم يكن فيما سبق من اللفظ دليل عليه ، كيف ولو كان كذلك لم يكن يسمي تأكيداً فالمعني أنه يمنع أن يكون اللفظ المقتضي الشمول مستعملا على خلاف ظاهره ومتجوَّزاً فيه

واذ قد عرفت ذلك فهاهنا أصل وهو أنه من حكم النفي اذا دخل على كلام ثم كان في ذلك الكلام تقييد على وجه من الوجوه أن يتوجه الى ذلك التقييد وأن يقع له خصوصاً . تفسير ذلك أنك اذا قلت أتاني القوم مجتمعين فقال قائل : لم يأتك القوم مجتمعين : كان نفيه ذلك متوجهاً الى الاجتماع الذي هو تقييد فى الاتيان دون الاتيان نفسه حتى انه ان أراد أن ينفى الاتيان من أصله كان من سبيله أن يقول انهم لم يأتوك أصلا فما معنى قولك « مجتمعين » هذا مما لا يشك فيه عاقل . واذا كان هذا حكم النفي اذا دخل على كلام فيه تقييد فان التأكيد ضرب من التقييد فمتي نفيت كلاما فيه تأكيد فان نفيك ذلك يتوجه الى التأكيد خصوصاً ويقع له ، فاذا قلت : لم أر القوم كلهم أو لم يأتنى القوم كلهم أو لم يأتي كل القوم أو لم أر كل القوم : كنت عمدت بنفيك الى معني « كل » خاصة وكان حكمه حكم « مجتمعين » في قولك لم يأتنى القوم مجتمعين : واذا كان النفي يقع لكل خصوصاً فواجب اذا قلت : لم يأتي القوم كلهم أو لم يأتنى كل القوم أن يكون قد أتاك بعضهم كما يجب اذا قلت : لم يأتني القوم مجتمعين : أن يكونوا قد أتوك أشتاتاً

وكما يستحيل أن تقول : لم يأتنى القوم مجتمعين : وأنت تريد أنهم لم يأتوك أصلا لا مجتمعين ولا منفردين كذلك محال أن تقول : لم يأتنى القوم كلهم : وأنت تريد أنهم لم يأتوك أصلا فاعرفه

واعلم أنك اذا نظرت وجدت الاثبات كالنفى فيما ذكرت لك ووجدت النفى قد احتذاه فيه وتبعه وذلك أنك اذا قلت : جاءنى القوم كلهم : كان « كل » فائدة خبرك هذا والذى يتوجه اليه اثباتك بدلالة أن المعنى على ان الشك لم يقع في نفس المجيء أنه كان من القوم على الجملة وانما وقع فى شموله الكل وذلك الذى عناك أمره من كلامك

وجملة الأمر أنه مامن كلام كان فيه أمر زائد على مجرد إثبات المعنى للشيء الا كان الغرض الخاص من الكلام والذى يقصد اليه ويزجي القول فيه فاذا قلت : جاءنى زيد راكباً وماجاءنى زيد راكبا كنت قد وضعت كلامك لان تثبت مجيئه راكباً أو تنفي ذلك لا لأن تثبت المجيء وتنفيه مطلقاً هذا مالاسبيل الى الشك فيه

واعلم أنه يلزم من شك في هذا فتوهم أنه يجوز أن تقول : لم أر القوم كلهم : على معني أنك لم تر واحداً منهم أن يجرى النهى هذا المجرى فتقول لا تضرب القوم كلهم : على معنى لا تضرب واحداً منهم وأن تقول لا تضرب الرجلين كليهما : على معنى لا تضرب واحداً منهما فاذا قال ذلك لزمه أن يحتل قول الناس : لا تضربهما معاً ولكن اضرب أحدهما ولا تأخذهما جميعاً ولكن واحدا منهما : وكفى بذلك فساداً

واذ قد بان لك من حال النصب أنه يقتضي أن يكون المعنى على أنه قد صنع من الذنب بعضاً وترك بعضاً فاعلم أن الرفع على خلاف ذلك وأنه يقتضى نفى أن يكون قد صنع منه شيئاً وأتى منه قليلا أو كثيراً

وانك اذا قلت : كلهم لايأتيك وكل ذلك لايكون وكل هذا لايحسن كنت نفيت أن يأتيه واحد منهم وأبيت أن يكون أو يحسن شيء مما أشرت اليه ومما يشهد لك بذلك من الشعر قوله

فكيف وكلٌ ليس يعدو حمامه ولا لامرئ عما قضي الله مزحل

المعنى على نفى أن يعدو احد من الناس حمامه بلا شبهة ولو قلت فكيف وليس يعدو كل حمامه : فأخرت كلا لافسدت المعنى وصرت كأنك تقول إن من الناس من يسلم من الحمام ويبقى خالد لايموت: ومثله قول دعبل

فو الله ما أدرى بأى سهامها رمتنى وكل عندنا ليس بالمكدى
أبا الجيد أم مجرى الوشاح وإنني لاتهم عينيها مع الفاحم الجعد

المعنى على نفى أن يكون في سهامها مكد على وجه من الوجوه ومن البين في ذلك ماجاء في حديث ذى اليدين قال للنبى صلى الله عليه وسلم أقصرت الصلاة أم نسيت يارسول الله فقال صلى الله عليه وسلم « كل ذلك لم يكن » فقال ذو اليدين : بعض ذلك قد كان : المعنى لامحالة على نفى الامرين جميعاً وعلى أنه عليه السلام أراد أنه لم يكن واحد منهما لا القصر ولا النسيان : ولو قيل : لم يكن كل ذلك لكان المعني أنه قد كان بعضه

واعلم أنه لما كان المعني مع إعمال الفعل المنفي في « كل » نحو لم يأتي القوم كلهم ولم أر القوم كلهم على أن الفعل قد كان من البعض ووقع علي البعض قلت لم يأتي القوم كلهم ولكن أتانى بعضهم ولم أر القوم كلهم ولكن رأيت بعضهم فأثبت بعد مانفيت ولا يكون ذلك مع رفع « كل » بالابتداء فلو قلت كلهم لم يأتنى ولكن أتانى بعضهم وكل

ذلك لم يكن ولكن كان بعض ذلك لم يجز لانه يؤدي الى التناقض وهو ان تقول لم يأتنى واحد منهم ولكن أتاني بعضهم

واعلم أنه ليس التأثير لما ذكرنا من اعمال الفعل وترك اعماله على الحقيقة وانما التأثير لامر آخر وهو دخول « كل » في حيز النفى وأن لا يدخل فيه وانما علقنا الحكم في البيت وسائر ما مضي باعمال الفعل وترك إعماله من حيث كان إعماله فيه يقتضي دخوله فى حيز النفى وترك اعماله يوجب خروجه منه من حيث كان الحرف النافى فى البيت حرفاً لاينفصل عن الفعل وهو (لم) لا أن كونه معمولا للفعل وغير معمول يقتضي مارأيت من الفرق أفلا ترى أنك لو جئت بحرف نفى يتصور انفصاله عن الفعل لرأيت المعنى في « كل » مع ترك إعمال الفعل مثله مع إعماله ومثال ذلك قوله * ما كل مايتمنى المرء يدركه * وقول الآخر

* ما كل رأى الفتى يدعو الى رشد *

« كل » كما ترى غير معمل فيه الفعل ومرفوعا إما بالابتداء وإما بأنه اسم (ما) ثم ان المعنى مع ذلك على ما يكون عليه اذا أعملت فيه الفعل فقلت مايدرك المرء كل مايتمناه ، ومايدعو كل رأى الفتى الى رشد وذلك ان التأثير لوقوعه فى حيز النفى وذلك حاصل في الحالين ولو قدمت كلا فى هذا فقلت : كل مايتمنى المرء لايدركه وكل رأى الفتى لا يدعو الى رشد : لتغير المعنى ولصار بمنزلة ان يقال : إن المرء لايدرك شيئاً مما يتمناه ولايكون في رأى الفتى مايدعو الى رشد بوجه من الوجوه

واعلم أنك اذا أدخلت كلا في حيز النفى وذلك بأن تقدم النفي عليه لفظاً أو تقديراً فالمعنى على نفى الشمول دون نفي الفعل والوصف

نفسه واذا أخرجت كلا من حيز النفي ولم تدخله فيه لا لفظاً ولا تقديراً كان المعنى على أنك تتبعت الجملة فنفيت الفعل والوصف عنها واحداً واحداً والعلة فى أن كان ذلك كذلك انك اذا بدأت بكل كنت قد بنيت النفى عليه وسلطت الكلية على النفى وأعملتها فيه وإعمال معني الكلية فى النفى يقتضي أن لا يشذ شيء عن النفي فاعرفه

واعلم أن من شأن الوجوه والفروق أن لا يزال يحدث بسببها وعلى حسب الاغراض والمعانى التى تقع فيها دقائق وخفايا لا الى حد ونهاية وانها خفايا تكتم أنفسها جهدها حتى لا ينتبه لاكثرها ولا يعلم أنها هي وحتى لا تزال ترى العالم يعرض له السهو فيه وحتى انه ليقصد الى الصواب فيقع فى أثناء كلامه ما يوهم الخطأ وكل ذلك لشدة الخفاء وفرط الغموض

فصل

واعلم أنه اذا كان بينا فى الشيء أنه لا يحتمل الا الوجه الذى هو عليه حتى لا يشكل وحتى لا يحتاج فى العلم بان ذلك حقه وأنه الصواب الى فكر ورؤية فلا مزية وانما تكون المزية ويجب الفضل اذا احتمل في ظاهر الحال غير الوجه الذي جاء عليه وجهاً آخر ثم رأيت النفس تنبوا عن ذلك الوجه الآخر ورأيت للذى جاء عليه حسناً وقبولا يعدمهما اذا أنت تركته الى الثانى ومثال ذلك قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن) ليس بخلاف أن لتقديم الشركاء حسناً وروعة ومأخذاً من القلوب أنت لا تجد شيئاً منه ان أنت أخرت فقلت : وجعلوا الجن شركاء لله : وانك ترى حالك حال من نقل عن الصورة المبهجة والمنظر

الرائق والحسن الباهر الى الشيء الغفل الذي لا تحلى منه بكثير طائل ولا تصير النفس به الى حاصل والسبب في ان كان ذلك كذلك هو ان للتقديم فائدة شريفة ومعني جليلا لا سبيل اليه مع التأخير بيانه أنا وان كنا نري جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله تعالى وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم فان تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى ويفيد معه معنى آخر وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا غير الجن واذا أخر فقيل : جعلو الجن شركاء لله لم يفد ذلك ولم يكن فيه شيء أكثر من الاخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى فأما إنكار أن يعبد مع الله غيره وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن فلا يكون في اللفظ مع تأخير الشركاء دليل عليه وذلك أن التقدير يكون مع التقديم أن شركاء مفعول أول لجعل و (لله) فى موضع المفعول الثانى ويكون (الجن) على كلام ثان وعلى تقدير أنه كانه قيل فمن جعلوا شركاء لله تعالي فقيل الجن واذا كان التقدير فى (شركاء) أنه مفعول أول ولله فى موضع المفعول الثانى وقع الانكار على كون شركاء الله تعالي على الاطلاق من غير اختصاص شيء دون شيء وحصل من ذلك أن اتخاذ الشريك من غير الجن قد دخل فى الانكار دخول اتخاذه من الجن لان الصفة اذا ذكرت مجردة غير مجراة على شيء كان الذى يعلق بها من النفي عاما فى كل ما يجوز أن تكون له تلك الصفة فاذا قلت مافي الدار كريم كنت نفيت الكينونة فى الدار عن كل من يكون الكرم صفة له وحكم الانكار أبداً حكم النفى واذا أخر فقيل : وجعلوا الجن شركاء لله كان الجن مفعولا أول والشركاء مفعولا ثانياً واذا كان كذلك كان الشركاء مخصوصاً غير مطلق من حيث كان

محالا أن يجرى خبراً على الجن ثم يكون عاما فيهم وفى غيرهم واذا كان كذلك احتمل أن يكون القصد بالانكار الي الجن خصوصاً ان يكونوا شركاء دون غيرهم جل الله وتعالى عن أن يكون له شريك وشبيه بحال

فانظر الآن الى شرف ما حصل من المعنى بان قدم الشركاء واعتبره. فانه ينبهك لكثير من الامور ويدلك على عظم شأن النظم وتعلم به كيف يكون الايجاز به وماصورته. وكيف يزاد فى المعني من غير أن يزاد فى اللفظ اذ قد ترى ان ليس الا تقديم وتأخير وأنه قد حصل لك بذلك من زيادة المعنى ما ان حاولته مع تركه لم يحصل لك واحتجت الى أن تستأنف له كلاما نحو أن تقول • وجعلوا الجن شركاء لله وماينبغى أن يكون لله شريك لا من الجن ولا من غيرهم ثم لا يكون له اذا عقل من كلامين من الشرف والفخامة ومن كرم الموقع في النفس ما تجده له الآن وقد عقل من هذا الكلام الواحد

ومما ينظر الى مثل ذلك قوله تعالى (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة) اذا أنت راجعت نفسك وأذكيت حسك وجدت لهذا التنكير وان قيل (على حياة) ولم يقل • على الحياة • حسنا وروعة ولطف موقع لا يقادر قدره وتجدك تعدم ذلك مع التعريف وتخرج عن الاريحية والانس الى خلافهما • والسبب في ذلك ان المعنى على الازدياد من الحياة لا الحياة من أصلها وذلك لا يحرص عليه الا الحى فاما العادم للحياة فلا يصح منه الحرص على الحياة ولا على غيرها واذا كان كذلك صار كانه قيل • ولتجدنهم أحرص الناس ولو عاشوا ماعاشوا على أن يزدادوا الى حياتهم في ماضي الوقت وراهنه حياة فى الذى يستقبل فكما أنك لا تقول هاهنا أن يزدادوا الى حياتهم الحياة بالتعريف وانما تقول حياة اذا كان التعريف يصلح حيث

تراد الحياة على الانطلاق كقولنا • كل أحد يحب الحياة ويكره الموت • كذلك الحكم فى الآية

والذي ينبغى أن يراعى ان المعنى الذى يوصف الانسان بالحرص عليه اذا كان موجوداً حال وصفك له بالحرص عليه لم يتصور أن تجعله حريصاً عليه من أصله • كيف ولا يحرص على الراهن • ولا الماضي • وانما يكون الحرص على ما لم يوجد بعد •وشبيه بتنكير الحياة فى هذه الآية تنكيرها فى قوله عز وجل (ولكم فى القصاص حياة) وذلك ان السبب فى حسن التنكير وان لم يحسن التعريف أن ليس المعنى على الحياة نفسها ولكن على انه لما كان الانسان اذا علم انه اذ قتل قتل ارتدع بذلك عن القتل فسلم صاحبه صار حياة هذا المهموم بقتله فى مستأنف الوقت مستفادة بالقصاص وصار كانه قد حيي فى باقى عمره به أى بالقصاص واذا كان المعنى على حياة في بعض أوقاته وجب التنكير وامتنع التعريف من حيث كان التعريف يقتضي أن تكون الحياة قد كانت بالقصاص من أصلها وأن يكون القصاص قد كان سببا فى كونها فى كافة الاوقات وذلك خلاف المعنى وغير ماهو المقصود • ويبين ذلك انك تقول • لك في هذا غني • فتنكر اذا أردت أن تجعل ذلك من بعض ما يستغني به • فان قلت لك فيه الغني • كان الظاهر انك جعلت كل غناه به

وأمر آخر • وهو انه لا يكون ارتداع حتي يكون هم وارادة وليس بواجب أن لا يكون انسان فى الدنيا الا وله عدوّ يهم بقتله ثم يردعه خوف القصاص واذا لم يجب ذلك فمن لم يهم انسان بقتله فكفى ذلك الهم لخوف القصاص فليس هو ممن حيّ بالقصاص • واذا دخل الخصوص فقد وجب أن يقال حياة ولا يقال الحياة كما وجب أن يقال

شفاء ولا يقال الشفاء فى قوله تعالى (يخرجُ من بُطونِها شرابَ مختلف ألوانه فيه شِفاء للناس) حيث لم يكن شفاء للجميع

واعلم أنه لايتصور أن يكون الذى هم بالقتل فلم يقتل خوف القصاص داخلا فى الجملة وأن يكون القصاص أفاده حياة كما أفادالمقصود قتله • وذلك أن هذه الحياة انما هي لمن كان يقتل لولا القصاص وذلك محال فى صفة القاصد للقتل فانما يصح فى وصفه ما هو كالضد لهذاوهو أن يقال انه كان لا يخاف عليه القتل لولا القصاص واذا كان هذا كذلك كان وجهاً ثالثاً فى وجوب التنكير

﴿ فصل ﴾

واعلم انه لا يصادف القول فى هذا الباب موقعامن السامع ولا يجدلديه قبولا حتي يكون من أهل الذوق والمعرفة وحتي يكون ممن تحدثه نفسه بأن لما يومئ اليه من الحسن واللطف أصلا وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام فيجد الاريحية تارة ويعرى منها أخرى وحتى اذا عجبته عجب واذا نبهته لموضع المزية انتبه • فامامن كان الحالان والوجهان عنده أبداً على سواء وكان لا يتفقد من أمر النظم الا الصحة المطلقة والا اعرابا ظاهراً فما أقل مايجدى الكلام معه فليكن من هذه صفته عندك بمنزلة من عدم الاحساس بوزن الشعر والذوق الذى يقيمه به والطبع الذى يميز صحيحه من مكسوره ومزاحفه من سالمه وما خرج من البحر مما لم يخرج منه فى أنك لا تتصدي له ولا تتكلف تعريفه لعلمك انه قد عدم الاداة التى معها تعرف • والحاسة بها تجد • فليكن قدحك فى زندٍ وارٍ • والحك فى عود أنت تطمع منه فى نار •

واعلم ان هؤلاء وان كانوا هم الآفة العظمي فى هذا الباب فان من الآفة أيضا من زعم انه لا سبيل الى معرفة العلة في قليل ماتعرف المزية فيه وكثيره وأن ليس الا أن تعلم ان هذا التقديم وهذا التنكير أوهذا العطف أو هذا الفصل حسن وان له موقعا من النفس وحظا من القبول فاما أن تعلم لم كان كذلك وما السبب فمما لا سبيل اليه • ولا مطمع في الاطلاع عليه • فهو بتوانيه • والكسل فيه • فى حكم من قال ذلك

واعلم انه ليس اذا لم يمكن معرفة الكل وجب ترك النظر في الكل وأن تعرف العلة والسبب فيما يمكنك معرفة ذلك فيه وان قل فتجعله شاهداً فيما لم تعرف أحرى من أن تسد باب المعرفة على نفسك وتأخذها عن الفهم والتفهم وتعودها الكسل والهوينا • قال الجاحظ • وكلام كثير قد جري على ألسنة الناس وله مضرة شديدة وثمرة مرة • فمن أضر ذلك قولهم • لم يدع الأول للآخر شيئا • (قال) فلو أن علماء كل عصر مذ جرت هذه الكلمة في أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته اليهم عمن قبلهم لرأيت العلم مختلا • واعلم ان العلم انما هو معدن فكما انه لا يمنعك أن ترى ألف وقر قد أخرجت من معدن تبر أن تطلب فيه وأن تأخذ ما تجد ولو كقدر تومة كذلك ينبغى أن يكون رأيك في طلب العلم ومن الله تعالى نسأل التوفيق

﴿ فصل ﴾

(هذا فنّ من المجاز لم نذكره فيما تقدم)

اعلم ان طريق المجاز والاتساع في الذى ذكرناه قبل انك ذكرت

الكلمة وأنت لا تريد معناها ولكن تريد معنى ما هو ردف له أو شبيه فتجوزت بذلك في ذات الكلمة وفى اللفظ نفسه • واذ قدعرفت ذلك فاعلم ان فى الكلام مجازاً على غير هذا السبيل وهو أن يكون التجوز في حكم يجرى على الكلمة فقط وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها ويكون معناها مقصوداً فى نفسه ومراداً من غير تورية ولا تعريض • والمثال فيه قولهم • نهارك صائم وليلك قائم ونام ليلى وتجلى همى • وقوله تعالى (فما ربحت تجارتهم) وقول الفرزدق

سقاها خروق فى المسامع لم تكن علاطا ولا مخبوطة في الملاغم

أنت ترى مجازاً في هذا كله ولكن لا في ذوات الكلم وأنفس الالفاظ ولكن في احكام أجريت عليها أفلا ترى انك لم تتجوز في قولك نهارك صائم وليلك قائم • فى نفس صائم وقائم ولكن فى أن أجريتهما خبرين على النهار والليل . وكذلك ليس المجاز في الآية فى لفظة (ربحت) نفسها ولكن في اسنادها الى التجارة • وهكذا الحكم فى قوله • سقاها خروق • ليس التجوز فى نفس «سقاها» ولكن في أن أسندها الى الخروق • أفلا ترى انك لا ترى شيئاً منها الا وقد أريد به معناه الذي وضع له على وجهه وحقيقته فلم يرد بصائم غير الصوم ولا بقائم غير القيام ولا بربحت غير الربح ولا بسقت غير السقى كما أريد بسالت في قوله * وسالت باعناق المطي الاباطح * غير السيل

واعلم ان الذى ذكرت لك في المجاز هناك من ان من شأنه ان يفخم عليه المعني وتحدث فيه النباهة قائم لك مثله ههنا فليس يشتبه على عاقل ان ليس حال المعني وموقعه في قوله * فنام ليلى وتجلى همي * كحاله وموقعه اذا أنت تركت المجاز وقلت • فنمت فى ليلى وتجلي همى

كما لم يكن الحال فى قولك: رأيت أسداً : كالحال فى «رأيت رجلا كالاسد» ومن الذي يخفى عليه مكان العلو وموضع المزية وسورة الفرقان بين قوله تعالى « فما ربحت تجارتهم » وبين أن يقال : فما ربحوا في تجارتهم : وان أردت تزداد للامر تبيناً فانظر الي بيت الفرزدق

يحمى اذا اخترط السيوف نساءنا ضرب تطير له السواعد أرعل

والي رونقه ومائه والى ما عليه من الطلاوة ثم ارجع الى الذي هو الحقيقة وقل :

نحمى اذا اخترط السيوف نساءنا بضرب تطير له السواعد أرعل:

ثم اسبر حالك هل ترى مما كنت تراه شيئاً • وهذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ فى الابداع والاحسان • والاتساع فى الطرق والبيان • وأن يجيء بالكلام مطبوعاً مصنوعاً وأن يضعه بعيد المرام • قريباً من الافهام • ولا يغرنك من أمره أنك ترى الرجل يقول : أتي بى الشوق الى لقائك : وسار بى الحنين الى رؤيتك : وأقدمني بلدك حق لى على انسان وأشباه ذلك مما تجده لسعته وشهرته يجرى مجرى الحقيقة التى لا يشكل أمرها فليس هو كذلك أبداً بل يدق ويلطف حتى يمتنع مثله الا على الشاعر المفلق • والكاتب البليغ • وحتى يأتيك بالبدعة لم تعرفها • والنادرة تأنق لها

وجملة الامر أن سبيله سبيل الضرب الاول الذى هو مجاز في نفس اللفظ وذات الكلمة فكما ان من الاستعارة والتمثيل عامياً مثل • رأيت أسداً • ووردت بحراً : وشاهدت بدراً • وسل من رأيه سيفاً : وخاصياً لا يكمل له كل أحد مثل قوله * وسالت باعناق المطي الاباطح *

كذلك الامر فى هذا المجاز الحكمي • واعلم انه ليس بواجب في هذا أن يكون للفعل فاعل في التقدير اذا أنت نقلت الفعل اليه عدت به الى الحقيقة مثل أنك تقول في « ربحت تجارتهم » : ربحوا في تجارتهم : وفى « يحمي نساءنا ضرب » • نحمي نساءنا بضرب • فان ذلك لا يتأتى في كل شيء ألا ترى أنه لا يمكنك أن تثبت للفعل فى قولك : أقدمنى بلدك حق لي على انسان • فاعلا سوى الحق وكذلك لا تستطيع فى قوله وصيرني هواك وبى لحيني يضرب المثل

وقوله يزيدك وجهه حسناً اذا ما زدته نظرا

أن تزعم أن لصيرنى فاعلا قد نقل عنه الفعل فجعل للهوى كما فعل ذلك في « ربحت تجارتهم • ويحمي نساءنا ضرب » ولا تستطيع كذلك أن تقدر ليزيد في قوله : يزيدك وجهه : فاعلا غير الوجه فالاعتبار إذن بان يكون المعنى الذي يرجع اليه الفعل موجوداً فى الكلام على حقيقته معنى ذلك أن القدوم فى قولك : أقدمني بلدك حق لي على انسان : موجود على الحقيقة وكذلك الصيرورة فى قوله : وصيرنى هواك : والزيادة في قوله : يزيدك وجهه موجودتان على الحقيقة واذا كان معنى اللفظ موجودا على الحقيقة لم يكن المجاز فيه نفسه واذا لم يكن المجاز فى نفس اللفظ كان لا محالة فى الحكم • فاعرف هذه الجملة واحسن ضبطها حتى تكون على بصيرة من الامر •

ومن اللطيف فى ذلك قول حاجز بن عوف :

ابى عبر الفوارس يوم داج وعمي مالك وضع السهاما

فلو صاحبتنا لرضيت عنا اذا لم تغبق المائة الغلاما

يريد اذا كان العام عام جدب وجفت ضروع الابل وانقطع الدر حتى

ان جلب منها مائة لم يحصل من لبنها ما يكون غبوق غلام واحد • فالفعل الذى هو غبق مستعمل فى نفسه على حقيقته غير مخرج عن معناه وأصله الى معنى شيء آخر فيكون قد دخله مجاز فى نفسه وانما المجاز فى أن أسند الى الابل وجعل فعلا لها • واسناد الفعل الى الشيء حكم فى الفعل وليس هو نفس معنى الفعل فاعرفه

واعلم ان من سبب اللطف فى ذلك انه ليس كل شيء يصلح لأن يتعاطى فيه هذا المجاز الحكمي بسهولة بل تجدك فى كثير من الامر وأنت تحتاج الى أن تهيء الشيء وتصلحه لذلك بشيء تتوخاه فى النظم وان أردت مثالا فى ذلك فانظر الى قوله

تناس طلاب العامرية اذ نأت باسجح مرقال الضحي قلق الضفر

اذا ما أحسته الافاعي تحيزت شواة الافاعي من مثلمة سمر

تجوب له الظلماء عين كأنها زجاجة شرب غير ملآى ولاصفر

يصف جملا ويريد أن يهتدى بنور عينه في الظلماء ويمكنه بها أن يخرقها ويمضى فيها ولولاها لكانت الظلماء كالسد والحاجز الذى لا يجد شيئاً يفرجه به ويجعل لنفسه فيه سبيلا • فانت الآن تعلم أنه لولا انه قال تجوب له : فعلق « له » بتجوب لما صلحت العين لأن يسند «تجوب» اليها ولكان لا تتبين جهة التجوز في جعل « تجوب » فعلا للعين كما ينبغي • وكذلك تعلم أنه لو قال مثلا : تجوب له الظلماء عينه : لم يكن له هذا الموقع ولاضطرب عليه معناه وانقطع السلك من حيث كان يعيبه حينئذ أن يصف العين بما وصفها به الآن • فتأمل هذا واعتبره فهذه التهيئة وهذا الاستعداد في هذا المجاز الحكمي نظير أنك تراك فى الاستعارة التى هي مجاز في نفس الكلمة وأنت تحتاج فى الامر الاكثر

الى أن تمهد لها وتقدم أو تؤخر ما يعلم به انك مستعير ومشبه ويفتح طريق المجاز الى الكلمة ألا ترى الى قوله

وصاعقة من نصله ينكفى بها   على أرؤس الاقران خمس سحائب

عنى بخمس السحائب أنامله ولكنه لم يأت بهذه الاستعارة دفعة ولم يرمها اليك بغتة . بل ذكر ما ينبئ عنها . ويستدل به عليها . فذكر أن هناك صاعقة وقال : من نصله : فبين أن تلك الصاعقة من نصل سيفه ثم قال : أرؤس الاقران : ثم قال . خمس . فذكر الخمس التى هي عدد أنامل اليد فبان من مجموع هذه الامور غرضه . وأنشدوا لبعض العرب

فان تعافوا العدل والايمانا   فان فى ايماننا نيرانا

يريد فى أن ايماننا سيوفاً نضربكم بها ولولا قوله أولا . فان تعافوا العدل والايمان . وان فى ذلك دلالة على أن جوابه انهم يحاربون ويقسرون على الطاعة بالسيف ثم قوله . فان فى ايماننا . لما عقل مراده ولما جاز له أن يستعير النيران للسيوف لانه كان لايعقل الذى يريد لانا وان كنا نقول . فى أيديهم سيوف تلمع كانها شعل النيران . كما قال

ناهضتهم والبارقات كانها   شعل على أيديهم تتلهب

فان هذا التشبيه لا يبلغ مبلغ ما يعرف مع الاطلاق كمعرفتنا اذا قال . رأيت أسداً . أنه يريد الشجاعة واذا قال . لقيت شمساً وبدراً . انه يريد الحسن ولا يقوى تلك القوة فاعرفه . ومما طريق المجاز فيه الحكم قول الخنساء

ترتع ما رتعت حتى اذا ادكرت   فانما هي اقبال وادبار

ذاك أنها لم ترد بالاقبال والادبار غير معناها فتكون قد تجوزت فى

نفس الكلمة وانما تجوزت فى ان جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر ولغلبة ذاك عليها واتصاله بها وانه لم يكن لها حال غيرهما كانها قد تجسمت من الاقبال والادبار . وانما كان يكون المجاز في نفس الكلمة لو أنها كانت قد استعارت الاقبال والادبار لمعنى غير معناهما الذي وضعاله فى اللغة ومعلوم أن ليس الاستعارة مما أرادته في شيء

واعلم أن ليس بالوجه ان يعد هذا على الاطلاق معدّ ماحذف منه المضاف واقيم المضاف اليه مقامه مثل قوله عز وجل (واسأل القرية) ومثل قول النابغة الجعدي .

وكيف تواصل من أصبحت   خلالته كابى مرحب

وقول الاعرابي

حسبت بغام راحلتى عناقا   وما هي ويب غيرك بالعناق

وان كنا نراهم يذكرونه حيث يذكرون حذف المضاف ويقولون انه في تقدير (فانما هي ذات اقبال وادبار) ذاك لان المضاف المحذوف من نحو الآية والبيتين في سبيل ما يحذف من اللفظ ويراد فى المعنى كمثل أن يحذف خبر المبتدا أو المبتدا اذا دل الدليل عليه الى سائر ما اذا حذف كان في حكم المنطوق به وليس الامر كذلك فى بيت الخنساء لانا اذا جعلنا المعني فيه الآن كالمعنى اذا نحن قلنا . فانما هي ذات اقبال وادبار . أفسدنا الشعر على أنفسنا وخرجنا الى شيء مغسول والى كلام عامي مرذول وكان سبيلنا سبيل من يزعم مثلا فى بيت المتنبى

بدت قمراً ومالت خوط بان   وفاحت عنبرا ورنت غزالا

انه فى تقدير محذوف وان معناه الآن كالمعنى إذا قلت . بدت مثل قمر ومالت مثل خوط بان وفاحت مثل عنبر ورنت مثل غزال . فى

أنا نخرج الي الغثاثة والي شيء يعزل البلاغة عن سلطانها ،ويخفض من شأنها ،ويصد أوجهنا عن محاسنها • ويسد باب المعرفة بها وبلطائفها علينا • فالوجه ان يكون تقدير المضاف في هذا على معنى أنه لو كان الكلام قد جيء به على ظاهره ولم يقصد الى الذى ذكرنا من المبالغة والاتساع وان تجعل الناقة كانها قد صارت بجملتها إقبالا وإدباراً حتى كانها قد تجسمت منهما لكان حقه حينئذ ان يجاء فيه بلفظ الذات فيقال • انما هى ذات إقبال. وادبار • فاما أن يكون الشعر الآن موضوعا على ارادة ذلك وعلي تنزيله منزلة المنطوق به حتي يكون الحال فيه كالحال فى * حسبت بغام راحلتى عناقا * حين كان المعنى والقصد أن يقول • حسبت بغام راحلتى بغام عناق • فمالامساغ له عندمن كان صحيح الذوق صحيح المعرفة نسابة للمعانى

﴿ فصل ﴾

هذه مسئلة قد كنت عملتها قديماً وقد كتبتها ههنا لان لها اتصالا بهذا الذى صار بنا القول اليه • قوله تعالى « ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب » أى لمن كان أعمل قلبه فيما خلق القلب له من التدبر والتفكر والنظر فيما ينبغى أن ينظر فيه • فهذا على أن يجعل الذى لايعى ولا يسمع ولا ينظر ولا يتفكر كانه قد عدم القلب من حيث عدم الانتفاع به وفاته الذى هو فائدة القلب والمطلوب منه كما جعل الذى لاينتفع ببصره وسمعه ولا يفكر فيما يؤديان اليه ولا يحصل من روية مايرى وسماع مايسمع على فائدة بمنزلة من لاسمع له ولا بصر • فأما تفسير من يفسره على انه بمعنى «من كان له عقل» فانه انما يصح

على ان يكون قد أراد الدلالة على الغرض على الجملة فاما أن يؤخذ به على هذا الظاهر حتى كأن القلب اسم للعقل كما يتوهمه أهل الحشو ومن لايعرف مخارج الكلام فمحال باطل لانه يؤدى الى ابطال الغرض من الآية والى تحريف الكلام عن صورته وازالة المعنى عن جهته • وذاك أن المراد به الحث على النظر والتقريع على تركه وذم من يخل به ويغفل عنه ولا يحصل ذلك الا بالطريق الذى قدمته والا بأن يكون قد جعل من لايفقه بقلبه ولا ينظر ولا يتفكر كانه ليس بذى قلب كما يجعل كانه جماد وكانه ميت لايشعر ولا يحس • وليس سبيل من فسر القلب ههنا على العقل الا سبيل من فسر عليه العين والسمع فى قول الناس • هذا بين لمن كانت له عين ولمن كان له سمع • وفسر العمى والصمم والموت فى صفة من يوصف بالجهالة على مجرد الجهل وأجرى جميع ذلك على الظاهر فاعرفه: ومن عادة قوم ممن يتعاطي التفسير بغير علم أن توهموا أبداً فى الالفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها فيفسدوا المعني بذلك ويبطلوا الغرض ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة وبمكان الشرف وناهيك بهم اذا هم أخذوا فى ذكر الوجوه وجعلوا يكثرون فى غير طائل هناك ترى ماشئت من باب جهل قد فتحوه • وزند ضلالة قد قدحوا به • ونسأل الله تعالى العصمة والتوفيق

﴿ فصل ﴾

هذا فن من القول دقيق المسلك لطيف المأخذ وهو انا نراهم كما صنعون في نفس الصفة بأن يذهبوا بها مذهب الكناية والتعريض

كذلك يذهبون فى إثبات الصفة هذا المذهب واذا فعلوا ذلك بدت هنالك محاسن تملأ الطرف • ودقائق تعجز الوصف • ورأيت هناك شعراً شاعراً • وسحراً ساحراً • وبلاغة لايكمل لها الا الشاعر المفلق • والخطيب المصقع • وكما أن الصفة اذا لم تأتك مصرحا بذكرها • مكشوفا عن وجهها • ولكن مدلولا عليها بغيرها • كان ذلك أفخم لشأنها • وألطف لمكانها • كذلك إثباتك الصفة للشئ تثبتها له اذا لم تلقه الى السامع صريحاً وجئت اليه من جانب التعريض والكناية • والرمز والاشارة • كان له من الفضل والمزية • ومن الحسن والرونق مالا يقل قليله • ولا يجهل موضع الفضيلة فيه

وتفسير هذه الجملة وشرحها أنهم يرومون وصف الرجل ومدحه وإثبات معنى من المعانى الشريفة له فيدعون التصريح بذلك ويكنون عن جعلها فيه بجعلها فى شئ يشتمل عليه ويتلبس به ويتوصلون فى الجملة الى ماأرادوا من الاثبات لامن الجهة الظاهرة المعروفة بل من طريق يخفى • ومسلك يدق • ومثاله قول زياد الاعجم

إن السماحة والمروءة والندى   في قبة ضربت على ابن الحشرج

أراد كما لايخفى أن يثبت هذه المعانى والاوصاف خلالا للممدوح وضرائب فيه فترك أن يصرح فيقول • ان السماحة والمروءة والندى لمجموعة فى ابن الحشرج أو مقصورة عليه أو مختصة به • وما شاكل ذلك مما هو صريح في إثبات الاوصاف للمذكورين بها وعدل الى ماترى من الكناية والتلويح فجعل كونها فى القبة المضروبة عليه عبارة عن كونها فيه واشارة اليه فخرج كلامه بذلك الى ماخرج اليه من الجزالة • وظهر فيه ماأنت ترى من الفخامة • ولو أنه أسقط هذه الواسطة من

البين لما كان الا كلاما غفلا • وحديثاً ساذجا • فهذه الصنعة في طريق الاثبات هى نظير الصنعة في المعانى اذ جاءت كنايات عن معان أخر نحو قوله •

وما يك في من عيب فانى   جبان الكلب مهزول الفصيل

فكما انه انما كان من فاخر الشعر ومما يقع في الاختيار لاجل ان أراد أن يذكر نفسه بالقرى والضيافة فكنى عن ذلك بجبن الكلب وهزال الفصيل وترك أن يصرح فيقول • قد عرف أن جنابي مألوف وكلبي مؤدب لايهر في وجوه من يغشانى من الاضياف وانى أنحر المتالى من إبلى وأدع فصالها هزلى • كذلك إنما راقك بيت زياد لانه كنى عن إثباته السماحة والمروءة والندى كائنة فى الممدوح بجعلها كائنة فى القبة المضروبة عليه • هذا ــ وكما ان من شأن الكناية الواقعة في نفس الصفة أن تجيء على صور مختلفة كذلك من شأنها اذا وقعت في طريق إثبات الصفة أن تجيء على هذا الحد ثم يكون فى ذلك مايتناسب كما كان ذلك في الكناية عن الصفة نفسها • تفسير هذا انك تنظر الى قول يزيد بن الحكم يمدح به يزيد بن المهلب وهو في حبس الحجاج •

أصبح فى قيدك السماحة والمجـ   ـد وفضل الصلاح والحسب

فتراه نظيراً لبيت زياد وتعلم أن مكان القيد ههنا هو مكان القبة هناك كما انك تنظر الى قوله • جبان الكلب • فتعلم انه نظير لقوله * زجرت كلابى أن يهر عقورها * من حيث لم يكن ذلك الجبن الا لان دام منه الزجر واستمر حتي أخرج الكلب بذلك عما هو عادته من الهرير والنبح فى وجه من يدنو من دار هو مرصد لان يعس

دونها • وتنظر الى قوله • مهزول الفصيل • فتعلم أنه نظير قول ابن هرمة * لاأمتع العوذ بالفصال *وينظر الى قول نصيب

لعبد العزيز على قومه وغيرهم منن ظاهره
فبابك أسهل أبوابهم ودارك مأهولة عامره
وكلبك آنس بالزائرين من الام بالابنة الزائرة

فتعلم انه من قول الآخر

يكاد اذا ماأبصر الضيف مقبلا يكلمه من حبه وهو أعجم

وان بينها قرابة شديدة ونسباً لاصقاً وان صورتهما فى فرط التناسب صورة بيتي زياد ويزيد

ومما هو إثبات للصفة على طريق الكناية والتعريض قولهم • المجد بين ثوبيه • والكرم فى برديه • وذلك أن قائل هذا يتوصل الي اثبات المجد والكرم للممدوح بأن يجعلهما في ثوبه الذى يلبسه كما توصل زياد الي اثبات السماحة والمروءة والندى لابن الحشرج بأن جعلها فى القبة التي هو جالس فيها • ومن ذلك قوله * وحيثما يك أمر صالح تكن * وما جاء فى معناه من قوله

يصير أبان قرين السما ح والمكرمات معاً حيث صارا

وقول أبى نواس

فما جازه جود ولا حل دونه ولكن يصير الجود حيث يصير

كل ذلك توصل الي إثبات الصفة فى الممدوح بإثباتها فى المكان الذى يكون فيه والى لزومها له بلزومها الموضع الذي يحله • وهكذا ان اعتبرت قول الشنفرى يصف امرأة بالعفة

يبيت بمنجاة من اللوم بيتها اذا ما بيوت بالملامة حلت

وجدته يدخل في معنى بيت زياد وذلك انه توصل الى نفى اللوم عنها وإبعادها عنه بأن نفاه عن بيتها وباعد بينه وبينه وكان مذهبه في ذلك مذهب زياد في التوصل الي جعل السماحة والمروءة والندى فى ابن الحشرج بأن جعلها فى القبة المضروبة عليه • وانما الفرق أن هذا ينفي وذاك يثبت • وذلك فرق لا فى موضع الجمع فهو لايمنع أن يكونا من نصاب واحد •

ومما هو فى حكم المناسب لبيت زياد وأمثاله التي ذكرت وان كان قد أخرج فى صورة أغرب وأبدع قول حسان رضي الله عنه

بنى المجد بيتاً فاستقرت عماده علينا فاعيى الناس أن يتحولا

وقول البحترى •

أو ما رأيت المجد ألقى رحله فى آل طلحة ثم لم يتحول

ذاك لان مدار الامر على انه جعل المجد والممدوح فى مكان وجعله يكون حيث يكون

واعلم انه ليس كل ماجاء كناية في إثبات الصفة يصلح ان يحكم عليه بالتناسب معني هذا أن جعلهم الجود والكرم والمجد يمرض بمرض الممدوح كما قال البحترى

ظللنا نعود الجود من وعكك الذي وجدت وقلنا اعتل عضو من المجد

وان كان يكون القصد منه إثبات الجود والمجد للممدوح فانه لا يصح ان يقال انه نظير لبيت زياد كما قلنا ذاك فى بيت أبى نواس * ولكن يصير الجود حيث يصير * وغيره مما ذكرنا انه نظير له كما أنه لايجوز ان يجعل قوله * وكلبك أرأف بالزائرين * مثلا نظيراً لقوله • مهزول الفصيل • وان كان الغرض منهما جميعاً الوصف بالقري والضيافة وكانا

جميعاً كنايتين عن معنى واحد لان تعاقب الكنايات على المعنى الواحد لايوجب تناسبها لانه في عروض ان تتفق الاشعار الكثيرة في كونها مدحا بالشجاعة مثلا أو بالجود أو ماأشبه ذلك وقد يجتمع في البيت الواحد كنايتان المغزى منهما شئ واحد ثم لاتكون احداها فى حكم النظير للاخرى • مثال ذلك انه لايكون قوله • جبان الكلب • نظيرا لقوله • مهزول الفصيل • بل كل واحدة من هاتين الكنايتين أصل بنفسه وجنس على حدة • وكذلك قول ابن هرمة

لا أمتع العوذ بالفصال ولا ... أبتاع الا قريبة الاجل

ليس احدى كنايتيه فى حكم النظير للاخرى وان كان المكنى بهما عنه واحداً فاعرفه

وليس لشعب هذا الاصل وفروعه وأمثلته وصوره وطرقه ومسالكه حد ونهاية • ومن لطيف ذلك ونادره قول أبى تمام

أبين فما يزرن سوى كريم ... وحسبك ان يزرن أبا سعيد

ومثله وان لم يبلغ مبلغه قول الآخر

متى تخلو تميم من كريم ... ومسلمة بن عمرو من تميم

وكذلك قول بعض العرب

اذا الله لم يسق الا الكرام ... فسقى وجوه بني حنبل
وسقى ديارهم باكراً ... من الغيث فى الزمن الممحل

وفن منه غريب قول بعضهم في البرامكة

سألت الندى والجود مالي أراكما ... تبدلتما ذلا بعز مؤبد
وما بال ركن المجد أمسي مهدما ... فقالا أصبنا بابن يحيى محمد
فقلت فهلا متما عند موته ... فقد كنتما عبديه فى كل مشهد

فقالا أقمنا كي نعزى بفقده ... مسافة يوم ثم نتلوه في غد

﴿ فصل ﴾

واعلم ان مما أغمض الطريق الى معرفة ما نحن بصدده أن هاهنا فروقا خفية تجهلها العامة وكثير من الخاصة ليس انهم يجهلونها فى موضع ويعرفونها فى آخر بل لا يدرون أنها هي ولا يعلمونها في جملة ولا تفصيل روى عن ابن الانباري أنه قال • ركب الكندى المتفلسف الى أبى العباس وقال له انى لاجد فى كلام العرب حشوا • فقال له أبو العباس فى أى موضع وجدت ذلك . فقال أجد العرب يقولون عبد الله قائم • ثم يقولون ان عبد الله قائم • ثم يقولون • ان عبد الله لقائم فالالفاظ متكررة والمعني واحد • فقال أبو العباس بل المعانى مختلفة لاختلاف الالفاظ فقولهم عبد الله قائم • اخبار عن قيامه وقولهم • ان عبد الله قائم • جواب عن سؤال سائل وقولهم • ان عبد الله لقائم • جواب عن انكار منكر قيامه فقد تكررت الالفاظ لتكرر المعانى • قال فما أحار المتفلسف جواباً • واذا كان الكندى يذهب هذا عليه حتى يركب فيه ركوب مستفهم أو معترض فما ظنك بالعامة ومن هو فى عداد العامة ممن لا يخطر شبه هذا بباله

واعلم أن ههنا دقائق لو أن الكندى استقري وتصفح وتتبع مواقع (إن) ثم ألطف النظر وأكثر التدبر لعلم علم ضرورة أن ليس سواء دخولها وأن لا تدخل • فاول ذلك وأعجبه ما قدمت لك ذكره فى بيت بشار •

بكرا صاحبى قبل الهجير ... ان ذاك النجاح في التبكير

وما أنشدته معه من قول بعض العرب •

فغنها وهي لك الفداء　　ان غناء الابل الحداء

وذلك انه هل شيء أبين في الفائدة وأدل على أن ليس سواء دخولها وأن لاتدخل أنك ترى الجملة اذا هي دخلت ترتبط بما قبلها وتأتلف معه وتحد به حتى كأن الكلامين قد أفرغا افراغاً واحدا وكأن أحدهما قد سبك في الآخر هذه هي الصورة حتى اذا جئت الى (أن) فاسقطتها رأيت الثانى منهما قد نبا عن الاول وتجافى معناه عن معناه ورأيته لا يتصل به ولا يكون منه بسبيل حتي تجيء بالفاء فتقول • بكرا صاحبي قبل الهجير فذاك النجاح في التبكير • و• غنها وهي لك الفداء فغناء الابل الحداء • ثم لا ترى الفاء تعيد الجملتين الي ما كانتا عليه من الالفة وترد عليك الذي كنت تجد بان من المعنى

وهذا الضرب كثير في التنزيل جدا من ذلك قوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم) • وقوله عز اسمه (يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور) وقوله سبحانه (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم) ومن أبين ذلك قوله تعالى (ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون) وقد يتكرر في الآية الواحدة كقوله عز اسمه (وما أبريء نفسى ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربى ان ربي غفور رحيم) وهى على الجملة من الكثرة بحيث لا يدركها الاحصاء •

ومن خصائصها انك ترى لضمير الامر والشأن معها من الحسن واللطف مالا تراه اذا هي لم تدخل عليه بل تراه لا يصلح حيث يصلح

الا بها وذلك فى مثل قوله تعالى (انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين) وقوله «أنه من يحادد الله ورسوله فانّ له نار جهنم» وقوله «انه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب» وقوله «انه لا يفلح الكافرون» ومن ذلك قوله «فانها لا تعمي الابصار» وأجاز أبو الحسن فيها وجهاً آخر وهو ان يكون الضمير فى «إنها» للابصار أضمرت قبل الذكر على شريطة التفسير • والحاجة فى هذا الوجه أيضاً الى «إن» قائمة كما كانت في الوجه الاول فانه لا يقال • هي لا تعمى الابصار • كما لا يقال • هو من يتق ويصبر فان الله لا يضيع • فان قلت أوليس قد جاء ضمير الامر مبتدأ به معري من العوامل فى قوله تعالي «قل هو الله أحد» ؟ قيل : هو وان جاء ههنا فانه لا يكاد يوجد مع الجملة من الشرط والجزاء بل تراه لا يجيء الا بان • على أنهم قد أجازوا فى «قل هو الله أحد» أن لا يكون الضمير للامر

ومن لطيف ما جاء في هذا الباب ونادره ما تجده فى آخر هذه الابيات التي أنشدها الجاحظ لبعض الحجازيين

إذ طمع يوما عرانى قريته　　كتائب يأس كرها وطرادها
أكد ثمادى والمياه كثيرة　　أعالج منها حفرها واكتدادها
وارضى بها من بحر آخر إنه　　• هو الرى أن ترضي النفوس ثمادها

المقصود قوله • انه هو الرى • وذلك أن الهاء في إنه تحتمل أمرين أحدهما أن تكون ضمير الامر ويكون قوله «هو» ضمير «أن ترضى» وقد أضمر قبل الذكر على شريطة التفسير • الاصل • ان الامر ان ترضى النفوس ثمادها الرى • ثم أضمر قبل الذكر كما أضمرت الابصار فى «فانها لا تعمي الابصار» على مذهب أبى الحسن ثم أتي

بالمفسر مصرحا به في آخر الكلام فعلم بذلك ان الضمير السابق له وانه
المراد به • والثاني أن تكون الهاء في «إنه» ضمير أن ترضى قبل
الذكر ويكون هو فصلا ويكون أصل الكلام • إن أن ترضى النفوس
ثمادها هو الرى • ثم أضمر على شريطة التفسير • وأي الامرين كان
فانه لابد فيه من «إن» ولا سبيل الى اسقاطها لانك ان أسقطتها أفضى
ذلك بك الي شيء شنيع وهو أن تقول • وارضى بها من بحر آخر هو
هو الرى أن ترضى النفوس ثمادها

هذا وفي «ان» هذه شيء آخر يوجب الحاجة اليها وهو انها تتولى
من ربط الجملة بما قبلها نحواً مما ذكرت لك في بيت بشار • ألا ترى
أنك لو أسقطت «ان» والضميرين معاً واقتصرت على ذكر ما يبقى من
الكلام لم تقله الا بالفاء كقولك • وأرضى بها من بحر آخر فالرى أن
ترضى النفوس ثمادها • فلو أن الفيلسوف قد كان تتبع هذه المواضع
لما ظن الذى ظن ــ هذا • واذا كان خلف الاحمر وهو القدوة ومن
يؤخذ عنه ومن هو بحيث يقول الشعر فينحله الفحول الجاهليين فيخفى
ذلك له يجوز أن يشتبه ما نحن فيه عليه حتى يقع له ان ينتقد على بشار
فلا غرو أن تدخل الشبهة في ذلك على الكندي

ومما تصنعه «ان» في الكلام أنك تراها تهيء النكرة وتصلحها
لان يكون لها حكم المبتدا أعني أن تكون محدثا عنها بحديث من بعدها
ومثال ذلك قوله : ان شواء ونشوة وخبب البازل الامون
قد ترى حسنها وصحة المعني معها ثم انك ان جئت بها من غير
«ان» فقلت • شواء ونشوة وخبب البازل الامون • لم يكن كلاما
فان كانت النكرة موصوفة وكانت لذلك تصلح ان يبتدأ بها فانك تراها

مع «إن» أحسن • وترى المعنى حينئذ أولى بالصحة وأمكن • أفلا
ترى الي قوله •

ان دهراً يلف شملي بسعدى   لزمان يهم بالاحسان

ليس بخفي وان كان يستقيم ان تقول • دهر يلف شملي بسعدى
دهر صالح • أن ليس الحالان على سواء وكذلك ليس بخفي انك لو
عمدت الي قوله •

ان أمراً فادحا   عن جوابي شغلك

فأسقطت منه «ان» لعدمت منه الحسن والطلاوة والتمكن الذى
أنت واجده الآن ووجدت ضعفاً وفتوراً

ومن تأثير «ان» في الجملة أنها تغني اذا كانت فيها عن الخبر في
بعض الكلام ووضع صاحب الكتاب في ذلك بابا فقال « هذا باب
ما يحسن عليه السكوت في هذه الاحرف الخمسة » لاضمارك ما يكون
مستقراً لها وموضعاً لو أظهرته وليس هذا المضمر بنفس المظهر وذلك
«ان مالا وان ولداً وان عدداً» أي • ان لهم مالا • فالذى أضمرت
هو «لهم» ويقول الرجل للرجل • هل لكم أحد ان الناس ألب
عليكم • فتقول • ان زيداً وان عمراً • أي لنا وقال:

ان محلا وان مرتحلا   وان في النفس ان مضوا مهلا

ويقول • ان غيرها إبلا وشاء • كأنه قال • ان لنا أو عندنا غيرها
• (قال) وانتصب الابل والشاء كانتصاب الفارس اذا قلت • ما في الناس
مثله فارساً • و (قال) ومثل ذلك قوله * ياليت أيام الصبا رواجعا *
(قال) فهذا كقولهم ألا ماء بارداً • كأنه قال • ألا ماء لنا بارداً • وكأنه قال
ياليت أيام الصبا أقبلت رواجعا

فقد أراك فى هذا كله أن الخبر محذوف وقد ترى حسن الكلام
وصحته مع حذفه وترك النطق به ثم انك إن عمدت الى «إن» فاسقطتها
وجدت الذى كان حسن من حذف الخبر لايحسن أولا يسوغ فلوقلت
«مال وعدد ومحل ومرتحل وغيرها إبلا وشاء » لم يكن شيئاً . وذلك
أن «ان» كانت السبب في أن حسن حذف الذي حذف من الخبر
وانها حاضنته والمترجم عنه والمتكفل بشأنه

واعلم ان الذى قلنا فى «ان» من أنها تدخل على الجملة من شأنها
إذا هي أسقطت منها ان يحتاج فيها الي الفاء لايطرد فى كل شيء وكل
موضع بل يكون فى موضع دون موضع وفى حال دون حال فانك قد
تراها قد دخلت على الجملة ليست هي مما يقتضى الفاء . وذلك فيما
لايحصى قوله تعالى «ان المتقين فى مقام أمين في جنات وعيون» وذلك
أن قبله «ان هذا ما كنتم به تمترون » ومعلوم أنك لو قلت . ان هذا
ما كنتم به تمترون فالمتقون فى جنات وعيون . لم يكن كلاما . وكذلك
قوله «ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » لانك لو
قلت . لهم فيها زفيروهم فيها لايسمعون فالذين سبقت لهم منا الحسنى . لم
تجد لادخالك الفاء فيه وجهاً . وكذا قوله «ان الذين آمنوا والذين
هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل
بينهم يوم القيامة » جملة في موضع الخبر ودخول الفاء فيها محال لان
الخبر لايعطف على المبتدا

ومثله سواء (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لانضيع أجر
من أحسن عملا) فاذن انما يكون الذى ذكرنا في الجملة من حديث
اقتضاء الفاء اذا كان مصدرها مصدر الكلام يصحح به ماقبله ويحتج له

ويبين وجه الفائدة فيه . ألا ترى ان الغرض من قوله . ان ذاك
النجاح في التبكير جله أن يبين المعنى في قوله لصاحبيه (بكرا) وان
يحتج لنفسه فى الامر بالتبكير ويبين وجه الفائدة فيه . وكذلك الحكم
في الآى التى تلوناها فقوله (ان زلزلة الساعة شيء عظيم) بيان للمعنى
في قوله تعالي (ياأيها الناس اتقوا ربكم) ولم أمروا بان يتقوا وكذلك
قوله (ان صلاتك سكن لهم) بيان للمعنى في أمر النبى صلى الله عليه
وسلم بالصلاة أى بالدعاء لهم وهذا سبيل كل ماأنت ترى فيه الجملة يحتاج
فيها الى الفاء . فاعرف ذلك

فأما الذى ذكر عن أبى العباس من جعله لها جواب سائل اذا
كانت وحدها وجواب منكر اذا كان معها اللام فالذى يدل على ان
لها أصلا في الجواب أنا رأيناهم قد ألزموها الجملة من المبتدا والخبر
اذا كانت جوابا للقسم نحو (والله ان زيداً منطلق) وامتنعوا من ان
يقولوا . والله زيد منطلق . ثم انا اذا استقرينا الكلام وجدنا الامر
بينا فى الكثير من مواقعها انه يقصد بها الى الجواب كقوله تعالى
(ويسئلونك عن ذى القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكراً . إنا مكنا
له فى الارض) وكقوله عز وجل فى أول السورة (نحن نقص عليك
نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم) وكقوله تعالى (فان عصوك فقل
انى برىء مما تعملون) وقوله تعالى (قل انى نهيت أن أعبد الذين تدعون
من دون الله) وقوله (وقل انى أنا النذير المبين) وأشباه ذلك مما يعلم
به أنه كلام أمر النبى صلى الله عليه وسلم بان يجيب به الكفار في بعض
ماجادلوا وناظروا فيه وعلى ذلك قوله تعالى (فأتيا فرعون فقولا انا
رسول رب العالمين) وذاك أنه يعلم ان المعنى فأتياه فاذا قال لكما

ماشأنكما وما جاء بكما وما تقولان فقولا انا رسـول رب العالمـين •
وكذا قوله « وقال موسى يافرعون اني رسول من رب العالمـين »
هذا سبيله

ومن البين فى ذلك قوله تعالى فى قصة السحرة (قالوا انا الى ربنا
منقلبون) وذلك لانه عيان أنه جواب فرعون عن قوله (آمنتم له قبل
أن آذن لكم) فهذا هو وجه القول فى نصرة هذه الحكاية

ثم ان الاصل الذى ينبغي أن يكون عليه البناء هو الذي دون فى
الكتب من أنها للتأكيد واذا كان قد ثبت ذلك فاذا كان الخبر بأمر
ليس للمخاطب ظن فى خلافه البته ولا يكون قد عقد في نفسه ان
الذى تزعم انه كائن غير كائن وان الذى تزعم انه لم يكن كائن فأنت
لاتحتاج هناك الى (ان) وانما تحتاج اليها اذا كان له ظن فى الخلاف
وعقد قلب على نفى ماتثبت أو اثبات ماتنفي ولذلك تراها تزداد حسناً
اذا كان الخبر بأمر يبعد مثله في الظن وبشيء قد جرت عادة الناس
بخلافه كقول أبى نواس

عليك باليأس من الناس ان غنى نفسك فى الياس

فقد ترى حسن موقعها وكيف قبول النفس لها وليس ذلك الا
لان الغالب على الناس انهم لايحملون أنفسهم على اليأس ولا يدعون
الرجاء والطمع ولا يعترف كل أحد ولا يسلم ان الغنى فى اليأس فلما
كان كذلك كان الموضع موضع فقر الى التأكيد فلذلك كان من حسنها
ماترى • ومثله سواء قول محمد بن وهيب

أجارتنا ان التعفف بالياس وصبر على استدرار دنيا بابساس
حريان أن لاتقذفا بمذلة كريما وأن لاتحوجاه الى الناس

أجارتنا ان القداح كواذب وأكثر أسباب النجاح مع الياس

هو كما لايخفى كلام مع من لايرى ان الامر كما قال بل ينكره
ويعتقد خلافه ومعلوم أنه لم يقله الا والمرأة تحدوه وتبعثه على التعرض
للناس وعلى الطلب

ومن لطيف مواقعها ان يدعى على المخاطب ظن لم يظنه ولكن
يراد التهكم به وان يقال ان حالك والذي صنعت يقتضي أن تكون قد
ظننت ذلك ومثال ذلك قول الاول

جاء شقيق عارضا رمحه ان بنى عمك فيهم رماح

يقول ان مجيئه هكذا مدلا بنفسه وبشجاعته قد وضع رمحه عرضاً
دليل على اعجاب شديد وعلى اعتقاد منه أنه لايقوم له أحد حتى كأن
ليس مع أحد منا رمح يدفعه به وكأنا كلنا عزل • واذا كان كذلك
وجب اذا قيل انها جواب سائل أن يشترط فيه أن يكون للسائل ظن
فى المسؤل عنه على خلاف ماأنت تجيبه به فاما ان يجعل مجرد الجواب
أصلا فيه فلا لانه يؤدى أن لايستقيم لنا اذا قال الرجل • كيف زيد • أن
تقول • صالح • واذ قال أين هو • أن تقول • في الدار • وان لايصح
حتى تقول • انه صالح وانه فى الدار • وذلك مالا يقوله أحد • وأما
جعلها اذا جمع بينها وبين اللام نحو • ان عبد الله لقائم • للكلام مع
المنكر فجيد لانه اذا كان الكلام مع المنكر كانت الحاجة الى التأكيد
أشد وذلك أنك أحوج ماتكون الى الزيادة فى تثبيت خبرك اذا كان
هناك من يدفعه وينكر صحته الا انه ينبغي ان يعلم انه كما يكون للانكار
قد كان من السامع فانه يكون للانكار يعلم أو يرى أنه يكون من
السامعين • وجملة الامر انك لاتقول • انه لكذلك حتى تريد أن

تضع كلامك وضع من يزع فيه عن الانكار

واعلم انها قد تدخل للدلالة على ان الظن قدكان منك أيها المتكلم فى الذى كان انه لايكون وذلك قولك للشئ هو بمــرأى من المخاطب ومسمع • انه كان من الامر ماترى وكان مــني الى فــلان إحسان ومعروف ثم انه جعــل جزائى مارأيت • فتجعلك كانك ترد على نفسك ظنك الذى ظننت وتبين الخطأ الذى توهمت • وعلى ذلك والله أعلم قوله تعالى حكاية عن أم مريم رضى الله عنها (قالت رب انى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت) وكذلك قوله عز وجــل حكاية عن نوح عليه الســلام (قال رب ان قومي كذبون) وليس الذي يعرض بسبب هــذا الحرف من الدقائق والامور الخفية بالشئ يدرك بالهوينا ونحن نقتصر الآن على ماذكرنا ونأخذ فى القول عليها اذا اتصلت بها (ما)

﴿ فصل فى مسائل ﴾

(انما) قال الشيخ أبو على فى الشيرازيات. يقول ناس من النحويين فى نحو قوله تعالى (قل انما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن) ان المعنى . ماحرم ربى الا الفواحش . (قال) وأصبت مايدل على صحة قولهم فى هذا وهو قول الفرزدق

أنا الزائد الحامي الذمار وانما يدافع عن أحسابهم انا أومثلي

فليس يخلو هــذا الكلام من أن يكون موجباً أو منفياً فلوكان المراد به الايجاب لم يســتقم . ألا ترى أنك لاتقول . يدافــع أنا ولا يقاتل أنا . وانما تقول أدافع وأقاتل الا أن المعنى لما كان . مايدافع الا أنا . فصلت الضمير كما تفصله مع النفي اذا ألحقت معــه (الا) حملا على

المعنى . وقال أبو اسحاق الزجاج فى قوله تعالى (انما حرم عليكم الميتة والدم) النصب فى الميتة هو القــراءة ويجوز . انما حرم عليكم . قال أبو اسحاق والذى اختاره أن تكون (ما) هى التي تمنع ان من العمل ويكون المعنى . ماحرم عليكم الا الميتة . لان (انما) تأتى اثباتا لما يذكر بعدها ونفياً لما سواه وقول الشاعر * وانما • يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى * المعنى ما يدافع عن أحسابهم الا أنا أو مثلى • انتهى كلام أبى على •

اعلم انهم وان كانوا قد قالوا هذا الذى كتبته لك فانهــم لم يعنوا بذلك ان المعنى فى هــذا هو المعنى فى ذلك بعينه وان سبيلهما سبيل اللفظين يوضعان لمعنى واحــد • وفرق بين أن يكون في الشيء معنى الشيء وبين أن يكون الشيء الشيء على الاطلاق • يبين لك انهما لا يكونان سواء أنه ليس كل كلام يصلح فيه (ما) و (الا) يصلح فيه (انما) ألا تري انها لا تصلح فى مثل قوله تعالى (وما من إله الا الله) ولا فى نحو قولنا • ماأحد الا وهو يقول ذاك • اذ لو قلت • انما من إله الا الله وانما أحد وهو يقول ذاك • قلت مالا يكون له معني فان قلت ان سبب ذلك أن (أحداً) لايقع الا في النفي وما يجرى مجرى النفي من النهى والاستفهام وأن (من) المزيدة فى (مامن إله الا الله) كذلك لا تكون الا فى النفي • قيل ففي هذا كفاية فانه اعتراف بان ليسا سواء لانهما لو كانا سواء لكان ينبغي أن يكون فى (انما) من النفي مثل مايكون فى ما والا وكما وجدت (انما) لاتصلح فيما ذكرنا كذلك تجــد ما والا لا تصلح في ضرب من الكلام قد صلحت فيــه (انما) وذلك في مثل قولك • انما هو درهم لا دينار • لوقلت • ماهو الا درهم لادينار •

لم يكن شيئاً • واذ قد بان بهذه الجملة انهم حين جعلوا انما في معني ما
والا لم يعنوا ان المعني فيهما واحد على الاطلاق وأن يسقطوا الفرق
فانى أبين لك أمرهما وما هو أصل فى كل واحد منهما بعون الله وتوفيقه

اعلم ان موضوع (انما) على أن تجيء لخبر لايجهله المخاطب ولا
يدفع صحته أو لما ينزل هذه المنزلة • تفسير ذلك أنك تقول للرجل •
انما هو أخوك وانما هو صاحبك القديم • لا تقوله لمن يجهل ذلك
ويدفع صحته ولكن لمن يعلمه ويقربه الا انك تريد ان تنبهه للذى يجب
عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب ومثله قوله الآخر

انما أنت والد والأب القا — طع أحني من واصل الاولاد

لم يرد أن يعلم كافوراً أنه والد ولا ذاك مما يحتاج كافور فيه الى
الاعلام ولكنه أراد أن يذكره منه بالأمر المعلوم لينبني عليه استدعاء
مايوجبه كونه بمنزلة الوالد • ومثل ذلك قولهم • انما يعجل من يخشي
الفوت • وذلك ان من المعلوم الثابت فى النفوس ان من لم يخش الفوت
لم يعجل ومثاله من التنزيل قوله تعالى (انما يستجيب الذين يسمعون)
وقوله عزوجل (انما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب)
وقوله تعالى (انما أنت منذر من يخشاها) كل ذلك تذكير بأمر ثابت
معلوم وذلك ان كل عاقل يعلم أنه لاتكون استجابة الا ممن يسمع
ويعقل مايقال له ويدعي اليه وان من لم يسمع ولم يعقل لم يستجب
وكذلك معلوم ان الانذار انما يكون انذاراً ويكون له تأثير اذا كان
مع من يؤمن بالله ويخشاه ويصدق بالبعث والساعة فأما الكافر الجاهل
فالانذار وترك الانذار معه واحد • فهذا مثال ما الخبر فيه خبر بأمر
يعلمه المخاطب ولاينكره بحال • وأما مثال ماينزل هذه المنزلة فكقوله

انما مصعب شهاب من الله — تجلت عن وجهه الظلماء

ادعى فى كون الممدوح بهذه الصفة انه أمر ظاهر معلوم للجميع،
على عادة الشعراء اذا مدحوا أن يدعوا في الاوصاف التى يذكرون بها
الممدوحين أنها ثابتة لهم وأنهم قد شهروا بها وأنهم لم يصفوا الا بالمعلوم،
الظاهر الذى لا يدفعه أحد كما قال

وتعذلنى أفناء سعد عليهم — وماقلت الا بالذى علمت سعد

وكما قال البحترى

لأدعي لأبي العلاء فضيلة — حتى يسلمها اليه عداه

ومثله قولهم • إنما هو أسد • وانماهو نار وانما هو سيف صارم •
اذا ادخلوا (انما) جعلوا ذلك فى حكم الظاهر المعلوم الذى لاينكر
ولا يدفع ولا يخفي •

وأما الخبر بالنفى والاثبات نحو (ماهذا الا كذا وان هو الا كذا)
فيكون للامر ينكره المخاطب ويشك فيه • فاذا قلت • ماهو الامصيب
أو: ماهو الا مخطيء • قلته لمن يدفع أن يكون الامر على ماقلته واذا
رأيت شخصاً من بعيد فقلت • ماهو الا زيد • لم تقله الا وصاحبك
يتوهم أنه ليس بزيد وانه انسان آخر ويجد فى الانكار أن يكون زيداً
• واذا كان الامر ظاهراً كالذى مضى لم تقله كذلك فلا تقول للرجل
ترققة على أخيه وتنبهه للذى يجب عليه من صلة الرحم ومن حسن
التحاب • ماهو الا أخوك • وكذلك لايصلح فى (انما أنت الا والد)
• ماأنت الا والد • فأما نحو (انما مصعب شهاب) فيصلح فيه أن تقول
• مامصعب الا شهاب • لانه ليس من المعلوم على الصحة وانما ادعى
الشاعر فيه انه كذلك • واذا كان هذا هكذا جاز أن تقوله بالنفي

والاثبات الا أنك تخرج المدح حينئذ عن ان يكون على حد المبالغة من حيث لايكون قد ادعيت فيه أنه معلوم وانه بحيث لاينكره منكر ولا يخالف فيه مخالف

قوله تعالى (ان أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) انما جاء والله أعلم بان والا دون انما فلم يقل • انما أنتم بشر مثلنا • لانهم جعلوا الرسل كانهم بادعائهم النبوة قد أخرجوا أنفسهم عن أن يكونوا بشراً مثلهم وادعوا أمراً لايجوز أن يكون لمن هو بشر ولما كان الامر كذلك أخرج اللفظ مخرجه حيث يراد اثبات أمر يدفعه المخاطب ويدعي خلافه ثم جاء الجواب من الرسل الذى هو قوله تعالى (قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم) كذلك بان والا دون انما لان من حكم من ادعى عليه خصمه الخلاف فى أمر هو لايخالف فيه أن يعيد كلام الخصم على وجهه ويجيء به على هيئته ويحكيه كما هو فاذا قلت للرجل • أنت من شأنك كيت وكيت • قال • نعم أنا من شأني كيت وكيت ولكن لاضير على ولا يلزمني من أجل ذلك ماظننت أنه يلزم • فالرسل صلوات الله عليهم كانهم قالوا • ان ماقلتم من أنا بشر مثلكم كما قلتم لسنا ننكر ذلك ولا نجهله ولكن ذلك لايمنعنا من أن يكون الله تعالى قد من علينا وأكرمنا بالرسالة • وأما قوله تعالى (قل انما أنا بشر مثلكم) فجاء بانما لانه ابتداء كلام قد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بان يبلغه اياهم ويقوله معهم وليس هو جوابا لكلام سابق قد قيل فيه • ان أنت الا بشر مثلنا • فيجب أن يؤتى به على وفق ذلك الكلام ويراعي فيه حذوه كما كان ذلك فى الآية الاولى •

وجملة الامر انك متى رأيت شيئاً هو من المعلوم الذى لايشك فيه قد جاء بالنفى فذلك لتقدير معنى صار به في حكم المشكوك فيه فمن ذلك قوله تعالى (وما أنت بمسمع من فى القبور ان أنت الا نذير) انما جاء والله أعلم بالنفى والاثبات لانه لما قال تعالى (وما أنت بمسمع من فى القبور) وكان المعنى فى ذلك أن يقال لنبى صلى الله عليه وسلم • انك لن تستطيع ان تحول قلوبهم عما هى عليه من الاباء ولا تملك أن توقع الايمان فى نفوسهم مع اصرارهم على كفرهم واستمرارهم على جهلهم وصدهم باسماعهم عما تقوله لهم وتتلوه عليهم • كان اللائق بهذا أن يجعل حال النبى صلى الله عليه وسلم حال من قد ظن أنه يملك ذلك ومن لايعلم يقيناً انه ليس فى وسعه شيء أكثر من أن ينذر ويحذر فأخرج للفظ مخرجه اذا كان الخطاب مع من يشك فقيل • ان أنت الا نذير • ويبين ذلك أنك تقول للرجل يطيل مناظرة الجاهل ومقاولته • انك لاتستطيع ان تسمع الميت وأن تفهم الجماد وان تحول الاعمي بصيراً وليس بيدك الا أن تبين وتحتج ولست تملك أكثر من ذلك • لاتقول هنا • فانما الذى بيدك ان تبين وتحتج • ذلك لانك لم تقل له • انك لاتستطيع أن تسمع الميت • حتى جعلته بمثابة من يظن أنه يملك وراء الاحتجاج والبيان شيئاً • وهذا واضح فاعرفه • ومثل هذا فى ان الذى تقدم من الكلام اقتضي أن يكون اللفظ كالذى تراه من كونه بان والا قوله تعالى (قل لاأملك لنفسي ضراً ولا نفعاً الا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون)

﴿ فصل ﴾

(هذا بيان آخر في انما)

اعلم انها تفيد في الكلام بعدها ايجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره فاذا قلت • انما جاءني زيد • عقل منه أنك أردت أن تنفي أن يكون الجائي غيره فمعنى الكلام معها شبيه بالمعنى في قولك • جاءني زيد لاعمرو • الا ان لها مزية وهي انك تعقل معها ايجاب الفعل لشيء ونفيه عن غيره دفعة واحدة وليس كذلك الامر في • جاءني زيد لاعمرو • فانك تعقلهما في حالين • ومزية ثانية وهي أنها تجعل الامر ظاهراً في ان الجائي زيد ولا يكون هذا الظهور اذا جعلت الكلام بلا فقلت • جاءني زيد لاعمرو

ثم اعلم ان قولنا في (لا) العاطفة انها تنفي عن الثاني ماوجب للاول • ليس المراد به انها تنفي عن الثاني أن يكون قد شارك الاول في الفعل بل أنها تنفي أن يكون الفعل الذي قلت انه كان من الاول قد كان من الثاني دون الاول • ألا ترى ان ليس المعنى في قولك • جاءني زيد لاعمرو • انه لم يكن من عمرو مجيء اليك مثل ماكان من زيد حتى كانه عكس قولك • جاءني زيد وعمرو • بل المعنى ان الجائي هو زيد لاعمرو فهو كلام تقوله مع من يغلط في الفعل قد كان من هذا فيتوهم أنه كان من ذلك • والنكتة أنه لاشبهة في أن ليس ههنا جائيان وأنه ليس الا جاء واحد وانما الشبهة في ان ذلك الجائي زيد أم عمرو فأنت تحقق على المخاطب بقولك • جاءني زيد لاعمرو • أنه زيد وليس بعمرو • ونكتة أخرى وهي انك لاتقول • جاءني زيد

لاعمرو • حتى يكون قد بلغ المخاطب انه كان مجيء اليك من جاء الا انه ظن انه كان من من عمرو فأعلمته انه لم يكن من عمرو ولكن من زيد •

واذ قد عرفت هذه المعاني في الكلام بلا العاطفة فاعلم انها بجملتها قائمة لك في الكلام بانما فاذا قلت • انما جاءني زيد • لم يكن غرضك ان تنفي ان يكون قد جاء مع زيد غيره ولكن ان تنفي أن يكون المجيء الذي قلت انه كان منه كان من عمرو وكذلك تكون الشبهة مرتفعة في ان ليس ههنا جائيان وان ليس الا جاء واحد وانما تكون الشبهة في ان ذلك الجائي زيد أم عمرو فاذا قلت • انما جاءني زيد حققت الامر في أنه زيد . وكذلك لاتقول : انما جاءني زيد . حتى يكون قد بلغ المخاطب أن قد جاءك جاء ولكنه ظن انه عمرو مثلا فاعلمته انه زيد . فان قلت فانه قد يصح ان تقول . انما جاءني من بين القوم زيد وحده وانما أتاني من جملتهم عمرو فقط . فان ذلك شيء كالتكلف والكلام هو الاول ثم الاعتبار به اذا أطلق فلم يقيد بوحده وما في معناه . ومعلوم أنك اذا قلت .انما جاءني زيد . ولم تزد على ذلك أنه لايسبق الى القلب من المعنى الا ماقدمنا شرحه من أنك أردت النص على زيد انه الجائي وأن تبطل ظن المخاطب ان المجيء لم يكن منه ولكن كان من عمرو حسب مايكون اذا قلت • جاءني زيد لاعمرو • فاعرفه

واذ قد عرفت هذه الجملة فانا نذكر جملة من القول في ما والا ومايكون من حكمهما • اعلم انك اذا قلت •ماجاءني الا زيد •احتمل أمرين أحدهما أن تريد اختصاص زيد بالمجيء وأن تنفيه عمن عداه

وأن يكون كلاما تقوله لالان بالمخاطب حاجة الى ان يعلم أن زيداً قد جاءك ولكن لان به حاجة الى أن يعلم انه لم يجيء اليك غيره • والثانى أن تريد الذى ذكرناه فى (انما) ويكون كلاما تقوله ليعلم أن الجانى زيد لاغيره • فمن ذلك قولك للرجل يدعي أنك قلت قولا ثم قلت خلافه . ماقلت اليوم الا ماقلته أمس بعينه . ويقول . لم تر زيداً وانما رأيت فلانا . فتقول : بل لم أر الا زيداً : وعلى ذلك قوله تعالى (ماقلت لهم الا ماأمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم) لانه ليس المعنى أنى لم أزد على ماأمرتني به شيئاً ولكن المعنى انى لم أدع ما أمرتنى به أن أقوله لهم وقلت خلافه • ومثال ماجاء فى الشعر من ذلك قوله

قد علمت سلمي وجاراتها ماقطر الفارس الا أنا

المعنى انا الذي قطر الفارس وليس المعنى على انه يريد أن يزعم انه انفرد بأن قطره وأنه لم يشركه فيه غيره

وههنا كلام ينبغى أن تعلمه الا أنى أكتب لك من قبله مسئلة لان فيها عونا عليه • قوله تعالي (انما يخشي الله من عباده العلماء) فى تقديم اسم الله عز وجل معني خلاف مايكون لو أخر وانما يبين لك ذلك اذا اعتبرت الحكم فى ما والا وحصلت الفرق بين أن تقول • ماضرب زيداً الا عمرو • وبين قولك • ماضرب عمرو الا زيداً • والفرق بينهما أنك اذا قلت • ماضرب زيداً الا عمرو • فقدمت المنصوب كان الغرض بيان الضارب من هو والاخبار بانه عمرو خاصة دون غيره : واذا قلت : ماضرب عمرو الا زيداً : فقدمت المرفوع كان الغرض بيان المضروب من هو والاخبار بأنه زيد خاصة دون غيره •

واذ قد عرفت ذلك فاعتبر به الآية واذا اعتبرتها به علمت أن تقديم اسم الله تعالى انما كان لاجل ان الغرض ان يبين الخاشون من هم ويخبر بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم ولو أخر ذكر اسم الله وقدم العلماء فقيل : انما يخشى العلماء الله : لصار المعنى على ضد ماهو عليه الآن ولصار الغرض بيان المخشى من هو والاخبار بانه الله تعالى دون غيره ولم يجب حينئذ أن تكون الخشية من الله تعالى مقصورة على العلماء وأن يكونوا مخصوصين بها كما هو الغرض فى الآية بل كان يكون المعني ان غير العلماء يخشون الله تعالى أيضاً الا انهم مع خشيتهم الله تعالى يخشون معه غيره والعلماء لايخشون غير الله تعالى وهذا المعنى وان كان قد جاء فى التنزيل فى غير هذه الآية كقوله تعالى (ولا يخشون أحداً الا الله) فليس هو الغرض فى الآية ولا اللفظ بمحتمل له البتة • ومن أجاز حملها عليه كان قد أبطل فائدة التقديم وسوى بين قوله تعالى (انما يخشي الله من عباده العلماء) وبين أن يقال : انما يخشى العلماء الله : واذا سوي بينهما لزمه أن يسوى بين قولنا • ماضرب زيداً الا عمرو • وبين • ماضرب عمرو الا زيداً • وذلك مالا شبهة فى امتناعه •

فهذه هي المسئلة واذ قد عرفتها فالامر فيها بين ان الكلام بما والا قد يكون في معنى الكلام بانما الا تري الي وضوح الصورة في قولك • ماضرب زيداً الا عمرو وما ضرب عمرو الا زيداً • انه فى الاول لبيان من الضارب وفى الثاني لبيان من المضروب وان كان تكلفاً ان تحمله على نفى الشركة فتريد بما ضرب زيداً الا عمرو انه لم يضربه اثنان وبما ضرب عمرو الا زيداً انه لم يضرب اثنين

ثم اعلم ان السبب فى ان لم يكن تقديم المفعول فى هذا كتأخيره
ولم يكن (ماضرب زيداً الا عمرو وما ضرب عمرو الا زيداً) سواء فى
المعنى ان الاختصاص يقع فى واحد من الفاعل والمفعول ولا يقع فيهما
جميعاً ثم انه يقع فى الذي يكون بعد الامنهما دون الذى قبلها لاستحالة
ان يحدث معنى الحرف فى الكلمة قبل ان يجيء الحرف واذا كان
الامر كذلك وجب ان يفترق الحال بين ان تقدم المفعول على (الا)
فتقول • ماضرب زيداً الا عمرو • وبين أن تقدم الفاعل فتقول :
ماضرب عمرو الا زيداً : لانا ان زعمنا ان الحال لايفترق جعلنا المتقدم
كالمتأخر في جوازحدوثه فيه وذلك يقتضي المحال الذى هو أن يحدث
معنى (الا) فى الاسم من قبل أن تجيء بها فاعرفه

واذ قد عرفت ان الاختصاص مع (الا) يقع فى الذى تؤخره من
الفاعل والمفعول فكذلك يقع مع (انما) في المؤخر منهما دون المقدم
فاذا قلت : انما ضرب زيداً عمرو : كان الاختصاص فى الضارب واذا
قلت : انما ضرب عمرو زيداً : كان الاختصاص في المضروب وكما لايجوز
أن يستوى الحال بين التقديم والتأخير مع (الا) كذلك لايجوز مع
(انما) واذا استبنت هذه الجملة عرفت منها ان الذى صنعه الفرزدق في
قوله * وانما يدافع عن احسابهم أنا أو مثلي * شيء لو لم يصنعه لم يصلح
له المعنى : ذاك لان غرضه ان يخص المدافع لا المدافع عنه وانه يزعم
ان المدافعة منه تكون عن احسابهم لاعن احساب غيرهم كما يكون اذا
قال : وما أدافع الا عن احسابهم : وليس ذلك معناه انما معناه ان
يزعم ان المدافع هو لاغيره فاعرف ذلك فان الغلط كما أظن يدخل
على كثير ممن تسمعهم يقولون : انه فصل الضمير للحمل على المعنى

فيرى انه لو لم يفصله لكان يكون معناه مثله الآن: هذا ولا يجوز ان
ينسب فيه الى الضرورة فيجعل مثلا نظير قول الآخر:

كانا يوم قري انـــما نقتل ايانا

لانه ليس به ضرورة الى ذلك من حيث ان ادافع ويدافع واحد
في الوزن فاعرف هذا ايضاً

وجملة الامر ان الواجب ان يكون اللفظ على وجه يجعل الاختصاص
فيه للفرزدق وذلك لايكون الا بان يقدم الاحساب على ضميره وهو
لو قال • وانما أدافع عن أحسابهم • استكن ضميره في الفعل فلم يتصور
تقديم الاحساب عليه ولم يقع الاحساب الامؤخراً عن ضمير الفرزدق
واذا تأخرت انصرف الاختصاص اليها لامحالة

فان قلت • انه كان عليه ان يقول (وانما أدافع عن أحسابهم أنا)
فيقدم الاحساب على «أنا» • قيل انه اذا قال : أدافع : كان الفاعل
الضمير المستكن فى الفعل وكان «أنا» الظاهر تأكيداً له أعنى للمستكن
والحكم يتعلق بالمؤكد دون التأكيد لان التأكيد كالتكرير فهو
يجيء من بعد نفوذ الحكم ولا يكون تقديم الجار مع المجرور الذى
هو قوله عن أحسابهم على الضمير الذى هو تأكيد تقديماً له على
الفاعل لان تقديم المفعول على الفاعل انما يكون اذا ذكرت المفعول
قبل ان تذكر الفاعل ولا يكون لك اذا قلت • وانما أدافع عن
أحسابهم : سبيل الى ان تذكر المفعول قبل ان تذكر الفاعل لان
ذكرا الفاعل ههنا هو ذكر الفعل من حيث ان الفاعل مستكن في
الفعل فكيف يتصور تقديم شيء عليه فاعرفه

واعلم انك ان عمدت الى الفاعل والمفعول فأخرتهما جميعاً الى

مابعد الا فان الاختصاص يقع حينئذ فى الذى يلى الا منهما فاذاقلت:
ماضرب الا عمرو زيداً • كان الاختصاص في الفاعل وكان المعنى انك
قلت : ان الضارب عمرو لاغيره : وان قلت : ماضرب الا زيداً عمرو
• كان الاختصاص فى المفعول وكان المعنى أنك قلت : ان المضروب
زيد لامن سواه : وحكم المفعولين حكم الفاعل والمفعول فيما ذكرت
لك • تقول : لم يكس الا زيداً جبة فيكون المعنى انه خص زيداً من
بين الناس بكسوة الجبة فان قلت : لم يكس الا جبة زيداً : كان المعنى
انه خص الجبة من أصناف الكسوة • وكذلك الحكم حيث يكون
بدل أحد المفعولين جار ومجرور كقول السيد الحميرى

لو خير المنبر فرسانه   مااختار الا منكم فارساً

الاختصاص في منكم دون فارساً ولو قلت : مااختار الا فارساً
منكم • صار الاختصاص فى «فارسا»

واعلم ان الامر في المبتدا والخبر ان كانا بعد (انما) على العبرة التى
ذكرت لك فى الفاعل والمفعول اذا أنت قدمت أحدهما على الآخر
• معني ذلك انك ان تركت الخبر فيموضعه فلم تقدمه على المبتدا كان
الاختصاص فيه وان قدمته على المبتدا صار الاختصاص الذى كان فيه
فى المبتدا • تفسير هذا انك تقول : انما هذالك : فيكون الاختصاص
في «لك» بدلالة انك تقول : انما هذالك لا لغيرك :وتقول : انمالك
هذا : فيكون الاختصاص في «هذا» بدلالة أنك تقول : انمالك هذا
لاذاك : والاختصاص يكون أبداً في الذى اذا جئت بلا العاطفة كان
العطف عليه • وان أردت ان يزداد ذلك عندك وضوحا فانظر الى
قوله تعالى (فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وقوله عز وعلا (انما

السبيل على الذين يستأذنونك) فانك تري الامرظاهراً ان الاختصاص
في الآية الاولى في المبتدا الذى هو البلاغ والحساب دون الخبر الذى
هو عليك وعلينا وانه فى الآية الثانية فى الخبر الذى هو على الذين دون
المبتدا الذي هو السبيل

واعلم انه اذا كان الكلام بما والا كان الذى ذكرته من ان
الاختصاص يكون فى الخبر ان لم تقدمه وفى المبتدا ان قدمت الخبر
أوضح وأبين : تقول : مازيداً الا قائم : فيكون المعني انك اختصصت
القيام من بين الاوصاف التى يتوهم كون زيدعليها بجعله صفة له:وتقول
• ماقائم الا زيد : فيكون المعنى انك اختصصت زيداً بكونه موصوفا
بالقيام • فقد قصرت فى الاول الصفة على الموصوف وفى الثانى
الموصوف على الصفة

واعلم ان قولنا فى الخبر اذا أخر نحو (مازيد الا قائم) • انك
اختصصت القيام من بين الاوصاف التى يتوهم كون زيد عليها ونفيت
ماعدا القيام عنه فانما نعني أنك نفيت عنه الاوصاف التى تنافى القيام نحو
ان يكون جالساً أو مضطجعاً أو متكئاً أو ماشاكل ذلك ولم ترد انك
نفيت ماليس من القيام بسبيل اذ لسنا ننفي عنه بقولنا : ماهو الاقائم
: أن يكون أسود أو أبيض أو طويلا أو قصيراً أو عالماً أو جاهلا كما
انا اذا قلنا : ماقائم الا زيد : لم نرد أنه ليس فى الدنيا قائم سواه وانما
نعني ماقائم حيث نحن وبحضرتنا وما أشبه ذلك

واعلم أن الامر بين فى قولنا : مازيد الا قائم : أن ليس المعني على
نفي الشركة ولكن على نفي أن لايكون المذكور ويكون بدله شئ آخر
ألا ترى أن ليس المعنى أنه ليس له مع القيام صفة أخرى بل المعنى ان

ليس له بدل القيام صفة ليست بالقيام وان ليس القيام منفياً عنه وكائناً
مكانه فيه القعود أو الاضطجاع أو نحوهما . فان قلت . فصورة المعنى
اذاً صورته اذا وضعت الكلام بانما فقلت : انما هو قائم : ونحن نرى أنه
يجوز فى هذا أن تعطف بلا فتقول : انما هو قائم لاقاعد : ولا نرى
ذلك جائزاً مع ما والا اذ ليس من كلام الناس ان يقولوا . مازيد الا
قائم لاقاعد : فان ذلك انما لم يجز من حيث انك اذا قلت : مازيد الا
قائم: فقد نفيت عنه كل صفة تنافى القيام وصرت كانك قلت (ليس هو
بقاعد ولا مضطجع ولا متكئ) وهكذا حتى لاتدع صفة يخرج بها
من القيام . فاذا قلت من بعـد ذلك (لاقاعد) كنت قـد نفيت بلا
العاطفـة شيئاً قد بدأت فنفيته وهى موضوعـة لان تنفي بها مابدأت
فأوجبته لالان تفيـد بها النفي في شئ قد نفيته . ومن ثم لم يجز ان
تقول : ماجاءنى أحد لازيد : على ان تعمد الى بعض مادخل فى النفي
بعموم أحد فتنفيه على الخصوص بل كان الواجب اذا أردت ذلك ان
تقول . ماجاءني أحد ولا زيد : فتجيء بالواو من قبل (لا) حتى تخرج
بذلك عن أن تكون عاطفة فاعرف ذلك .

وإذ قـد عرفت فساد ان تقول : مازيد الا قائم لاقاعد : فانك
تعرف بذلك امتناع ان تقول . ماجاءني الا زيد لاعمرو وما ضربت
الا زيداً لاعمرا : وما شاكل ذلك . وذلك انك اذا قلت : ماجاءني
الا زيد فقد نفيت ان يكون قد جاءك أحد غيره فاذا قلت : لاعمرو :
كنت قد طلبت ان تنفي بلا العاطفة شيئاً قد تقدمت فنفيتـه وذلك
ـ كما عرفتك ـ خروج بها عن المعنى الذى وضعت له الى خلافه . فان
قيل : فانك اذا قلت : انما جاءنى زيد : فقد نفيت فيـه ايضاً ان يكون

المجيء قد كان من غيره فكان ينبغي ان لايجوز فيه ايضاً ان تعطف
بلا فتقول : انما جاءنى زيد لاعمرو : قيل ان الذى قلته من انك اذا
قلت . انما جاءنى زيد . فقد نفيت فيه ايضاً المجيء عن غيره غيرمسلم
لك على حقيقته وذلك انه ليس معك الا قولك . جاءنى زيد : وهو
كلام كما تراه مثبت ليس فيه نفي البتة كما كان فى قولك . ماجاءنى الا
زيد . وانما فيه انك وضعت يدك على زيد فجعلتـه الجائى وذلك وان
اوجب انتفاء المجيء عن غيره فليس يوجبه من اجـل ان كان ذلك
إعمال نفي في شئ وانما اوجبـه من حيث كان المجيء الذي اخبرت به
مجيئاً مخصوصاً اذا كان لزيد لم يكن لغـيره والذي أبيناه ان تنـفى بلا
العاطفة الفعل عن شئ وقد نفيته عنه لفظاً

ونظير هذا انا نعقل من قولنا . زيد هو الجائى : ان هذا المجيء
لم يكن من غيره ثم لايمنع ذلك من أن تجيء فيه بلا العاطفة فتقول .
زيد هو الجائى لاعمـرو : لانا لم نعقل ماعقلناه من انتفاء المجيء عن
غـيره بنفي أوقعناه على شئ ولكن بأنه لما كان المجيء المقصود مجيئاً
واحداً كان النص على زيد بأنه فاعله واثباته له نفياً له عن غيره ولكن
من طريق المعقول لامن طريق ان كان فى الكلام نفي كما كان ثم فاعرفه
. فان قيل : فانك اذا قلت : ماجاءنى الا زيد : ولم يكن غرضك أن
تنفي أن يكون قد جاء معه واحد آخر كان المجيء أيضاً مجيئاً واحـداً
. قيـل انه وان كان واحداً فانك انما بينت ان زيداً الفاعل له بأن
نفيت المجيء عن كل من سوى زيد كما تصـنع اذا أردت ان تنفي ان
يكون قد جاء معه جاء آخر . واذا كان كذلك كان ماقلناه من انك
ان جئت بلا العاطفة فقلت : ماجاءنى الا زيد لاعمرو : كنت قد نفيت

الفعل عن شيء قد نفيته عنه مرة صحيحاً ثابتاً كما قلناه فاعرفه

واعلم ان حكم (غـير) في جميع ماذكرنا حكم (الا) فاذا قلت • ماجاءني غير زيد : احتمل ان تريد نفي ان يكون قد جاء معـه انسان آخر وان تريد نفي ان لايكون قد جاء وجاء مكانه واحـد آخر ولا يصح ان تقول : ماجاءني غير زيد لاعمرو • كما لم يجز • ماجاءني الا زيد لاعمرو :

﴿ فصل ﴾

﴿ فى نكتة تتصل بالكلام الذى تضعه بما وإلا ﴾

اعلم ان الذي ذكرناه من أنك تقول • ماضرب الا عمرو زيداً : فتوقع الفاعل والمفعول جميعاً بعـد الا ليس بأكثر الكلام وإنمـا الاكثر ان تقدم المفعول على (الا) نحو : ماضرب زيداً الاعمرو : حتى انهم ذهبوا فيـه أعنى فى قولك : ماضرب إلا عمرو زيداً الى أنه على كلامين وان زيداً منصوب بفعل مضمر حتى كان المتكلم بذلك أبهم فى أول أمره فقال : ماضرب الاعمرو • ثم قيل له • من ضرب. فقال : ضرب زيداً:

وههنا ـ اذا تأملت ـ معنى لطيف يوجب ذلك وهو أنك اذا قلت : ما ضرب زيداً إلا عمرو: كان غرضك أن تختص عمراً بضرب زيد لابالضرب على الاطلاق • واذا كان كذلك وجب أن تعدى الفعل الى المفعول من قبل ان تذكر عمراً الذى هو الفاعل لان السامع لايعقل عنـك انك اختصصته بالفعل معدى حتى تكون قد بدأت فعديته أعني لايفهم عنك أنك أردت أن تختص عمراً بضرب زيد حتى

تذكره له معدي الى زيد فأما اذا ذكرته غير معدى فقلت : ماضرب الا عمرو : فان الذي يقع فى نفسه أنك أردت أن تزعم أنه لم يكن من أحد غير عمرو ضرب وانه ليس ههنا مضروب الا وضاربه عمرو فاعرفه أصلا في شأن التقديم والتأخير

﴿ فصل ﴾

ان قيل مضيت فى كلامك كله على أن (انما) للخبر لايجهله المخاطب ولا يكون ذكرك له لان تفيده اياه وانا لنراها فى كثير من الكلام والقصد بالخبر بعدها ان تعلم السامع أمراً قد غلط فيه بالحقيقة واحتاج الى معرفته كمثل ماذكرت فى أول الفصل الثاني من قولك: انما جاءني زيد لاعمرو : وتراها كذلك تدور فى الكتب للكشف عن معان غير معلومة ودلالة المتعلم منها على مالا يعلم : قيل : أما مايجيء فى الكلام من نحو : انما جاء زيد لاعمرو : فانه وان كان يكون إعلاما لامر لايعلمه السامع فانه لابد مع ذلك من ان يدعي هناك فضل انكشاف وظهور فى ان الامر كالذى ذكر وقد قسمت فى أول ماافتتحت القول فيها فقلت إنها تجيء للخبر لايجهله السامع ولا ينكر صحته أو لما تنزل هذه المنزلة • وأما ما ذكرت من انها تجيء في الكتب لدلالة المتعلم على مالم يعلمه فانك اذا تأملت مواقعها وجدتها فى الامر الاكثر قد جاءت لامر قد وقع العلم بموجبه وشيء يدل عليـه • مثال ذلك ان صاحب الكتاب قال فى باب كان : اذا قلت : كان زيد : فقد ابتدأت بما هو معـروف عنده مثله عندك وانما تنتظر الخبر. فاذا قلت : حليما : فقد أعلمتـه مثل ماعلمت واذا قلت : كان حليما : فانما ينتظر أن تعرفه صاحب الصفة

وذاك انه اذا كان معلوما انه لايكون مبتدا من غير خبر ولا خبر من غير مبتدا كان معلوما انك اذا قلت : كان زيداً : فالمخاطب ينتظر الخبر واذا قلت : كان حليما : أنه ينتظر الاسم فلم يقع اذن بعد (انما) الاشئ كان معلوما للسامع من قبل ان ينتهي اليه

ومما الامر فيه بين قوله فى باب ظننت : وانما تحكي بعد (قلت) ما كان كلاما لا قولا : وذلك انه معلوم انك لاتحكى بعد (قلت) اذا كنت تنحو نحو المعني الا ما كان جملة مفيدة فلا تقول : قال فلان (زيد) وتسكت اللهم الا ان تريد انه نطق بالاسم على هذه الهيئة كانك تريد انه ذكره مرفوعا • ومثل ذلك قولهم : انما يحذف الشيء اذا كان فى الكلام دليل عليه : الي اشباه ذلك مما لايحصى فان رأيتها قد دخلت على كلام هو ابتداء إعلام بشئ لم يعلمه السامع فلان الدليل عليه حاضر معه والشيء بحيث يقع العلم به عن كثب • واعلم انه ليس يكاد ينتهي مايعرض بسبب هذا الحرف من الدقائق

ومما يجب أن يعلم انه اذا كان الفعل بعدها فعلا لايصح الا من المذكور ولا يكون من غيره كالتذكر الذى يعلم انه لايكون الا من أولى الالباب لم يحسن العطف بلا فيه كما يحسن فيما لايختص بالمذكور ويصح من غيره • تفسير هذا انه لايحسن ان تقول : انما يتذكر اولو الالباب لاالجهال : كما يحسن ان تقول : انما يجيء زيد لاعمرو : ثم ان النفى فيما يجيء فيه النفى يتقدم تارة ويتأخر اخرى فمثال التأخير ما تراه في قولك : انما يجيء زيد لاعمرو • وكقوله تعالى (انما انت مذكر لست عليهم بمسيطر) وكقول لبيد * انما يجزى الفتى ليس الجمل * ومثال التقديم قولك • ماجاءني زيد وانما جاءني عمرو • وهذا مما انت تعلم به

مكان الفائدة فيها وذلك انك تعلم ضرورة انك لو لم تدخلها وقلت • ماجاءني زيد وجاءني عمرو • لكان الكلام مع من ظن انهما جاآك جميعاً وان المعنى الآن مع دخولها ان الكلام مع من غلط فى عين الجائي فظن انه كان زيداً لاعمراً

وأمر آخر وهو ليس ببعيد أن يظن الظان أنه ليس فى انضمام (ما) الى (إن) فائدة أكثر من انها تبطل عملها حتى ترى النحويين لايزيدون فى أكثر كلامهم على انها كافة • ومكانها هاهنا يزيل هذا الظن ويبطله وذلك انك ترى أنك لو قلت • ماجاءني زيد وإن عمرا جاءنى لم يعقل منه انك أردت أن الجائى عمرو لا زيد بل يكون دخول إن كالشيء الذى لا يحتاج اليه ووجدت المعنى ينبو عنه

ثم اعلم انك اذا استقريت وجدتها أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب اذا كان لايراد بالكلام بعدها نفس معناه ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه نحو أنا نعلم أن ليس الغرض من قوله تعالى (إنما يتذكرُ أولوا الالباب) أن يعلم السامعون ظاهر معناه ولكن أن يذم الكفار وأن يقال انهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم فى حكم من ليس بذى عقل وانكم ان طمعتم منهم فى أن ينظروا ويتذكروا كنتم كمن طمع فى ذلك من غير أولى الالباب • وكذالك قوله (إنما أنت منذرُ من يخشاها) وقوله عز اسمه (إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب) المعنى على ان من لم تكن له هذه الخشية فهو كأنه ليس له أذن تسمع وقلب يعقل فالانذار معه كلا إنذار • ومثال ذلك من الشعر قوله :

أنا لم أرزق محبتها إنما للعبد ما رزقا

الغرض أن يفهمك من طريق التعريض انه قد صار ينصح نفسه ويعلم انه ينبغى له أن يقطع الطمع من وصلها وييأس من أن يكون منها اسعاف • ومن ذلك قوله * وإنما يعذر العشاق من عشقا *
يقول انه ليس ينبغى للعاشق أن يلوم من يلومه فى عشقه وأنه ينبغى أن لا ينكر ذلك منه فانه لا يعلم كنه البلوى فى العشق ولو كان ابتلى به لعرف ما هو فيه فعذره • وقوله •

ما أنت بالسبب الضعيف وانما نجح الأمور بقوة الاسباب
فاليوم حاجتنا اليك وانما يدعى الطبيب لساعة الأوصاب

يقول في البيت الاول • انه ينبغى أن أنجح فى أمرى حين جعلتك السبب اليه • ويقول فى الثانى • إنا قد وضعنا الشئ في موضعه وطلبنا الأمر من جهته حين استعنا بك فيما عرض من الحاجة وعولنا على فضلك كما أن من عول على الطبيب فيما يعرض له من السقم كان قد أصاب بالتعويل موضعه وطلب الشئ من معدنه

ثم ان العجب فى أن هذا التعريض الذى ذكرت لك لا يحصل من دون (انما) فلو قلت • يتذكر أولوا الألباب • لم يدل على ما دل عليه في الآية وإن كان الكلام لم يتغير فى نفسه وليس إلا أنه ليس فيه (إنما) والسبب في ذلك ان هذا التعريض انما وقع بأن كان من شأن إنما أن تضمن الكلام معني النفى من بعد الاثبات والتصريح بامتناع التذكر ممن لا يعقل واذا أسقطت من الكلام فقيل • يتذكر أولوا الألباب • كان مجرد وصف لأولى الألباب بأنهم يتذكرون ولم يكن فيه معنى نفي للتذكر عمن ليس منهم ومحال أن يقع تعريض لشئ ليس له فى الكلام ذكر ولا فيه دليل عليه فالتعريض بمثل هذا أعني بأن يقول

يتذكر أولوا الالباب • باسقاط (انما) يقع اذن ان وقع بمدح انسان بالتيقظ وبأنه فعل ما فعل وتنبه لما تنبه له لعقله ولحسن تمييزه كما يقال كذلك يفعل العاقل وهكذا يفعل الكريم • وهذا موضع فيه دقة وغموض وهو مما لا يكاد يقع في نفس أحد أنه ينبغى أن يتعرف سببه ويبحث عن حقيقة الامر فيه

ومما يجب لك أن تجعله على ذكر منك من معاني (انما) ما عرفتك أولا من انها قد تدخل في الشئ على أن يخيل فيه المتكلم انه معلوم ويدعى انه من الصحة بحيث لا يدفعه دافع كقوله
* انما مصعب شهاب من الله * ومن اللطيف في ذلك قول قيس بن حصن :

الا أيها الناهى فزارة بعد ما أجدَّت لغزو انما أنت حالم

ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن اليهود (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا إنما نحن مصلحون) دخلت إنما لتدل على انهم حين ادعوا لأنفسهم انهم مصلحون أظهروا أنهم يدعون من ذلك أمراً ظاهراً معلوماً ولذلك أكد الأمر فى تكذيبهم والرد عليهم فجمع بين (ألا) الذى هو للتنبيه وبين (إن) الذي هو للتأكيد فقيل (ألا إنهم هم المفسدون ولكن يشعرون)

﴿ فصل ﴾

اعلم انه لا يصح تقدير الحكاية فى النظم والترتيب بل لن تعدوا الحكاية الالفاظ واجراس الحروف وذلك أن الحاكى هو من يأتى بمثل ما أتى به المحكي عنه ولا بد من أن تكون حكايته فعلا له وأن

يكون بها عاملا عملا مثل عمل المحكي عنه نحو ان يصوغ انسان خاتما فيبدع فيه صنعة ويأتي في صناعته بخاصة تستغرب فيعمد واحدا آخر فيعمل خاتما على تلك الصورة والهيئة ويجيء بمثل صنعته فيه ويؤديها كما هي فيقال عند ذلك • انه قد حكى عمل فلان وصنعة فلان • والنظم والترتيب في الكلام كما بينا عمل يعمله مؤلف الكلام في معاني الكلم لا في ألفاظها وهو بما يصنع في سبيل من يأخذ الاصباغ المختلفة فيتوخى فيها ترتيباً يحدث عنه ضروبا من النقش والوشي • واذا كان الأمر كذلك فانا ان تعدينا بالحكاية الالفاظ الى النظم والترتيب أدى ذلك الى المحال وهو أن يكون المنشد شعر امرئ القيس قد عمل في المعاني وترتيبها واستخراج النتائج والفوائد مثل عمل امرئ القيس وأن يكون حاله اذا أنشد قوله

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف اعجازاً وناء بكلكل

حال الصائغ ينظر الى الصورة قد عملها صائغ من ذهب له أو فضة فيجيء بمثلها من ذهبه أو فضته وذلك يخرج بمرتكب ان ارتكبه الى أن يكون الراوي مستحقاً لأن يوصف بأنه استعار وشبه وان يجعل كالشاعر في كل ما يكون به ناظما فيقال انه جعل هذا فاعلا وذاك مفعولا وهذا مبتدأ وهذا خبراً وجعل هذا حالا وذاك صفة وأن يقال نفى كذا وأثبت كذا وأبدل كذا من كذا وأضاف كذا الى كذا وعلى هذا السبيل • كما يقال ذاك في الشاعر • واذا قيل ذاك لزم منه أن يقال فيه • صدق وكذب • كما يقال في المحكي عنه وكفى بهذا بعدا واحالة • ويجمع هذا كله أنه يلزم منه أن يقال انه قال شعرا كما يقال فيمن حكى صنعة الصائغ من خاتم قد عمله • انه قد صاغ خاتما •

وجملة الحديث انا نعلم ضرورة أنه لا يتأتى لنا أن ننظم كلاما من غير روية وفكر فان كان راوي الشعر ومنشده يحكي نظم الشاعر على حقيقته فينبغي أن لا يتأتى له رواية شعره الا بروية والا بأن ينظر في جميع ما نظر فيه الشاعر من أمر النظم وهذا ما لا يبقى معه موضع عذر للشاك

هذا — وسبب دخول الشبهة على ما من دخلت عليه انه لما رأى المعاني لا تتجلى للسامع الا من الالفاظ وكان لا يوقف على الامور التي بتوخيها يكون النظم الا بأن ينظر الى الالفاظ مرتبة على الانحاء التي يوجبها ترتيب المعاني في النفس وجرت العادة بان تكون المعاملة مع الالفاظ فيقال قد نظم ألفاظاً فاحسن نظمها وألف كلما فاجاد تأليفها • جعل الالفاظ الاصل في النظم وجعل يتوخى فيها أنفسها وترك أن يفكر في الذي بيناه من أن النظم هو توخي معاني النحو في معاني الكلم وان توخيها في متون الالفاظ محال • فلما جعل هذا في نفسه ونشب هذا الاعتقاد به خرج له من ذلك أن الحاكي اذا أدى ألفاظ الشعر على النسق الذي سمعها عليه كان قد حكى نظم الشاعر كما حكى لفظه • وهذه شبهة قد ملكت قلوب الناس وعششت في صدورهم وتشربتها نفوسهم حتى انك لترى كثيرا منهم وهي من حلولها عندهم محل العلم الضروري بحيث ان أومأت له الى شيء مما ذكرناه اشمأز لك وسك سمعه دونك وأظهر التعجب منك وتلك جريرة ترك النظر وأخذ الشيء من غير معدنه ومن الله التوفيق

﴿ فصل ﴾

اعلم انا إذا أضفنا الشعر أو غير الشعر من ضروب الكلام الى قائله

لم تكن اضافتنا له من حيث هو كلم وأوضاع لغة ولكن من حيث
توخي فيها النظم الذى بينا أنه عبارة عن توخي معانى النحو فى معانى
الكلم وذاك أن من شان الاضافة الاختصاص فهى تتناول الشيء من
الجهة التي تختص منها بالمضاف اليه • فاذا قلت • غلام زيد • تناولت
الاضافة الغلام من الجهة التي يختص منها بزيد وهو كونه مملوكا • واذا
كان الامر كذلك فينبغى لنا أن ننظر في الجهة التى يختص منها الشعر
بقائله واذا نظرنا وجدناه يختص به من جهة توخيه فى معانى الكلم التى
ألفه منها ماتوخاه من معانى النحو ورأينا أنفس الكلم بمعزل عن الاختصاص
ورأينا حالها معه حال الابريسم مع الذي ينسج منه الديباج وحال
الفضة والذهب مع من يصوغ منها الحلى فكما لا يشتبه الامر فى أن
الديباج لا يختص بناسجه من حيث الابريسم والحلى بصائغهامن حيث
الفضة والذهب ولكن من جهة العمل والصنعة كذلك ينبغى أن
لا يشتبه ان الشعر لا يختص بقائله من جهة أنفس الكلم وأوضاع اللغة
ويزداد تبينا لذلك بان ينظر فى القائل اذا أضفته الى الشعر فقلت • امرؤ
القيس قائل هذا الشعر • من أين جعلته قائلا له أمن حيث نطق
بالكلم وسمعت ألفاظها من فيه أم من حيث صنع فى معانيها ماصنع وتوخي
فيها ما توخي ؟ فان زعمت انك جعلته قائلا له من حيث انه نطق بالكلم
وسمعت ألفاظها من فيه على النسق المخصوص فاجعل راوى الشعر قائلا
له فانه ينطق بها ويخرجها من فيه على الهيئة والصورة التى نطق بها
الشاعر وذلك ما لا سبيل لك اليه • فان قلت • ان الراوى وان كان قد
نطق بالفاظ الشعر على الهيئة والصورة التى نطق بها الشاعر فانه هو لم
يبتدئ فيها النسق والترتيب وانما ذلك شيء ابتدأه الشاعر فلذلك جعلته

القائل له دون الراوى • قيل لك • خبرنا عنك أترى انه يتصور أن
يجب في ألفاظ الكلم التي تراها في قوله

* قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *

هذا الترتيب من غير أن يتوخى فى معانيها ما تعلم أن امرأ القيس توخاه
من كون (نبك) جوابا للامر وكون (من) معدية له إلى (ذكرى)
وكون (ذكرى) مضافة الى (حبيب) وكون (منزل) معطوفا على
(حبيب) أم ذلك محال ؟ فان شككت في استحالته لم تكلم وإن قلت •
نعم هو محال • قيل لك • فاذا كان محالا أن يجب في الالفاظ ترتيب
من غير أن يتوخى في معانيها معانى النحو كان قولك (إن الشاعر ابتدأ
فيها ترتيبا) قولا بما لا يتحصل

وجملة الامر انه لا يكون ترتب فى شيء حتى يكون هناك قصد الى
صورة وصفة ان لم يقدم فيه ما قدم ولم يؤخر ما أخر وبدئ بالذي ثنى
به أو ثنى بالذي ثلث به لم تحصل لك تلك الصورة وتلك الصفة • واذا
كان كذلك فينبغى أن ينظر الى الذى يقصد واضع الكلام أن يحصل
له من الصورة والصفة أفي الالفاظ يحصل له ذلك أم من معاني الالفاظ ؟
وليس فى الامكان أن يشك عاقل اذا نظر ان ليس ذلك في الالفاظ وانما
الذى يتصور أن يكون مقصودا في الالفاظ هو الوزن وليس هو من
كلامنا في شيء لأنا نحن فيما يكون الكلام كلاما الا به وليس للوزن
مدخل فى ذلك

﴿ فصل ﴾

واعلم انى على طول ما أعدت وأبدأت وقلت وشرحت في هذا

الذي قام في أوهام الناس من حديث اللفظ لربما ظننت انى لم أصنع شيئاً وذلك انك ترى الناس كأنه قد مضى عليهم أن يكونوا في هذا الذي نحن بصدده على التقليد البحث وعلى التوهم والتخيل واطلاق اللفظ من غير معرفة بالمعنى • قد صار ذاك الدأب والديدن واستحكم الداء منه الاستحكام الشديد وهذا الذي بيناه وأوضحناه كأنك ترى أبداً حجابا بينهم وبين أن يعرفوه وكأنك تسمعهم منه شيئاً تلفظه أسماعهم • وتنكره نفوسهم • وحتى كأنه كلما كان الامر أبين • كانوا عن العلم به أبعد • وفي توهم خلافه أقعد • وذلك لان الاعتقاد الاول قد نشب في قلوبهم وتأشب فيها ودخل بعروقه في نواحيها وصار كالنبات السوء الذي كلما قلعته عاد فنبت . والذي له صاروا كذلك انهم حين رأوهم يفردون اللفظ عن المعني ويجعلون له حسناً على حدة ورأوهم قد قسموا الشعر فقالوا ان منه ما حسن لفظه ومعناه ومنه ما حسن لفظه دون معناه ومنه ما حسن معناه دون لفظه ورأوهم يصفون اللفظ بأوصاف لا يصفون بها المعنى ظنوا ان للفظ من حيث هو لفظ حسناً ومزية ونبلا وشرفا وان الاوصاف التى نحلوه إياها هي أوصافه على الصحة وذهبوا عما قدمنا شرحه من أن لهم في ذلك رأياً وتدبيراً وهو أن يفصلوا بين المعني الذى هو الغرض وبين الصورة التي يخرج فيها فنسبوا ما كان من الحسن والمزية في صورة المعنى الى اللفظ ووصفوه في ذلك بأوصاف هي تخبر عن أنفسها أنها ليست له كقولهم انه حلي المعنى وانه كالوشي عليه وانه قد كسب المعنى دلا وشكلا وانه رشيق أنيق وانه متمكن وانه على قدر المعنى لا فاضل ولا مقصر ـ الى أشباه ذلك مما لا يشك انه لا يكون وصفا له من حيث هو لفظ وصدي صوت الا انهم

كأنهم رأوا بسلا حراما أن يكون لهم في ذلك فكر وروية وأن يميزوا فيه قبيلا من دبير

ومما الصفة فيه للمعنى وان جري في ظاهر المعاملة على اللفظ الا أنه يبعد عند الناس كل البعد أن يكون الأمر فيه كذلك وأن لا يكون من صفة اللفظ بالصحة والحقيقة وصفنا اللفظ بانه مجاز . وذاك أن العادة قد جرت بان يقال في الفرق بين الحقيقة والمجاز ان الحقيقة أن يقر اللفظ على أصله في اللغة والمجاز أن يزال عن موضعه ويستعمل في غير ما وضع له فيقال أسد ويراد شجاع وبحر ويراد جواد ، وهو وان كان شيئاً قد استحكم في النفوس حتي انك ترى الخاصة فيه كالعامة فان الامر بعد فيه على خلافه ، وذلك أنا اذا حققنا لم نجد لفظ أسد قد استعمل على القطع والبت في غير ما وضع له • ذاك لانه لم يجعل في معنى شجاع على الاطلاق ولكن جعل الرجل بشجاعته أسداً فالتجوز في ان دعيت للرجل أنه في معني الاسد وأنه كأنه هو في قوة قلبه وشدة بطشه وفي أن الخوف لا يخامره والذعر لا يعرض له وهذا ان أنت حصلت تجوز منك في معنى اللفظ لا اللفظ وانما يكون اللفظ مزالا بالحقيقة عن موضعه ومنقولا عما وضع له ان لو كنت تجد عاقلا يقول • هو أسد • وهو لا يضمر في نفسه تشبيهاً له بالاسد ولا يريد الا ما يريده اذا قال • هو شجاع • وذلك مالا يشك في بطلانه

وليس العجب الا انهم لا يذكرون شيئاً من المجاز الا قالوا • انه أبلغ من الحقيقة • فليت شعري ان كان لفظ أسد قد نقل عما وضع له في اللغة وأزيل عنه وجعل يراد به الشجاع هكذا غفلا ساذجا فمن أين يجب ان يكون قولنا أسد أبلغ من قولنا شجاع • وهكذا الحكم

في الاستعارة هي وان كانت في ظاهر المعاملة من صفة اللفظ وكنا
نقول • هذه لفظة مستعارة وقد استعير له اسم الاسد • فان مآل
الامر الى أن القصد بها الى المعنى • يدلك على ذلك أنا نقول • جعله
أسداً وجعله بدراً وجعله بحراً • فلو لم يكن القصد بها الى المعنى لم يكن
لهذا الكلام وجه لان (جعل) لاتصلح الا حيث يراد إثبات صفة للشيء
كقولنا • جعلته أميراً وجعلته واحد دهره • تريد أثبت له ذلك
• وحكم (جعل) اذا تعدى الى مفعولين حكم (صير) فكما لاتقول •
صيرته أميراً • الا على معنى أنك أثبت له صفة الامارة كذلك لايصح
أن تقول جعلته أسداً الا على معنى أنك جعلته في معنى الاسد ولا يقال
• جعلته زيداً • بمعنى سميته زيداً ولا يقال للرجل • اجعل ابنك
زيداً • بمعنى سمه زيداً وولد لفلان ابن فجعله زيداً • وانما يدخل
الغلط في ذلك على من لايحصل •

فأما قوله تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا)
فانما جاء على الحقيقة التي وصفتها وذلك ان المعنى على انهم أثبتوا للملائكة
صفة الاناث واعتقدوا وجودها فيهم وعن هذا الاعتقاد صدر عنهم
ماصدر من الاسم أعنى اطلاق اسم البنات وليس المعنى أنهم وضعوا
لها لفظ الاناث أو لفظ البنات اسما من غير اعتقاد معنى واثبات صفة
• هذا محال لايقوله عاقل أما تسمع قول الله تعالى (أشهدوا خلقهم
ستكتب شهادتهم ويسألون) فان كانوا لم يزيدوا على أن أجروا الاسم
على الملائكة ولم يعتقدوا اثبات صفة ومعنى باجرائه عليهم فاى معنى
لان يقال • أشهدوا خلقهم • هذا ولو كانوا لم يقصدوا اثبات صفة ولم
يزيدوا على ان وضعوه اسما لما استحقوا الا اليسير من الذم ولما كان

هذا القول منهم كفراً والامر في ذلك أظهر من أن يخفى
وجملة الامر أنه ان قيل • انه ليس في الدنيا علم قد عرض للناس
فيه من فحش الغلط ومن قبيح التورط ومن الذهاب مع الظنون
الفاسدة ماعرض لهم في هذا الشأن ظننت ان لايخشى على من يقوله
الكذب • وهل عجب أعجب من قوم عقلاء يتلون قول الله تعالى (قل
لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون
بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ويؤمنون به ويدينون بأن القرآن
معجز ثم يصدون بأوجههم عن برهان الاعجاز ودليله ويسلكون غير
سبيله ولقد جنوا لو دروا ذاك عظيما

فصل

واعلم انه وان كانت الصورة فى الذى أعدنا وأبدأنا فيه من انه
لامعنى للنظم غير توخي معانى النحو فيما بين الكلم قد بلغت فى الوضوح
والظهور والانكشاف الى أقصى الغاية والى ان تكون الزيادة عليه
كالتكلف لما لايحتاج اليه فان النفس تنازع الى تتبع كل ضرب من
الشبهة يرى انه يعرض للمسلم نفسه عند اعتراض الشك وانا لنرى أن
في الناس من اذا رأى انه يجرى فى القياس وضرب المثل ان تشبه الكلم
في ضم بعضها الى بعض بضم غزل الابريسم بعضه الى بعض ورأى ان
الذى ينسج الديباج ويعمل النقش والوشى لايصنع بالابريسم الذى ينسج
منه شيئاً غير ان يضم بعضه الى بعض ويتخير للاصباغ المختلفة المواقع
التى يعلم انه اذا أوقعها فيها حدث له فى نسجه مايريد من النقش والصورة
جرى في ظنه ان حال الكلم فى ضم بعضها الى بعض وفي تخير المواقع

لها حال خيوط الابريسم سواء ورأيت كلامه كلام من لايعلم انه لايكون الضم فيها ضما ولا الموقع موقعاً حتى يكون قد توخي فيها معانى النحو وانك ان عمدت الى ألفاظ فجعلت تتبع بعضها بعضاً من غير ان تتوخي فيها معانى النحو لم تكن صنعت شيئاً تدعى به مؤلفاً وتشبه معه بمن عمل نسجاً أو صنع على الجملة صنيعاً ولم يتصور ان تكون قد تخيرت لها المواقع ·

وفساد هذا وشبهه من الظن وان كان معلوما ظاهراً فان ههنا استدلالا لطيفاً تكثر بسببه الفائدة وهو انه يتصور ان يعمد عامد الى نظم كلام بعينه فيزيله عن الصورة التى أرادها الناظم له ويفسدها عليه من غير ان يحول منه لفظاً عن موضعه أو يبدله بغيره أو يغير شيئاً من ظاهر أمره على حال · مثال ذلك انك ان قدرت في بيت أبى تمام ·

لعاب الأفاعي القاتلات لعابه وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل

أن لعاب الافاعي مبتدأ ولعابه خبر كما يوهمه الظاهر أفسدت عليه كلامه وأبطلت الصورة التى أرادها فيه وذلك ان الغرض ان يشبه مداده بأرى الجني على معنى انه اذا كتب في العطايا والصلات أوصل به الى النفوس ماتحلو مذاقته عندها وأدخل السرور واللذة عليها وهذا المعنى انما يكون اذا كان لعابه مبتدأ ولعاب الافاعي خبراً فاما تقديرك ان يكون (لعاب الافاعي) مبتدأ و (لعابه) خبراً فيبطل ذلك ويمنع منه البتة ويخرج بالكلام الى مالا يجوز ان يكون مراداً في مثل غرض أبي تمام وهو ان يكون أراد ان يشبه لعاب الافاعي بالمداد ويشبه كذلك الارى به فلو كان حال الكلم في ضم بعضها الى بعض كحال غزل

الابريسم لكان ينبغى ان لاتتغير الصورة الحاصلة من نظم كلم حتى تزال عن مواقعها كما لاتتغير الصورة الحادثة عن ضم غزل الابريسم بعضه الى بعض حتى تزال الخيوط عن مواضعها

واعلم انه لايجوز أن يكون سبيل قوله · لعاب الافاعي القاتلات لعابه · سبيل قولهم · عتابك السيف · وذلك ان المعنى فى بيت أبى تمام على انك تشبه شيئاً بشيء لجامع بينهما فى وصف وليس المعنى فى · عتابك السيف · على انك تشبه عتابه بالسيف ولكن على ان تزعم انه يجعل السيف بدلا من العتاب · أفلا ترى أنه يصح أن تقول · مداد قلمه قاتل كسم الافاعي · ولا يصح ان تقول · عتابك كالسيف · اللهم الا ان تخرج الى باب آخر وشيء ليس هو غرضهم بهذا الكلام فتريد انه قد عاتب عتابا خشناً مؤلماً · ثم انك ان قلت · السيف عتابك · خرجت به الى معنى ثالث وهو ان تزعم ان عتابه قد بلغ فى إيلامه وشدة تأثيره مبلغاً صار له السيف كانه ليس بسيف

واعلم انه ان نظر ناظر في شأن المعانى والالفاظ الى حال السامع فاذا رأى المعانى تقع فى نفسه من بعد وقوع الالفاظ فى سمعه ظن لذلك ان المعانى تبع للالفاظ في ترتيبها فان هذا الذى بيناه يريه فساد هذا الظن · وذلك انه لو كانت المعانى تكون تبعاً للالفاظ في ترتيبها لكان محالا ان تتغير المعانى والالفاظ بحالها لم تزل عن ترتيبها فلما رأينا المعاني قد جاز فيها التغير من غير ان تتغير الالفاظ وتزول عن أماكنها علمنا ان الالفاظ هى التابعة والمعاني هي المتبوعة

واعلم انه ليس من كلام يعمد واضعه فيه الى معرفتين فيجعلهما مبتدأ وخبراً ثم يقدم الذى هو الخبر الا أشكل الامر عليك فيه فلم تعلم

ان المقدم خبر حتى ترجع الى المعنى وتحسن التدبر • أنشد الشيخ أبو على فى التذكرة * نم وان لم أنم كراى كراكا * ثم قال ينبغى أن يكون (كراى) خبراً مقدما ويكون الاصل (كراك كراى) أي نم وان لم أنم فنومك نومي كما تقول : قم وان جلست فقيامك قيامى: هذا هو عرف الاستعمال فى نحوه (ثم قال) واذا كان كذلك فقد قدم الخبر وهو معرفة وهو ينوى به التأخير من حيث كان خبراً (قال) فهو كبيت الحماسة •

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الاباعد

فقدم خبر المبتدا وهو معرفة وانما دل على انه ينوي التأخير المعنى ولولا ذلك لكانت المعرفة اذا قدمت هي المبتدا لتقدمها فافهم ذلك : هذا كله لفظه

واعلم أن الفائدة تعظم فى هذا الضرب من الكلام اذا أنت أحسنت النظر فيما ذكرت لك من أنك تستطيع أن تنقل الكلام في معناه عن صورة الى صورة من غير ان تغير من لفظه شيئاً أو تحول كلمة عن مكانها الى مكان آخر وهو الذي وسع مجال التأويل والتفسير حتى صاروا يتأولون فى الكلام الواحد تأويلين أو أكثر ويفسرون البيت الواحد عدة تفاسير وهو على ذلك الطريق المزلة الذي ورط كثيراً من الناس فى الهلكة وهو مما يعلم به العاقل شدة الحاجة الى هذا العلم وينكشف معه عوار الجاهل به ويفتضح عنده المظهر الغنى عنه • ذاك لانه قد يدفع الى الشيء لا يصح الا بتقدير غير مايريه الظاهر ثم لا يكون له سبيل الى معرفة ذلك التقدير اذا كان جاهلا بهذا العلم فيتسكع عند ذلك فى العمي ويقع فى الضلال • مثال ذلك أن من نظر الى قوله تعالى

(قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ماتدعوا فله الاسماء الحسني) ثم لم يعلم ان ليس المعنى فى (ادعوا) الدعاء ولكن الذكر بالاسم كقولك : هو يدعي زيداً ويدعى الامير : وان فى الكلام محذوفا وان التقدير : قل ادعوه الله أو ادعوه الرحمن أيا ماتدعوا فله الاسماء الحسني : كان بعرض ان يقع فى الشرك من حيث انه ان جرى فى خاطره ان الكلام على ظاهره خرج ذلك به والعياذ بالله تعالى الى اثبات مدعوين تعالى الله عن ان يكون له شريك وذلك من حيث كان محالا ان تعمد الى اسمين كلاهما اسم شئ واحد فتعطف أحدهما على الآخر فتقول مثلا : ادع لى زيداً أو الامير : ـ والامير هو زيد ـ وكذلك محال ان تقول (أياماتدعو) وليس هناك الامدعو واحد لان من شأن (أى) ان تكون أبداً واحداً من اثنين أو جماعة ومن ثم لم يكن له بد من الاضافة اما لفظاً واما تقديراً

وهناك باب واسع ومن المشكل فيه قراءة من قرأ (وقالت اليهود عزير ابن الله) بغير تنوين وذلك انهم قد حملوها على وجهين أحدهما ان يكون القارئ له أراد التنوين ثم حذفه لالتقاء الساكنين ولم يحركه كقراءة من قرأ (قل هو الله أحد الله الصمد) بترك التنوين من (أحد) وكما حكى عن عمارة بن عقيل انه قرأ (ولا الليل سابق النهار) بالنصب فقيل له • ماتريد • فقال • أريد سابق النهار • قيل • فهلا قلته • فقال • فلو قلته لكان أوزن • وكما جاء فى الشعر من قوله •

فألفيته غير مستعتب ولا ذاكر الله الا قليلا

الى نظائر ذلك فيكون المعنى فى هذه القراءة مثله فى القراءة الاخرى

سواء • والوجه الثانى أن يكون الابن صفة ويكون التنوين قد سقط على حد سقوطه فى قولنا : جاءني زيد بن عمرو : ويكون فى الكلام محذوف • ثم اختلفوا في المحذوف فمنهم من جعله مبتدأ فقدر (وقالت اليهود هو عزير ابن الله) ومنهم من جعله خبراً فقدر (وقالت اليهود عزير ابن الله معبودنا) وفى هـذا أمر عظيم وذلك انك اذا حكيت عن قائل كلاما انت تريد أن تكذبه فيه فان التكذيب ينصرف الى ما كان فيه خبراً دون ما كان صفة • تفسير هذا انك اذا حكيت عن انسان انه قال : زيد بن عمرو سيد : ثم كذبته فيه لم تكن قد أنكرت بذلك أن يكون زيد بن عمرو ولكن ان يكون سيدا • وكذلك اذا قال زيد الفقيه قد قدم : فقلت له : كذبت أو غلطت : لم تكن قد أنكرت أن يكون زيد فقيها ولكن أن يكون قد قدم • هذا مالاشبهة فيه وذلك انك إذا كذبت قائلا فى كلام أو صدقته فانما ينصرف التكذيب منك والتصديق الى إثباته ونفيه والاثبات والنفي يتناولان الخبر دون الصفة يدلك على ذلك انك تجد الصفة ثابتة فى حال النفى كثبوتها في حال الاثبات فاذا قلت : ما جاءنى زيد الظريف : كان الظرف ثابتاً لزيد كثبوته اذا قلت • جاءنى زيد الظريف • وذلك أن ليس ثبوت الصفة للذى هي صفة له بالمتكلم وباثباته لها فتنتفي بنفيه وانما ثبوتها بنفسها وبتقرر الوجود فيها عند المخاطب مثله عند المتكلم لانه اذا وقعت الحاجة فى العلم الى الصفة كان الاحتياج اليها من أجل خيفة اللبس على المخاطب تفسير ذلك انك اذا قلت جاءنى زيد الظريف فانك انما تحتاج الى أن تصفه بالظريف اذا كان فيمن يجيء اليك واحداً آخر يسمى زيداً فأنت تخشى ان قلت • جاءني زيد • ولم تقل الظريف أن يلبس على المخاطب فلا

يدرى أهذا عنيت أم ذاك • واذا كان الغرض من ذكر الصفة إزالة اللبس والتبيين كان محالا أن تكون غير معلومة عند المخاطب وغير ثابتة لانه يؤدي الى أن تروم تبيين الشيء للمخاطب بوصف هو لا يعلمه في ذلك الشيء وذلك ما لا غاية وراءه فى الفساد • واذا كان الامر كذلك كان جعل الابن صفة فى الآية مؤديا الي الامر العظيم وهو اخراجه عن موضع النفي والانكار • الي موضع الثبوت والاستقرار • جل الله وتعالى عن شبه المخلوقين وعن جميع ما يقول الظالمون علواً كبيرا

فان قيل ان هذه قراءة معروفة والقول بجواز الوصفية في الابن كذلك معروف ومدون في الكتب وذلك يقتضي أن يكونوا قد عرفوا في الآية تأويلا يدخل به الابن في الانكار مع تقرير الوصفية فيه • قيل ان القراءة كما ذكرت معروفة والقول بجواز أن يكون الابن صفة مثبت مسطور فى الكتب كما قلت ولكن الاصل الذى قدمناه من أن الانكار إذا لحق لحق الخبر دون الصفة ليس بالشيء الذى يعترض فيه شك أو تتسلط عليه شبهة فليس يتجه أن يكون الابن صفة ثم يلحقه الانكار مع ذلك الا على تأويل غامض وهو أن يقال • ان الغرض الدلالة على أن اليهود قد كان بلغ من جهلهم ورسوخهم فى هذا الشرك انهم كانوا يذكرون عزيزاً هذا الذكر • كما تقول في قوم تريد أن تصفهم بأنهم قد استهلكوا فى أمر صاحبهم وغلوا فى تعظيمه • انى أراهم قد اعتقدوا أمراً عظيما فهم يقولون أبداً زيد الامير • تريد انه كذلك يكون ذكرهم اذا ذكروه الا انه إنما يستقيم هذا التأويل فيه اذا أنت لم تقدر له خبرا معينا ولكن تريد انهم كانوا لا يخبرون عنه بخبر الا كان ذكرهم له هكذا

ومما هو من هذا الذي نحن فيه قوله تعالى (ولا تقولوا ثلاثة انتهوا

خيراً لكم) وذلك انهم قدذهبوا في رفع ثلاثة الى انها خبر مبتدا محذوف وقالوا : ان التقدير (ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة) وليس ذلك بمستقيم وذلك انا اذا قلنا : ولا تقولوا ان آلهتناثلاثة : كان ذلك والعياذ بالله شبه الاثبات ان هاهنا آلهة من حيث انك اذا نفيت فانما تنفي المعنى المستفاد من الخبر عن المبتدا ولا تنفي معنى المبتدا • فاذا قلت : ما زيد منطلقاً : كنت نفيت الانطلاق الذي هو معنى الخبر عن زيد ولم تنف معنى زيد ولم توجب عدمه • واذا كان ذلك كذلك فاذا قلنا (ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة) كنا قد نفينا أن تكون عدة الآلهة ثلاثة ولم ننف أن تكون آلهة جل الله تعالى عن الشريك والنظير كما انك اذا قلت: ليس أمراؤنا ثلاثة • كنت قد نفيت ان تكون عدة الامراء ثلاثة ولم تنف أن يكون لكم أمراء هذا ما لا شبهة فيه • واذا أدي هذا التقدير الى هذا الفساد وجب أن يعدل عنه الى غيره والوجه ـ والله أعلم ـ ان تكون (ثلاثة) صفة مبتدا لا خبر مبتدا ويكون التقدير (ولا تقولوا لنا آلهة ثلاثة أو فى الوجود آلهة ثلاثة) ثم حذف الخبر الذى هو لنا أو فى الوجود كما حذف من (لا إله إلا الله) و (ما من إله إلا الله) فبقي ولا تقولوا آلهة ثلاثة ثم حذف الموصوف الذى هو آلهة فبقى (ولا تقولوا ثلاثة) وليس فى حذف ما قدرنا حذفه ما يتوقف في صحته • أما حذف الخبر الذي قلنا انه (لنا) أو (في الوجود) فمطرد في كل ما معناه التوحيد ونفى أن يكون مع الله ـ تعالى عن ذلك ـ إله

وأما حذف الموصوف بالعدد فكذلك شائع وذلك انه كما يسوغ أن تقول • عندي ثلاثة • وأنت تريد ثلاثة أثواب ثم تحذف لعلمك ان السامع يعلم ما تريد كذلك يسوغ ان تقول عند ثلاثة وأنت (ثلاثة أثواب) لانه لا فصل

بين أن تجعل المقصود بالعدد مميزا وبين أن تجعله موصوفا بالعدد فى انه يحسن حذفه اذا علم المراد • ويبين ذلك انك ترى المقصود بالعدد قد ترك ذكره ثم لا تستطيع ان تقدره الا موصوفا وذلك في قولك • عندي اثنان وعندى واحد • يكون المحذوف ههنا موصوفا لا محالة نحو • عندى رجلان اثنان وعندى درهم واحد • ولا يكون مميزاً البتة من حيث كانوا قد رفضوا إضافة الواحد والاثنين الي الجنس فتركوا ان يقولوا واحد رجال واثنان رجال • على حد (ثلاثة رجال) ولذلك كان قول الشاعر * ظرف عجوز فيه ثنتا حنظل *

شاذ هذا ولا يمتنع أن تجعل المحذوف من الآية فى موضع التمييز دون موضع الموصوف فتجعل التقدير (ولا تقولوا ثلاثة آلهة) ثم يكون الحكم فى الخبر على ما مضي ويكون المعنى والله أعلم (ولا تقولوا لنا أو في الوجود ثلاثة آلهة)

فان قلت • فلم صار لا يلزم على هذا التقدير ما لزم على قول من قدر (ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة) ؟ فذاك لأنا إذا جعلنا التقدير • ولا تقولوا لنا أو في الوجود آلهة ثلاثة أو ثلاثة آلهة • كنا قد نفينا الوجود عن الآلهة كما نفيناه في (لا إله إلا الله ـ وما من إله إلا الله) واذا زعموا ان التقدير (ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة) كانوا قد نفوا أن تكون عدة الآلهة ثلاثة ولم ينفوا وجود الآلهة • فان قيل • فانه يلزم على تقديرك الفساد من وجه آخر وذاك انه يجوز اذا قلت (ليس لنا أمراء ثلاثة) ان يكون المعني ليس لنا امراء ثلاثة ولكن لنا أميران اثنان واذا كان كذلك كان تقديرك وتقديرهم جميعا خطأ • قيل ان ههنا أمرا قد أغفلته وهو ان قولهم • آلهتنا • يوجب ثبوت آلهة جل الله وتعالي عما

يقول الظالمون علواً كبيرا • وقولنا ليس لنا آلهة ثلاثة لا يوجب ثبوت اثنين البتة فان قلت ان كان لا يوجبه فانه لا ينفيه قيل ينفيه ما بعده من قول تعالي (انما الله إله واحد) فان قيل فانه كما ينفي الالهين كذلك ينفى الآلهة واذا كان كذلك وجب أن يكون تقديرهم صحيحاً كتقديرك قيل هو كما قلت ينفى الآلهة ولكنهم اذا زعموا أن التقدير (ولا تقولوا ان آلهتنا ثلاثة) وكان ذلك والعياذ بالله من الشرك يقتضى اثبات آلهة كانوا قد دفعوا هذا النفي وخالفوه وأخرجوه الي المناقضة .فاذا كان كذلك كان محالا أن يكون للصحة سبيل الي ما قالوه وليس كذلك الحال فيما قدرناه لأنا لم نقدر شيئاً يقتضي إثبات إلهين – تعالي الله – حتي يكون حالنا حال من يدفع ما يوجبه هذا الكلام من نفيهما . يبين لك ذلك انه يصح لنا أن نتبع ما قدرناه نفى الاثنين ولا يصح لهم . تفسير ذلك انه يصح أن تقول ولا تقولوا لنا آلهة ثلاثة ولا إلهان لأن ذلك يجرى مجري أن تقول ليس لنا آلهة ثلاثة ولا إلهان وهذا صحيح . ولا يصح لهم أن يقولوا • ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة ولا إلهان لأن ذلك يجرى مجرى أن يقولوا . ولا تقولوا آلهتنا إلهان ! وذلك فاسد فاعرفه واحسن تأمله

ثم ان ههنا طريقاً آخر وهو ان تقدر : ولا تقولوا الله والمسيح وأمه ثلاثة : أي نعبدهما كما نعبد الله • يبين ذلك قوله تعالى (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة) وقد استقر فى العرف أنهم اذا أرادوا إلحاق اثنين بواحد فى وصف من الاوصاف وان يجعلوهما شبيهين له قالوا : هم ثلاثة : كما يقولون اذا أرادوا الحاق واحد بآخر وجعله في معناه هما اثنان • وعلى هذا السبيل كأنهم يقولون • هم يعدون

معداً واحداً ويوجب لهم التساوي والتشارك في الصفة والرتبة وما شاكل ذلك

واعلم انه لامعنى لان يقال • ان القول حكاية وانه اذا كان حكاية لم يلزم منه اثبات الآلهة لانه يجرى مجرى أن تقول (ان من دين الكفار ان يقولوا الآلهة ثلاثة) وذلك لان الخطاب في الآية للنصارى أنفسهم ألا ترى الى قوله تعالى (قل ياأهل الكتاب لاتغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسي ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم) واذا كان الخطاب للنصارى كان تقدير الحكاية محالا (فلا تقولوا) اذن في معنى : لاتعتقدوا: واذا كان في معنى الاعتقاد لزم اذا قدر (ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة) ماقلناانه يلزم من اثبات الآلهة وذلك لان الاعتقاد يتعلق بالخبر لابالمخبر عنه • فاذا قلت : لاتعتقدان الامراء ثلاثة • كنت نهيته عن أن يعتقد كون الامراء على هذه العدة لاعن أن يعتقد ان ههنا أمراء • هذا مالا يشك فيه عاقل وانما يكون النهى عن ذلك اذا قلت : لاتعتقد ان ههنا أمراء لانك حينئذ تصير كانك قلت : لاتعتقد وجود أمراء : هذا ولو كان الخطاب مع المؤمنين لكان تقدير الحكاية لايصح أيضاً • ذاك لانه لايجوز أن يقال : ان المؤمنين نهوا عن ان يحكوا عن النصارى مقالتهم ويخبروا عنهم بأنهم يقولون كيت وكيت • كيف وقد قال الله تعالى (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصاري المسيح ابن الله) ومن أين يصح النهى عن حكاية قول المبطل وفي ترك حكايته تركله وكفره وامتناع من النعى عليه والانكار لقوله والاحتجاج عليه واقامة الدليل على بطلانه لانه لاسبيل الى شيء

من ذلك الا من بعد حكاية القول والافصاح به فاعرفه

بسم الله الرحمن الرحيم

قد أردنا ان نستأنف تقريرا نزيد به الناس تبصيرا أنهم فى عمياء من أمرهم حتى يسلكوا المسلك الذى سلكناه • ويفرغوا خواطرهم لتأمل مااستخرجناه • وانهم مالم يأخذوا أنفسهم بذلك ولم يجردوا عناياتهم له فى غرور كمن يعد نفسه الرى من السراب اللامع • ويخادعها باكاذيب المطامع • يقال لهم انكم تتلون قول الله تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله) وقوله عز وجل (قل فأتوا بعشر سور مثله) وقوله (بسورة من مثله) فقولوا الآن أيجوز أن يكون تعالى قد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يتحدي العرب الى ان يعارضوا القرآن بمثله من غير ان يكونوا قد عرفوا الوصف الذي اذا أتوا بكلام على ذلك الوصف كانوا قد أتوا بمثله . ولا بد من (لا) لانهم ان قالوا : يجوز: أبطلوا التحدى من حيث ان التحدى كما لايخفى مطالبة بان يأتوا بكلام على وصف ولا تصح المطالبة بالاتيان به على وصف من غيران يكون ذلك الوصف معلوما للمطالب ويبطل بذلك دعوى الاعجاز أيضاً وذلك لانه لايتصور أن يقال : انه كان عجز حتي يثبت معجوز عنه معلوم فلا يقوم فى عقل عاقل أن يقول لخصم له • قد أعجزك ان تفعل مثل فعلى :وهو لايشير له الى وصف يعلمه فى فعله ويراه قد وقع عليه • أفلا ترى أنه لو قال رجل لآخر : انى قد أحدثت فى خاتم عملته صنعة أنت لاتستطيع مثلها : لم تتجه عليه حجة ولم يثبت به أنه قد أتى بما يعجزه الا من

بعد ان يريه الخاتم ويشير له الى مازعم انه أبدعه فيه من الصنعة لانه لايصح وصف الانسان بأنه قد عجز عن شئ حتى يريد ذلك الشئ ويقصد اليه ثم لايتأتى له • وليس يتصور ان يقصد الى شئ لايعلمه وان تكون منه ارادة لامر لم يعلمه في جملة ولا تفصيل

ثم ان هذا الوصف ينبغي أن يكون وصفاً قد تجدد بالقرآن وأمرا لم يوجد فى غيره ولم يعرف قبل نزوله • واذا كان كذلك فقد وجب ان يعلم انه لايجوز أن يكون فى الكلم المفردة لان تقدير كونه فيها يؤدي الى المحال وهو ان تكون الالفاظ المفردة التى هي أوضاع اللغة قد حدث في حذاقة حروفها وأصدائها أوصاف لم تكن لتكون تلك الاوصاف فيها قبل نزول القرآن وتكون قد اختصت في أنفسها بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها اذا كانت متلوة في القرآن لايجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن ولا يجوز ان تكون في معاني الكلم المفردة التى هى لها بوضع اللغة لانه يؤدى الي أن يكون قد تجدد في معنى الحمد والرب ومعني العالمين والملك واليوم والدين وهكذا وصف لم يكن قبل نزول القرآن • وهذا مالو كان ههنا شئ أبعد من المحال وأشنع لكان إياه • ولا يجوز أن يكون هذا الوصف في ترتيب الحركات والسكنات حتى كانهم تحدوا الى ان يأتوا بكلام تكون كلماته على توالبها في زنة كلمات القرآن وحتي كأن الذى بان به القرآن من الوصف في سبيل بينونة بحور الشعر بعضها من بعض لانه يخرج الي ماتعاطاه مسيلمة من الحماقة في • انا أعطيناك الجماهر • فصل لربك وجاهر • ـ والطاحنات طحناً

وكذلك الحكم ان زعم زاعم ان الوصف الذى تحدوا اليه هو ان

يأتوا بكلام يجعلون له مقاطع وفواصل كالذي تراه في القرآن لانه أيضاً ليس باكثر من التعويل على مراعاة وزن وانما الفواصل فى الآى كالقوافى فى الشعر وقد علمنا اقتدارهم على القوافى كيف اهو فلو لم يكن التحدي الا الى فصول من الكلام يكون لها أواخر أشباه القوافي لم يعوزهم ذلك ولم يتعذر عليهم وقد خيل الى بعضهم — ان كانت الحكاية صحيحة — شيء من هذا حتى وضع على مازعموا فصول الكلام أواخرها كأواخر الآى مثل يعلمون ويؤمنون وأشباه ذلك ولا يجوز أن يكون الاعجاز بان لم يلتق في حروفه مثل ما يثقل على اللسان

وجملة الامر أنه لن يعرض هذا وشبهه من الظنون لمن يعرض له الا من سوء المعرفة بهـذا الشأن أو للخذلان أو لشهوة الاغراب فى القول ومن هذا الذى يرضى من نفسه ان يزعم ان البرهان الذى بان لهم ، والامر الذي بهرهم . والهيئة التي ملات صدورهم والروعة التى دخلت عليهم فازعجتهم • حتى قالوا ان له لحلاوة • وان عليه لطلاوة • وان أسفله لمغدق • وان أعلاه لمثمر • انما كان لشيء راعه من مواقع حركاته • ومن ترتيب بينها وبين سكناته • أم لفواصل فى آخر آياته • ومن أين تليق هذه الصفة وهذا التشبيه بذلك . أم ترى ان ابن مسعود حين قال فى صفة القرآن : لايتفه ولا يتشان : وقال اذا وقعت فى آل حم وقعت في روضات دمثات أتأنق فيهن • أى اتتبع محاسنهن • قال ذلك من أجل أوزان الكلمات • ومن أجل الفواصل فى أواخر الآيات • ام ترى انهم لذلك قالوا لا تفنى عجائبه • ولا يخلق على كثرة الرد • أم ترضا الجاحظ حين قال في كتاب النبوة • ولو ان رجلا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحـدة لتبين له في نظامها

ومخرجها من لفظها وطابعها انه عاجز عن مثلها ولو تحـدى بها أبلغ العرب لاظهر عجزه عنها لغاً ولفظا • فليس كلامه هـذا مما ذهبوا اليه فى شيء

وينبغي ان تكون موازنتهـم بين بعض الآى وبين ماقاله الناس فى معناها كموازنتهم بين (ولكم فى القصاص حياة) وبين : قتل البعض احياء للجميع : خطأ منهم لانا لانعلم لحـديث التحريك والتسكين وحديث الفاصلة مذهباً في هذه الموازنة ولا نعلمهم أرادوا غير مايريده الناس اذا وازنوا بين كلام وكلام في الفصاحة والبلاغة ودقـة النظم وزيادة الفائدة • ولولا ان الشيطان قد استحوذ على كثير من الناس في هذا الشأن وأنهم بترك النظر وإهمال التدبر وضعف النيـة وقصر الهمة قد طرقوا له حتى جعـل يلقى في نفوسهم كل محال وكل باطل وجعلوا هم يعطون الذى يلقيه حظا من قبولهم • ويبوؤنه مكانا من قلوبهم • لما بلغ من قدر هذه الاقوال الفاسدة ان تدخل في تصنيف ويعاد ويبدأ في تبيين لوجه الفساد فيها وتعريف .

ثم ان هذه الشناعات التى تقدم ذكرها تلزم أصحاب الصرفة أيضاً وذاك انه لو لم يكن عجزهم عن معارضة القرآن وعن أن يأتوا بمثـله لانه معجز في نفسه . لكن لان أدخل عليهم العجز عنه • وصرفت هممهم وخواطرهم عن تأليف كلام مثله . وكان حالهم على الجملة حال من أعدم العـلم بشيء قد كان يعلمه . وحيل بينه وبين أمر قـد كان يتسـع له . لكان ينبغي أن لايتعاظمهـم ولا يكون منهـم مايدل على اكبارهم أمره ؟ وتعجبهم منه . وعلى انه قد بهرهم . وعظم كل العظم عندهم . والتعجب للذى دخل من العجز عليهم . ولما رأوه من تغير

حالهم ، ومن أن حيل بينهم وبين شيء قد كان عليهم سهلا ، وأن سد دونه باب كان لهم مفتوحا . أرأيت لو أن نبيا قال لقومه ان آيتى أن أضع يدي على رأسى هذه الساعة وتمنعون كلكم من ان تستطيعوا وضع أيديكم على رؤسكم وكان الامر كما قال . مم يكون تعجب القوم أمن وضعه يده على رأسه أم من عجزهم أن يضعوا أيديهم على رؤسهم .

ونعود الى النسق فنقول . فاذا بطل أن يكون الوصف الذى أعجزهم من القرآن في شيء مما عددناه لم يبق الا ان يكون الاستعارة ولا يمكن ان تجعل الاستعارة الاصل في الاعجاز وان يقصد اليها لان ذلك يؤدى الى ان يكون الاعجاز في آى معدودة في مواضع من السور الطوال مخصوصة واذا امتنع ذلك فيها لم يبق الا أن يكون فى النظم والتأليف لانه ليس من بعد ما أبطلنا أن يكون فيه الا النظم . واذا ثبت انه في النظم والتأليف وكنا قد علمنا ان ليس النظم شيئاً غير توخي معانى النحو وأحكامه فيما بين الكلم وانا ان بقينا الدهر نجهد أفكارنا حتى نعلم للكلم المفردة سلكا ينظمها وجامعا يجمع شملها ويؤلفها ويجعل بعضها بسبب من بعض غير توخي معانى النحو وأحكامه فيها ــ طلبنا ما كل محال دونه . فقد بان وظهر ان المتعاطى القول فى النظم والزاعم أنه يحاول بيان المزية فيه وهو لايعرض فيما يعيده ويبديه للقوانين والاصول التى قدمنا ذكرها ولا يسلك اليه المسالك التي نهجناها في عمياء من أمره وفى غرور من نفسه وفي خداع من الامانى والاضاليل . ذاك لانه اذا كان لايكون النظم شيئاً غير توخي معانى النحو وأحكامه فيما بين الكلم كان من أعجب العجب ان

يزعم زاعم انه يطلب المزية في النظم ثم لايطلبها فى معانى النحو وأحكامه التى النظم عبارة عن توخيها فيما بين الكلم

فان قيل . قولك الا النظم يقتضي اخراج مافى القرآن من الاستعارة وضروب المجاز من جملة ماهو به معجز وذلك مالا مساغ له . قيل ليس الامر كما ظننت بل ذلك يقتضى دخول الاستعارة ونظائرها فيما هو به معجز وذلك لان هذه المعانى التى هى الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون لانه لايتصور ان يدخل شيء منها فى الكلم وهي افراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو فلا يتصور ان يكون ههنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون ان يكون قد ألف مع غيره أفلا ترى انه ان قدر فى اشتعل من قوله تعالى (واشتعل الرأس شيباً) ان لايكون الرأس فاعلا له ويكون شيباً منصوبا عنه على التمييز لم يتصور ان يكون مستعاراً . وهكذا السبيل فى نظائر الاستعارة فاعرف ذلك

واعلم ان السبب فى ان لم يقع النظر منهم موقعه انهم حين قالوا نطلب المزية ظنوا ان موضعها اللفظ بناء على ان النظم نظم الالفاظ وانه يلحقها دون المعانى وحين ظنوا أن موضعها ذلك واعتقدوه وقفوا على اللفظ وجعلوا لايرمون بأوهامهم الى شيء سواه . الى انهم على ذاك لم يستطيعوا ان ينطقوا فى تصحيح هذا الذى ظنوه بحرف بل لم يتكلموا بشيء الا كان ذلك نقضاً وابطالا لان يكون اللفظ من حيث هو لفظ موضعا للمزية والا رأيتهم قد اعترفوا من حيث لم يدروا بأن ليس للمزية التي طلبوها موضع ومكان تكون فيه الا معانى

النحو وأحكامه وذلك انهم قالوا • ان الفصاحة لاتظهر في افراد الكلمات وانما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة • فقولهم (بالضم) لايصح ان يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة من غير اتصال يكون بين معنيهما لانه لو جاز ان يكون لمجرد ضم اللفظ الى اللفظ تأثير فى الفصاحة لكان ينبغى اذا قيل (ضحك خرج) ان يحدث من ضم (خرج) الى (ضحك) فصاحة واذا بطل ذلك لم يبق الا أن يكون المعنى في ضم الكلمة الى الكلمة توخي معنى من معانى النحو فيما بينهما • وقولهم • على طريقة مخصوصة • يوجب ذلك أيضا وذلك انه لايكون للطريقة إذا أنت أردت مجرد اللفظ معنى وهذا سبيل كل ماقالوه اذا أنت تأملته تراهم في الجميع قد دفعوا الى جعل المزية فى معاني النحو وأحكامه من حيث لم يشعروا ذلك لانه أمر ضرورى لايمكن الخروج منه

ومما تجدهم يعتمدونه ويرجعون اليه قولهم • ان المعانى لاتتزايد وانما تتزايد الالفاظ • وهذا كلام اذا تأملته لم تجد له معنى يصح عليه غير ان تجعل تزايد الالفاظ عبارة عن المزايا التى تحدث من توخي معانى النحو وأحكامه فيما بين الكلم لان التزايد في الالفاظ من حيث هي ألفاظ ونطق لسان محال

ثم انا نعلم أن المزية المطلوبة فى هذا الباب مزية فيما طريقه الفكر والنظر من غير شبهة ومحال ان يكون اللفظ له صفة تستنبط بالفكر • ويستعان عليها بالروية • اللهم الا أن تريد تأليف النغم وليس ذلك مما نحن فيه بسبيل • ومن ههنا لم يجز اذا عد الوجوه التي تظهر بها المزية ان يعد فيها الاعراب وذلك ان العلم بالاعراب مشترك بين العرب

كلهم وليس هو مما يستنبط بالفكر ويستعان عليه بالروية فليس أحدهم بان أعراب الفاعل الرفع أو المفعول النصب والمضاف اليه الجر باعلم من غيره ولا ذاك المفعول به مما يحتاجون فيه الى حدة ذهن وقوة خاطر انما الذى تقع الحاجة فيه الى ذلك العلم بما يوجب الفاعلية للشئ اذا كان ايجابها من طريق المجاز كقوله تعالى (فما ربحت تجارتهم) وكقول الفرزدق * سقتها خروق فى المسامع * وأشباه ذلك مما يجعل الشئ فيه فاعلا على تأويل يدق • ومن طريق تلطف • وليس يكون هذا علما بالاعراب ولكن بالوصف الموجب للاعراب ومن ثم لايجوز لنا ان نعتد فى شأننا هذا بأن يكون المتكلم قد استعمل من اللغتين فى الشئ مايقال انه أفصحهما وبأن يكون قد تحفظ مما تخطئ فيه العامة ولا بأن يكون قد استعمل الغريب لان العلم بجميع ذلك لايعدو ان يكون علما باللغة وبانفس الكلم المفردة وبما طريقه طريق الحفظ دون مايستعان عليه بالنظر ويوصل اليه باعمال الفكر • ولئن كانت العامة وأشباه العامة لايكادون يعرفون الفصاحة غير ذلك فان من ضعف التحيزة إخطار مثله فى الفكر • واجراءه في الذكر • وأنت تزعم انك ناظر فى دلائل الاعجاز أترى ان العرب تحدوا ان يختاروا الفتح فى الميم من الشمع والهاء من النهر على الاسكان وان يتحفظوا من تخليط العامة فى مثل (هذا يسوى الفا) أو الى ان يأتوا بالغريب الوحشي فى الكلام يعارضون به القرآن • كيف وأنت تقرأ السورة من السور الطوال فلا تجد فيها من الغريب شيئا • وتأمل ماجمعه العلماء فى غريب القرآن فترى الغريب منه الا فى القليل انما كان غريبا من أجل استعارة هي فيه كمثل (وأشربوا فى قلوبهم العجل) ومثل (خاصوا

نجيا) ومثل (فاصدع بما تؤمر) دون ان تكون اللفظة غريبة فى نفسها انما تري ذلك فى كلمات معدودة كمثل «عجل لنا قطنا» و «ذات ألواح ودسر» و «جعل ربك تحتك سريا»

ثم انه لو كان أكثر ألفاظ القرآن غريبا لكان محالا ان يدخل ذلك فى الاعجاز وان يصح التحدى به • ذاك لانه لايخلو اذا وقع التحدى به من أن يتحدى من له علم بأمثاله من الغريب أو من لاعلم له بذلك فلو تحدي به من يعلم أمثاله لم يتعذر عليه ان يعارضه بمثله • ألا ترى انه لايتعذر عليك اذا أنت عرفت ماجاء من الغريب في معنى الطويل ان تعارض من تقول «الشوقب» بان تقول أنت «الشوذب» واذا قال «الامق» ان تقول «الاشق» وعلى هذا السبيل • ولو تحدي به من لاعلم له بامثال مافيه من الغريب كان ذلك بمنزلة ان يتحدى العرب الى ان يتكلموا بلسان الترك • هذا ـ وكيف بان يدخل الغريب فى باب الفضيلة وقد ثبت عنهم انهم كانوا يرون الفضيلة فى ترك استعماله وتجنبه • أفلا ترى الى قول عمر رضي الله عنه فى زهير . انه كان لايعاظل بين القول ولا يتتبع حوشي الكلام فقرن تتبع الحوشي وهو الغريب من غير شبهة الى المعاظلة التى هي التعقيد وقال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين . ورأيت الناس يتداولون رسالة يحيي بن يعمر عن لسان يزيد بن المهلب الى الحجاج (إنا لقينا العدو فقتلنا طائفة بعراعر الأودية وأهضام الغيطان وبتنا بعرعرة الجبل وبات العدو بحضيضه) فقال الحجاج . مايزيد بأبى عذر هذا الكلام . فحمل اليه فقال . أين ولدت . فقال بالأهواز . فقال . فأني لك هذه الفصاحة . قال . أخذتها عن أبى . قال ورأيتهم يديرون في كتبهم ان

امرأة خاصمت زوجها الى يحيى بن يعمر فانتهرها مراراً فقال له يحيي ان سألتك ثمن شكرها وشبرك أنشأت تطلها وتضهلها . ثم قال . وان كانوا قد رووا هذا الكلام لكي يدل على فصاحة وبلاغة فقد باعده الله من صفة البلاغة .

واعلم انك كلما نظرت وجدت سبب الفساد واحداً وهو ظنهم الذى ظنوه في اللفظ وجعلهم الأوصاف التى تجرى عليه كلها أوصافاً له في نفسه ومن حيث هو لفظ وتركهم أن يميزوا بين ما كان وصفاً له فى نفسه وبين ما كانوا قد أكسبوه إياه من أجل أمر عرض فى معناه ولما كان هذا دأبهم ثم رأوا الناس وأظهر شئ عندهم فى معنى الفصاحة تقويم الاعراب والتحفظ من اللحن لم يشكوا انه ينبغي ان يعتد به فى جملة المزايا التى يفاضل بها بين كلام وكلام في الفصاحة وذهب عنهم ان ليس هو من الفصاحة التى يعنينا أمرها في شئ وان كلامنا فى فصاحة تجب للفظ لا من أجل شيء يدخل في النطق . ولكن من أجل لطائف تدرك بالفهم . وانا نعتبر في شأننا هذا فضيلة تجب لأحد الكلامين على الآخر من بعد أن يكونا قد برئا من اللحن وسلما فى ألفاظهما من الخطأ . ومن العجب انا اذا نظرنا فى الاعراب وجدنا التفاضل فيه محالا لانه لايتصور أن يكون للرفع والنصب في كلام مزية عليهما فى كلام آخر وانما الذى يتصور أن يكون هاهنا كلامان قد وقع فى إعرابهما خلل ثم كان أحدهما أكثر صواباً من الآخر وكلامان قد استمر أحدهما على الصواب ولم يستمر الآخر ولا يكون هذا تفاضلا فى الاعراب ولكن تركا له فى شيء واستعمالا له فى آخر فاعرف ذلك .

وجملة الأمر انك لاترى ظناً هو أنأى بصاحبه عن ان يصح له

كلام . أو يستمر له نظام . أو تثبت له قدم . أو ينطق منه الا بالمحال
فم . من ظنهم هذا الذى حام بهم حول اللفظ وجعلهم لا يعدونه . ولا
يرون للمزية مكانا دونه .

واعلم انه قد يجرى فى العبارة منا شيء هو يعيد الشبهة جذعة
عليهم وهو انه يقع في كلامنا ان الفصاحة تكون فى المعنى دون اللفظ
فاذا سمعوا ذلك قالوا . كيف يكون هذا ونحن نراها لا تصلح صفة
الا للفظ ونراها لا تدخل في صفة المعنى البتة لانا نرى الناس قاطبة
يقولون . هذا لفظ فصيح وهذه ألفاظ فصيحة . ولا نرى عاقلا يقول
هذا معنى فصيح وهذه معان فصاح . ولو كانت الفصاحة تكون فى
المعنى لكان ينبغي أن يقال ذلك كما انه لما كان الحسن يقول فيه (هذا
معنى حسن وهذه معان حسنة) وهذا شيء يأخذ من الغر مأخذاً .
والجواب عنه أن يقال ان غرضنا من قولنا ان الفصاحة تكون فى المعنى
ان المزية التي من أجلها استحق اللفظ الوصف بأنه فصيح عائدة فى
الحقيقة الى معناه ولو قيل انها تكون فيه دون معناه لكان ينبغي اذا
قلنا فى اللفظة انها فصيحة ان تكون تلك الفصاحة واجبة لهـا بكل
حال . ومعلوم ان الأمر بخلاف ذلك فانا نرى اللفظة تكون فى غاية
الفصاحة في موضع ونراها بعينها فيما لا يحصي من المواضع وليس فيها
من الفصاحة قليل ولا كثير وانما كان كذلك لان المزية التي من أجلها
نصف اللفظ فى شأننا هـذا بأنه فصيح مزية تحدث من بعد أن
لا تكون وتظهر في الكلم من بعد أن يدخلها النظم وهـذا شيء ان
أنت طلبته فيها وقد جئت بها أفراداً لم ترم فيها نظماً ولم تحدث لهـا
تأليفاً طلبت محالا .

واذا كان كذلك وجب ان تعلم قطعاً وضرورة ان تلك المزية في
المعني دون اللفظ . وعبارة أخرى في هذا بعينه وهى ان يقال • قد
علمنا علماً لا تعترض معه شبهة ان الفصاحة فيما نحن فيـه عبارة عن
مزية هى بالمتكلم دون واضع اللغة . واذا كان كذلك فينبغي لنا أن
ننظر الى المتكلم هل يستطيع ان يزيد من عند نفسه في اللفظ شيئاً
ليس هو له في اللغة حتي يجعل ذلك من صنيعه مزية يعبر عنها بالفصاحة
واذا نظرنا وجدناه لا يستطيع ان يصـنع باللفظ شيئا أصلا ولا ان
يحدث فيه وصفا . كيف وهو ان فعل ذلك أفسـد على نفسه وأبطل
ان يكون متكلما لانه لا يكون متكلما حتى يستعمل اوضاع لغة على
ماوضعت هي عليه . واذا ثبت من حاله انه لا يستطيع ان يصنع بالالفاظ
شيئا ليس هو لها في اللغة وكنا قد اجتمعنا على ان الفصاحة فيما نحن
فيه عبارة عن مزية هى بالمتكلم البتة وجب ان نعلم قطعا وضرورة انهم
وان كانوا قد جعلوا الفصاحة في ظاهر الاستعمال من صفة اللفظ فانهم
لم يجعلوها وصفا له فى نفسه ومن حيث هو صدى صوت ونطق لسان
ولكنهم جعلوها عبارة عن مزية افادها المتكلم ولما لم تزد افادته فى اللفظ
شيئا لم يبق الا ان تكون عبارة عن مزية فى المعنى

وجملة الأمر انا لا نوجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من
الكلام الذي هى فيه ولكنا نوجبها لها موصولة بغيرها ومعلقا معناها
بمعنى ما يليها فاذا قلنا فى لفظة اشتعل من قوله تعالى (واشتعل الراس
شيبا) انها فى اعلى المرتبة من الفصاحة لم توجب تلك الفصاحة لهـا
وحدها ولكن موصولا بها الراس معرفا بالالف واللام ومقرونا اليهما
الشيب منكرا منصوبا .

هـذا وانمـا يقع ذلك فى الوهم لمن يقع له أعني ان توجب
الفصاحة للفظة وحدها فيما كان استعارة فأما ما خلا من الاستعارة
من الكلام الفصيح البليغ فلا يعـرض توهم ذلك فيه لعاقل أصلا
أفلا ترى انه لا يقع فى نفس من يعقل أدنى شيء اذا هو نظر الى
قوله عز وجل « يحسبون كل صيحة عليهم هم العـدو فاحذرهم »
والى إكبار الناس شأن هـذه الآية في الفصاحة أن يضع يده على كلمة
كلمة منها فيقول انها فصيحة ؟ كيف وسبب الفصاحة فيها أمور لا يشك
عاقل في انها معنوية (أولها) ان كانت « على » فيها متعلقة بمحذوف
في موضع المفعول الثانى • (والثانى) ان كانت الجملة التي هي « هم العدو »
بعدها عارية من حرف عطف (والثالث) التعريف فى العدو وان لم
يقل : هم عدو : ولو انك علقت على بظاهر وأدخلت على الجملة التى
هي « هم العدو » حرف عطف وأسقطت الالف واللام من العدو
فقلت : يحسبون كل صيحة واقعة عليهم وهم عدو : لرأيت الفصاحة قد
ذهبت عنها بأسرها • ولو أنك أخطرت ببالك أن يكون عليهم متعلقاً
بنفس الصيحة ويكون حاله معها كحاله اذا قلت : صحت عليه •
لأخرجته عن أن يكون كلاما فضلا عن أن يكون فصيحاً وهذا هو
التفصيل لمن عقل •

ومن العجيب في هذا ما روي عن أمير المؤمنين عليّ رضوان الله
عليه انه قال : ما سمعت كلمة عربية من العرب إلا وسمعتها من رسول الله
صلى الله عليه وسلم وسمعته يقول (مات حتف أنفه) وما سمعتها من
عربي قبله : لا شبهة فى أن وصف اللفظ بالعربي فى مثل هذا يكون
فى معنى الوصف بأنه فصيح • واذا كان الامر كذلك فانظر هل يقع

فى وهم متوهم أن يكون رضى الله عنه قد جعلها عربية من أجل
ألفاظها ؟ واذا نظرت لم تشك فى ذلك

واعلم انك تجد هؤلاء الذين يشكون فيما قلناه تجرى على ألسنتهم
ألفاظ وعبارات لا يصح لها معنى سوى توخى معاني النحو وأحكامه فيما
بين معاني الكلم ثم تراهم لا يعلمون ذلك • فمن ذلك ما يقوله النـاس
قاطبة من أن العاقل يرتب فى نفسه ما يريد أن يتكلم به • واذا رجعنا
الى أنفسنا لم نجد لذلك معنى سوي انه يقصد الى قولك ضرب فيجعله
خبراً عن زيد ويجعل الضرب الذي أخبر بوقوعه منه واقعاً على عمرو
ويجعل يوم الجمعة زمانه الذي وقع فيه ويجعل التأديب غرضه الذي فعل
الضرب من أجله فيقول • ضرب زيد عمرا يوم الجمعة تأديباً له • وهذا
كما ترى هو توخي معاني النحو فيما بين معاني هـذه الكلم ولو أنك
فرضت أن لا تتوخى فى ضرب أن تجعله خبراً عن زيد وفي عمرو أن
تجعله مفعولا به الضرب وفى يوم الجمعة أن تجعله زمانا لهذا الضرب وفى
التأديب أن تجعله غرض زيد من فعل الضرب ما تصور فى عقل ولا وقع
فى وهم أن تكون مرتباً لهذه الكلم • واذ قـد عرفت ذلك فهو
العبرة فى الكلام كله فما ظن ظناً يؤدى الى خلافه ظن ما يخرج
به عن المعقول

ومن ذلك إثباتهم التعلق والاتصال فيما بين الكلم وصواحبها تارة
ونفيهم لهما أخرى • ومعلوم علم الضرورة أن لن يتصور أن يكون
للفظ تعلق بلفظة اخري من غير أن تعتبر حال معني هذه مع معنى تلك
ويراعى هناك أمر يصل احداها بالأخري كمراعاة كون (نبك) جوابا
للامر في قوله • قفا نبك • وكيف بالشك فى ذلك ولو كانت الالفاظ

تتعلق بعضها ببعض من حيث هي ألفاظ ومع اطراح النظر فى معانيها
لأدي ذلك الى ان يكون الناس حين ضحكوا مما يصنعه المجان من قراء
أنصاف الكتب ضحكوا عن جهالة وأن يكون أبو تمام قد أخطأ
حين قال

عذلا شبيها بالجنون كأنما   قرأت به الورهاء شطر كتاب

لانهم لم يضحكوا الا من عدم التعلق ولم يجعله ابو تمام جنونا الا
لذلك فانظر الى ما يلزم هؤلاء القوم من طرائف الامور

﴿ فصل ﴾

وهذا فن من الاستدلال لطيف على بطلان أن تكون الفصاحة
صفة للفظ من حيث هو لفظ • لا تخلو الفصاحة من أن تكون صفة في
اللفظ محسوسة تدرك بالسمع أو تكون صفة فيه معقولة تعرف بالقلب
فمحال أن تكون صفة في اللفظ محسوسة لانها لو كانت كذلك لكان
ينبغي أن يستوى السامعون للفظ الفصيح فى العلم بكونه فصيحا • واذا
بطل ان تكون محسوسة وجب الحكم ضرورة بانها صفة معقولة • واذا
وجب الحكم بكونها صفة معقولة فانا لا نعرف للفظ صفة يكون طريق
معرفتها العقل دون الحس الا دلالته على معناه • واذا كان كذلك
لزم منه العلم بأن وصفنا اللفظ بالفصاحة وصف له من جهة معناه
لا من جهة نفسه • وهذا ما لا يبقى لعاقل معه عذر في الشك والله
الموفق للصواب

﴿ فصل ﴾

وبيان آخر وهو أن القارئ اذا قرأ قوله تعالى (واشتعل الرأس
شيبا) فانه لا يجد الفصاحة التي يجدها الا من بعد ان ينتهي الكلام الى
آخره فلو كانت الفصاحة صفة للفظ (اشتعل) لكان ينبغي أن يحسها
القارئ فيه حال نطقه به فمحال أن تكون للشيء صفة ثم لا يصح العلم
بتلك الصفة الا من بعد عدمه • ومن ذا رأى صفة يعري موصوفها
عنها فى حال وجوده حتى اذا عدم صارت موجودة فيه ؟ وهل سمع
السامعون في قديم الدهر وحديثه بصفة شرط حصولها لموصوفها أن
يعدم الموصوف • فان قالوا ان الفصاحة التي ادعيناها للفظ (اشتعل)
تكون فيه فى حال نطقنا به الا انا نعلم في تلك الحال انها فيه فاذا بلغنا
آخر الكلام علمنا حينئذ انها كانت فيه حين نطقنا به • قيل هذا فن
آخر من العجب وهو أن تكون ههنا صفة (موجودة) فى شيء ثم
لايكون فى الامكان ولا يسع فى الجواز أن نعلم وجود تلك الصفة فى
ذلك الشيء الا بعد ان يعدم ويكون العلم بها وبكونها فيه محجوبا عنا
حتى يعدم فاذا عدم علمنا حينئذ أنها كانت فيه حين كان
ثم انه لاشبهة في ان هذه الفصاحة التي يدعونها للفظ هى مدعاة
لمجموع الكلمة دون آحاد حروفها اذ ليس يبلغ بهم تهافت الرأى الى
ان يدعوا لكل واحد من حروف (اشتعل) فصاحة فيجعلوا الشين
على حدته فصيحاً وكذلك التاء والعين واللام واذا كانت الفصاحة
مدعاة لمجموع الكلمة لم يتصور حصولها لها الا من بعد أن تعدم كلها
وينقضى أمر النطق بها • ذلك لانه لايتصور أن تدخل الحروف

بجملتها فى النطق دفعة واحدة حتي تجعل الفصاحـــة موجودة فيها في حال وجودها وما بعد هذا الا أن نسأل الله تعالى العصمة والتوفيق فقد بلغ الامر في الشناعة الى حد اذا انتبه العاقل لف رأســه حياء من العقل حين يراه قد قال قولا هذا مؤداه. وسلك مسلكا الى هذا مفضاه • وما مثل من يزعم ان الفصاحة صفة للفظ من حيث هو لفظ ونطق لسان ثم يزعم أنه يدعيها لمجموع حروفه دون آحادها الا مثل من يزعم ان ههنا غزلا اذا نسج منه ثوب كان أحمر واذا فرق ونظر اليه خيطاً خيطاً لم تكن فيه حمرة أصلا

ومن طريف أمرهم انك ترى كافتهم لاينكرون ان اللفظ المستعار اذا كان فصيحاً كانت فصاحته تلك من أجل اســتعارته ومن أجل لطف وغرابة كانا فيها وتراهم مع ذلك لايشكون فى ان الاســتعارة لاتحدث فى حروف اللفظ صفة ولا تغير أجراسها عما تكون عليه اذا لم يكن مستعاراً وكان متروكا على حقيقته وأن التأثير من الاستعارة انما يكون فى المعنى • كيف وهم يعتقدون ان اللفظ اذا استعير لشيء نقل عن معناه الذى وضع له بالكلية واذا كان الامر كذلك فلولا اهمالهـم أنفسهم وتركهم النظر لقد كان يكون فى هذا مايوقظهم من غفلتهم ويكشف الغطاء عن أعينهم

ومما ينبغي أن يعلمه الانسان ويجعله على ذكر أنه لايتصور أن يتعلق الفكر بمعانى الكلم أفراداً ومجردة من معاني النحو فلا يقوم في وهم ولا يصح فى عقل أن يتفكر متفكر في معنى فعل من غير ان يريد إعماله في اسم ولا أن يتفكر في معني اسم من غير أن يريد اعمال فعل فيه وجعله فاعلا له أو مفعولا أو يريد منه حكما سوى ذلك من

الاحكام مثل أن يريد جعله مبتدأ أو خبراً أوصفة أو حالا أو ماشاكل ذلك • وان أردت أن ترى ذلك عيانا فاعمد الى أى كلام شئت وأزل أجزاءه عن مواضعها وضعها وضعاً يمتنع معه دخول شيء من معانى النحو فيها فقل فى * قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل * : من نبك قفا حبيب ذكري منزل • ثم انظر هـل يتعلق منك فكر بمعـنى كلمة منها •

واعلم أنى لست أقول ان الفكر لايتعلق بمعاني الكلم المفردة أصلا ولكني أقول انه لايتعلق بها مجـردة من معانى النحو ومنطوقا بها على وجه لايتأتى معه تقدير معانى النحو وتوخيها فيها كالذى أريتـك والا فانك اذا فكرت فى الفعلين أو الاسمين تريد ان تخبر باحدهما عن الشيء أيهما أولى ان تخبر عنه وأشـبه بغرضك مثـل ان تنظر أيهما أمدح وأذم وفكرت فى الشيئين تريد ان تشبه الشيء باحدهما أيهما أشبه به كنت قد فكرت فى معاني أنفس الكلم الا ان فكرك ذلك لم يكن الا من بعد ان توخيت فيها معني من معانى النحو وهو ان أردت جعل الاسم الذى فكرت فيه خبراً عن شيء أردت فيه مدحا أو ذما أو تشبيها أو غير ذلك من الاغراض ولم تجيء الي فعل أو اسم ففكرت فيه فرداً ومن غير أن كان لك قصد ان تجعله خبراً أو غير خبر فاعرف ذلك وان أردت مثالا فخذ بيت بشار

كأن مثار النقع فوق رؤسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وانظر هل يتصور أن يكون بشار قد أخطر معانى هـذه الكلم بباله أفراداً عارية من معاني النحو التى تراها فيها وأن يكون قد وقع (كأن) في نفسه من غير أن يكون قصد ايقاع التشبيه منه على شيء وأن

يكون فكر فى (مثار النقع) من غير أن يكون أراد اضافة الاول الي
الثاني وفكر فى (فوق رؤسنا) من غير ان يكون قد أراد أن يضيف
(فوق) الى الرؤس وفى الاسياف من دون أن يكون أراد عطفها بالواو
على (مثار) وفى الواو من دون ان يكون أراد العطف بها • وان
يكون كذلك فكر في (الليل) من دون ان يكون أراد ان يجعله خبراً
لكان وفى (تهاوى كواكبه) من دون ان يكون أراد ان يجعل تهاوى
فعلا للكواكب ثم يجعل الجملة صفة لليل ليتم الذى أراد من التشبيه
أم لم تخطر هذه الاشياء بباله الا مرادا فيها هذه الاحكام والمعاني التى
تراها فيها • وليت شعرى كيف يتصور وقوع قصد منك الى معنى
كلمة من دون ان تريد تعليقها بمعنى كلمة أخرى ومعنى القصد الى معاني
الكلم أن تعلم السامع بها شيئاً لا يعلمه ومعلوم انك أيها المتكلم لست
تقصد أن تعلم السامع معانى الكلم المفردة التى تكلمه بها فلا تقول •
خرج زيد : لتعلمه معني خرج في اللغة ومعنى زيد كيف ومحال أن
تكلمه بالفاظ لا يعرف هو معانيها كما تعرف • ولهذا لم يكن الفعل وحده
من دون الاسم ولا الاسم وحده من دون اسم آخر أو فعل كلاما
• وكنت لو قلت (خرج) ولم تأت باسم ولا قدرت فيه ضمير الشيء
أو قلت : زيد : ولم تأت بفعل ولا اسم آخر ولم تضمره فى نفسك كان
ذلك وصوتا تصوته سواء فاعرفه

واعلم ان مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعا من الذهب أو
الفضة فيذيب بعضها فى بعض حتى تصير قطعة واحدة • وذلك أنك
اذا قلت • ضرب زيد عمرا يوم الجمعة ضربا شديدا تأديبا له • فانك
تحصل من مجموع هذه الكلم كلها على مفهوم هو معنى واحد لا عدة

معان كما يتوهمه الناس وذلك لانك لم تأت بهذه الكلم لتفيده أنفس
معانيها وانما جئت بها لتفيده وجوه التعلق التى بين الفعل الذى هو
ضرب وبين ما عمل فيه والاحكام التى هي محصول التعلق • واذا كان
الامر كذلك فينبغي لنا ان ننظر في المفعولية من عمرو وكون يوم
الجمعة زمانا للضرب وكون الضرب ضربا شديدا وكون التأديب علة
للضرب أن يتصور فيها أن تفرد عن المعني الاول الذى هو أصل
الفائدة وهو اسناد ضرب الى زيد واثبات الضرب به له حتي يعقل كون
عمرو مفعولا به وكون يوم الجمعة مفعولا فيه وكون ضربا شديدا
مصدرا وكون التأديب مفعولا له من غير ان يخطر ببالك كون زيد
فاعلا للضرب • واذا نظرنا وجدنا ذلك لا يتصور لان عمرا مفعول
لضرب وقع من زيد عليه ويوم الجمعة زمان لضرب وقع من زيد وضربا
شديدا بيان لذلك الضرب كيف هو وما صفته والتأديب علة له وبيان
انه كان الغرض منه • واذا كان ذلك كذلك بان منه وثبت ان المفهوم
من مجموع الكلم معنى واحد لا عدة معان وهو اثباتك زيدا فاعلا ضربا
لعمرو فى وقت كذا وعلى صفة كذا ولغرض كذا ولهذا المعني تقول
انه كلام واحد •

واذ قد عرفت هذا فهو العبرة أبدا فبيت بشار اذا تأملته وجدته
كالحلقة المفرغة التى لا تقبل التقسيم ورأيته قد صنع في الكلم التي فيه
ما يصنعه الصانع حين يأخذ كسراً من الذهب فيذيبها ثم يصبها فى
قالب ويخرجها لك سواراً أو خلخالا • وان أنت حاولت قطع بعض
ألفاظ البيت عن بعض كنت كمن يكسر الحلقة ويفصم السوار وذلك
انه لم يرد ان يشبه النقع بالليل على حدة والاسياف بالكواكب على

حدة ولكنه أراد ان يشبه النقع والاسياف تجول فيه بالليـل فى حال
ماتنكدر الكواكب وتهاوي فيه فالمفهوم من الجميع مفهوم واحـد
والبيت من أوله الى آخره كلام واحد • فانظر الآن ماتقول فى اتحاد
هـذه الكلم التي هي أجزاء البيت أتقول ان ألفاظها اتحدت فصارت
لفظة واحدة أم تقول ان معانيها اتحدت فصارت الالفاظ من أجـل
ذلك كانها لفظة واحدة ؟ فان كنت لاتشك ان الاتحاد الذي تراه هو
في المعانى اذ كان من فساد العقل ومن الذهاب فى الخيل ان يتوهـم
متوهم ان الالفاظ يندمج بعضها فى بعض حتى تصير لفظة واحدة فقد
أراك ذلك — ان لم تكابر عقلك — أن النظم يكون فى معانى الكلم دون
ألفاظها وان نظمها هو توخي معانى النحو فيها ، وذلك انه اذا ثبت
الاتحاد وثبت انه فى المعانى فينبغي ان تنظر الى الذي به اتحدت المعانى
فى بيت بشار واذا نظرنا لم نجدها اتحدت لابأن جعل مثار النقع اسم
كأن وجعل الظرف الذى هو (فوق رؤسنا) معمولا لمثار ومعلقاً به
وأشرك الاسياف في كأن بعطفه لها على مثار ثم بان قال : ليل تهاوى
كواكبه : فأتى بالليل نكرة وجعل جملة قوله : تهاوى كواكبه : له
صفة ثم جعل مجموع :ليل تهاوى كواكبه: خبرا لكأن ، فانظر هل ترى
شيئاً كان الاتحاد به غير ما عددناه ، وهل تعرف له موجباً سواه ، ؟
فلولا الاخلاد الى الهوينا وترك النظر وغطاء ألقي على عيون أقوام
لكان ينبغي أن يكون في هذا وحده الكفاية وما فوق الكفاية ونسأل
الله تعالى التوفيق

واعلم ان الذى هو آفة هؤلاء الذين لهجوا بالاباطيـل في أمر
اللفظ انهم قوم قد أسلموا أنفسهم الى التخييل ، وألقوا مقادتهـم الى

الاوهام . حتى عدلت بهم عن الصواب كل معدل . ودخلت بهم من
فحش الغلط في كل مدخل . وتعسفت بهم في كل مجهل • وجعلتهم
يرتكبون في نصرة رأيهم الفاسد القول بكل محال . ويقتحمون فى كل
جهالة ، حتى انك لو قلت لهم ، انه لايتأتى للناظم نظمه الا بالفكر
والروية فاذا جعلتم النظم في الالفاظ لزمكم من ذلك ان تجعلوا فكر
الانسان اذا هو فكر في نظم الكلام فكراً في الالفاظ التي يريد ان
ينطق بها دون المعانى : لم يبالوا ان يرتكبوا ذلك وان يتعلقوا فيه بما
في العادة ومجرى الجبلة من ان الانسان يخيل اليه اذا هو فكر انه كان
ينطق فى نفسه بالالفاظ التى يفكر في معانيها حتى يرى انه يسمعها
سماعه لها حين يخرجها . من فيه وحين يجرى بها اللسان . وهذا تجاهل
لان سبيل ذلك سبيل انسان يخيل دائما في الشيء قد رآه وشاهده انه
كان يراه وينظر اليه . وان مثاله نصب عينيه . فكما لايوجب هـذا
ان يكون رائيا له ، وان يكون الشيء موجوداً في نفسه . كذلك لايكون
تخيله انه كان ينطق بالالفاظ موجبا ان يكون ناطقاً بها . وان تكون
موجودة في نفسه حتى يجعل ذلك سبباً الى جعل الفكر فيها . ثم انا
نعمل على انه ينطق بالالفاظ في نفسه وانه يجدها فيها على الحقيقة فمن
أين لنا انه اذا فكر كان الفكر منـه فيها . أم ماذا يروم ليت شعري
بذلك الفكر ومعلوم ان الفكر من الانسان يكون فى ان يخبر عن شيء
بشيء أو يصف شيئاً بشيء أو يضيف شيئاً الى شيء أو يشرك شيئاً فى حكم
شيء أو يخرج شيئاً من حكم قد سبق منه لشيء أو يجعل وجود شيء
شرطا فى وجود شيء وعلى هذا السبيل . وهـذا كله فكر فى أمور
معلومة معقولة زائدة على اللفظ ،

واذا كان هذا كذلك لم يخل هذا الذي يجعل في الالفاظ فكراً من
أحد أمرين — إما ان يخرج هذه المعاني من أن يكون لواضع الكلام
فيها فكر ويجعل الفكر كله في الالفاظ • وإما ان يجعل له فكراً في
اللفظ مفرداً عن الفكرة في هذه المعاني • فان ذهب الى الاول لم يكلم
وان ذهب الى الثاني لزمه ان يجوز وقوع فكر من الاعجمي الذي لا
يعرف معاني ألفاظ العربية أصلا في الالفاظ وذلك مما لا يخفى مكان
الشنعة والفضيحة فيه •

وشبيه بهذا التوهم منهم أنك قد ترى أحدهم يعتبر حال السامع
فاذا رأي المعاني لاتترتب في نفسه الابترتب الالفاظ في سمعه ظن عند
ذلك ان المعاني تبع للالفاظ وان الترتب فيها مكتسب من الالفاظ ومن
ترتبها في نطق المتكلم وهذا ظن فاسد ممن يظنه فان الاعتبار ينبغي أن
يكون بحال الواضع للكلام والمؤلف له • والواجب ان ينظر الى حال
المعاني معه لامع السامع • واذا نظرنا علمنا ضرورة انه محال أن يكون
الترتب فيها تبعا لترتب الالفاظ ومكتسبا عنه لان ذلك يقتضي أن تكون
الالفاظ سابقة للمعاني وان تقع في نفس الانسان أولا ثم تقع المعاني من
بعدها وتالية لها بالعكس مما يعلمه كل عاقل اذا هو لم يؤخذ عن نفسه ،
ولم يضرب حجاب بينه وبين عقله • وليت شعري هل كانت الالفاظ
الا من أجل المعاني وهل هي الا خدم لها • ومصرفة على حكمها • أو
ليست هي سمات لها • وأوضاعا قد وضعت لتدل عليها • فكيف يتصور
أن تسبق المعاني وان تتقدمها في تصور النفس • ان جاز ذلك جاز ان
تكون أسامي الاشياء قد وضعت قبل ان عرفت الاشياء وقبل أن كانت
وما أدري ماأقول في شيء يجر الذاهبين اليه الى أشباه هذا من فنون

المحال • ورديء الاحوال •

وهذا سؤال لهم من جنس آخر في النظم — قالوا • لو كان النظم
يكون في معاني النحو لكان البدوي الذي لم يسمع بالنحو قط ولم يعرف
المبتدأ والخبر وشيئاً مما يذكرونه لايتأتى له نظم كلام وإنا لنراه يأتي في
كلامه بنظم لا يحسنه المتقدم في علم النحو • قيل هذه شبهة من جنس
ماعرض للذين عابوا المتكلمين فقالوا • إنا نعلم ان الصحابة رضي الله
عنهم والعلماء في الصدر الاول لم يكونوا يعرفون الجوهر والعرض
وصفة النفس وصفة المعنى وسائر العبارات التي وضعتموها فان كان
لاتتم الدلالة على حدوث العالم والعلم بوحدانية الله الا بمعرفة هذه
الاشياء التي ابتدأتموها فينبغي لكم ان تدعوا انكم قد علمتم في ذلك مالم
يعلموه وان منزلتكم في العلم أعلى من منازلهم • وجوابنا هو مثل جواب
المتكلمين وهو ان الاعتبار بمعرفة مدلول العبارات لابمعرفة العبارات
فاذا عرف البدوي الفرق بين ان يقول • جاءني زيد راكباً • وبين
قوله • جاءني زيد الراكب • لم يضره ان لايعرف أنه اذا قال • راكباً
كانت عبارة النحويين فيه أن يقولوا في (راكب) إنه حال واذا قال
(الراكب) انه صفة جارية على زيد • واذا عرف في قوله • زيد منطلق
ان زيدا مخبر عنه ومنطلق خبر لم يضره ان لا يعلم أنا نسمي زيداً مبتدأ
واذا عرف في قولنا • ضربته تأديباً له • ان المعنى في التأديب انه غرضه
من الضرب وان ضربه ليتأدب لم يضره ان لا يعلم انا نسمي التأديب
مفعولا له • ولو كان عدم العلم بهذه العبارات يمنعه العلم بما وضعناها له
وأردناه بها لكان ينبغي أن لا يكون له سبيل الى بيان أغراضه وأن لا
يفصل فيما يتكلم به بين نفي وإثبات وبين (ما) اذا كان استفهاماً وبينه

اذا كان بمعنى الذي واذا كان بمعنى المجازاة لأنه لم يسمع عباراتنا في الفرق بين هذه المعاني • أترى الاعرابي حين سمع المؤذن يقول • أشهد أن محمداً رسول الله • بالنصب • فأنكر وقال • صنع ماذا • أنكر عن غير علم ان النصب يخرجه عن ان يكون خبراً ويجعله والأول في حكم اسم واحد وأنه اذا صار والاول في حكم اسم واحد احتيج الى اسم آخر أو فعل حتى يكون كلاما وحتى يكون قد ذكر ماله فائدة إن كان لم يعلم ذلك فلماذا قال • صنع ماذا • فطلب ما يجعله خبراً

ويكفيك أنه يلزم على ماقالوه أن يكون أمرؤ القيس حين قال * قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل * قاله وهو لا يعلم ماتعنيه بقولنا • ان قفا أمر ونبك جواب الامر وذكرى مضاف الى حبيب ومنزل معطوف على الحبيب • وان تكون هذه الالفاظ قد رتبت له من غير قصد منه الى هذه المعاني وذلك يوجب أن يكون قال نبك بالجزم من غير أن يكون عرف معنى يوجب الجزم وأتى به مؤخراً عن قفا من غير ان عرف لتأخيره موجباً سوى طلب الوزن • ومن أفضت به الحال الى أمثال هذه الشناعات ثم لم يرتدع ولم يتبين انه على خطأ فليس الا تركه والاعراض عنه

ولولا أنا نحب أن لا يلتبس أحد في معنى السؤال والاعتراض بحرف الا أريناه الذي استهواه لكان ترك التشاغل بإيراد هذا وشبهه أولى • ذاك لانا قد علمنا علم ضرورة انا لو بقينا الدهر الاطول نصعد ونصوب ونبحث وننقب • نبتغي كلمة قد اتصلت بصاحبة لها • ولفظة قد انتظمت مع أختها • من غير ان نتوخى فيما بينهما معنى من معاني النحو طلبنا ممتنعاً • وثنينا مطايا الفكر ظلعاً • فان كان هاهنا من يشك في ذلك

ويزعم انه قد علم لاتصال الكلم بعضها ببعض وانتظام الالفاظ بعضها مع بعض معاني غير معاني النحو فانا نقول له • هات فبين لنا تلك المعاني وأرنا مكانها واهدنا لها • فلعلك قد أوتيت علما قد حجب عنا • وفتح لك باب قد أغلق دوننا •

وذاك له اذا العنقاء صارت مربية وشب ابن الخصي

فصل

قد أردت أن أعيد القول في شئ هو أصل الفساد ومعظم الآفة والذي صار حجازا بين القوم وبين التأمل • وأخذ بهم عن طريق النظر • وحال بينهم وبين ان يصغوا الى مايقال لهم • وان يفتحوا للذي تبين أعينهم • وذلك قولهم • ان العقلاء قد اتفقوا على انه يصح ان يعبر عن المعنى الواحد بلفظين ثم يكون أحدهما فصيحا والآخر غير فصيح وذلك — قالوا — يقتضي ان يكون للفظ نصيب في المزية لانها لو كانت مقصورة على المعنى لكان محالا ان يجعل لاحد اللفظين فضل على الآخر مع ان المعبر عنه واحد • وهذا شئ تراهم يعجبون به ويكثرون ترداده مع انهم يؤكدونه فيقولون • لولا ان الامر كذلك لكان ينبغي ان لا يكون للبيت من الشعر فضل على تفسير المفسر له لانه ان كان اللفظ انما يشرف من أجل معناه فان لفظ المفسر يأتي على المعنى ويؤديه لامحالة اذ لو كان لا يؤديه لكان لا يكون تفسيراً له — ثم يقولون — واذا لزم ذلك في تفسير البيت من الشعر لزم مثله في الآية من القرآن • وهم اذا انتهوا في الحجاج الى هذا الموضع ظنوا أنهم قد أتوا بما لا يجوز ان يسمع عليهم معه لعلة كلام • وانه نقض ليس بعده إبرام • وربما أخرجهم الاعجاب

به الى الضحك والتعجب ممن يرى ان الى الكلام عليه سبيلا • وان يستطيع ان يقيم على بطلان ماقالوه دليلا •

والجواب وبالله التوفيق ان يقال للمحتج بذلك • قولك انه يصح ان يعبر عن المعنى الواحد بلفظين يحتمل أمرين (أحدهما) ان تريد باللفظين كلمتين معناهما واحد في اللغة مثل الليث والأسد ومثل شحط وبعد وأشباه ذلك مما وضع اللفظان فيه لمعنى (والثاني) ان تريد كلامين فان أردت الاول خرجت من المسألة لان كلامنا نحن فى فصاحة تحدث من بعد التأليف دون الفصاحة التى توصف بها اللفظة مفردة ومن غير ان يعتبر حالها مع غيرها • وان أردت الثاني ولا بدلك من أن تريده فان هاهنا أصلا من عرفه عرف سقوط هذا الاعتراض وهو ان يعلم ان سبيل المعاني سبيل أشكال الحليّ كالخاتم والشنف والسوار فكما ان من شأن هذه الاشكال ان يكون الواحد منها غفلا ساذجا لم يعمل صانعه فيه شيئاً أكثر من أن يأتي بما يقع عليه اسم الخاتم ان كان خاتما والشنف إن كان شنفا • وان يكون مصنوعا بديعا قد أغرب صانعه فيه • كذلك سبيل المعاني ان ترى الواحد منها غفلا ساذجا عاميا موجودا في كلام الناس كلهم ثم تراه نفسه وقد عمد اليه البصير بشأن البلاغة واحداث الصور فى المعانى فيصنع فيه مايصنع الصنع الحاذق حتى يغرب في الصنعة ويدق فى العمل ويبدع في الصياغة • وشواهد ذلك حاضرة لك كيف شئت • وأمثلته نصب عينيك من أين نظرت • تنظر الى قول الناس • الطبع لا يتغير ولست تستطيع ان تخرج الانسان عما جبل عليه • فترى معنى غفلا عاميا معروفا في كل جيل وأمة ثم تنظر اليه فى قول المتنبي •

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

فتجده قد خرج في أحسن صورة وتراه قد تحول جوهرة بعد ان كان خرزة وصار أعجب شيء بعد ان لم يكن شيئاً

واذ قد عرفت ذلك فان العقلاء الى هذا قصدوا حين قالوا إنه يصح ان يعبر عن المعنى الواحد بلفظين ثم يكون أحدهما فصيحا والآخر غير فصيح • كأنهم قالوا انه يصح ان تكون هاهنا عبارتان أصل المعنى فيهما واحد ثم يكون لاحداهما في تحسين ذلك المعني وتزيينه وإحداث خصوصية فيه تأثير لا يكون للاخرى

واعلم ان المخالف لا يخلو من ان ينكر ان يكون للمعنى في احدى العبارتين حسن ومزية لا يكونان له في الاخرى وان تحدث فيه على الجملة صورة لم تكن أو يعرف ذلك • فان أنكر لم يكلم لانه يؤديه الى ان لا يجعل للمعني فى قوله * وتأبى الطباع على الناقل * مزية على الذي يعقل من قولهم • الطبع لا يتغير ولا يستطيع ان يخرج الانسان عما جبل عليه • وان لا يرى لقول أبى نواس •

ليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم فى واحد

مزية على ان يقال • غير بديع فى قدرة الله تعالى ان يجمع فضائل الخلق كلهم فى رجل واحد • ومن أداه قول يقوله الى مثل هذا كان الكلام معه محالا وكنت اذا كلفته ان يعرف كمن يكلف أن يميز بحور الشعر بعضها من بعض فيعرف المديد من الطويل والبسيط من السريع من ليس له ذوق يقيم به الشعر من أصله • وان اعترف بان ذلك يكون قلنا له • أخبرنا عنك أتقول فى قوله * وتأبي الطباع على الناقل * انه غاية فى الفصاحة • فاذا قال نعم قيل له • أفكان كذلك عندك من أجل

حروفه أم من أجل حسن ومزية حصلا فى المعنى • فان قال • من أجل حروفه • دخل فى الهذيان وان قال • من أجل حسن ومزية حصلا فى المعنى • قيل له • فذاك ماأردناك عليه حين قلنا ان اللفظ يكون فصيحا من أجل مزية تقع فى معناه • لامن أجل جرسه وصداه •

واعلم انه ليس شيء أبين وأوضح وأحرى ان يكشف الشبهة عن متأمله فى صحة ماقلناه من التشبيه فانك تقول • زيد كالأسد أو مثل الأسد أو شبيه بالأسد • فتجدذلك كله تشبيها غفلا ساذجا • ثم تقول كأن زيداً الاسد • فيكون تشبيها أيضاً الا انك ترى بينه وبين الاول بونا بعيداً لانك ترى له صورة خاصة وتجدك قد فخمت المعنى وزدت فيه بأن أفدت انه من الشجاعة وشدة البطش وأن قلبه قلب لا يخامره الذعر ولا يدخله الروع بحيث يتوهم انه الاسد بعينه • ثم تقول • لئن لقيته ليلقينك منه الاسد • فتجده قد أفاد هذه المبالغة لكن فى صورة أحسن • وصفة أخص • وذلك انك تجعله فى (كأن) يتوهم انه الاسد. وتجعله هاهنا يرى منه الاسد على القطع فيخرج الامر عن حد التوهم الى حد اليقين • ثم ان نظرت الى قوله •

أأن أرعشت كفا أبيك وأصبحت يداك يدي ليث فانك غالبه

وجدته قد بدا لك فى صورة آنق وأحسن • ثم ان نظرت الي قول أرطاة بن سهية •

ان تلقني لاتري غيري بناظرة تنس السلاح وتعرف جبهة الاسد

وجدته قد فضل الجميع ورأيته قد أخرج في صورة غير تلك الصور كلها.

واعلم ان من الباطل والمحال مايعلم الانسان بطلانه واستحالته بالرجوع الى النفس حتي لايشك ثم انه اذا أراد بيان مايجد فى نفسه والدلالة عليه رأي المسلك اليه يغمض ويدق • وهذه الشبهة ـ أعني قولهم : انه لو كان يجوز ان يكون الامر على خلاف ماقالوه من ان الفصاحة وصف للفظ من حيث هو لفظ لكان ينبغي ان لايكون للبيت من الشعر فضل على تفسير المفسر • الى آخره ـ من ذاك وقد علقت لذلك بالنفوس وقويت فيها حتي انك لاتاتى الى أحد من المتعلقين بأمر اللفظ كلمة مما نحن فيه الا كان هذا أول كلامه والا عجب وقال • ان التفسير بيان للمفسر فلا يجوز ان يبقى من معنى المفسر شي لايؤديه التفسير ولا يأتى عليه لان في تجويز ذلك القول بالمحال وهوان لايزال يبقي من معنى المفسر شيء لايكون الى العلم به سبيل • واذا كان الامر كذلك ثبت ان الصحيح ماقلناه من انه لايجوزان يكون للفظ المفسر فضل من حيث المعنى على لفظ التفسير • واذا لم يجز ان يكون الفضل من حيث المعنى لم يبق الا ان يكون من حيث اللفظ نفسه . فهذا جملة مايمكنهم ان يقولوه في نصرة هذه الشبهة قد استقصيته لك واذقد عرفته فاسمع الجواب والى الله تعالى الرغبة فى التوفيق للصواب

اعلم ان قولهم . ان التفسير يجب ان يكون كالمفسر . دعوى لاتصح لهم الا من بعد ان ينكروا الذى بيناه من ان من شأن المعانى ان تختلف بها الصور ويدفعوه أصلا حتى يدعوا انه لافرق بين الكناية والتصريح وان حال المعني مع الاستعارة كحاله مع ترك الاستعارة وحتى يبطلوا ماأطبق عليه العقلاء من ان المجاز يكون أبداً أبلغ من الحقيقة فيزعموا ان قولنا • طويل النجاد وطويل القامة • واحد وان حال

المعنى فى بيت ابن هرمة * ولا أبتاع الا قريبة الاجل * كحاله فى قولك
• أنا مضياف • وانك اذا قلت • رأيت أسداً • لم يكن الامر أقوى
من ان تقول • رأيت رجلا هو من الشجاعة بحيث لا ينقص عن
الاسد • ولم تكن قدرت فى المعنى بأن ادعيت له انه أسد بالحقيقة ولا
بالغت فيه • وحتى يزعموا انه لافضل ولا مزية لقولهم • ألقيت حبله
على غاربه • على قولك فى تفسيره • خليته وما يريد وتركته يفعل
مايشاء وحتى لا يجعلوا للمعنى فى قوله تعالى (وأشربوا فى قلوبهم العجل)
مزية ان يقال • اشتدت محبتهم للعجل وغلبت على قلوبهم • وان تكون
صورة المعنى فى قوله عز وجل واشتعل الرأس شيبا صورته فى قول
من يقول • وشاب رأسى كله وابيض رأسى كله • وحتى لا يروا فرقا
بين قوله تعالى (فما ربحت تجارتهم) وبين • فما ربحوا فى تجارتهم وحتى
يرتكبوا جميع ما أريناك الشناعة فيه من أن لا يكون فرق بين قول
المتنبى * وتأبى الطباع على الناقل * وبين قولهم • انك لا تقدر ان
تغير طباع الانسان ويجعلوا حال المعنى فى قول أبى نواس

ليس على الله بمستنكر   ان يجمع العالم فى واحد

كحاله فى قولنا • انه ليس ببديع فى قدرة الله ان يجمع فضائل
الخلق كلهم فى واحد • ويرتكبوا ذلك فى الكلام كله حتى يزعموا انا
اذا قلنا فى قوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة) • ان المعنى فيها انه
لما كان الانسان اذا هم بقتل آخر لشئ غاظه منه فذكر انه ان قتله
قتل ارتدع صار المهموم بقتله كانه قد استفاد حياة فيما يستقبل بالقصاص
كنا قد أدينا المعنى فى تفسيرنا هذا على صورته التى هو عليها فى الآية
حتى لا نعرف فضلا وحتى يكون حال الآية والتفسير حال اللفظتين

احداها غريبة والاخرى مشهورة فتفسر الغريبة بالمشهورة مثل ان
تقول مثلا فى الشوقب انه الطويل وفى القط انه الكتاب وفى
الدسر انه المسامير • ومن صار الامر به الى هذا كان الكلام معه
محالا •

واعلم انه ليس عجيب أعجب من حال من يرى كلامين أجزاء
أحدهما مخالفة فى معانيها لاجزاء الآخر ثم يرى انه يسع فى العقل
ان يكون معنى أحد أحد الكلامين مثل معنى الآخر سواء حتى يتصدى
فيقول • انه لو كان يكون الكلام فصيحاً من أجل مزية تكون فى
معناه لكان ينبغى ان توجد تلك المزية فى تفسيره • ومثله فى العجب
انه ينظر الى قوله تعالى (فما ربحت تجارتهم) فيرى اعراب الاسم الذى
هو التجارة قد تغير فصار مرفوعا بعد ان كان مجروراً ويرى انه قد
حذف من اللفظ بعض ما كان فيه وهو الواو فى ربحوا و (فى) من
قولنا • فى تجارتهم • ثم لا نعلم ان ذلك يقتضى ان يكون المعنى قد تغير
كما تغير اللفظ

واعلم انه ليس للحجج والدلائل فى صحة ما نحن عليه حد ونهاية
وكلما انتهى منه باب انفتح فيه باب آخر • وقد أردت ان آخذ
فى نوع آخر من الحجاج ومن البسط والشرح فتأمل ما أكتبه
لك •

اعلم ان الكلام الفصيح ينقسم قسمين قسم تعزى المزية والحسن
فيه الى اللفظ وقسم يعزى ذلك فيه الى النظم • فالقسم الاول الكناية
والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الاستعارة وكل ما كان فيه على
الجملة مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر فما من ضرب من هذه

الضروب الا وهو اذا وقع على الصواب وعلى ماينبغي أوجب الفضل والمزية فاذا قلت • هو كثير رماد القدر • كان له موقع وحظ من القبول لايكون اذا قلت • هو كثير القري والضيافة • وكذا اذا قلت • هو طويل النجاد كان له تأثير في النفس لايكون اذا قلت • هو طويل القامة • وكذا اذا قلت • رأيت أسدا • كان له مزيه لاتكون اذا قلت • رأيت رجلا يشبه الاسد ويساويه في الشجاعة • وكذلك اذا قلت • أراك تقدم رجلا وتؤخر أخري • كان له موقع لايكون اذا قلت • أراك تتردد فى الذى دعوتك اليه كمن يقول أخرج ولا أخرج فيقدم رجلا ويؤخر أخرى • وكذلك اذا قلت • ألقى حبله على غاربه • كان له مأخذ من القلب لايكون اذا قلت • هو كالبعير الذى يلقى حبله على غاربه حتي يرعي كيف يشاء ويذهب حيث يريد • لايجهل المزية فيه الا عديم الحس • ميت النفس • والا من لايكلم • لانه من مبادى المعرفة التى من عدمها لم يكن للكلام معه معنى

واذ قد عرفت هذه الجملة فينبغي ان تنظر الى هذه المعاني واحدا واحدا وتعرف محصولها وحقائقها وان تنظر أولا الى الكناية واذا نظرت اليها وجدت حقيقتها ومحصول أمرها أنها اثبات لمعنى أنت تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول دون طريق اللفظ • ألا ترى انك لما نظرت الى قولهم • هو كثير رماد القدر • وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة لم تعرف ذلك من اللفظ ولكنك عرفته بان رجعت الى نفسك فقلت • انه كلام قد جاء عنهم في المدح ولا معنى للمدح بكثرة الرماد فليس الا انهم أرادوا أن يدلوا بكثرة الرماد على انه تنصب له القدور الكثيرة ويطبخ فيها للقرى والضيافة وذلك لانه

اذا كثر الطبخ في القدور كثر احراق الحطب تحتها واذا كثر إحراق الحطب كثر الرماد لا محالة • وهكذا السبيل فى كل ما كان كناية فليس من لفظ الشعر عرفت ان ابن هرمة أراد بقوله * ولا أبتاع الا قريبة الاجل * التمدح بانه مضياف ولكنك عرفته بالنظر اللطيف وبأن علمت أنه لا معنى للتمدح بظاهر مايدل عليه اللفظ من قرب أجل ما يشتريه فطلبت له تأويلا فعلمت انه أراد أنه يشترى ما يشتريه للاضياف فاذا اشترى شاة أو بعيرا كان قد اشترى ماقد دنا أجله لانه يذبح وينحر عن قريب •

واذ قد عرفت هذا فى الكناية فالاستعارة فى هذه القضية وذاك ان موضوعها على انك تثبت بها معنى لايعرف السامع ذلك المعنى من اللفظ ولكنه يعرفه من معني اللفظ • بيان هذا انا نعلم انك لاتقول • رأيت أسدا • الا وغرضك ان تثبت للرجل انه مساو للاسد فى شجاعته وجرأته وشدة بطشه واقدامه وفى ان الذعر لايخامره والخوف لايعرض له • ثم تعلم ان السامع اذا عقل هذا المعنى لم يعقله من لفظ أسد ولكنه يعقله من معناه وهو انه يعلم انه لامعنى لجعله أسدا مع العلم بانه رجل الا انك أردت انه بلغ من شدة مشابهته للاسد ومساواته اياه مبلغاً يتوهم معه انه أسد بالحقيقة فاعرف هذه الجملة وأحسن تأملها •

واعلم انك تري الناس وكأنهم يرون انك اذا قلت . رأيت أسدا وأنت تريد التشبيه كنت نقلت لفظ أسد عما وضع له فى اللغة واستعملته في معني غير معناه حتي كان ليس الاستعارة الا ان تعمد الى اسم الشيء فتجعله اسما لشبيهه وحتى كان لافصل بين الاستعارة وبين تسمية المطر

سماه والنبت غيثاً والمزادة راوية واشباه ذلك مما يوقع فيه اسم الشيء على ماهو منه بسبب ويذهبون عما هو مركوز فى الطباع من ان المعنى فيها المبالغة وان يدعى فى الرجل انه ليس برجل ولكنه أسد بالحقيقة وانه انما يعار اللفظ من بعد ان يعار المعنى وانه لايشرك فى اسم الاسد الا من بعد أن يدخل فى جنس الاسد • لاترى أحداً يعقل الاوهو يعرف ذلك اذا رجع الى نفسه أدنى رجوع • ومن أجل ان كان الامر كذلك رأيت العقلاء كلهم يثبتون القول بأن من شأن الاستعارة ان تكون أبدا أبلغ من الحقيقة والا فان كان ليس ههنا الا نقل اسم من شيء الى شيء فمن أين يجب — ليت شعري — ان تكون الاستعارة أبلغ من الحقيقة ويكون لقولنا • رأيت أسداً • مزية على قولنا • رأيت شبيها بالاسد • وقد علمنا انه محال أن يتغير الشيء فى نفسه بان ينقل اليه اسم قد وضع لغيره من بعد ان لايراد من معنى ذلك الاسم فيه شيء بوجه من الوجوه بل يجعل كانه لم يوضع لذلك المعنى الاصلي أصلا وفى أي عقل يتصور ان يتغير معنى (شبيها بالاسد) بان يوضع لفظ أسد عليه وينقل اليه

واعلم ان العقلاء بنوا كلامهم اذ قاسوا وشبهوا على ان الاشياء تستحق الاسامي لخواص معان هي فيها دون ما عداها فاذا أثبتوا خاصة شيء لشيء أثبتوا له اسمه فاذا جعلوا الرجل بحيث لاتنقص شجاعته عن شجاعة الاسد ولا يعدم منها شيئاً قالوا • هو أسد • واذا وصفوه بالتناهي فى الخير والخصال الشريفة أو بالحسن الذى يبهر قالوا • هو ملك • واذا وصفوا الشيء بغاية الطيب قالوا • هو مسك • وكذلك الحكم أبداً • ثم انهم اذا استقصوا فى ذلك نفوا عن المشبه اسم جنسه

فقالوا • ليس هو بانسان وانما هو أسد وليس هو آدمياً وانما هو ملك • كما قال الله تعالى (ماهذا بشراً ان هذا الا ملك كريم) ثم ان لم يريدوا أن يخرجوه عن جنسه جملة قالوا • هو أسد فى صورة انسان وهو ملك فى صورة آدمي • وقد خرج هذا للمتنبي فى أحسن عبارة وذلك فى قوله

نحن ركب ملجن فى زي ناس ... فوق طير لها شخوص الجمال

ففي هذه الجملة بيان لمن عقل ان ليست الاستعارة نقل اسم عن شيء الى شيء ولكنها ادعاء معنى الاسم لشيء اذ لو كانت نقل اسم وكان قولنا • رأيت أسداً • بمعنى رأيت شبيها بالاسد ولم يكن ادعاء انه أسد بالحقيقة لكان محالا ان يقال • ليس هو بانسان ولكنه أسد أو هو أسد فى صورة انسان • كما انه محال ان يقال • ليس هو بانسان ولكنه شبيه بأسد • أو يقال • هو شبيه بأسد فى صورة انسان

واعلم انه قد كثر فى كلام الناس استعمال لفظ النقل فى الاستعارة فمن ذلك قولهم • ان الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على سبيل النقل • وقال القاضى أبو الحسن • الاستعارة ما اكتفي فيه بالاسم المستعار عن الاصلي ونقلت العبارة فجعلت فى مكان غيرها • ومن شأن ماغمض من المعانى ولطف ان يصعب تصويره على الوجه الذى هو عليه لعامة الناس فيقع لذلك فى العبارات التى يعبر بها عنه مايوهم الخطأ واطلاقهم فى الاستعارة أنها نقل للعبارة عما وضعت له من ذلك فلا يصح الاخذ به وذلك انك اذا كنت لاتطلق اسم الاسد على الرجل الا من بعد ان تدخله فى جنس الاسود من الجهة التى بينا لم تكن نقلت الاسم عما وضع له بالحقيقة لانك انما تكون

ناقلا اذا أنت أخرجت معناه الاصلي من ان يكون مقصودك ونفضت به يدك فاما ان تكون ناقلا له عن معناه مع ارادة معناه فمحال متناقض ·

واعلم ان في الاستعارة مالا يتصور تقدير النقل فيه البتة وذلك مثل قول لبيد ·

وغداة ريح قد كشفت وقرة　　اذ أصبحت بيد الشمال زمامها

لاخلاف في ان اليد استعارة ثم انك لاتستطيع ان تزعم ان لفظ اليد قد نقل عن شيء الى شيء وذلك انه ليس المعنى على انه شبه شيئاً باليد فيمكنك أن تزعم انه نقل لفظ اليد اليه وانما المعنى على انه أراد ان يثبت للشمال في تصريفها الغداة على طبيعتها شبه الانسان قد أخذ الشيء بيده يقلبه ويصرفه كيف يريد فلما أثبت لها مثل فعل الانسان باليد استعار لها اليد · وكما لايمكنك تقدير النقل في لفظ اليد كذلك لايمكنك ان تجعل الاستعارة فيه من صفة اللفظ · ألا ترى انه محال أن تقول · انه استعار لفظ اليد للشمال · وكذلك سبيل نظائره مما تجدهم قد أثبتوا فيه للشيء عضواً من أعضاء الانسان من أجل اثباتهم له المعنى الذى يكون فى ذلك العضو من الانسان كبيت الحماسة ·

اذا هز في عظم قرن تهللت　　نواجذ أفواه المنايا الضواحك

فانه لما جعل المنايا تضحك جعل لها الافواه والنواجذ التي يكون الضحك فيها وكبيت المتنبي ·

خميس بشرق الارض والغرب زحفه　　وفي أذن الجوزاء منه زمازم

لما جعل الجوزاء تسمع على عادتهم في جعل النجوم تعقل ووصفهم

لها بما يوصف به الاناسي أثبت لها الاذن التي بها يكون السمع من الاناسي فانت الآن لاتستطيع ان تزعم في بيت الحماسة انه استعار لفظ النواجذ ولفظ الافواه لان ذلك يوجب المحال وهو أن يكون في المنايا شيء قد شبهه بالنواجذ وشيء قد شبهه بالافواه فليس الا ان تقول انه لما ادعى ان المنايا تسر وتستبشر اذا هو هز السيف وجعلها لسرورها بذلك تضحك أراد ان يبالغ في الامر فجعلها في صورة من يضحك حتى تبدو نواجذه من شدة السرور · وكذلك لا تستطيع ان تزعم ان المتنبي قد استعار لفظ الاذن لانه يوجب أن يكون في الجوزاء شيء قد أراد تشبيهه بالاذن وذلك من شنيع المحال : فقد تبين من غير وجه ان الاستعارة انما هي ادعاء معنى الاسم للشيء لا نقل الاسم عن الشيء واذا ثبت انها ادعاء معنى الاسم للشيء علمت ان الذى قالوه من انها تعليق للعبارة على غير ما وضعت له في اللغة ونقل لها عما وضعت له كلام قد تسامحوا فيه لانه اذا كانت الاستعارة ادعاء معنى الاسم لم يكن الاسم مزالا عما وضع له بل مقرا عليه

واعلم انك تراهم لا يمتنعون اذا تكلموا في الاستعارة من ان يقولوا انه أراد المبالغة فجعله أسداً بل هم يلجأون الى القول به وذلك صريح في ان الاصل فيها المعنى وأنه المستعار في الحقيقة وان قولنا · استعير له اسم الأسد · إشارة الى انه استعير له معناه · وانه جعل إياه · وذلك أنا لولم نقل ذلك لم يكن لجعل هاهنا معنى لان جعل لايصلح الا حيث يراد إثبات صفة للشيء كقولنا · جعلته أميراً وجعلته لصا · تريد أنك أثبت له الامارة ونسبته الى اللصوصية وادعيتها عليه ورميته بها · وحكم (جعل) اذا تعدى الى مفعولين حكم صير فكما لاتقول · صيرته أميراً

إلا على معنى انك أثبت له صـفة الامارة كذلك لا يصح أن تقول ·
جعلته أسداً · الا على معنى انك أثبت له معاني الاسد · وأما ماتجده
في بعض كلامهم من ان (جعل) يكون بمعني (سمى) فما تسامحوا فيه
أيضاً لأن المعنى معلوم وهو مثل ان تجد الرجل يقول · أنا لا أسميه
إنساناً · وغرضه ان يقول إني لا أثبت له المعاني التي بها كان الانسان
إنساناً · فأما ان يكون (جعل) في معنى (سمى) هكذا غفلا فمما لايخفى
فساده · ألا ترى انك لاتجد عاقلا يقول · جعلته زيداً · بمعنى سميته
زيدا ولا يقال للرجل · اجعل ابنك زيداً · بمعنى سمه زيداً و · ولد
لفلان ابن فجعله عبد الله · أي سماه عبد الله

هذا مالا يشك فيه ذو عقل اذا نظر · وأكثر مايكون منهم هذا
التسامح أعنى قولهم ان (جعل) يكون بمعني (سمى) في قوله تعالى
(وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) فقد ترى في التفسير ان
جعل يكون بمعنى سمى وعلى ذاك فلا شبهة في أن ليس المعنى على مجرد
التسمية ولكن على الحقيقة التي وصفتها لك وذاك أنهم أثبتوا للملائكة
صفة الاناث واعتقدوا وجودها فيهم وعن هذا الاعتقاد صـدر عنهم
ماصدر من الاسم أعنى اطلاق اسم البنات وليس المعنى أنهم وضعوا لها
لفظ الاناث ولفظ البنات من غير اعتقاد معنى وإثبات صفة · هذا محال
أولاترى الى قوله تعالى (أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون)
فلو كانوا لم يزيدوا على إجراء الاسم على الملائكة ولم يعتقدوا إثبات
صفة لما قال الله تعالى (أشهدوا خلقهم) هذا ولو كانوا لم يقصدوا إثبات
صفة ولم يكن غير ان وضعوا اسما لا يريدون به معنى لما استحقوا الا
اليسير من الذم ولما كان هذا القول منهم كفرا · والتفسير الصحيح

والعبارة المستقيمة ماقاله أبو اسـحاق الزجاج رحمه الله فانه قال · ان
الجعل هاهنا في معنى القول والحكم على الشيء تقول (قد جعلت زيداً
أعلم الناس) أي وصفته بذلك وحكمت به

ونرجع الى الغرض فنقول · فاذا ثبت ان ليست الاستعارة نقل
الاسم ولكن ادعاء معنى الاسم وكنا اذا عقلنا من قول الرجل (رأيت
أسداً) أنه أراد به المبالغة فى وصفه بالشجاعة وأن يقول انه من قوة
القلب ومن فرط البسالة وشدة البطش وفي ان الخوف لايخامره والذعر
لا يعرض له بحيث لا ينقص عن الاسد · لم نعقل ذلك من لفظ أسد
ولكن من ادعائه معنى الاسد الذى رآه · ـ ثبت بذلك ان الاستعارة
كالكناية فى انك تعرف المعنى فيهـا من طريق المعقول دون طريق
اللفظ

واذ قد عرفت ان طريق العلم بالمعني فى الاستعارة والكناية معا
المعقول فاعلم ان حكم التمثيل فى ذلك حكمها بل الامر فى التمثيل أظهر
وذلك انه ليس من عاقل يشك اذا نظر فى كتاب يزيد بن الوليد الى
مروان بن محمد حين بلغه انه يتلكأ فى بيعته · أما بعد فاني أراك تقدم
رجلا وتؤخر أخرى فاذا أتاك كتابي هذا فاعتمـد على أيتهما شئت
والسلام · يعلم ان المعنى انه يقول له · بلغني أنك في أمر البيعة بين
رأيين مختلفين ترى تارة ان تبايع وأخرى أن تمتنع من البيعـة فاذا
أتاك كتابي هذا فاعمل على أي الرأيين شئت · وانه لم يعرف ذلك من
لفظ التقديم والتأخير أو من لفظ الرجل ولكن بأن علم انه لا معنى
لتقديم الرجل وتأخيرها فى رجل يدعي الي البيعة وان المعنى على انه
أراد أن يقول ان مثلك في ترددك بين ان تبايع وبين ان تمتنع مثل

رجل قائم ليذهب في أمر فجعلت نفسه تريه تارة ان الصـواب فى أن
يذهب وأخرى انه فى ان لا يذهب فجعل يقدم رجلا تارة ويؤخر
أخرى

وهكذا كل كلام كان ضرب مثل لا يخفى على من له أدنى تمييز ان
الاغراض التى تكون للناس فى ذلك لا تعرف من الالفاظ ولكن
تكون المعانى الحاصلة من مجموع الكلام ادلة على الاغراض والمقاصد
ولو كان الذى يكون غرض المتكلم يعلم من اللفظ ما كان لقولهم • ضرب
كذا مثلا لكذا • معنى فما اللفظ يضرب مثلا ولكن المعنى • فاذا قلنا
فى قول النبي عليـه السلام (إياكم وخضراء الدمن) انه ضرب عليه
السلام خضراء الدمن مثلا للمرأة الحسناء فى منبت السوء لم يكن المعنى
انه صلى الله عليه وسلم ضرب لفظ خضراء الدمن مثلا لها • هذا مالا
يظنه من به مس فضلا عن العاقل • فقد زال الشك وارتفع فى ان طريق
العلم بما يراد إثباته والخبر به فى هذه الاجناس الثلاثة التى هي الكناية
والاستعارة والتمثيل المعقول دون اللفظ من حيث يكون القصد بالاثبات
فيها الى معني ليس هو معنى اللفظ ولكنه معني يستدل بمعني اللفظ عليه
ويستنبط منه كنحو ماترى من ان القصد فى قولهم • هو كثير رماد
القدر • الى كثرة القرى وأنت لا تعرف ذلك من هذا اللفظ الذي
تسمعه ولكنك تعرفه بان تستدل عليه بمعناه على مامضى الشرح فيه •

واذ قد عرفت ذلك فينبغي أن يقال لهؤلاء الذين اعترضوا علينا
فى قولنا ان الفصاحة وصف تجب للكلام من أجـل مزية تكون فى
معناه وانها لا تكون وصفا له من حيث اللفظ مجرداً عن المعني واحتجوا
بان قالوا • انه لو كان الكلام اذا وصف بانه فصيح كان ذلك من أجل

مزية تكون فى معناه لوجب ان يكون تفسيره فصيحا مثله • ـ أخبرونا
عنكم أترون ان من شأن هذه الاجناس اذا كانت فى الكلام ان تكون
له بها مزية توجب له الفصاحة أم لا ترون ذلك • فان قالوا • لا نرى
ذلك • لم يكلموا وان قالوا • نرى للكلام اذا كانت فيه مزية توجب
له الفصاحة • قيل لهم فاخبرونا عن تلك المزية أتكون في اللفظ أم فى
المعني • فان قالوا • فى اللفظ • دخلوا في الجهالة من حيث يلزم من
ذلك أن تكون الكناية والاستعارة والتمثيل أوصافاً للفظ لانه لا يتصور
أن تكون مزيتها فى اللفظ حتى تكون أوصافاً له وذلك محال من حيث
يعلم كل عاقل انه لا يكنى باللفظ عن اللفظ وانه انما يكنى بالمعنى عن
المعنى •

وكذلك يعلم انه لا يستعار اللفظ مجرداً عن المعنى ولكن يستعار
المعنى ثم اللفظ يكون تبع المعنى على ماقدمنا الشرح فيه • ويعلم كذلك
انه محال أن يضرب المثل باللفظ وان يكون قد ضرب لفظ • أراك تقدم
رجلا وتؤخر أخرى • مثلا لتردده فى أمر البيعة • وان قالوا • هي
فى المعني • قيل لهم فهو ماأردناكم عليه فدعوا الشك عنكم وانتبهوا
من رقدتكم فانه علم ضروري قد أدي التقسيم اليه وكل علم كان كذلك
فانه يجب القطع على كل سؤال يسأل فيـه بانه خطأ وأن السائل
ملبوس عليه

ثم ان الذي يعرف به وجه دخول الغلط عليهم في قولهم • إنه لو
كان الكلام يكون فصيحا من أجل مزية تكون فى معناه لوجب ان
يكون تفسيره فصيحا مثله • هو أنك اذا نظرت الى كلامهم هذا وجدتهم
كأنهم قالوا انه لو كان الكلام اذا كان فيه كناية أو استعارة أو تمثيل كان

لذلك فصيحا لوجب ان يكون اذا لم توجد فيه هذه المعاني فصيحا أيضاً ذاك لان تفسيره الكناية ان نتركها ونصرح بالمكنى عنه فنقول ان المعنى فى قولهم • هو كثير رماد القدر • أنه كثير القرى • وكذلك الحكم فى الاستعارة فان تفسيرها ان نتركها ونصرح بالتشبيه فنقول فى (رأيت أسداً) • ان المعنى رأيت رجلا يساوي الاسد فى الشجاعة • وكذلك الامر فى التمثيل لأن تفسيره ان نذكر المتمثل له فنقول فى قوله (أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى) • ان المعنى انه قال أراك تتردد فى أمر البيعة فتقول تارة أفعل وتارة لا أفعل كمن يريد الذهاب فى وجه فتريه نفسه تارة ان الصواب فى أن يذهب وأخرى انه فى ان لا يذهب فيقدم رجلا ويؤخر أخرى • وهذا خروج عن المعقول لانه بمنزلة أن تقول لرجل قد نصب لوصف علة • إن كان هذا الوصف يجب لهذه العلة فينبغي أن يجب مع عدمها •

ثم ان الذى استهواهم هو أنهم نظروا الى تغير ألفاظ اللغة بعضها ببعض فلما رأوا اللفظ اذا فسر بلفظ مثل أن يقال فى الشرجب انه الطويل لم يجز أن يكون فى المفسر من حيث المعنى مزية لا تكون في التفسير ظنوا ان سبيل ما نحن فيه ذلك السبيل وذلك غلط منهم لأنه انما كان للمفسر فيما نحن فيه الفضل والمزية على التفسير من حيث كانت الدلالة فى المفسر دلالة معنى على معني وفى التفسير دلالة لفظ على معنى وكان من المركوز في الطباع والراسخ فى غرائز العقول أنه متى أريد الدلالة على معنى فترك ان يصرح به ويذكر باللفظ الذى هو له في اللغة وعمد الى معني آخر فاشير به اليه • وجعل دليلا عليه • كان للكلام بذلك حسن ومزية لا يكونان اذا لم يصنع ذلك وذكر بلفظه صريحا •

ولا يكون هذا الذى ذكرت انه سبب فضل المفسر على التفسير من كون الدلالة في المفسر دلالة معني على معني وفي التفسير دلالة لفظ على معنى حتي يكون للفظ. المفسر معنى معلوم يعرفه السامع وهو غير معني لفظ التفسير في نفسه وحقيقته كما ترى من ان الذى هو معني اللفظ فى قولهم • هو كثير رماد القدر • غير الذى هو معنى اللفظ فى قولهم • هو كثير القرى • ولو لم يكن كذلك لم يتصور ان يكون هاهنا دلالة معني على معني

واذ قد عرفت هذه الجملة فقد حصل لنا منها ان المفسر يكون له دلالتان دلالة اللفظ على المعنى ودلالة المعنى الذى دل اللفظ عليه على معنى لفظ آخر ولا يكون للتفسير الا دلالة واحدة وهي دلالة اللفظ وهذا الفرق هو سبب ان كان للمفسر الفضل والمزية على التفسير ومحال ان يكون هذا قضية المفسر والتفسير فى الفاظ اللغة • ذاك لأن معنى المفسر يكون دالا مجهولا عند السامع ومحال أن يكون للمجهول دلالة ثم ان معنى المفسر يكون هو معني التفسير بعينه ومحال اذا كان المعنى واحدا ان يكون للمفسر فضل على التفسير لان الفضل كان في مسألتنا بان دل لفظ المفسر على معنى ثم دل معناه على معني آخر • وذلك لا يكون مع كون المعنى واحدا ولا يتصور

بيان هذا انه محال ان يقال ان معنى الشرجب الذى هو المفسر يكون دليلا على معنى تفسيره الذى هو الطويل على وزان قولنا ان معنى • كثير رماد القدر • يدل على معنى تفسيره الذى هو (كثير القرى) لامرين (أحدهما) انك لا تفسر الشرجب حتي يكون معناه مجهولا عند السامع ومحال ان يكون للمجهول دلالة • (والثاني) ان

المعنى فى تفسيرنا الشرجب بالطويل ان نعلم السامع ان معناه هو معنى الطويل بعينه • واذا كان كذلك كان محالا ان يقال ان معناه يدل على معنى الطويل والذى يعقل ان يقال ان معناه هو معنى الطويل فاعرف ذلك وانظر الى لعب الغفلة بالقوم والى ماراأوا فى منامهم من الاحلام الكاذبة ولو انهم تركوا الاستنامة الى التقليد والاخذ بالهوينا وترك النظر وأشعروا قلوبهم ان ههنا كلاما ينبغي ان يصغى اليه لعلموا ولعاد اعجابهم بانفسهم فى سؤالهم هذا وفى سائر أقوالهم عجبا منها ومن تطوح الظنون بها •

واذ قد بان سقوط مااعترض به القوم وفحش غلطهم فينبغي ان تعلم ان ليست المزايا التي تجدها لهذه الاجناس على الكلام المتروك على ظاهره والمبالغة التي تحسها فى أنفس المعانى التى يقصد المتكلم بخبره اليها ولكنها فى طريق اثباته لها • وتقريره اياها • وانك اذا سمعتهم يقولون ان من شأن هذه الاجناس ان تكسب المعانى مزية وفضلا • وتوجب لها شرفا ونبلا • وان تفخمها فى نفوس السامعين • فانهم لايعنون أنفس المعاني التى يقصد المتكلم بخبره اليها كالقرى والشجاعة والتردد فى الرأى وانما يعنون اثباتها لما تثبت له ويخبر بها عنه • فاذا جعلوا للكناية مزية على التصريح لم يجعلوا تلك المزية في المعنى المكني عنه • ولكن في اثباته للذى ثبت له • وذلك انا نعلم ان المعانى التي يقصد الخبر بها لاتتغير في أنفسها بان يكني عنها بمعان سواها • ويترك ان تذكر بالالفاظ التى هي لها فى اللغة ومن هذا الذي يشك ان معنى طول القامة وكثرة القرى لايتغيران بأن يكنى عنهما بطول النجاد وكثرة رماد القدر وتقدير التغيير فيهما يؤدي الى ان لاتكون الكناية عنهما

ولكن عن غيرهما وقد ذكرت هذا في صدر الكتاب وذكرت ان السبب في ان كان يكون للاثبات اذا كان من طريق الكناية مزية لاتكون اذا كان من طريق التصريح انك اذا كنيت عن كثرة القرى بكثرة رماد القدر كنت قد أثبت كثرة القرى باثبات شاهدها ودليلها • وما هو علم على وجودها • وذلك لامحالة يكون أبلغ من اثباتها بنفسها • وذلك لانه يكون سبيلها حينئذ سبيل الدعوى تكون مع شاهد • وذكرت ان السبب في ان كانت الاستعاره أبلغ من الحقيقة انك اذا ادعيت للرجل انه أسد بالحقيقة كان ذلك أبلغ وأشد فى تسويته بالاسد فى الشجاعة • ذاك لانه محال ان يكون من الاسود ثم لاتكون له شجاعة الاسود • وكذلك الحكم في التمثيل فاذا قلت .أراك تقدم رجلا وتؤخر أخري . كان أبلغ فى اثبات التردد له من ان تقول أنت كمن يقدم رجلا ويؤخر أخري

واعلم انه قد يهجس فى نفس الانسان شيء يظن من أجله انه ينبغى ان يكون الحكم في المزية التى تحدث بالاستعارة انها تحدث فى المثبت دون الاثبات وذلك ان تقول • انا اذا نظرنا الى الاستعارة وجدناها انما كانت أبلغ من أجل انها تدل على قوة الشبه وأنه قد تناهي الى ان صار المشبه لايتميز عن المشبه به فى المعنى الذى من أجله شبه به واذا كان كذلك كانت المزية الحادثة بها حادثة فى الشبه واذا كانت حادثة فى الشبه كانت فى المثبت دون الاثبات • والجواب عن ذلك ان يقال أن الاستعارة لعمرى تقتضي قوة الشبه وكونه بحيث لايتميز المشبه عن المشبه به ولكن ليس ذاك سبب المزية وذلك لانه لوكان ذاك سبب المزية لكان ينبغى اذا جئت به صريحا فقلت . رأيت رجلا مساويا للاسد فى

الشجاعة وبحيث لولا صورته لظننت أنك رأيت أسدا ؟ وما شاكل ذلك
من ضروب المبالغة ان تجد لكلامك المزية التى تجدها لقولك • رأيت
أسدا • وليس يخفى على عاقل ان ذلك لايكون

فان قال قائل • ان المزية من أجل ان المساواة تعلم فى رأيت أسدا
من طريق المعنى وفى رأيت رجلا مساويا للاسد من طريق اللفظ
• قيل قد قلنا فيما تقدم انه محال أن يتغير حال المعنى فى نفسه بان يكنى
عنه بمعنى آخر وأنه لايتصور ان يتغير معنى طول القامة بان يكنى عنه
بطول النجاد ومعنى كثرة القري بأن يكنى عنه بكثرة الرماد • وكما
ان ذلك لايتصور فكذلك لايتصور ان يتغير معنى مساواة الرجل
الاسد فى الشجاعة بأن يكني عن ذلك ويدل عليه بان تجعله أسدا فأنت
الآن اذا نظرت الى قوله

فاسبلت لؤلؤا من نرجس وسقت — وردا وعضت على العناب بالبرد

فرأيته قد أفادك ان الدمع كان لايحرم من شبه اللؤلؤ والعين من
شبه النرجس شيئاً — فلا تحسبن ان سبب الحسن الذى تراه والاريحية
التي تجدها عنده انه أفادك ذلك فحسب وذاك انك تستطيع ان تجيء
به صريحاً فتقول • فأسبلت دمعاً كانه اللؤلؤ بعينه من عين كانها
النرجس حقيقة • ثم لاترى من ذلك الحسن شيئاً ولكن اعلم ان سبب
ان راقك وأدخل الاريحية عليك انه أفادك فى اثبات شدة الشبه مزية
وأوجدك فيه خاصة قد غرز فى طبع الانسان ان يرتاح لها • ويجد فى
نفسه هزة عندها وهكذا حكم نظائرها كقول أبى نواس

تبكي فتذري الدر عن نرجس — وتلطم الورد بعناب

وقول المتنبى

بدت قمرا ومالت خوط بان — وفاحت عنبرا ورنت غزالا

واعلم ان من شأن الاستعارة انك كلما زدت ارادتك التشبيه إخفاء
ازدادت الاستعارة حسناً حتي انك تراها أغرب ماتكون اذا كان
الكلام قد ألف تأليفاً ان أردت ان تفصح فيه بالتشبيه خرجت الى
شيء تعافه النفس ويلفظه السمع ومثال ذلك قول ابن المعتز

أثمرت أغصان راحته — بجنان الحسن عنابا

ألا ترى انك لو حملت نفسك علي ان تظهر التشبيه وتفصح به
احتجت الي ان تقول • أثمرت أصابع يده التي هي كالاغصان لطالب
الحسن شبيه العناب من أطرافها المخضوبة • وهذا مالا تخفى غثاثته
من أجل ذلك كان موقع العناب في هذا البيت أحسن منه فى قوله
* وعضت على العناب بالبرد * وذاك لان اظهار التشبيه فيه لايقبح هذا
القبح المفرط لانك لو قلت • وعضت علي أطراف أصابع كالعناب
بثغر كالبرد كان شيئاً يتكلم بمثله وان كان مرذولا • وهذا موضع
لايتبين سره الا من كان ملتهب الطبع حاد القريحة وفي الاستعارة
علم كثير ولطائف معان ودقائق فروق وسنقول فيها ان شاء الله في
موضع آخر

واعلم انا حين أخذنا في الجواب عن قولهم • انه لو كان الكلام
يكون فصيحاً من أجل مزية تكون في معناه لكان ينبغي ان يكون
تفسيره فصيحاً مثله • قلنا ان الكلام الفصيح ينقسم قسمين قسم تعزى
المزية فيه الى اللفظ وقسم تعزي فيه الى النظم • وقد ذكرنا في القسم
الاول من الحجج مالا يبقى معه لعاقل اذا هو تأملها شك فى بطلان
ماتعلقوا به من انه يلزمنا فى قولنا • ان الكلام يكون فصيحاً من أجل

مزية تكون في معناه • ان يكون تفسير الكلام الفصيح فصيحاً
مثله وانه تهوس منهم وتقحم في المجادلات • وأما القسم الذي تعزى
فيه المزية الى النظم فانهم ان ظنوا ان سؤالهم الذي اغتروا به يتجه
لهم فيه كان أمرهم أعجب • وكان جهلهم في ذلك أغرب • وذلك ان
النظم كما بينا هو توخي معاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه والعمل
بقوانينه وأصوله وليست معاني النحو معاني الالفاظ فيتصور ان يكون
لها تفسير •

وجملة الامر ان النظم انما هو ان الحمد من قوله تعالى (الحمد لله
رب العالمين الرحمن الرحيم) مبتدأ ولله خبر ورب صفة لاسم الله تعالى
ومضاف الى العالمين • والعالمين مضاف اليه • والرحمن الرحيم صفتان
كالرب • ومالك من قوله (مالك يوم الدين) صفة أيضاً ومضاف الى
يوم ويوم مضاف الى الدين • واياك ضمير اسم الله تعالى مما هو ضمير
يقع موقع الاسم اذا كان الاسم منصوبا • معنى ذلك انك لو ذكرت
اسم الله مكانه لقلت • الله نعبد • ثم ان نعبد هو المقتضى معنى النصب
فيه • وكذلك حكم (اياك نستعين) ثم ان جملة (اياك نستعين) معطوف
بالواو على جملة (إياك نعبد) والصراط مفعول • والمستقيم صفة للصراط
(وصراط الذين) بدل من الصراط المستقيم • (وأنعمت عليهم) صلة
الذين • (وغير المغضوب عليهم) صفة الذين • (والضالين) معطوف على
المغضوب عليهم • فانظر الآن هل يتصور في شيء من هذه المعاني
ان يكون معنى اللفظ وهل يكون كون الحمد مبتدأ معنى لفظ
الحمد أم يكون كون رب صفة وكونه مضافا الى العالمين معنى
لفظ الرب •

فان قيل • انه ان لم تكن هذه المعاني معاني أنفس الالفاظ فانها
تعلم على كل حال من ترتيب الالفاظ ومن الاعراب فبالرفع في الدال
من الحمد يعلم انه مبتدأ • وبالجر في الباء من رب يعلم انه صفة • وبالياء
في العالمين يعلم انه مضاف اليه • وعلى هذا قياس الكل • قيل ترتيب
اللفظ لا يكون لفظاً والاعراب وان كان يكون لفظاً فانه لا يتصور ان
يكون ههنا لفظان كلاهما علامة إعراب ثم يكون أحدهما تفسير الآخر
وزيادة القول في هذا من خطل الرأي فانه مما يعلمه العاقل ببديهة
النظر ومن لم يتنبه له في أول مايسمع لم يكن أهلا لان يكلم • ونعود الى
رأس الحديث فنقول

قد بطل الآن من كل وجه وكل طريق ان تكون الفصاحة وصفاً
للفظ من حيث هو لفظ ونطق لسان • واذا كان هذا صورة الحال وجملة
الامر ثم لم تر القوم تفكروا في شيء مما شرحناه بحال • ولا أخطروه
لهم ببال • بان وظهر انهم لم يأتوا الامر من بابه • ولم يطلبوه من معدنه
ولم يسلكوا اليه طريقه • وانهم لم يزيدوا على ان أوهموا أنفسهم وهماً
كاذباً انهم قد أبانوا الوجه الذي به كان القرآن معجزاً والوصف الذي
به بان من كلام المخلوقين من غير أن يكونوا قد قالوا فيه قولا يشفي من
شاك غليلا • ويكون على علم دليلا • والى معرفة ماقصدوا اليه سبيلا •

واعلم انه اذا نظر العاقل الى هذه الادلة فرأى ظهورها استبعد ان
يكون قد ظن ظان في الفصاحة أنها من صفة اللفظ صريحا ولعمري
انه كذلك ينبغي الا انا انما ننظر الى جدهم وتشددهم وبتهم الحكم
بان المعاني لا تتزايد وانما تتزايد الالفاظ فلئن كانوا قد قالوا الالفاظ وهم
لا يريدونها أنفسها وإنما يريدون لطائف معان تفهم منها لقد كان ينبغي

ان يتبعوا ذلك من قولهم ماينبئ عن غرضهم • وأن يذكروا انهم عنوا
بالالفاظ ضربا من المعنى • وان غرضهم مفهوم خاص

هذا وأمر النظم في انه ليس شيئاً غير توخي معاني النحو فيما بين
الكلم وأنك ترتب المعاني أولا في نفسك • ثم تحذو على ترتيبها الالفاظ
في نطقك • وانا لو فرضنا ان تخلو الالفاظ من المعاني لم يتصور ان يجب
فيها نظم وترتيب • في غاية القوة والظهور ثم ترى الذين لهجوا بأمر
اللفظ قد أبوا الا ان يجعلوا النظم في الالفاظ فترى الرجل منهم يرى
ويعلم ان الانسان لا يستطيع ان يجيء بالالفاظ مرتبة الا من بعد ان
يفكر في المعاني ويرتبها في نفسه على ما أعلمناك ثم تفتشه فتراه لايعرف
الامر بحقيقته وتراه ينظر الى حال السامع فاذا رأى المعاني لا تقع
مرتبة في نفسه الا من بعد ان تقع الالفاظ مرتبة في سمعه نسي حال
نفسه واعتبر حال من يسمع منه . وسبب ذلك قصر الهمة وضعف العناية
وترك النظر والانس بالتقليد • ومايغني وضوح الدلالة مع من لاينظر
فيها وإن الصبح ليملأ الافق ثم لايراه النائم ومن قد أطبق جفنه •

واعلم انك لاترى في الدنيا علماقد جرى الامر فيه بديئا وأخيراً
على ماجرى عليه في علم الفصاحة والبيان • أما البديء فهو انك لاترى
نوعا من أنواع العلوم إلا واذا تأملت كلام الاولين الذين علموا الناس
وجدت العبارة فيه أكثر من الاشارة • والتصريح أغلب من التلويح
والأمر في علم الفصاحة بالضد من هذا • فانك اذا قرأت ماقاله العلماء
فيه وجدت جله أو كله رمزا ووحيا وكناية وتعريضاً وإيماء الى الغرض
من وجه لا يفطن له الا من غلغل الفكر وأدق النظر • ومن يرجع
من طبعه الى ألمعية يقوى معها على الغامض • ويصل بها الى الخفي حتى

كأن بسلا حراما ان تجلى معانيهم سافرة الا وجه لا نقاب لها • وبادية
الصفحة لاحجاب دونها • وحتى كأن الافصاح بها حرام • وذكرها
الا على سبيل الكناية والتعريض غير سائغ •

وأما الاخير فهو انالم نر العقلاء قد رضوا من أنفسهم في شيء من
العلوم ان يحفظوا كلاما للاولين ويتدارسوه ويكلم به بعضهم بعضاً من
غير ان يعرفوا له معنى ويقفوا منه على غرض صحيح ويكون عندهم
ان يسألوا عنه بيان له وتفسير الا علم الفصاحة فانك ترى طبقات من
الناس يتداولون فيما بينهم ألفاظا للقدماء وعبارات من غير ان يعرفوا
لها معنى أصلا • أو يستطيعوا ان يسألوا عنها أن يذكروا لها تفسيراً
يصح

فمن أقرب ذلك أنك تراهم يقولون اذا هم تكلموا في مزية كلام
على كلام • ان ذلك يكون بجزالة اللفظ • واذا تكلموا في زيادة نظم
على نظم ان ذلك يكون لوقوعه على طريقة مخصوصة وعلى وجه دون وجه •
ثم لا تجدهم يفسرون الجزالة بشيء ويقولون في المراد بالطريقة والوجه
مايحلى منه السامع بطائل • ويقرأون في كتب البلغاء ضروب كلام قد
وصفوا اللفظ فيها بأوصاف تعلم ضرورة انها لا ترجع اليه من حيث هو
لفظ ونطق لسان وصدى حرف كقولهم • لفظ متمكن غير قلق ولا ناب
به موضعه . وإنه جيد السبك صحيح الطابع • وانه ليس فيه فضل عن
معناه • وكقولهم • ان من حق اللفظ ان يكون طبقا للمعنى لا يزيد
عليه ولا ينقص عنه • وكقول بعض من وصف رجلا من البلغاء •
كانت ألفاظه قوالب لمعانيه • هذا اذا مدحوه — وقولهم اذا ذموه .
هو لفظ معقد . وانه بتعقيده قد استهلك المعنى . واشباه لهذا . ثم لا

يخطر ببالهم انه يجب ان يطلب لما قالوه معنى وتعلم له فائدة ويجشم فيه
فكر . وان يعتقد على الجملة أقل مافى الباب انه كلام لا يصح حمله على
ظاهره . وأن يكون المراد باللفظ فيه نطق اللسان . فالوصف بالتمكن
والقلق في اللفظ محال فانما يتمكن الشيء ويقلق اذا كان شيئاً يثبت في
مكان والالفاظ حروف لا يوجد منها حرف حتى يعدم الذي كان قبله
وقولهم متمكن أو قلق وصف للكلمة بأسرها لا حرف منها . ثم انه لو
كان يصح فى حروف الكلمة ان تكون باقية بمجموعها لكان ذلك فيها
محالا أيضاً من حيث ان الشيء انما يتمكن ويقلق في مكانه الذي يوجد
فيه ومكان الحروف انما هو الحلق والفم واللسان والشفتان فلو كان
يصح عليها ان توصف بأنها تمكن وتقلق لكان يكون ذلك التمكن وذلك
القلق منها في أماكنها من الحلق والفم واللسان والشفتين . وكذلك
قولهم . لفظ ليس فيه فضل عن معناه . محال أن يكون المراد به اللفظ
لأنه ليس هاهنا اسم أو فعل أو حرف يزيد على معناه أوينقص عنه .
كيف وليس بالذرع وضعت الالفاظ على المعاني . وان اعتبرنا المعانى
المستفادة من الجمل فكذلك وذلك انه ليس هاهنا جملة من مبتدإ وخبر
أو فعل وفاعل يحصل بها الاثبات أو النفى أتم أو أنقص مما يحصل
باخرى وانما فضل اللفظ عن المعنى ان تزيد الدلالة بمعنى على معنى
فتدخل في أثناء ذلك شيئاً لا حاجة بالمعنى المدلول عليه اليه وكذلك
السبيل في السبك والطابع وأشباههما لايحتمل شيء من ذلك ان يكون
المراد به اللفظ من حيث هو لفظ

فان أردت الصدق فانك لا ترى في الدنيا شأناً أعجب من شأن
الناس مع اللفظ ولا فساد رأي مازج النفوس وخامرها واستحكم فيها

وصار كاحدى طبائعها من رأيهم فى اللفظ فقد بلغ من ملكته لهم
وقوته عليهم أن تركهم وكأنهم اذا نوظروا فيه أخذوا عن أنفسهم .
وغيبوا عن عقولهم . وحيل بينهم وبين أن يكون لهم فيما يسمعونه نظر
ويرى لهم ايراد فى الاصغاء وصدر . فلست ترى الانفوساً قد جعلت
ترك النظر دأبها . ووصلت بالهوينا أسبابها . فهي تغتر بالاضاليل .
وتتباعد عن التحصيل . وتلقى بأيديها الى الشبه . وتسرع الى القول
المموه .

ولقد بلغ من قلة نظرهم ان قوما منهم لما رأوا الكتب المصنفة فى
اللغة قدشاع فيها ان توصف الالفاظ المفردة بالفصاحة ورأوا أباالعباس
ثعلبا قد سمى كتابه (الفصيح) مع انه لم يذكر فيه الا اللغة والالفاظ
المفردة وكان محالا اذا قيل ان الشمع بفتح الميم أفصح من الشمع باسكانه
ان يكون ذلك من أجل المعنى اذليس تفيد الفتحة فى الميم شيئاً فى الذى
سمى به — سبق الى قلوبهم (*) ان حكم الوصف بالفصاحة أينما كان
وفى أى شيء كان ان لا يكون لهمرجع الى المعنى البتة . وان يكون
وصفا للفظ فى نفسه ومن حيث هو لفظ ونطق لسان . ولم يعلموا ان
المعني فى وصف الالفاظ المفردة بالفصاحة انها فى اللغة أثبت : وفى
استعمال الفصحاء أكثر . أوانها أجرى على مقاييس اللغة والقوانين
التي وضعوها : وان الذى هو معنى الفصاحة فى أصل اللغة هو الابانة
عن المعنى بدلالة قولهم : فصيح وأعجم : وقولهم : أفصح الاعجمي
وفصح اللحان وأفصح الرجل بكذا : اذا صرح به : وأنه لو كان
وصفهم الكلمات المفردة بالفصاحة من أجل وصف هو لها من حيث هي ألفاظ
و نطق لسان لوجب اذا وجدت كلمة يقال انها كلمة فصيحة على صفة فى اللفظ

ان لا توجد كلمة على تلك الصفة الا وجب لها ان تكون فصيحة وحتى يجب اذا كان (نقهت الحديث) بالكسر أفصح منه بالفتح أن يكون سبيل كل فعل مثله فى الزنة ان يكون الكسر فيه أفصح من الفتح : ثم ان فيما أودعه ثعلب كتابه ماهو أفصح من أجل ان لم يكن فيه حرف كان فيما جعله أفصح منه: مثل ان (وقفت) أفصح من (أوقفت) أفترى انه حدث فى الواو والقاف والفاء بأن لم يكن معها الهمزة فضيلة وجب لها ان تكون أفصح وكفى برأى هذا مؤداه تهافتا وخطلا

وجملة الامر انه لا بد لقولنا (الفصاحة) من معنى يعرف فان كان ذلك المعنى وصفاً فى ألفاظ الكلمات المفردة فينبغي ان يشار لنا اليه : وتوضع اليد عليه : ومن أبين مايدل على قلة نظرهم انه لاشبهة على من نظر فى كتاب تذكر فيه الفصاحة ان الاستعارة عنوان مايجعل به اللفظ فصيحاً وان المجاز جملته والايجاز من معظم مايوجب للفظ الفصاحة : وأنت تراهم يذكرون ذلك ويعتمدونه ثم يذهب عنهم ان ايجابهم الفصاحة للفظ بهذه المعاني اعتراف بصحة مانحن ندعوهم الى القول به من انه يكون فصيحا لمعناه : أما الاستعارة فانهم ان أغفلوا فيها الذى قلناه من ان المستعار بالحقيقة يكون معنى اللفظ واللفظ تبع من حيث انا لا نقول : رأيت أسداً : ونحن نعنى رجلا الا على انا ندعي انا رأينا أسداً بالحقيقة من حيث نجعله لايتميز عن الاسد فى بأسه وبطشه وجراءة قلبه • فانهم على كل حال لا يستطيعون ان يجعلوا الاستعارة وصفاً للفظ من حيث هو لفظ مع ان اعتقادهم أنك اذا قلت • رأيت أسداً • كنت نقلت اسم الاسد الى الرجل أوجعلته هكذا غفلا ساذجاً في معنى شجاع أفتري ان لفظ الاسد لما نقل عن السبع الى الرجل

المشبه به أحدث هذا النقل في أجراس حروفه ومذاقتها وصفاً صار بذلك الوصف فصيحا •

ثم ان من الاستعارة قبيلا لا يصح ان يكون المستعار فيه اللفظ البتة ولا يصح ان تقع الاستعارة فيه الا على المعنى وذلك ما كان مثل اليد في قول لبيد •

وغداة ريح قد كشفت وقرة   اذ أصبحت بيد الشمال زمامها

ذاك انه ليس هاهنا شيء يزعم انه شبه باليد حتى يكون لفظ اليد مستعاراً له وكذلك ليس فيه شيء يتوهم أن يكون قد شبه بالزمام وانما المعنى على انه شبه الشمال فى تصريفها الغداة على طبيعتها بالانسان يكون زمام البعير فى يده فهو يصرفه على ارادته ولما أراد ذلك جعل للشمال يداو على الغداة زماما وقد شرحت هذا قبل شرحا شافياً

وليس هذا الضرب من الاستعارة بدون الضرب الاول فى إيجاب وصف الفصاحة للكلام لابل هو أقوى منه فى اقتضائها • والمحاسن التى تظهر به والصور التى تحدث للمعانى بسببه آنق وأعجب • وان أردت ان تزداد علما بالذى ذكرت لك من أمره فانظر الى قوله *سقته كف الليل أكواس الكرى* وذلك انه ليس يخفى على عاقل انه لم يرد ان يشبه شيئاً بالكف ولا أراد ذلك فى الأكواس ولكن لما كان يقال • سكر الكرى وسكر النوم استعار للكرى الأكواس كما استعار الآخر الكأس فى قوله *وقد سقى القوم كأس النعسة السهر*

ثم انه لما كان الكرى يكون فى الليل جعل الليل ساقيا ولما جعله ساقيا جعل له كفا اذ كان الساقي يناول الكأس بالكف • ومن اللطيف النادر فى ذلك ماتراه فى آخر هذه الابيات وهي للحكم بن

قبر •

ولولا اعتصامى بالمـنى كلمـا بدا — لى اليأس منها لم يقم بالهوى صبرى
ولولا انتظارى كل يوم جدى غد — لراح بنعشي الدافنون الى قبرى
وقد رابني وهن المنى وانقباضها — وبسط جديد اليأس كفيه في صدرى

ليس المعنى على انه استعار لفظ الكفين لشيء ولكن على انه أراد ان يصف اليأس بانه قد غلب على نفسه • وتمكن فى صدره . ولما أراد ذلك وصفه بما يصفون به الرجل بفضل القدرة علي الشيء وبانه متمكن منه وانه يفعل فيـه كل مايريد كقولهم . قد بسط يديه فى المال ينفقه ويصنع فيه مايشاء وقد بسط العامل يده في الناحية وفي ظلم الناس . فليس لك الا ان تقول انه لما أراد ذلك جعل لليأس كفين واستعارهما له . فأما ان توقع الاستعارة فيه على اللفظ فما لاتخفى استحالته على عاقل •

والقول فى المجاز هو القـول فى الاسـتعارة لانه ليس هو بشيء غيرها وانما الفرق أن المجاز أعم من حيث ان كل استعارة مجاز وليس كل مجاز استعارة • واذا نظرنا من المجاز فيما لا يطلق عليه انه استعارة ازداد خطأ القوم قبحاً وشناعة وذلك انه يلزم على قياس قولهم أن يكون انما كان قوله تعالى «وهو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً» أفصح من أصـله الذى هو قولنا • والنهار لتبصروا أنتم فيه أو مبصرا أنتم فيه • من أجل أنه حـدث في حروف مبصر بان جعل الفعل للنهار علي سعة الكلام — وصف لم يكن • وكذلك يلزم أن يكون السبب في أن كان قول الشاعر * فنام ليلي وتجلى همي * أفصح من قولنا . فنمت فى ليلى . أن كسب هـذا المجاز لفظ نام ولفظ

الليل مذاقة لم تكن لهما • وهذا مما ينبغي للعاقل أن يستحي منه . وان يأنف من أن يهمل النظر اهمالا يؤديه الى مثـله . ونسأل الله تعالى العصمة والتوفيق

واذ قد عرفت مالزمهم في الاسـتعارة والمجاز فالذي يلزمهم في الايجاز أعجب وذلك انه يلزمهم ان كان اللفظ فصيحاً لامر يرجع اليه نفسه دون معناه ان يكون كذلك موجزا لامر يرجع الي نفسه وذلك من المحال الذي يضحك منه لانه لامعـنى للايجاز الا ان يدل بالقليل من اللفظ على الكثير من المعني واذا لم تجعله وصفاً للفظ من أجل معناه أبطلت معناه أعني أبطلت معني الايجاز •

ثم ان ههنا معني شريفاً قد كان ينبغي ان نكون قـد ذكرناه فى أثناء مامضي من كلامنا وهو ان العاقـل اذا نظر علم علم ضرورة انه لاسبيل له الى ان يكثر معانى الالفاظ أو يقللها لان المعانى المودعة في الالفاظ لاتتغير على الجملة عما أراده واضع اللغـة واذا ثبت ذلك ظهر منه انه لامعـنى لقولنا . كثرة المعنى مع قلة اللفظ . غـير ان المتكلم يتوصل بدلالة المعني علي المعنى الي فوائد لو انه أراد الدلالة عليها باللفظ لاحتاج الى لفظ كثير

واعم ان القول الفاسد والرأى المدخول اذا كان صـدوره عن قوم لهم نباهة وصيت وعلو منزلة في أنواع من العلوم غير العلم الذى قالوا ذلك القول فيه ثم وقع في الالسن فتداولته ونشرته وفشا وظهر وكثر الناقلون له والمشيدون بذكره صار ترك النظر فيه سنة والتقليد ديناً . ورأيت الذين هم أهل ذلك العلم وخاصته والممارسون له والذين هم خلقاء أن يعرفوا وجه الغلط والخطأ فيه — لو أنهم نظروا فيـه

كالاجانب الذين ليسوا من أهله فى قبوله والعمل به والركون اليه
• ووجدتهم قد أعطوه مقادتهم • وألا نواله جانبهم • وأوهمهم
النظر الى منتماه ومنتسبه ثم اشتهاره وانتشاره وإطباق الجمع بعد الجمع
عليه • أن الضن به أصوب • والمحاماة عليه أولى • ولربما بل كماظنوا
انه لم يشع ولم يتسع ولم يروه خلف عن سلف وآخر عن أول الا
لان له أصلا صحيحاً • وانه أخذ من معدن صدق • واشتق من نبعة
كريمة • وانه لو كان مدخولا لظهر الدخل الذي فيه على تقادم الزمان
وكرور الايام • وكم من خطأ ظاهر ورأى فاسد حظي بهذا السبب
عند الناس حتى بوأوه فى أخص موضع من قلوبهم • ومنحوه المحبة
الصادقة من نفوسهم • وعطفوا عليه عطف الام على واحدها
• وكم من داء دوى قد استحكم بهذه العلة حتى أعيا علاجه وحتي
بعل به الطبيب ولولا سلطان هذا الذي وصفت على الناس وأن له
أخذة تمنع القلوب عن التدبر • وتقطع عنها دواعى التفكر • لما كان
لهذا الذى ذهب اليه القوم فى أمر اللفظ هذا التمكن وهذه القوة ولا
كان يرسخ في النفوس هذا الرسوخ • وتتشعب عروقه هذا التشعب
مع الذى بان من تهافته وسقوطه . وفحش الغلط فيه وانك لاترى فى
اديمه من أين نظرت وكيف صرفت وقلبت مصحا . ولا تراه باطلا
فيه شوب من الحق وزيفا فيه شئ من الفضة . ولكن ترى الغش بحتا
والغلط صرفا . ونسأل الله التوفيق

وكيف لايكون فى إسار الاخذة . ومحولا بينه وبين الفكرة . من
يسلم ان الفصاحة لاتكون فى أفراد الكلمات وانها انما تكون فيها اذا
ضم بعضها الى بعض ثم لايعلم ان ذلك يقتضي ان تكون وصفا لها من

أجل معانيها لامن أجل أنفسها ومن حيث هي ألفاظ ونطق لسان
• ذاك لانه ليس من عاقل يفتح عين قلبه الا وهو يعلم ضرورة أن المعنى
فى ضم بعضها الى بعض تعليق بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من
بعض لاان ينطق بعضها في أثر بعض من غيران يكون فيما بينهما تعلق
• ويعلم كذلك ضرورة — اذا فكر — أن التعلق يكون فيما بين معانيها
لافيما بينها أنفسها . ألا ترى انا لو جهدنا كل الجهد ان نتصور تعلقاً
فيما بين لفظين لامعنى تحتهما لم نتصور ومن أجل ذلك انقسمت الكلم
قسمين مؤتلف وهو الاسم مع الاسم والفعل مع الاسم وغير مؤتلف
وهو ماعدا ذلك كالفعل مع الفعل والحرف مع الحرف . ولو كان
التعلق يكون بين الالفاظ لكان ينبغي ان لايختلف حالها في الائتلاف
وان لايكون فى الدنيا كلمتان الا ويصح ان يأتلفا لانه لاتنافى
بينهما من حيث هي ألفاظ . واذا كان كل واحد منهم قد أعطى يده
بان الفصاحة لاتكون فى الكلم أفراداً وانها انما تكون اذا ضم بعضها
الى بعض وكان يكون المراد بضم بعضها الى بعض تعليق معانيها بعضها
ببعض لا كون بعضها في النطق على أثر بعض وكان واجباً اذا علم ذلك
ان يعلم ان الفصاحة تجب لها من أجل معانيها لامن أجل أنفسها لانه
محال أن يكون سبب ظهور الفصاحة فيها تعلق معانيها بعضها ببعض ثم
تكون الفصاحة وصفاً يجب لها لانفسها لالمعانيها واذا كان العلم بهذا
ضرورة ثم رأيتهم لايعلمونه فليس الا ان اعتزامهم على التقليد قد حال
بينهم وبين الفكرة وعرض لهم منه شبه الاخذة .

واعلم انك اذا نظرت وجدت مثلهم مثل من يرى خيال الشيء
فيحسبه الشيء وذاك انهم قد اعتمدوا فى كل أمرهم على النسق الذى

يرونه فى الالفاظ وجعلوا لايحفلون بغيره ولا يعولون في الفصاحة والبلاغة على شيء سواه . حتى انتهوا الى ان زعموا ان من عمد الى شعر فصيح فقرأه ونطق بألفاظه على النسق الذى وضعها الشاعر عليه كان قد أتي بمثل ماأتى به الشاعر فى فصاحته وبلاغته الا انهم زعموا أنه يكون في اتيانه به محتذيا لامبتدئاً . ونحن اذا تأملنا وجدنا الذى يكون فى الالفاظ من تقديم شيء منها على شيء انما يقع فى النفس أنه نسق اذااعتبرنا ماتوخي من معانى النحو في معانيهافاما مع ترك اعتبار ذلك فلا يقع ولا يتصور بحال . أفلا ترى انك لو فرضت في قوله

* قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * أن لايكون نبك جوابا للامر ولا يكون معدي بمن الى ذكرى ولا يكون ذكرى مضافة الى حبيب ولا يكون منزل معطوفا بالواو على حبيب لخرج ماترى فيه من التقديم والتأخير عن ان يكون نسقاً • ذاك لانه انما يكون تقديم الشيء على الشيء نسقاً وترتيباً اذا كان ذلك التقديم قد كان لموجب أوجب ان يقدم هذا ويؤخر ذاك فأما أن يكون مع عدم الموجب نسقاً فمحال لانه لو كان يكون تقديم اللفظ على اللفظ من غير أن يكون له موجب نسقاً لكان ينبغي أن يكون توالى الالفاظ فى النطق على أي وجه كان نسقاً حتى انك لو قلت : نبك قفا حبيب ذكري من : لم تكن قد أعدمته النسق والنظم وانما أعدمته الوزن فقط وقد تقدم هذا فيما مضى ولكنا أعدناه ههنا لان الذى أخذنا فيه من اسلام القوم أنفسهم الى التقليد اقتضي اعادته

واعلم ان الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه ان يبتدئ الشاعر في معنى له وغرض أسلوبا — والاسلوب

الضرب من النظم والطريقة فيه — فيعمد شاعر آخر الى ذلك الاسلوب فيجيء به فى شعره فيشبه بمن يقطع من أديمه نعلا على مثال نعل قد قطعها صاحبها فيقال قد احتذى علي مثاله وذلك مثل أن الفرزدق قال •

أترجو ربيع أن تجيء صغارها بخير وقد أعيا ربيعا كبارها

واحتذاه العيث فقال :

أترجو كليب أن يجيء حديثها بخير وقد أعيا كليباقديمها

وقالوا ان الفرزدق لما سمع هذا البيت قال

اذا ماقلت كافية شروداً تنحلها ابن حمراء العجان

ومثل ذلك ان البعيث قال فى هذه القصيدة

كليب لئام الناس قد يعلمونه وانت اذا عدت كليبا لئيمها

وقال البحتري •

بنو هاشم فى كل شرق ومغرب كرام بنى الدنيا وأنت كريمها

وحكي العسكرى في صنعة الشعر ان ابن الرومي قال قال لى البحترى قول أبى نواس •

ولم أدر من هم غير ماشهدت لهم بشرقى ساباط الديار البسابس

مأخوذ من قول أبى خراش (الهذلي)

ولم أدر من ألقى عليه رداءه سوي انه قد سل من ماجد محض

قال فقلت قد اختلف المعنى فقال • أما ترى حذو الكلام حذواً واحداً ؟ • وهذا الذى كتبت من حلى الاخذ فى الحذو • ومما هو في حد الخفي قول البحترى

ولن ينقل الحساد مجدك بعد ما تمكن رضوى واطمأن متالع

وقول أبي تمام ·

ولقد جهدتم ان تزيلوا عزة   فاذا أبان قد رسا ويلملم

قد احتذى كل واحد منهما على قول الفرزدق

فادفع بكفك ان أردت بناءنا   ثهلان ذا الهضبات هل يتحلحل

وجملة الامر انهم لايجعلون الشاعر محتذيا الا بما يجعلونه به آخذاً ومسترقا قال ذوا الرمة

وشعر قدأرقت لهعزيب   أجنبه المساند والمحالا
فبت أقيمه وأقد منه   قوافي لاأريد لها مثالا

قال يقول · لاأحذوها على شيء سمعته · فأما أن يجعل إنشاد الشعر وقراءته احتذاء فما لايعلمونه كيف واذا عمد عامد الى بيت شعر فوضع مكان كل لفظة لفظاً فى معناه كمثل أن يقول في قوله ·

دع المكارم لاترحل لبغيتها   واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى
ذر المآثر لاتذهب لمطلبها   واجلس فانك أنت الآكل اللابس

لم يجعلوا ذلك احتذاء ولم يؤهلوا صاحبه لان يسموه محتذيا ولكن يسمون هذا الصنيع صلخاً ويرذلونه ويسخفون المتعاطي له · فمن أين يجوز لنا ان نقول في صبى يقرأ قصيدة امريء القيس انه احتذاه فى قوله ·

فقلت له لما تمطي بصلبه   واردف أعجازاً وناء بكلكل

والعجب من انهم لم ينظروا فيعلموا أنه لو كان منشد الشعر محتذيا لكان يكون قائل شعر كما ان الذى يحذو النعل بالنعل يكون قاطع نعل وهذا تقرير يصلح لان يحفظ للمناظرة ـ ينبغى ان يقال لمن يزعم ان

المنشد اذا أنشد شعر امرئ القيس كان قد أتى بمثله على سبيل الاحتذاء · أخبرنا عنك لما ذا زعمت ان المنشد قد أتى بمثل ماقاله امرؤ القيس ألأنه نطق بانفس الالفاظ التى نطق بها أم لانه راعي النسق الذى راعاه فى النطق بها · فان قلت · ان ذلك لانه نطق بانفس الالفاظ التي نطق بها · أحلت لانه انما يصح أن يقال فى الثاني انه أتى بمثل ماأتى به الاول اذا كان الاول قد سبق الى شيء فأحدثه ابتداء وذلك في الالفاظ محال اذ ليس يمكن أن يقال انهم لم ينطق بهذه الالفاظ التي هي فى قوله * قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل * قبل امرئ القيس أحد · وان قلت · ان ذلك لانه قد راعى فى نطقه بهذه الالفاظ النسق الذى راعاه امرؤ القيس · قيل ان كنت لهذا قضيت فى المنشد انه قد أتى بمثل شعره فأخبرنا عنك اذا قلت ان التحدي وقع فى القرآن الى أن يؤتى بمثله على جهة الابتداء ماتعنى به · أتعنى أنه يأتى فى ألفاظ غير ألفاظ القرآن بمثل الترتيب والنسق الذى تراه فى ألفاظ القرآن · فان قال · ذلك أعنى · قيل له أعلمت أنه لايكون الاتيان بالاشياء بعضها في أثر بعض على التوالى نسقاً وترتيباً حتى تكون الاشياء مختلفة فى أنفسها ثم يكون للذى يجيء بها مضموما بعضها الى بعض غرض فيها ومقصود لايتم ذلك الغرض وذاك المقصود الا بان يتخير لها مواضع فيجعل هذا أولا وذاك ثانيا · فان هذا مالا شبهة فيه على عاقل · واذا كان الامر كذلك لزمك ان تبين الغرض الذى اقتضي أن تكون ألفاظ القرآن منسوقة النسق الذي تراه ولا مخلص له من هذه المطالبة لانه اذا أبى أن يكون المقتضى والموجب للذي تراه من النسق المعاني وجعله قد وجب لامر يرجع الى اللفظ لم تجد شيئا

يحيل الاعجاز فى وجوبه عليه البتة • اللهم الا أن يجعل الاعجاز في الوزن ويزعم أن النسق الذى تراه فى ألفاظ القرآن انما كان معجزاً من أجل ان كان قد حدث عنه ضرب من الوزن يعجز الخلق عن أن يأتوا بمثله واذا قال ذلك لم يمكنه أن يقول أن التحدي وقع الى ان يأتوا بمثله فى فصاحته وبلاغته لان الوزن ليس هو من الفصاحة والبلاغة فى شيء اذ لو كان له مدخل فيهما لكان يجب فى كل قصيدتين اتفقتا فى الوزن ان تتفقا في الفصاحة والبلاغة . فان دعا بعض الناس طول الالف لما سمع من ان الاعجاز فى اللفظ الي ان يجعله فى مجرد الوزن كان قد دخل فى أمر شنيع وهو انه يكون قد جعل القرآن معجزاً لامن حيث هو كلام ولا بما به كان لكلام فضل على كلام فليس بالوزن ماكان الكلام كلاما ولا به كان كلام خيراً من كلام

وهكذا السبيل ان زعم زاعم ان الوصف المعجز هو الجريان والسهولة ثم يعنى بذلك سلامته من ان تلتقى فيه حروف تثقل على اللسان لانه ليس بذلك كان الكلام كلاما ولا هو بالذي يتناهي أمره ان عد في الفضيلة الى أن يكون الاصل والى أن يكون المعول عليه فى المفاضلة بين كلام وكلام • فما به كان الشاعر مفلقا • والخطيب مصقعا والكاتب بليغا • ورأينا العقلاء حيث ذكروا عجز العرب عن معارضة القرآن قالوا ان النبي صلى الله عليه وسلم تحداهم وفيهم الشعراء والخطباء والذين يدلون بفصاحة اللسان • والبراعة والبيان • وقوة القرائح والاذهان • والذين أوتوا الحكمة وفصل الخطاب • ولم نرهم قالوا ان النبي عليه السلام تحداهم وهم العارفون بما ينبغي ان يصنع حتى يسلم الكلام من أن تلتقى فيه حروف تثقل على اللسان ولما ذكروا معجزات

الانبياء عليهم السلام وقالوا : ان الله تعالى قد جعل معجزة كل نبي فيما كان أغلب على الذين بعث فيهم وفيما كانوا يتباهون به وكانت عوامهم تعظم به خواصهم • قالوا • انه لما كان السحر الغالب على قوم فرعون ولم يكن قد استحكم في زمان استحكامه في زمانه جعل تعالى معجزة موسي عليه السلام في إبطاله وتوهينه ولما كان الغالب علي زمان عيسي عليه السلام الطب جعل الله تعالي معجزته فى ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتي • ولما انتهوا الى ذكر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وذكر ماكان الغالب على زمانه لم يذكروا الا البلاغة والبيان والتصرف فى ضروب النظم • وقد ذكرت في الذي تقدم عين ماذكرته ههنا مما يدل على سقوط هذا القول وما دعانى الى اعادة ذكره الا انه ليس تهالك الناس في حديث اللفظ والمحاماة على الاعتقاد الذى اعتقدوه فيه وظن أنفسهم به الى حد فاحببت لذلك أن لاأدع شيئاً مما يجوز ان يتعلق به متعلق ويلجأ اليه لاجيء ويقع منه في نفس سامع شك الا استقصيت في الكشف عن بطلانه

وههنا أمر عجيب وهو انه معلوم لكل من نظر ان الالفاظ من حيث هي ألفاظ وكلم ونطق لسان لاتختص بواحد دون آخر وانها انما تختص اذا توخي فيها النظم واذا كان كذلك كان من رفع النظم من البين وجعل الاعجاز بجملته في سهولة الحروف وجريانها جاعلا له فيما لايصح اضافته الي الله تعالي وكفى بهذا دليلا على عدم التوفيق وشدة الضلال عن الطريق •

﴿ فصل ﴾

قد بلغنا فى مداواة الناس من دائهم وعلاج الفساد الذى عرض فى

أرائهم كل مبلغ . وانتهينا الى كل غاية . وأخذنا بهم عن المجاهل التى كانوا يتعسفون فيها الى السنن اللاحب . ونقلناهم عن الآجن المطروق الي النمير الذي يشفى غليل الشارب . ولم ندع لباطلهم عرقا ينبض الا كويناه . ولا للخلاف لسانا ينطق الا أخرسناه . ولم نترك غطاء كان على بصر ذى عقل الا حسرناه . فيا أيها السامع لما قلناه والناظر فيما كتبناه والمتصفح لما دوّناه . ان كنت سمعت سماع صادق الرغبة فى أن تكون فى أمرك على بصيرة . ونظرت نظر تام العناية فى أن يورد ويصدر عن معرفة . وتصفحت تصفح من اذا مارس باباً من العلم لم يقنعه الا أن يكون على ذروة السنام ويضرب بالمعلى من السهام فقد هديت لضالتك . وفتح لك الطريق الى بغيتك . وهيء لك الاداة التي بها تبلغ . وأوتيت الآلة التى معها تصل . فخذ لنفسك بالتى هي أملأ ليديك وأعود بالحظ عليك ووازن بين حالك الآن وقد تنبهت من رقدتك وأفقت من غفلتك وصرت تعلم — اذا أنت خضت في أمر اللفظ والنظم معني ما تذكر وتعلم كيف تورد وتصدر ؟ وبينها وأنت من أمرها فى عمياء . وخابط خبط عشواء . قصاراك أن تكرر ألفاظاً لاتعرف لشيء منها تفسيراً وضروب كلام للبلغاء ان سئلت عن اغراضهم فيها لم تستطع لها تبييناً . فانك تراك تطيل التعجب من غفلتك وتكثر الاعتذار الى عقلك من الذي كنت عليه طول مدتك . ونسأل الله تعالى أن يجعل كل مانأتيه ونقصده وننتحيه . لوجهه خالصاً والى رضاه عز وجل مؤدياً . ولثوا به مقتضياً . وللزلفى عنده موجباً . بمنه وفضله ورحمته

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم أنه لما كان الغلط الذى دخل على الناس في حديث اللفظ كالداء الذى يسرى في العروق ويفسد مزاج البدن . وجب أن يتوخى دائباً فيهم ما يتوخاه الطبيب فى الناقة من تعهده بما يزيد في مُنته ويبقيه على صحته ويؤمنه النكس في علته . وقد علمنا أن أصل الفساد وسبب الآفة هوذهابهم عن أن من شأن المعانى أن تختلف عليها الصور وتحدث فيها خواص ومزايا من بعد أن لاتكون . فإنك ترى الشاعر قد عمد الى معنى مبتذل فصنع فيه مايصنع الصانع الحاذق اذا هو أغرب في صنعة خاتم وعمل شنف وغيرهما من أصناف الحلى . فان جهلهم بذلك من حالها هو الذى أغواهم واستهواهم . وورطهم فيما تورطوا فيه من الجهالات وأداهم الى التعلق بالمحالات . وذلك أنهم لما جهلوا شأن الصورة وضعوا لانفسهم أساساً وبنوا على قاعدة . فقالوا انه ليس الا المعني واللفظ ولا ثالث وانه اذا كان كذلك وجب اذا كان لاحد الكلامين فضيلة لاتكون للآخر ثم كان الغرض من أحدهما هو الغرض من صاحبه أن يكون مرجع تلك الفضيلة الى اللفظ خاصة وأن لايكون لها مرجع الى المعنى من حيث ان ذلك زعموا يؤدى الى التناقض وأن يكون معناهما متغايراً وغير متغاير معاً ؟ ولما أقروا هذا فى نفوسهم حملوا كلام العلماء في كل مانسبوا فيه الفضيلة الى اللفظ على ظاهره وأبو أن ينظروا فى الاوصاف التى أتبعوها نسبتهم الفضيلة الى اللفظ مثل قولهم لفظ متمكن غير قلق ولا ناب به موضعه الى سائر ما ذكرناه قبل فيعلموا أنهم لم يوجبوا اللفظ ما أوجبوه من الفضيلة وهم يعنون

نطق اللسان وأجراس الحروف ولكن جعلوا كالمواضعة فيما بينهم أن يقولوا اللفظ وهم يريدون الصورة التي تحدث في المعنى والخاصة التي حدثت فيه ويعنون الذي عناه الجاحظ حيث قال . وذهب الشيخ الى استحسان المعاني والمعاني مطروحة وسط الطريق يعرفها العربي والعجمي والحضري والبدوي وانما الشعر صياغة وضرب من التصوير ومايعنونه اذا قالوا انه يأخذ الحديث فيشنفه ويقرطه ويأخذ المعنى خرزة فيرده جوهرة وعباءة فيجعله ديباجة ويأخذه عاطلا فيرده حالياً وليس كون هذا مرادهم بحيث كان ينبغي أن يخفى هذا الخفاء ويشتبه هذا الاشتباه ولكن اذا تعاطى الشيء غير أهله وتولى الامر غير البصير به أعضل الداء واشتد البلاء ولو لم يكن من الدليل على أنهم لم يحلوا اللفظ الفضيلة وهم يريدونه نفسه وعلى الحقيقة الا واحد وهو وصفهم له بانه يزين المعنى وانه حلي له لكان فيه الكفاية . وذاك أن الالفاظ أدلة على المعاني وليس للدليل الا أن يعلمك الشيء على مايكون عليه فأما أن يصير الشيء بالدليل على صفة لم يكن عليها فالا يقوم في عقل ولا يتصور في وهم

ومما اذا تفكر فيه العاقل أطال التعجب من أمر الناس ومن شدة غفلتهم قول العلماء حيث ذكروا الأخذ والسرقة أن من أخذ معنى عارياً فكساه لفظاً من عنده كان أحق به . وهو كلام مشهور متداول يقرأ الصبيان في أول كتاب عبد الرحمن ثم لاترى أحدا من هؤلاء الذين لهجوا بجعل الفضيلة في اللفظ يفكر في ذلك فيقول من أين يتصور أن يكون ههنا معنى عار من لفظ يدل عليه ثم من أين يعقل أن يجيء الواحد منا لمعنى من المعاني بلفظ من عنده ان كان المراد باللفظ نطق اللسان . ثم هب أنه يصح له أن يفعل ذلك فمن أين يجب

اذا وضع لفظاً على معنى أن يصير أحق به من صاحبه الذي أخذه منه ان كان هو لا يصنع بالمعنى شيئاً ولا يحدث فيه صفة ولا يكسبه فضيلة واذا كان كذلك فهل يكون لكلامهم هذا وجه سوي أن يكون اللفظ في قولهم فكساه لفظاً من عنده ، عبارة عن صورة يحدثها الشاعر أو غير الشاعر للمعنى فان قالوا . بلى يكون وهو أن يستعير للمعنى لفظاً قيل الشأن في أنهم قالوا اذا أخذ معنى عارياً فكساه لفظاً من عنده كان أحق به والاستعارة عندكم مقصورة على مجرد اللفظ ولاترون المستعير يصنع بالمعنى شيئاً وترون أنه لايحدث فيه مزية على وجه من الوجوه واذا كان كذلك فمن أين ـ ليت شعري ـ يكون أحق به فاعرفه ثم ان أردت مثالا في ذلك فان من أحسن شيء فيه ماصنع أبو تمام في بيت أبي نخيلة وذلك أن أبا نخيلة قال في مسلمة بن عبدالملك

أمسلم اني يا ابن كل خليفة ... ويا جبل الدنيا ويا واحد الارض
شكرتك ان الشكر حبل من التقى ... وما كل من أوليته صالحاً يقضي
وأنبهت لي ذكرى وما كان خاملا ... ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

فعمد أبو تمام الى هذا البيت الاخير فقال

لقد زدت أوضاحي امتداداً لم أكن ... بهيما ولا أرضي من الارض مجهلا
ولكن أياد صادفتني جسامها ... أغر فأوفت بي أغر محجلا

وفي كتاب الشعر والشعراء للمرزباني فصل في هذا المعنى حسن قال . ومن الامثال القديمة قولهم (حراً أخاف على جاني كمأة لاقراً) يضرب مثلا للذي يخاف من شيء فيسلم منه ويصيبه غيره مما لم يخفه فأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال .

وحذرت من أمر فمر بجانبي ... لم ينكني ولقيت مالم أحذر

وقال لبيد •

أخشى على أربد الحتوف ولا أرهب نوء السماك والاسد

قال وأخذه البحتري فأحسن وطغى اقتداراً على العبارة واتساعا في المعني فقال •

لو انني أوفي التجارب حقها فيما أرت لرجوت ماأخشاه

وشبيه بهذا الفصل فصل آخر من هذا الكتاب أيضاً أنشد لابراهيم ابن المهدي •

يامن لقب صيغ من صخرة في جسد من لؤلوء رطب

جرحت خديه بلحظي فما برحت حتى اقتص من قلبي

ثم قال • قال على بن هارون أخذه أحمد بن أبي فنن معنى ولفظاً فقال •

أدميت باللحظات وجنته فاقتص ناظره من القلب

قال • ولكنه بنقاء عبارته وحسن مأخذه قد صار أولى به • ففي هذا دليل لمن عقل انهم لا يعنون بحسن العبارة مجرد اللفظ ولكن صورة وصفه وخصوصية تحدث في المعنى وشيئاً طريق معرفته على الجملة العقل دون السمع فانه على كل حال لم يقل في البحتري انه أحسن فطغي اقتداراً على العبارة من أجل حروف لواني أوفي التجارب حقها وكذلك لم يصف ابن أبي فنن بنقاء العبارة من أجل حروف أدميت باللحظات وجنته

واعلم انك اذا سبرت أحوال هؤلاء الذين زعموا انه اذا كان المعبر عنه واحداً والعبارة اثنتين ثم كانت إحدى العبارتين أفصح من الاخرى وأحسن فانه ينبغي ان يكون السبب في كونها أفصح وأحسن اللفظ نفسه وجدتهم قد قالوا ذلك من حيث قاسوا الكلامين على الكلمتين فلما رأوا انه اذا قيل في الكلمتين ان معناهما واحد لم يكن بينهما تفاوت ولم يكن

للمعني في احداهما حال لا يكون له في الاخرى ظنوا ان سبيل الكلامين هذا السبيل • ولقد غلطوا فأفحشوا لانه لا يتصور أن تكون صورة المعنى في أحد الكلامين أو البيتين مثل صورته في الآخر البتة اللهم الا أن يعمد عامد الي بيت فيضع مكان كل لفظة منه لفظة في معناها ولا يعرض لنظمه وتأليفه كمثل أن يقول في بيت الحطيئة

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك أنت الطاعم الكاسي

ذر المفاخر لا تذهب لمطلبها واجلس فانك أنت الآكل اللابس

وما كان هذا سبيله كان بمعزل من ان يكون به اعتداد • وان يدخل في قبيل مايفاضل فيه بين عبارتين • بل لا يصح ان يجعل ذلك عبارة ثانية ولا ان يجعل الذى يتعاطاه بمحل من يوصف بانه أخذ معني • ذلك لانه لا يكون بذلك صانعاً شيئاً يستحق ان يدعى من أجله واضع كلام ومستأنف عبارة وقائل شعر • ذاك لان بيت الحطيئة لم يكن كلاما وشعراً من أجل معاني الالفاظ المفردة التي تراها فيه مجردة معراة من معاني النظم والتأليف بل منها متوخي فيها ماترى من كون المكارم مفعولا لدع وكون قوله • لا ترحل لبغيتها • جملة أكدت الجملة قبلها وكون • اقعد • معطوفا بالواو على مجموع مامضى وكون جملة • أنت الطاعم الكاسي • معطوفة بالفاء على اقعد فالذى يجيء فلا يغير شيئاً من هذا الذى به كان كلاما وشعراً لا يكون قد أتى بكلام ثان وعبارة ثانية بل لا يكون قد قال من عند نفسه شيئاً البتة

وجملة الامر انه كما لا تكون الفضة أو الذهب خاتما أو سواراً أو غيرهما من أصناف الحلى بأنفسهما ولكن بما يحدث فيهما من الصورة كذلك لا تكون الكلم المفردة التي هي أسماء وأفعال وحروف كلاماً

وشعراً من غير أن يحدث فيها النظم الذى حقيقته توخي معاني النحو وأحكامه • فاذن ليس لمن يتصدى لماذ كرنا من ان يعمد الى بيت فيضع مكان كل لفظة منها لفظة في معناها الاأن يسترك عقله ويستخف ويعد معد الذى حكى أنه قال • اني قلت بيتاً هو أشعر من بيت حسان قال حسان

يغشون حتي ماتهر كلابهم لايسألون عن السواد المقبل

وقلت •

يغشون حتى ماتهر كلابهم أبداً ولا يسألون من ذا المقبل

فقيل هو بيت حسان ولكنك قد أفسدته

واعلم انه انما أتى القوم من قلة نظرهم في الكتب التى وضعها العلماء فى اختلاف العبارتين على المعنى الواحد وفي كلامهم فى أخذ الشاعر من الشاعر وفي أن يقول الشاعران على الجملة في معنى واحد وفي الاشعار التى دونوها في هذا المعني ولو أنهم كانوا أخذوا أنفسهم بالنظر في تلك الكتب وتدبروا مافيها حق التدبر لكان يكون ذلك قد أيقظهم من غفلتهم •وكشف الغطاء عن أعينهم •

وقد أردت ان أ كتب جملة من الشعر الذى أنت ترى الشاعرين فيه قد قالا في معنى واحد وهو ينقسم قسمين قسم أنت تري أحد الشاعرين فيه قد أتى بالمعنى غفلا ساذجا وتري الآخر قد أخرجه في صورة تروق وتعجب • وقسم أنت تري كل واحد من الشاعرين قد صنع في المعنى وصور وأبدأ بالقسم الاول الذي يكون المعنى فى أحد البيتين غفلا وفي الآخر مصورا مصنوعا ويكون ذلك إما لان متأخرا قصر عن متقدم وإما لان هدي متأخر لشيء لم يهتد اليه المتقدم ومثال ذلك قول المتنبى .

بئس الليالي سهرت من طربي شوقا إلى من يبيت يرقدها

مع قول البحترى

ليل يصادفني ومرهفة الحشا ضدين أسهره لها وتنامه

وقول البحتري :

ولو ملكت زماعا ظل يجذبني قودا لكان ندي كفيك من عقلي

مع قول المتنبى :

وقيدت نفسي في ذراك محبة ومن وجد الاحسان قيداً تقيدا

وقول المتنبى :

اذا اعتل سيف الدولة اعتلت الارض ومن فوقها والبأس والكرم المحض

مع قول البحترى :

ظللنا نعود الجود من وعكك الذى وجدت وقلنا اعتل عضو من المجد

وقول المتنبى .

يعطيك مبتدئاً فان أعجلته أعطاك معتذرا كمن قد أجرما

مع قول أبي تمام ،

أخو عزمات فعله فعل محسن إلينا ولكن عذره عذر مذنب

وقول المتنبى ،

كريم متى استوهبت ماأنت راكب وقد لقحت حرب فانك نازل

مع قول البحترى

ماض على عزمه في الجود لووهب الـشباب يوم لقاء البيض ماندما

وقول المتنبى

والذى يشهد الوغى ساكن القلـب كأن القتال فيها ذمام

مع قول البحترى

لقد كان ذاك الجاش جاش مسالم على ان ذاك الزى زى محارب

مع قول البحترى

لقد كان ذاك الجأش جأش مسالم   على أن ذاك الزى زى محارب

وقول أبى تمام

الصبح مشهور بغير دلائل   من غيره ابتغيت ولا أعلام

مع قول المتنبي

وليس يصح في الافهام شيء   اذا احتاج النهار الى دليل

وقول أبي تمام

وفي شرف الحديث دليل صدق   لمختبر على شرف القديم

مع قول المتنبى

أفعاله نسب لو لم يقل معها   جدى الخصيب عرفنا العرق بالغصن

وقول البحترى

وأحب آفاق البلاد الى فتى   أرض ينال بها كريم المطلب

مع قول المتنبي

وكل امرىء يولي الجميل محبب   وكل مكان ينبت العز طيب

وقول المتنبى

يقر له بالفضل من لا يوده   ويقضي له بالسعد من لا ينجم

مع قول البحترى

لا أدعي لأبي العلاء فضيلة   حتى يسلمها اليه عداه

وقول خالد الكاتب

رقدت ولم ترث للساهر   وليل المحب بلا آخر

مع قول بشار

لخديك من كفيك فى كل ليلة   الى أن ترى ضوء الصباح وساد

تبيت تراعى الليل ترجو نفاده   وليس لليل العاشقين نفاد

وقول أبى تمام

نوى بالمشرقين لهم ضجاج   أطار قلوب أهل المغربين

وقول البحتري

تناذر أهل الشرق منه وقائعا   أطاع لها العاصون في بلد الغرب

مع قول مسلم

لما نزلت على أدني ديارهم   ألقى اليك الأقاصي بالمقاليد

وقول محمد بن بشير

أفرغ لحاجتنا مادمت مشغولا   فلو فرغت لكنت الدهر مبذولا

مع قول أبي علي البصير

فقل لسعيد أسعد الله جده   لقد رث حتى كاد ينصرم الحبل

فلا تعتذر بالشغل عنا فانما   تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

وقول البحترى

من غادة منعت وتمنع وصلها   فلو انها بذلت لنا لم تبذل

مع قول ابن الرومي

ومن البلية أنني   علقت ممنوعاً منوعاً

وقول أبى تمام

لئن كان ذنبي أن أحسن مطلبى   أساء ففى سوء القضاء لى العذر

مع قول البحترى

اذا محاسنى اللاتى أدل بها   كانت ذنوبى فقل لي كيف أعتذر

وقول أبي تمام * قد يقدم العير من ذعر على الأسد *

مع قول البحترى

فجاء بمجيء العير قادته حيرة — الى أهرت الشدقين تدمي أظافره

وقول معن بن أوس

اذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد — اليه بوجه آخر الدهر تقبل

مع قول العباس بن الاحنف

نقل الجبال الرواسي من أماكنها — أخف من رد قلب حين ينصرف

وقول أمية بن أبي الصلت

عطاؤك زين لامرىء ان أصبته — بخير وما كل العطاء يزين

مع قول أبي تمام

تدعى عطاياه وفراً وهي ان شهرت — كانت فخاراً لمن يعفوه مؤتنفا

مازلت منتظراً أعجوبة عننا — حتي رأيت سؤالا يجتني شرفا

وقول جرير

بعثن الهوى ثم ارتمين قلوبنا — بأسهم أعداء وهن صديق

مع قول أبي نواس

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت — له عن عدو في ثياب صديق

وقول كثير

اذا ما أودت خلة ان تزيلنا — أبينا وقلنا الحاجبية أول

مع قول أبي تمام

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى — ما الحب الا للحبيب الأول

وقول المتنبي

وعند من اليوم الوفاء لصاحب — شبيب وأوفي من ترى أخوان

مع قول أبي تمام

فلا تحسبا هنداً لها الغدر وحدها — سجية نفس كل غانية هند

وقول البحترى

ولم أر في رنق الصري لى موردا — فحاولت ورد النيل عند احتفاله

مع قول المتنبي

قواصد كافور توارك غيره — ومن قصد البحر استقل السواقيا

وقول المتنبي

كأنما يولد الندى معهم — لاصغر عاذر ولا هرم

مع قول البحتري

عريقون في الافضال يؤتنف الندي — لناشئهم من حيث يؤتنف العمر

وقول البحتري

فلا تغلين بالسيف كل غلائه — ليمضي فان الكف لا السيف تقطع

مع قول المتنبي

اذا الهند سوت بين سيفي كريهة — فسيفك فى كف تزيل التساويا

وقول البحتري

ساموك من حسد فأفضل منهم — غير الجواد وجاد غير المفضل

فبذلت فينا مابذلت سماحة — وتكرما وبذلت مالم يبذل

مع قول أبي تمام.

أرى الناس منهاج الندى بعد ماعفت — مهايعه المثلى ومحت لواحبه

ففي كل نجد في البلاد وغائر — مواهب ليست منه وهي مواهبه

وقول المتنبي •

بيضاء تطمع فيما تحت حلتها — وعز ذلك مطلوبا اذا طلبا

مع قول البحتري

تبدو بعطفة مطمع حتى اذا — شغل الخلي ثنت بصدفة مؤيس

وقول المتنبي

إذكار مثلك ترك اذكاري له   اذ لاتريد لما أريد مترجماً

مع قول أبي تمام

واذا المجد كان عوني على المر   ء تقاضيته بترك التقاضي

وقول أبي تمام

فنعمت من شمس اذا حجبت بدت   من خدرها فكانها لم تحجب

مع قول قيس بن الخطيم

قضي الله حين صورها   الخالق الا تكنها سدف

وقول المتنبي

راميات بأسهم ريشها الهد   ب تشق القلوب قبل الجلود

مع قول كثير

رمتني بسهم ريشه الكحل لم يجز   ظواهر جلدي وهو في القلب جارح

وقول بعض شعراء الجاهلية ويعزى الى لبيد

ودعوت رب السلامة جاهداً   ليصحني فاذا السلامة داء

مع قول أبي العتاهية

أسرع في نقص امرئ تمامه   تدبر في اقبالها أيامه

(وقوله)

أقلل زيارتك الحبيب   تكون كالثوب استجده
ان الصديق يمله   أن لايزال يراك عنده

مع قول أبي تمام

وطول مقام المرء في الحي مخلق   لديباجتيه فاغترب تتجدد

وقول الخريمي

زاد معروفك عندي عظماً   أنه عندك محقور صغير
تتناساه كأن لم تأته   وهو عند الناس مشهور كبير

مع قول المتنبي

تظن من فقدك اعتدادهم   أنهم أنعموا وما علموا

وقول البحتري

ألم تر للنوائب كيف تسمو   الى أهل النوافل والفضول

مع قول المتنبي

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن   يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

وقول المتنبي

تذلل لها واخضع على القرب والنوى   فما عاشق من لايذل ويخضع

مع قول بعض المحدثين

كن اذا أحببت عبداً   للذي تهوى مطيعاً
لن تنال الوصل حتى   تلزم النفس الخضوعا

وقول مضرس بن ربعي

لعمرك اني بالخليل الذي له   على دلال واجب لمفجع
واني بالمولى الذي ليس نافعي   ولا ضائري فقدانه لممتع

مع قول المتنبي

أما تغلط الايام فيّ بان أرى   بغيضاً تنائي أو حبيباً تقرب

وقول المتنبي

مظلومة القد في تشبيهه غصناً   مظلومة الريق في تشبيهه ضرباً

مع قوله

اذا نحن شبهناك بالبدر طالعا   بخسناك حظا أنت أبهى وأجمل

ونظلم ان قسناك بالليث في الوغى   لانك أحمى للحريم وأبسل

ذكر ماأنت ترى فيه في كل واحد من البيتين صنعة وتصويراً وأستاذية على الجملة فمن ذلك وهو من النادر قول لبيد

وأكذب النفس اذا حدثتها   ان صدق النفس يزرى بالامل

مع قول نافع بن لقيط

واذا صدقت النفس لم تترك لها   أملا ويأمل مااشتهي المكذوب

وقول رجل من الخوارج أتى به الحجاج في جماعة من أصحاب قطرى فقتلهم ومن عليه ليد كانت عنده وعاد الى قطري فقال له قطرى عاود قتال عدو الله الحجاج فأبي وقال.

أأقاتل الحجاج عن سلطانه   بيد تقر بأنها مولاته
ماذا أقول اذا وقفت إزاءه   فى الصف واحتجت له فعلاته
وتحدث الاقوام أن صنائعا   غرست لدى فحنظلت نخلاته

مع قول أبى تمام

أسربل هجر القول من لو هجرته   اذن لهجاني عنه معروفه عندى

وقول النابغة

اذا ماغدا بالجيش حلق فوقه   عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله   اذا ماالتقى الصفان أول غالب

مع قول أبي نواس.

واذا مج القنا علقا   وتراءى الموت فى صوره
راح فى ثني مفاضته   أسد يدمى شبا ظفره
يتأيى الطير غدوته   ثقة بالشبع من جزره

المقصود البيت الاخير * وحكى المرزبانى قال حدثني عمرو الوراق

قال رأيت أبا نواس ينشد قصيدته التي أولها * أيها المنتاب من عفره * فحسدته فلما بلغ الى قوله

يتأيى الطير غدوته   ثقة بالشبع من جزره

قلت له . ماتركت للنابغة شيئاً حيث يقول . اذا ماغدا بالجيش : البيتين فقال : اسكت فلئن كان سبق فما أسأت الاتباع . وهذا الكلام من أبي نواس دليل بين فى أن المعنى ينقل من صورة الى صورة . ذاك لانه لو كان لايكون قد صنع بالمعني شيئا لكان قوله . فما أسأت الاتباع . محالا لانه على كل حال لم يتبعه فى اللفظ . ثم ان الامر ظاهر لمن نظر فى انه قد نقل المعني عن صورته التى هو عليها فى شعر النابغة الى صورة أخرى وذلك أن ههنا معنيين أحدهما أصل وهو علم الطير بأن الممدوح اذا غزا عدوا كان الظفر له وكان هو الغالب والآخر فرع وهو طمع الطير فى ان تتسع عليها المطاعم من لحوم القتلى وقد عمد النابغة الى الاصل الذى هو علم الطير بأن الممدوح يكون الغالب فذكره صريحاً وكشف عن وجهه واعتمد في الفرع الذى هو طمعها فى لحوم القتلى وانها لذلك تحلق فوقه على دلالة الفحوى . وعكس أبو نواس القصة فذكر الفرع الذى هو طمعها في لحوم القتلى صريحا فقال كما ترى * ثقة بالشبع من جزره * وعول فى الاصل الذى هو علمها بأن الظفر يكون للممدوح على الفحوى ودلالة الفحوى على علمها ان الظفر يكون للممدوح هي في أن قال من جزره وهي لاتثق بان شبعها يكون من جزر الممدوح حتى تعلم ان الظفر يكون له أفيكون شي أظهر من هذا فى النقل عن صورة الى صورة أرجع الى النسق ومن ذلك قول أبى العتاهية

شيم فتحت من المدح ماقد كان مستغلقا على المداح

مع قول أبى تمام

نظمت له خرز المديح مواهب ينفثن فى عقد اللسان المفحم

وقول أبى وجزة

أتاك المجد من هنا وهنا وكنت له كمجتمع السيول

مع قول منصور النمرى

ان المكارم والمعروف أودية أحلك الله منها حيث تجتمع

وقول بشار

الشيب كره وكره أن يفارقني أعجب بشيء علي البغضاء مودود

مع قول البحترى

تغيب الغانيات على شيبى ومن لى أن أمتع بالمعيب

وقول أبي تمام

يشتاقه من كماله غده ويكثر الوجد نحوه الامس

مع قول ابن الرومي

امام يظل الامس يعمل نحوه تلفت ملهوف ويشتاقه الغد

لاتنظر الى انه قال • يشتاقه الغـد • فاعاد لفظ أبى تمام ولكن انظر الى قوله • يعمل نحوه تلفت ملهوف وقول أبى تمام

لئن ذمت الاعداء سوء صباحها فليس يؤدى شكرها الذئب والنسر

مع قول المتنبى

وأنبت منهم ربيع السباع فأثنت باحسانك الشامل

وقول أبي تمام

ورب نائى المغانى روحه أبداً لصيق روحي ودان ليس بالدانى

مع قول المتنبي

لنا ولاهله أبداً قلوب تلاقي فى جسوم ماتلاقى

وقول أبى هفان

أصبح الدهر مسيئاً كله ماله الا ابن يحيي حسنه

مع قول المتنبى

أزالت بك الايام عتبى كانما بنوها لها ذنب وأنت لها عذر

وقول على بن جبلة

وأرى الليالى ماطوت من قوتي ردته فى عظتي وفى افهامي

مع قول ابن المعتز

وما ينتقص من شباب الرجال يزد في نهاها والبـابها

وقول بكر بن النطاح

ولو لم يكن فى كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله

مع قول المتنبى

انك من معشر اذا وهبوا مادون أعمارهم فقد بخلوا

وقول البحترى

ومن ذا يلوم البحر ان بات زاخراً يفيض وصوب المزن ان راح يهطل

مع قول المتنبي

وما ثناك كلام الناس عن كرم ومن يسد طريق العارض الهطل

وقول الكندى

عزوا وعز بعزهم من جاورا فهم الذرى وجماجم الهامات

ان يطلبوا بتراتهم يعطوا بها أو يطلبوا لايدركوا بترات

مع قول المتنبى

تفيت الليالي كل شيء أخذته   وهن لما يأخذن منك غوارم

وقول أبي تمام

اذا سيفه أضحى على الهام حاكما   غدا العفو منه وهو في السيف حاكم

مع قول المتنبي

له من كريم الطبع في الحرب منتض   ومن عادة الاحسان والصفح غامد

فانظر الآن نظر من نفى الغفلة عن نفسه فانك ترى عيانا ان للمعنى في كل واحد من البيتين من جميع ذلك صورة وصفة غير صورته وصفته فى البيت الآخر وان العلماء لم يريدوا حيث قالوا ان المعنى فى هذا هو المعنى في ذاك • ان الذى تعقل من هذا لايخالف الذى تعقل من ذاك وان المعنى عائد عليك في البيت الثانى على هيئته وصفته التى كان عليها فى البيت الاول وان لافرق ولا فصل ولا تباين بوجه من الوجوه وان حكم البيتين مثلا حكم الاسمين قد وضعا فى اللغة لشيء واحد كالليث والاسد • ولكن قالوا ذلك على حسب مايقوله العقلاء فى الشيئين يجمعهما جنس واحد ثم يفترقان بخواص ومزايا وصفات كالخاتم والخاتم والشنف والشنف والسوار والسوار وسائر أصناف الحلى التي يجمعها جنس واحد ثم يكون بينهما الاختلاف الشديد في الصنعة والعمل • ومن هذا الذى ينظر الى بيت الخارجي وبيت أبي تمام فلا يعلم ان صورة المعنى في ذلك غير صورته فى هذا كيف والخارجي يقول * واحتجت له فعلاته * ويقول أبو تمام * اذن لهجاني عنه معروفه عندي * ومتى كان احتج وهجا واحداً فى المعنى • وكذلك الحكم فى جميع ماذكرناه فليس يتصور في نفس عاقل ان يكون قول البحترى •

وأحب آفاق البلاد الى الفتى   أرض ينال بها كريم المطالب

وقول المتنبي * وكل مكان ينبت العز طيب * سواء

واعلم ان قولنا الصورة انما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذى نراه بابصارنا فلما رأينا البينونة بين آحاد الاجناس تكون من جهة الصورة فكان بين انسان من انسان وفرس من فرس بخصوصية تكون في صورة هذا لاتكون في صورة ذاك • وكذلك كان الامر في المصنوعات فكان بين خاتم من خاتم وسوار من سوار بذلك ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه فى الآخر بينونة فى عقولنا وفرقا عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بان قلنا • للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك • وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيئاً نحن ابتدأناه فينكره منكر بل هو مستعمل مشهور فى كلام العلماء ويكفيك قول الجاحظ وانما الشعر صناعة وضرب من التصوير

واعلم انه لو كان المعنى فى أحد البيتين يكون على هيئته وصفته فى البيت الآخر وكان التالى من الشاعرين يجيئك به معاداً على وجهه لم يحدث فيه شيئاً ولم يغير له صفة لكان قول العلماء في شاعر • انه أخذ المعنى من صاحبه فاحسن وأجاد • وفى آخر • انه أساء وقصر • لغوا من القول من حيث كان محالا ان يحسن أو يسيء فى شيء لايصنع به شيئاً • وكذلك كان يكون جعلهم البيت نظيراً للبيت ومناسباً له خطأ منهم لانه محال ان يناسب الشيء نفسه وان يكون نظيرا لنفسه • وأمر ثالث وهو انهم يقولون في واحد • انه أخذ المعنى فظهر أخذه • وفى آخر • انه أخذه فأخفي أخذه • ولو كان المعنى يكون معادا على صورته وهيئته وكان الآخذ له من صاحبه لايصنع

شيئاً غير ان يبدل لفظاً مكان لفظ لكان الاخفاء فيه محالا لان اللفظ لايخفى المعنى وانما يخفيه اخراجه في صورة غير التى كان عليها • مثال ذلك ان القاضي أبا الحسن ذكر فيما ذكر فيه تناسب المعانى بيت أبي نواس •

خليت والحسن تأخذه   تنتقى منه وتنتخب

وبيت عبد الله بن مصعب

كانك جئت محتكما عليهم   تخير فى الابوة ماتشاء

وذكر أنهما معا من بيت بشار

خلقت على مافى غير مخير   هواى ولو خيرت كنت المهذبا

والامر فى تناسب هذه الثلاثة ظاهر • ثم انه ذكر ان أبا تمام قد تناوله فأخفاه وقال

فلو صورت نفسك لم تزدها   على مافيك من كرم الطباع

ومن العجب فى ذلك ماتراه اذا أنت تأملت قول أبي العتاهية

جزى البخيل على صالحة   عنى لخفته علي ظهرى
أعلى وأكرم عن يديه يدى   فعلت ونزه قدره قدرى
ورزقت من جدواه عافية   أن لا يضيق بشكره صدرى
وغنيت خلوا من تفضله   أحنو عليه بأحسن العذر
مافاتنى خير امرئ وضعت   عني يداه مؤنة الشكر

ثم نظرت الى قول الذى يقول

أستقنى سوء ماصنعت من الرق   فيابردها على كبدي
فصرت عبداً للسوء فيك وما   أحسن سوء قبلى الى أحد

ومما هو فى غاية الندرة من هذا الباب ماصنعه الجاحظ بقول

نصيب * ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب * حين نثره فقال وكتب به الى ابن الزيات : نحن أعزك الله نسحر بالبيان . ونموه بالقول • والناس ينظرون الى الحال . ويقضون بالعيان . فأثر فى أمرنا أثراً ينطق اذا سكتنا . فان المدعى بغير بينة متعرض للتكذيب.

وهذه جملة من وصفهم الشعر وعمله وادلالهم به ــ أبو حية النميرى

ان القصائد قد علمن بأننى   صنع اللسان بهن لا أتنحل
واذا ابتدأت عروض نسج ريض   جعلت تذل لما أريد وتسهل
حتى تطاوعني ولو يرتاضها   غيرى لحاول صعبة لا تقبل

تميم بن مقبل

اذا مت عن ذكر القوافى فلن ترى   لها قائلا بعدي أطب وأشعرا
وأكثر بيتا سائرا ضربت له   حزون جبال الشعر حتى تيسرا
أغر غريبا يمسح الناس وجهه   كما تمسح الايدى الاغر المشهرا

عدى بن الرقاع •

وقصيدة قد بت أجمع بينها   حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف فى كعوب قناته   حتى يقيم ثقافه منآدها

﴿ كعب بن زهير ﴾

فمن للقوافى شأنها من يحوكها   اذا مانوى كعب وفوز جرول
يقومها حتي تلين متونها   فيقصر عنها كل مايتمثل

﴿ بشار ﴾

عميت جنيناً والذكاء من العمى   فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وغاض ضياء العين للعلم رافدا   لقلب اذا ماضيع الناس حصلا

وشعر كنور الروض لاءمت بينه　　بقول اذا ما أحزن الشعر أسهلا

﴿ وله ﴾

زور ملوك عليه أبهة　　يغرف من شعره ومن خطبه

لله ماراح في جوانحه　　من لؤلؤ لاينام عن طلبه

يخرج من فيه للندي كما　　يخرج ضوء السراج من لهبه

(أبو شريح العمير)

فان أهلك فقد أبقيت بعدى　　قوافى تعجب المتمثلينا

لذيذات المقاطع محكمات　　لو ان الشعر يلبس لارتدينا

﴿الفرزدق﴾

بلغن الشمس حين تكون شرقا　　ومسقط قرنها من حيث غابا

بكل ثنية وبكل ثغر　　غرائبهن تنتسب انتسابا

﴿ ابن مياده ﴾

فجرنا ينابيع الكلام وبحره　　فأصبح فيه ذو الرواية يسبح

وما الشعر الا شعر قيس وخندف　　وشعر سواهم كلفة وتملح

وقال عقال بن هشام القيني يرد عليه

ألا بلغ الرماح نقض مقالة　　بها خطل الرماح أو كان يمزح

لقد خرق الحى اليمانون قبلهم　　بحور الكلام تستقى وهي طفح

وهم علموا من بعدهم فتعلموا　　وهم أعربوا هذا الكلام وأوضحوا

فللسابقين الفضل لا تجحدونه　　وليس لمسبوق عليهم تبجح

﴿أبو تمام﴾

كشفت قناع الشعر عن حر وجهه　　وطيرته عن وكره وهو واقع

بغر يراها من يراها بسمعه　　ويدنو اليها ذو الحجي وهو شاسع

يود ودادا أن أعضاء جسمه　　اذا أنشدت شوقا اليها مسامع

﴿ وله ﴾

حذاء تملأ كل أذن حكمة　　وبلاغة وتدر كل وريد

كالدر والمرجان ألف نظمه　　بالشذر في عنق الفتاة الرود

كشقيقة البرد المنمم وشيه　　في أرض مهرة أو بلاد تزيد

يعطى بها البشرى الكريم ويرتدى　　بردائها في المحفل المشهود

بشرى الغنى أبي البنات تتابعت　　بشراؤه بالفارس المولود

﴿ وله ﴾

جاءتك من نظم اللسان قلادة　　سمطان فيها اللؤلؤ المكنون

أحذا كما صنع الضمير يمده　　جفر اذا نضب الكلام معين

أخذ لفظ الصنع من قول أبي حية　　بأنى صنع اللسان بهن لا أنحل

ونقله الى الضمير وقد جعل حسان أيضاً اللسان صنعا وذلك فى قوله •

أهدى لهم مدحا قلب مؤازره　　فيما أحب لسان حائك صنع

ولابي تمام

اليك أرحنا عازب الشعر بعد ما　　تمهل في روض المعاني العجائب

غرائب لاقت في فنائك أنسها　　من المجد فهى الآن غير غرائب

ولو كان يفنى الشعر افناه ماقرت　　حياضك منه في السنين الذواهب

ولكنه صوب العقول اذا انجلت　　سحائب منه أعقبت بسحائب

﴿ البحتري ﴾

ألست الموالى فيك نظم قصائد　　هي الانجم اقتادت مع الليل انجما

ثناء كان الروض منه منورا　　ضحى وكان الوشي منه منمنما

﴿ وله ﴾

أحسن أباحسن بالشعر اذ جعلت عليك أنجمه بالمدح تنتثر
فقد أتتك القوافي غب فائدة كما تفتح غب الوابل الزهر

﴿ وله ﴾

اليك القوافي نازعات قواصد يسير ضاحي وشيها وينمنم
ومشرقة في النظم غر يزينها بهاء وحسنا انها لك تنظم

﴿ وله ﴾

بمنقوشة نقش الدنانير ينتقي لها اللفظ مختارا كما ينتقى التبر

﴿ وله ﴾

أيذهب هذا الدهر لم ير موضعي ولم يدر مامقدار حلى ولا عقدي
ويكسد مثلي وهو تاجر سؤدد يبيع ثمينات المكارم والمجد
سوائر شعر جامع بدد العلى تعلقن من قبلي وأتعبن من بعدي
يقدر فيها صانع متعمل لاحكامها تقدير داود في السرد

﴿ وله ﴾

لله يسهر في مديحك ليله متململا وتنام دون ثوابه
يقظان ينتحل الكلام كأنه جيش لديه يريد ان يلقى به
فأتى به كالسيف رقرق صيقل مابين قائم سنخه وذبابه

ومن نادر وصفه للبلاغة قوله •

في نظام من البلاغة ماشك أمرؤ انه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا حك في رونق الربيع الجديد
مشرق في جوانب السمع مايخلقه عوده على المستعيد
حجج تخرس الالد بالفا ظ فرادى كالجوهر المعدود
ومعان لو فصلتها القوافى هجنت شعر جرول ولبيد

حزن مستعمل الكلام اختياراً وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فادركـ ن به غاية المراد البعيد
كالعذاري غدون فى الحلل الصفـ ـر اذا رحن فى الخطوط السود

الغرض من كتب هذه الابيات الاستظهار حتي ان حمل حامل نفسه على الغرر والتقحم على غير بصيرة فزعم ان الاعجاز فى مذاقة الحروف وفى سلامتها مما يثقل على اللسان • علم بالنظر فيها فساد ظنه وقبح غلطه • من حيث يرى عيانا ان ليس كلامهم كلام من خطر ذلك منه ببال • ولا صفاتهم صفات تصلح له على حال • إذ لا يخفى على عاقل أن لم يكن ضرب تميم لحزون جبال الشعر لأن تسلم الفاظه من حروف تثقل على اللسان • ولا كان تقويم عدي لشعره ولا تشبيهه نظره فيه بنظر المثقف فى كعوب قناته لذلك • وانه محال ان يكون له جعل بشار نور العين قد غاص فصار الى قلبه • وان يكون اللؤلؤ الذى كان لا ينام عن طلبه • وان ليس هو صوب العقول الذى اذا انجلت سحائب • منه أعقبت بسحائب • وان ليس هو الدر والمرجان مؤلفا بالشذر فى العقد • ولا الذى له كان البحترى مقدراً تقدير داود فى السرد • كيف وهذه كلها عبارات عما يدرك بالعقل ويستنبط بالفكر وليس الفكر الطريق الى تمييز مايثقل على اللسان مما لا يثقل إنما الطريق الى ذلك الحس • ولولا ان البلوى قد عظمت بهذا الرأى الفاسد وان الذين قد استهلكوا فيه قد صاروا من فرط شغفهم به يصغون الى كل شيء يسمعونه حتي لو ان انسانا قال • ياقلى حار • يرى بهم انه يريد نصرة مذهبهم لأقبلوا باوجههم عليه • فألقوا اسماعهم اليه • لكان اطراحه وترك الاشتغال به أصوب لانه قول لا يتصل منه جانب بالصواب البتة • ذلك لانه أول

شيء يؤدي الى أن يكون القرآن معجزا لا بما به كان قرآنا وكلام الله
عز وجل لانه على كل حال انما كان قرآنا وكلام الله عز وجل بالنظم
الذى هو عليه ومعلوم أن ليس النظم من مذاقة الحروف وسلامتها مما
يثقل على اللسان فى شيء • ثم انه اتفاق من العقلاء ان الوصف الذى
به تناهي القرآن الى حد عجز عنه المخلوقون هو الفصاحة والبلاغة وما
رأينا عاقلا جعل القرآن فصيحا أو بليغا بان لا يكون فى حروفه ما يثقل
على اللسان لانه لو كان يصح ذلك لكان يجب ان يكون السوقي الساقط
من الكلام والسفساف الردىء من الشعر فصيحا اذا خفت حروفه •
وأعجب من هذا انه يلزم منه أنه لو عمد عامد الى حركات الاعراب
فجعل مكان كل ضمة وكسرة فتحة فقال • الحمدَ للهَ • بفتح الدال واللام
والهاء وجرى على هذا فى القرآن كله ان لا يسلبه ذلك الوصف الذى
هو معجز به بل كان ينبغي ان يزيد فيه لان الفتحة كما لا يخفى أخف
من كل واحدة من الضمة والكسرة • فان قال ان ذلك يحيل المعنى
قيل له اذا كان المعنى والعلة فى كونه معجزا خفة اللفظ وسهولته فينبغي
أن يكون مع احالة المعني معجزا لانه اذا كان معجزاً لوصف يخص
لفظه دون معناه كان محالا ان يخرج عن كونه معجزاً مع قيام ذلك
الوصف فيه

ودع هذا وهب أنه لا يلزم شيء منه فانه يكفي فى الدلالة على سقوطه
وقلة تمييز القائل به انه يقتضي إسقاط الكناية والاستعارة والتمثيل والمجاز
والايجاز جملة • واطراح جميعها رأسا • مع انها الاقطاب التي تدور
البلاغة عليها • والاعضاد التي تستند الفصاحة اليها • والطلبة التي يتنازعها
المحسنون • والرهان الذى تجرب فيه الجياد • والنضال الذى تعرف

به الايدي الشداد • وهي التي نوه بذكرها البلغاء • ورفع من أقدارها
العلماء • وصنفوا فيها الكتب ووكلوا بها الهمم • وصرفوا اليها الخواطر
حتي صار الكلام فيها نوعا من العلم مفرداً • وصناعة على حدة • ولم
يتعاط أحد من الناس القول فى الاعجاز الا ذكرها وجعلها العمد
والاركان فيما يوجب الفضل والمزية وخصوصا الاستعارة والمجاز فانك
تراهم يجعلونهما عنوان ما يذكرون • وأول ما يوردون • وتراهم
يذكرون من الاستعارة قوله عز وجل (واشتعل الرأس شيباً) وقوله
(وأشربوا في قلوبهم العجل) وقوله عز وجل (وآية لهم الليل نسلخ
منه النهار) وقوله عز وجل (فاصدع بما تؤمر) وقوله (فلما استيأسوا
منه خلصوا نجيا) وقوله تعالى (حتى تضع الحرب أوزارها) وقوله
(فما ربحت تجارتهم) ومن الايجاز قوله تعالى (وإما تخافن من قوم
خيانة فانبذ اليهم على سواء) وقوله تعالى (ولا ينبئك مثل خبير)
وقوله (فشرد بهم من خلفهم) وتراهم على لسان واحد في ان المجاز
والايجاز • من الاركان في أمر الاعجاز •

واذا كان الامر كذلك عند كافة العلماء الذين تكلموا في المزايا
التى للقرآن فينبغي أن ينظر في أمر الذي يسلم نفسه الى الغرور فيزعم
ان الوصف الذي كان له القرآن معجزاً هو سلامة حروفه مما يثقل على
اللسان أيصح له القول بذلك الا من بعد ان يدعي الغلط على العقلاء
قاطبة فيما قالوه • والخطأ فيما أجمعوا عليه • واذا نظرنا وجدناه لا يصح
له ذلك الا بان يقتحم هذه الجهالة • اللهم الا ان يخرج الى الضحكة
فيزعم مثلا ان من شأن الاستعارة والايجاز اذا دخلا الكلام ان يحدث
بهما في حروفه خفة • ويتجدد فيها سهولة • ونسأل الله تعالى العصمة

والتوفيق

واعلم ان لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلا فيما يوجب الفضيلة وأن تكون مما يؤكد أمر الاعجاز وانما الذي ننكره ونفيل رأي من يذهب اليه أن يجعله معجزاً به وحده ويجعله الاصل والعمدة فيخرج الى ماذكرنا من الشناعات

ثم ان العجب كل العجب ممن يجعل كل الفضيلة في شيء هو اذا انفرد لم يجب به فضل ألبتة ولم يدخل في اعتداد بحال وذلك انه لايخفى على عاقل انه لايكون بسهولة الالفاظ وسلامتها مما يثقل على اللسان اعتداد حتى يكون قد ألف منها كلام ثم كان ذلك الكلام صحيحا في نظمه والغرض الذي أريد به وانه لو عمد عامد الى ألفاظ فجمعها من غير ان يراعي فيها معنى ويؤلف منها كلاما لم تر عاقلا يعتد السهولة فيها فضيلة لأن الالفاظ لا تراد لانفسها وانما تراد لتجعل أدلة على المعاني فاذا عدمت الذي له يراد أو اختل أمرها فيه لم يعتد بالاوصاف التي تكون في أنفسها عليها وكانت السهولة وغير السهولة فيها واحداً • ومن هاهنا رأيت العلماء يذمون من يحمله تطلب السجع والتجنيس على ان يضم لهما المعنى ويدخل الخلل عليه من أجلهما وعلى ان يتعسف في الاستعارة بسببهما • ويركب الوعورة • ويسلك المسالك المجهولة • كالذي صنع أبو تمام في قوله •

سيف الامام الذى سمته هيبته   لما تخرم أهل الارض محترما
قرت بقران عين الدين واشتترت   بالاشترين عيون الشرك فاصطلما

وقوله

ذهبت بمذهبه السماحة والتوت   فيه الظنون أمذهب أم مذهب

ويصنعه المتكلفون في الاسجاع وذلك أنه لا يتصور ان يجب بهما

ومن حيث هما فضل • ويقع بهما مع الخلو من المعنى اعتداد • واذا نظرت الى تجنيس أبي تمام • أمذهب أم مذهب • فاستضعفته والى تجنيس القائل حتى نجا من خوفه وما نجا وقول المحدث •

ناظراه فيما جنى ناظراه   أو دعاني أمت بما أودعاني

استحسنته لم تشك بحال ان ذلك لم يكن الامر يرجع الى اللفظ ولكن لانك رأيت الفائدة ضعفت في الاول وقويت في الثاني وذلك انك رأيت أبا تمام لم يزدك بمذهب ومذهب على ان أسمعك حروفا مكررة لاتجد لها فائدة — إن وجدت — الا متكلفة متمحلة ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن مفائدة وقد أعطاها • ويوهمك انه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها • ولهذه النكتة كان التجنيس وخصوصا المستوفي منه مثل نجا ونجا من حلي الشعر • والقول فيما يحسن وفيما لا يحسن من التجنيس والسجع يطول ولم يكن غرضنا من ذكرها شرح أمرها ولكن توكيد ماانتهى بنا القول اليه من استحالة ان يكون الاعجاز في مجرد السهولة وسلامة الالفاظ مما يثقل على اللسان

وجملة الامر أنا مارأينا في الدنيا عاقلا اطرح النظم والمحاسن التى هو السبب فيها من الاستعارة والكناية والتمثيل وضروب المجاز والايجاز وصد بوجهه عن جميعها وجعل الفضل كله والمزية أجمعها في سلامة الحروف مما يثقل. كيف وهو يؤدى الى السخف والخروج من العقل كما بينا

واعلم انه قد آن لنا ان نعود الى ماهو الامر الاعظم والغرض الاهم والذى كأنه هو الطلبة وكل ماعداه ذرائع اليه • وهو المرام وما سواه أسباب للتسلق عليه • وهو بيان العلل التى لها وجب أن يكون النظم مزية على نظم وان يعم أمر التفاضل فيه ويتناهى الي الغايات

البعيدة ونحن نسأل الله تعالى العون على ذلك والتوفيق له والهداية اليه

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

ماأظن بك أيها القارىء لكتابنا ان كنت وفيته حقه من النظر • وتدبرته حق التدبر • الا انك قد علمت علما أبى ان يكون للشك فيه نصيب • وللتوقف نحوك مذهب • ان ليس النظم شيئاً الا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم وانك قد تبينت انه اذا رفع معاني النحو وأحكامه مما بين الكلم حتى لاتراد فيها فى جملة ولا تفصيل خرجت الكلم المنطوق ببعضها فى أثر بعض فى البيت من الشعر والفصل من النثر من غير ان يكون لكونها فى مواضعها التى وضعت فيها موجب ومقتض • وعن ان يتصور ان يقال في كلمة منها انها مرتبطة بصاحبة لها • ومتعلقة بها وكائنة بسبب منها • وان حسن تصورك لذلك قد ثبت فيه قدمك • وملأ من الثقة نفسك وباعدك من ان تحن الى الذى كنت عليه • وان يجرك الالف والاعتياد اليه • وانك جعلت ماقلناه نقشاً فى صدرك • وأثبته في سويداء قلبك • وصادقت بينه وبين نفسك • فان كان الامر كما ظنناه رجونا ان يصادف الذي نريد ان نستأنفه بعون الله تعالى منك نية حسنة تقيك الملل • ورغبة صادقة تدفع عنك السأم • وأريحة يخف معها عليك تعب الفكر وكد النظر • والله تعالى ولى توفيقك وتوفيقنا بمنه وفضله • ونبدأ فنقول

فاذا ثبت الآن ان لاشك ولا مرية فى ان ليس النظم شيئاً غير توخى معاني النحو وأحكامه فيما بين معانى الكلم ثبت من ذلك ان

طالب دليل الاعجاز من نظم القرآن اذا هو لم يطلبه في معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه ولم يعلم انها معدنه ومعانه • وموضعه ومكانه • وانه لامستنبط له سواها . وان لاوجه لطلبه . فيما عداها غار نفسه بالكاذب من الطمع . ومسلم لها الى الخدع . وانه ان أبى ان يكون فيها كان قد أبى أن يكون القرآن معجزاً بنظمه . ولزمه ان يثبت شيئاً آخر يكون معجزاً به . وان يلحق باصحاب الصرفة فيدفع الاعجاز من أصله . وهذا تقرير لايدفعه الا معاند يعد الرجوع عن باطل قد اعتقده عجزا . والثبات عليه من بعد لزوم الحجة جلدا • ومن وضع نفسه في هذه المنزلة كان قد باعدها من الانسانية . ونسأل الله تعالى العصمة والتوفيق

وهذه أصول يحتاج الى معرفتها قبل الذي عمدنا له. اعلم ان معاني الكلام كلها معان لاتتصور الا فيما بين شيئين والاصل والاول هو الخبر واذا أحكمت العلم بهذا المعنى فيه عرفته في الجميع . ومن الثابت في العقول والقائم فى النفوس انه لايكون خبر حتى يكون مخبر به ومخبر عنه لانه ينقسم الى اثبات ونفي والاثبات يقتضى مثبتا ومثبتا له والنفي يقتضي منفيا ومنفيا عنه فلو حاولت ان تتصور اثبات معنى أو نفيه من دون أن يكون هناك مثبت له ومنفي عنه حاولت مالا يصح في عقل • ولا يقع في وهم • ومن أجل ذلك امتنع أن يكون لك قصد الى فعل من غير أن تريد اسناده الى شيء مظهر أو مقدر مضمر وكان لفظك به اذا أنت لم ترد ذلك وصوت تصوته سواء

وان أردت ان تستحكم معرفة ذلك فى نفسك فانظر اليك اذا قيل لك • مافعل زيد • فقلت • خرج • هل يتصور أن يقع فى

خلدك من (خرج) معنى من دون ان ينوي فيه ضمير زيد وهل تكون ان أنت زعمت انك لم تنو ذلك الا مخرجا نفسك الى الهذيان • وكذلك فانظر اذا قيل لك كيف زيد • فقلت : صالح: هل يكون لقولك (صالح) اثر فى نفسك من دون أن تريد (هو صالح) أم هل يعقل السامع منه شيئاً ان هو لم يعتقد ذلك • فانه مما لا يبقى معه لعاقل شك أن الخبر معنى لا يتصور الا بين شيئين يكون أحدهما مثبتا والآخر مثبتاً له أو يكون أحدهما منفيا والآخر منفيا عنه وانه لا يتصور مثبت من غير مثبت له ومنفى من دون منفى عنه • ولما كان الامر كذلك أوجب ذلك ان لا يعقل الا من مجموع جملة فعل واسم كقولنا : خرج زيد: أو اسم واسم كقولنا زيد منطلق : فليس فى الدنيا خبر يعرف من غير هذا السبيل وبغير هذا الدليل وهو شيء يعرفه العقلاء في كل جيل وأمة • وحكم يجرى عليه الامر في كل لسان ولغة •

واذ قد عرفت انه لا يتصور الخبر الا فيما بين شيئين مخبر به ومخبر عنه فينبغي ان يعلم انه يحتاج من بعد هذين الى ثالث وذلك انه كما لا يتصور أن يكون ههنا خبر حتى يكون مخبر به ومخبر عنه كذلك لا يتصور أن يكون خبر حتى يكون له مخبر يصدر عنه ويحصل من جهته ويكون له نسبة اليه • وتعود التبعة فيه عليه • فيكون هو الموصوف بالصدق ان كان صدقا وبالكذب ان كذبا • أفلا تري ان من المعلوم انه لا يكون اثبات ونفي حتى يكون مثبت وناف يكون مصدرهما من جهته ويكون هو المزجى لهما • والمبرم والناقض فيهما • ويكون بهما موافقاً ومخالفا ومصيباً ومخطئاً ومحسنا ومسيئاً

وجملة الامر ان الخبر وجميع الكلام معان ينشئها الانسان في

نفسه • ويصرفها فى فكره • ويناجي بها قلبه • ويراجع فيها عقله • وتوصف بانها مقاصد وأغراض وأعظمها شأنا الخبر فهو الذي يتصور بالصور الكثيرة • وتقع فيها الصناعات العجيبة • وفيه يكون في الامر الاعم المزايا التي بها يقع التفاضل في الفصاحة كما شرحنا فيما تقدم ونشرحه فيما نقول من بعد ان شاء الله تعالي •

واعلم انك اذا فتشت أصحاب اللفظ عما فى نفوسهم وجدتهم قد توهموا فى الخبر انه صفة للفظ وان المعنى فى كونه اثباتا انه لفظ يدل على وجود المعنى من الشيء أو فيه • وفي كونه نفياً انه لفظ يدل على عدمه وانتفائه عن الشيء وهو شيء قد لزمهم وسري في عروقهم وامتزج بطباعهم حتي صار الظن باكثرهم ان القول لا ينجع فيهم والدليل على بطلان ما اعتقدوه انه محال أن يكون اللفظ قد نصب دليلا على شيء ثم لا يحصل منه العلم بذلك الشيء اذ لا معنى لكون الشيء دليلا الا افادته اياك العلم بما هو دليل عليه • واذا كان هذا كذلك علم منه ان ليس الامر على ماقالوه من ان المعنى فى وصفنا اللفظ بأنه خبر أنه قد وضع لان يدل على وجود المعنى أو عدمه لانه لو كان كذلك لكان ينبغي ان لا يقع من سامع شك في خبر يسمعه وان لا نسمع الرجل يثبت وينفى الا علمت وجود ما أثبت وانتفاء ما نفى وذلك مما لا يشك في بطلانه • واذا لم يكن ذلك مما يشك في بطلانه وجب أن يعلم ان مدلول اللفظ ليس هو وجود المعنى أو عدمه ولكن الحكم بوجود المعنى أو عدمه وان ذلك أى الحكم بوجود المعنى أو عدمه حقيقة الخبر الا انه اذا كان بوجود المعني من الشيء أو فيه يسمي اثباتا واذا كان بعدم المعنى وانتفائه عن الشيء يسمى نفيا ومن الدليل على فساد ما زعموه انه لو

كان معنى الاثبات الدلالة على وجود المعني واعلامه السامع أيضاً وكان معني النفى الدلالة على عدمه واعلامه السامع أيضاً لكان ينبغي اذا قال واحد • زيد عالم • وقال آخر • زيد ليس بعالم • ان يكون قد دل هذا على وجود العلم وهذا على عدمه واذا قال الموحد • العالم محـدث • وقال : الملحد • هو قديم • أن يكون قد دل الموحـد على حدوثه والملحد على قدمه وذلك مالا يقوله عاقل

﴿تقرير لذلك بعبارة أخرى﴾ لايتصور ان تفتقر المعانى المدلول عليها بالجمل المؤلفة الى دليـل يدل عليها زائد على اللفظ كيف وقـد أجمع العقلاء على ان العلم بمقاصد الناس في محاوراتهم علم ضرورة ومن ذهب مذهباً يقتضي أن لايكون الخـبر معـنى فى نفس المتكلم ولكن يكون وصفا للفظ من أجل دلالته على وجود المعنى من الشيء أو فيه أو انتفاء وجوده عنه كان قد نقض منه الاصل الذى قدمناه من حيث يكون قد جعل المعني المدلول عليه باللفظ لايعرف الا بدليـل سوى اللفظ ذاك لانا لانعرف وجود المعني المثبت وانتفاء المنفى باللفظ ولكنا نعلمه بدليل يقوم لنا زائد على اللفظ • وما من عاقل الا وهو يعـلم ببديهة النظر ان المعلوم بغير اللفظ لايكون مدلول اللفظ

﴿طريقة أخرى﴾ الدلالة على الشيء هي لامحالة اعلامك السامع اياه وليس بدليـل ماأنت لاتعلم به مدلولا عليه واذا كان كذلك وكان مما يعلم ببدائه المعقول ان الناس انما يكلم بعضهم بعضاً ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده فينبغي أن ينظر الى مقصود المخبر من خبره وما هو أهو أن يعلم السامع المخـبر به والمخبر عنـه أم أن يعلمه اثبات المعنى المخبر به للمخبر عنـه • فان قيل • ان المقصود اعـلامه السامع

وجود المعنى من المخبر عنه • فاذا قال • ضرب زيد • كان مقصوده ان يعـلم السامع وجود الضرب من زيد وليس الاثبات الا اعلامـه السامع وجود المعني • قيل له فالكافر اذا أثبت مع الله ـ تعالى عمـا يقول الظالمون ـ الها آخر يكون قاصدا ان يعلم ـ نعوذ بالله تعالى ـ ان مـع الله تعالى الها آخر تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وكفى بهذا فضيحة •

وجملة الامر انه ينبغي أن يقال لهم أتشكون في انه لابد من ان يكون لخبر المخـبر معنى يعلمه السامع علما لايكون معـه شك ويكون ذلك معني اللفظ وحقيقته • فاذا قالوا • لانشك • قيل لهـم فما ذلك المعني • فان قالوا • هو وجود المعنى المخبر به من المخبر عنـه أو فيه اذا كان الخبر اثباتا وانتفاؤه عنـه اذا كان نفيا • لم يمكنهم أن يقولوا ذلك الا من بعد أن يكابروا فيدعوا انهم اذا سمعوا الرجـل يقول • خرج زيد • علموا علما لاشك معه وجود الخروج من زيد وكيف يدعون ذلك وهو يقتضى أن يكون الخبر على وفق المخـبر عنه أبداً وان لايجوز فيه ان يقع على خلاف المخبر عنه وان يكون العقلاء قد غلطوا حين جعلوا من خاص وصفه انه يحتمل الصـدق والكذب وان يكون الذى قالوه فى أخبار الآحاد وأخبار التواتر من ان العلم يقع بالتواتر دون الآحاد سهواً منهم ويقتضي الغني عن المعجزة لانه انما احتيج اليها ليحصل العلم بكون الخبر على وفق المخبر عنه فاذا كان لايكون الا علي وفق المخبر عنه لم تقع الحاجة الى دليل يدل على كونه كذلك فاعرفه

واعلم انه انما لزمهم ماقلناه من ان يكون الخـبر على وفق المخبر

عنه أبداً من حيث انه اذا كان معنى الخبر عندهم اذا كان اثباتا انه لفظ موضوع ليدل على وجود المعني المخبر به من المخبر عنه أو فيه وجب ان يكون كذلك أبدا وان لايصح ان يقال ضرب زيد الا اذا كان الضرب قد وجد من زيد • وكذلك يجب في النفي ان لايصح أن يقال • ماضرب زيد • الا اذا كان الضرب لم يوجد منه لان تجويز ان يقال • ضرب زيد • من غير ان يكون قد كان منه ضرب وان يقال ماضرب زيد وقد كان منه ضرب يوجب على أصلهم اخلاء اللفظ من معناه الذي وضع ليدل عليه وذلك مالا يشك في فساده ولا يلزمنا على أصلنا لان معنى اللفظ عندنا هو الحكم بوجود المخبر به من المخبر عنه أو فيه اذا كان الخبر اثباتا والحكم بعدمه اذا كان نفيا واللفظ عندنا لاينفك من ذلك ولا يخلو منه وذلك لان قولنا • ضرب وماضرب • يدل من قول الكاذب على نفس مايدل عليه من قول الصادق لأنا ان لم نقل ذلك لم يخل من ان يزعم ان الكاذب يخلي اللفظ من المعنى ويزعم انه يجعل للفظ معني غير ماوضع له وكلاهما باطل • ومعلوم انه لا يزال يدور في كلام العقلاء في وصف الكاذب انه يثبت ماليس بثابت وينفي ماليس بمنتف والقول بما قالوه يؤدي الى ان يكون العقلاء قد قالوا المحال من حيث يجب على أصلهم ان يكونوا قد قالوا ان الكاذب يدل على وجود ماليس بموجود وعلى عدم ماليس بمعدوم وكفى بهذا تهافتا وخطلا ودخولا في اللغو من القول • واذا اعتبرنا أصلنا كان تفسيره ان الكاذب يحكم بالوجود فيما ليس بموجود وبالعدم فيما ليس بمعدوم وهو أسد كلام وأحسنه • والدليل على ان اللفظ من قول الكاذب يدل على نفس مايدل عليه من قول الصادق انهم جعلوا خاص وصف الخبر انه يحتمل الصدق والكذب

فلولا ان حقيقته فيهما حقيقة واحدة لما كان لحدهم هذا معنى ولا يجوز ان يقال ان الكاذب يأتي بالعبارة على خلاف المعبر عنه لان ذلك انما يقال فيمن أراد شيئاً ثم أتى بلفظ لا يصلح للذي اراد ولا يمكننا ان نزعم في الكاذب انه أراد أمراً ثم أتى بعبارة لا تصلح لما أراد

ومما ينبغي ان يحصل في هذا الباب انهم قد أصلوا في المفعول وكل مازاد على جزئي الجملة انه يكون زيادة في الفائدة وقد يتخيل الى من ينظر الى ظاهر هذا من كلامهم انهم أرادوا بذلك انك تضم بما تزيده على جزئي الجملة فائدة أخرى وينبني عليه أن ينقطع عن الجملة حتى يتصور ان يكون فائدة على حدة وهو مالا يعقل اذ لا يتصور في زيد من قولك • ضربت زيداً • ان يكون شيئاً برأسه حتى تكون بتعديتك ضربت اليه قد ضممت فائدة الى أخرى • واذا كان ذلك كذلك وجب ان يعلم ان الحقيقة في هذا ان الكلام يخرج بذكر المفعول الى معنى غير الذي كان وان وزان الفعل قد عدى الى مفعول معه وقد أطلق فلم يقصد به الى مفعول دون مفعول وزان الاسم المخصص بالصفة مع الاسم المتروك على شياعه كقولك • جاءني رجل ظريف . مع قولك : جاءني رجل . في انك لست في ذلك كمن يضم معنى الى معنى وفائدة الى فائدة ولكن كمن يريد هاهنا شيئاً وهناك شيئاً آخر . فاذا قلت . ضربت زيدا كان المعنى غيره اذا قلت ، ضربت . ولم تزد زيداً . وهكذا يكون الامر أبداً كلما زدت شيئاً وجدت المعنى قد صار غير الذي كان ومن أجل ذلك صلح المجازاة بالفعل الواحد اذا أتى به مطلقا من الشرط ومعدى الى شئ في الجزاء كقوله تعالى (ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم) وقوله عز وجل (واذا بطشتم بطشتم جبارين) مع العلم بان الشرط ينبغي ان

يكون غير الجزاء من حيث كان الشرط سبباً والجزاء مسبباً وانه محال أن يكون الشيء سبباً لنفسه فلولا ان المعنى فى أحسنتم الثانية غير المعنى فى الاولى وانها فى حكم فعل ثان لما ساغ ذلك كما لايسوغ ان تقول . ان قمت قمت وان خرجت خرجت . ومثله من الكلام قوله (المرء بأصغريه ان قال قال ببيان وإن صال صال بجنان) ويجرى ذلك فى الفعلين قد عديا جميعاً الاان الثاني منهما قدتعدى الى شيء زائد على ماتعدى اليه الاول ومثاله قولك . ان أتاك زيدأتاك لحاجة . وهو أصل كبير والادلة على ذلك كثيرة ومن أولاها بان يحفظ انك ترى البيت قداستحسنه الناس وقضوا لقائله بالفضل فيه وبانه الذى غاص على معناه بفكره . وانه أبو عذره . ثم لا ترى ذلك الحسن وتلك الغرابة كانا الا لما بناه على الجملة دون نفس الجملة . ومثال ذلك قول الفرزدق .

وماحملت أم أمرىء فى ضلوعها أعق من الجانى عليها هجائيا

فلولا ان معنى الجملة يصير بالبناء عليها شيئاً غير الذي كان ويتغير فى ذاته لكان محالا أن يكون البيت بحيث تراه من الحسن والمزية وان يكون معناه خاصا بالفرزدق وان يقضي له بالسبق اليه اذ ليس فى الجملة التى بنى عليها مايوجب شيئاً من ذلك فاعرفه

والنكتة التي يجب ان تراعى فى هذا انه لا تتبين لك صورة المعنى الذي هو معنى الفرزدق الاعند آخر حرف من البيت حتي ان قطعت عنه قوله هجائيا بل الياء التي هي ضمير الفرزدق لم يكن الذى تعقله منه مما أراده الفرزدق بسبيل لان غرضه تهويل أمر هجائه والتحذير منه وان من عرض أمه له كان قدعرضها لاعظم مايكون من الشر . وكذلك حكم نظائره من الشعر فاذا نظرت الى قول القطامي .

فهن ينبذن من قول يصبن به مواقع الماء من ذى الغلة الصادى

وجدتك لا تحصل على معنى يصح أن يقال انه غرض الشاعر ومعناه الا عند قوله ذى الغلة . ويزيدك استبصارا فيما قلناه ان تنظر فيما كان من الشعر جملا قد عطف بعضها على بعض بالواو كقوله .

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الاكف عنم

وذلك انك ترى الذى تعقله من قوله النشر مسك . لا يصير بانضمام قوله . والوجوه دنانير . اليه شيئاً غير الذى كان بل تراه باقيا على حاله . كذلك نرى ماتعقل من قوله . والوجوه دنانير . لا يلحقه تغيير بانضمام قوله . وأطراف الاكف عنم . اليه .

واذا قد عرفت ماقررناه من أن من شأن الجملة ان يصير معناها بالبناء عليها شيئاً غير الذي كان وانه يتغير فى ذاته فاعلم ان ما كان من الشعر مثل بيت بشار .

كأن مثار النقع فوق رؤسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وقول امرىء القيس .

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي

وقول زياد .

وإنا وما تلقى لنا ان هجوتنا لكالبحر مهما يلق في البحر يغرق

كان له مزية على قول الفرزدق فيما ذكرنا لانك تجد في صدر بيت الفرزدق جملة تؤدي معني وان لم يكن معنى يصح ان يقال . انه معنى فلان . ولا تجد في صدر . هذه الابيات مايصح ان يعد جملة تؤدى معني فضلا عن ان تؤدى معني يقال . انه معني فلان . ذاك لان قوله كأن مثار النقع الى . واسيافنا . جزء واحد و . ليل تهاوى كواكبه

بجملته الجزء الذى مالم تأت به لم تكن قد أتيت بكلام . وهكذا سبيل البيتين الاخيرين فقوله • كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدي وكرها • جزء وقوله . العناب والحشف البالي • الجزء الثاني وقوله • وإنا وما تلقى لنا ان هجوتنا جزؤ وقوله • لكالبحر • الجزء الثاني • وقوله • مهما يلق في البحر يغرق . وان كان جملة مستأنفة ليس لها في الظاهر تعلق بقوله • لكالبحر • فانها لما كانت مبينة لحال هذا التشبيه صارت كأنها متعلقة بهذا التشبيه وجرى مجرى ان تقول • لكالبحر في أنه لا يلقى فيه شيء الاغرق

﴿ فصل ﴾

واذا ثبت ان الجملة اذا بني عليها حصل منها ومن الذى بني عليها في الكثير معنى يجب فيه ان ينسب الى واحد مخصوص فان ذلك يقتضي لا محالة ان يكون الخبر في نفسه معنى هو غير المخبر به والمخبر عنه ذاك لعلمنا باستحالة ان يكون للمعنى المخبر به نسبة الى المخبر وان يكون المستنبط والمستخرج والمستعان عن تصويره بالفكر فليس يشك عاقل انه محال أن يكون للحمل في قوله وما حملت أم امرئ في ضلوعها * نسبة الى الفرزدق وان يكون الفكر منه كان فيه نفسه وان يكون معناه الذى قيل انه استنبطه واستخرجه وغاص عليه وهكذا السبيل أبداً لا يتصور ان يكون للمعنى المخبر به نسبة الى الشاعر وان يبلغ من أمره ان يصير خاصا به فاعرفه

ومن الدليل القاطع فيه ما بيناه في الكناية والاستعارة والتمثيل وشرحناه من ان من شأن هذه الاجناس ان توجب الحسن والمزية وان

المعاني تتصور من أجلها بالصور المختلفة وان العلم بإيجابها ذلك ثابت في العقول • ومركوز في غرائز النفوس • وبينا كذلك انه محال ان تكون المزايا التى تحدث به حادثة فى المعنى المخبر به المثبت أو المنفى لعلمنا باستحالة ان تكون المزية التى تجدها لقولنا • هو طويل النجاد • على قولنا • طويل القامة • فى الطول والتي تجدها لقولنا • هو كثير رماد القدر • على قولنا • هو كثير القرى والضيافة فى كثرة القرى • واذا كان ذلك محالا ثبت ان المزية والحسن يكونان فى اثبات ما يراد ان يوصف به المذكور والاخبار به عنه واذا ثبت ذلك ثبت ان الاثبات معنى لان حصول المزية والحسن فيما ليس بمعنى محال •

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

(وبه نثق وعليه اعتمادى)

اعلم ان هاهنا أصلا انت ترى الناس فيه فى صورة من يعرف من جانب وينكر من آخر وهو ان الالفاظ المفردة التى هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها فى أنفسها ولكن لان يضم بعضها الى بعض فيعرف فيما بينها فوائد وهذا علم شريف وأصل عظيم • والدليل على ذلك انا ان زعمنا ان الالفاظ التى هي أوضاع اللغة انما وضعت ليعرف بها معانيها فى أنفسها لادى ذلك الى مالا يشك عاقل فى استحالته وهو ان يكونوا قد وضعوا للاجناس الاسماء التي وضعوها لها لتعرفها بها حتى كأنهم لو لم يكونوا قالوا • رجل وفرس ودار • لما كان يكون لنا علم بمعانيها وحتى لو لم يكونوا قالوا • فعل ويفعل • لما كنا نعرف الخبر فى نفسه ومن أصله ولو لم يكونوا قد قالوا • افعل • لما كنا نعرف الامر من أصله

ولا نجده فى نفوسنا وحتى لولم يكونوا قد وضعوا الحروف لكنانجهل معانيها فلا نعقل نفيا ولا نهيا ولا استفهاما ولا استثناء • وكيف والمواضعة لاتكون ولاتتصور الا على معلوم فمحال ان يوضع اسم أوغير اسم لغير معلوم • ولأن المواضعة كالاشارة فكما انك اذا قلت • خذ ذاك • لم تكن هذه الاشارة لتعرف السامع المشار اليه فى نفسه ولكن ليعلم انه المقصود من بين سائر الاشياء التي تراها وتبصرها كذلك حكم اللفظ مع ماوضع له • ومن هذا الذى يشك انا لم نعرف الرجل والفرس والضرب والقتل الا من أساميها • لو كان ذلك مساغ فى العقل لكان ينبغي اذا قيل • زيد • ان تعرف المسمي بهذا الاسم من غير ان تكون قد شاهدته أو ذكر لك بصفة

واذاقلنا فى العلم واللغات من مبتدا الامر انه كان الهاما فان الالهام فى ذلك انما يكون بين شيئين يكون احدهما مثبتا والآخر مثبتاً له او يكون أحدهما منفيا والآخر منفيا عنه وانه لا يتصور مثبت من غير مثبت له ومنفى من غير منفي عنه • فلما كان الامر كذلك أوجب ذلك ان لا يعقل الا من مجموع جملة فعل واسم كقولنا • خرج زيد • فما عقلناه منه وهو نسبة الخروج الى زيد لا يرجع الي معاني اللغات ولكن الى كون الفاظ اللغات سمات لذلك المعني وكونها مرادة بها • أفلا ترى الى قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) أفترى انه قيل لهم • أنبئونى بأسماء هؤلاء • وهم لا يعرفون المشار اليهم بهؤلاء •

واذ قد عرفت هذه الجملة فاعلم ان معانى الكلام كلها معان لاتتصور الافيما بين شيئين والاصل والاول هوالخبر واذا أحكمت العلم بهذا المعنى

فيه عرفته فى الجميع • ومن الثابت فى العقول والقائم فى النفوس انه لا يكون خبر حتى يكون مخبر به ومخبر عنه لانه ينقسم الى اثبات ونفى والاثبات يقتضي مثبتاً ومثبتاً له والنفي يقتضي منفيا ومنفيا عنه فلو حاولت ان تتصور اثبات معنى أو نفيه من غير ان يكون هناك مثبت له ومنفي عنه حاولت مالا يصح فى عقل ولا يقع فى وهم • ومن ذلك امتنع ان يكون لك قصد الى فعل من غير ان تريد اسناده الى شيء وكنت اذا قلت (ضرب) لم تستطع ان تريد منه معنى فى نفسك من غير ان تريد الخبر به عن شيء مظهر أو مقدر وكان لفظك به اذا أنت لم ترد ذلك وصوت تصوته سواء

فان أردت ان تستحكم معرفة ذلك فى نفسك فانظر اليك اذا قيل لك • مافعل زيد • فقلت • خرج • هل يتصور ان يقع فى خلدك معنى من دون ان تنوى فيه ضمير زيد وهل تكون وأنت زعمت انك لم تنو ذلك الا مخرجا نفسك الى الهذيان • وكذلك فانظر اذا قيل لك • كيف زيد • فقلت • صالح • هل يكون لقولك • صالح • أثر فيك من دون ان تريد (هو صالح) أم هل يعقل السامع شيئاً وهو لم يعتقد ذلك •

اذا ثبت ذلك فانه مالا ينبغى معه لعاقل شك ان الخبر معني لايتصور الا من فعل واسم كقولنا • خرج زيد • أو اسم واسم كقولنا • زيد خارج • فليس فى الدنيا خبر يعرف من غير هذا السبيل • وبغير هذا الدليل • وهو شيء يعرفه العقلاء في كل جيل وأمة • وحكم يجرى عليه الامر في كل لسان ولغة

واذ قد عرفت أنه لايتصور الخبر الا فيما بين شيئين مخبر به ومخبر

عنه فينبغي أن تعلم انه يحتاج من بعد هــذين الى ثالث وذلك انه كما
لايتصور ان يكون ههنا خبر حتى يكون مخبر به ومخــبر عنــه كذلك
لايتصور حتى يكون له مخبر يصدر عنه ويحصل من جهتــه وتعود
التبعة فيه عليه فيكون هو الموصوف بالصدق ان كان صدقا وبالكذب
ان كان كذبا • أفلا ترى أن من المعــلوم ضرورة انه لايكون إثبات
ونفى حتي يكون مثبت وناف يكون مصدرهما من جهتــه ويكون هو
المزجى لهما ، والمــبرم والناقض فيهما . ويكون بهما موافقاً ومخالفا،
ومصيبا ومخطئاً .ومسيئاً ومحسنا.

وجملة الامر ان الخــبر وجميع معاني الكلم ينشئها الانسان في
فى نفسه •ويصرفها فى فكره • ويناجي بها قلبه • ويراجع فيها عقله.
وتوصف بانها مقاصد واغراض • وأعظمها شأناالخبر فهو الذى يتصور
بالصور الكثيرة • وتقع فيها الصناعات العجيبة • وفيه تكون المزايا
التى بها يقع التفاضل في الفصاحة•ثم انا اذا نظرنا فى المعانى التي يصفها
العقلاء بانها معان مستنبطة .ولطائف مستخرجة.ويجعلون لهااختصاصا
بقائل دون قائل • كمثل قولهم فى معان من الشعر •انه معني لم يسبق
اليه فلان • وانه الذي فطن له واستخرجه •وانه الذي غاص عليــه
بفكره • وانه أبو عذره • لم تجد تلك المعاني فى الامر الاعم شيئاً غير
الخبر الذى هو اثبات المعنى للشيء ونفيه عنه •يدلك على ذلك انالانظر
الى شيء من المعانى الغريبة التي تختص بقائل دون قائل الا وجــدت
الاصل فيه والاساس الاثبات والنفى • وان أردت فى ذلك مثالا فانظر
الى بيت الفرزدق •

وما حملت أم امرىء فى ضلوعها   أعق من الجانى عليها هجائيا

فانك اذا نظرت لم تشك فى ان الاصل والاساس هو قوله • وما
حملت أم امريء • وان ماجاوز ذلك مــن الكلمات الى آخر البيت
مستند ومبنى عليه وانك ان رفعته لم تجد لشيء منها بيانا • ولا رأيت
لذكرها معنى • بل ترى ذكرك لها ان ذكرتها هذيانا . والسبب الذى
من أجله كان كذلك ان من حكم كل ماعدا جزئى الجملة الفعل والفاعل
والمبتدأ والخبر ان يكون تحقيقا للمعنى المثبت والمنفى .فقوله • في ضلوعها
• يفيد أولا انه لم يرد نفي الحمل على الاطلاق ولكن الحمل فى الضلوع
وقوله •أعق يفيد أنه لم يرد هذا الحمل الذي هو حمل في الضلوع أيضاً
على الاطلاق ولكن حملا فى الضلوع محموله أعق من الجانى عليها هجاءه
• واذا كان ذلك كله تخصيصا للحمل لم يتصور ان يعقل من دون أن
يعقل نفى الحمل لانه لايتصور تخصيص شيء لم يدخل فى نفي ولا اثبات
ولا ما كان فى سبيلهما من الامر به والنهى عنه والاستخبار عنه

واذ قد ثبت ان الخبر وسائر معانى الكلام معان ينشئها الانسان فى
نفسه •ويصرفها فى فكره • ويناجي بها قلبه • ويرجع فيها اليــه •
فاعلم ان الفائدة في العلم بها واقعة من المنشيء لها صادرة عن القاصــد
اليها • واذا قلت في الفعل انه موضوع للخبر لم يكن المعــنى فيــه انه
موضوع لان يعلم به الخبر في نفسه وجنسه ومن أصله وما هو ولكن
المعنى انه موضوع حتى اذا ضممته الى اسم عقل منه ومن الاسم ان
الحكم بالمعنى الذى اشتق ذلك الفعل منه على مسمى ذلك الاسم واقع
منك أيها المتكلم

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

اعلم انك لن ترى عجبا أعجب من الذى عليه الناس فى أمر النظم وذلك انه مامن أحد له أدنى معرفة الا وهو يعلم ان ههنا نظماً أحسن من نظم . ثم تراهم اذا أنت أردت ان تبصرهم ذلك تسدر أعينهم . وتضل عنهم أفهامهم . وسبب ذلك انهم أول شئ عدموا العلم به نفسه من حيث حسبوه شيئاً غير توخى معانى النحو وجعلوه يكون فى الالفاظ دون المعانى فأنت تلقى الجهد حتى تميلهم عن رأيهم لانك تعالج مرضا مزمنا . وداء متمكنا . ثم اذا أنت قدتهم بالخزائم الى الاعتراف بان لامعنى له غير توخي معانى النحو عرض لهم من بعد خاطر يدهشهم حتى يكادوا يعودون الى رأس أمرهم وذلك انهم يروننا ندعى المزية والحسن لنظم كلام من غير أن يكون فيه من معانى النحو شيء يتصور ان يتفاضل الناس فى العلم به ويروننا لانستطيع ان نضع اليد من معاني النحو ووجوهه على شيء نزعم ان من شأن هذا ان يوجب المزية لكل كلام يكون فيه بل يروننا ندعى المزية لكل ماندعيها له من معاني النحو ووجوهه وفروقه فى موضع دون موضع . وفى كلام دون كلام . وفى الاقل دون الاكثر . وفى الواحد من الالف . فاذا رأوا الامر كذلك دخلتهم الشبهة وقالوا كيف يصير المعروف مجهولا . ومن أين يتصور ان يكون للشيء فى كلام مزية عليه فى كلام آخر بعد ان تكون حقيقته فيهما حقيقة واحدة . فاذا رأوا التنكير يكون فيما لايحصي من المواضع ثم لايقتضي فضلا : ولا يوجب مزية : اتهمونا فى دعوانا ماادعيناه لتنكير الحياة في قوله تعالى (ولكم في القصاص

حياة) من ان له حسنا ومزية : وان فيه بلاغة عجيبة : وظنوه وهما منا وتخيلا: ولسنا نستطيع في كشف الشبهة في هذا عنهم : وتصوير الذى هو الحق عندهم: ما استطعناه في نفس النظم لانا ملكنا في ذلك ان نضطرهم الى ان يعلموا صحة مانقول :وليس الامر فى هذا كذلك فليس الداء فيه بالهين : ولا هو بحيث اذا رمت العلاج منه وجدت الامكان فيه مع كل أحد مسعفا : والسعي منجحا : لان المزايا التى تحتاج ان تعلمهم مكانها : وتصور لهم شأنها : أمور خفية : ومعان روحانية أنت لاتستطيع ان تنبه السامع لها : وتحدث له علما بها : حتى يكون مهيئاً لادراكها : وتكون فيه طبيعة قابلة لها : ويكون له ذوق وقريحة يجد لهما في نفسه احساسا بان من شأن هذه الوجوه والفروق أن تعرض فيها المزية على الجملة: ومن اذا تصفح الكلام وتدبر الشعر فرق بين موقع شئ منها وشئ ومن اذا أنشدته قوله

لى منك ماللناس كلهم ... نظر وتسليم على الطرق

وقول البحترى

وسأستقل لك الدموع صبابة ... ولو ان دجلة لى عليك دموع

(وقوله)

رأت مكنات الشيب فابتسمت لها ... وقالت نجوم لو طلعن بأسعد

وقول أبى نواس:

ركب تساقوا على الاكوار بينهم ... كاس الكرى فانتشي المسقى والساقى
كان أعناقهم والنوم واضعها ... على المناكب لم تعمد باعناق

(وقوله)

ياصاحبي عصيت مصطحبا ... وغدوت للذات مطرحا

فتزودوا مـنى محادثة حذر العصالم يبق لى مرحا

وقول اسمعيل بن يسار

حتى اذا الصبح بدا ضوءه وغابت الجوزاء والمرزم
خرجت والوطء خفى كما ينساب من مكمنه الارقم

أنق لها وأخذته الاريحية عندها : وعرف لطف موقع الحذف والتنكير فى قوله : نظر وتسليم على الطرق : وما في قول البحـترى : لي عليك دموع : من شبه السحر وان ذلك من أجل تقديم (لي) على (عليك) ثم تنكير الدموع : وعرف كذلك شرف قوله * وقالت نجوم لو طلعن بأسعد * وعلو طبقته : ودقة صنعته : • والبلاء: والداء العياء : ان هذا الاحساس قليـل في الناس : حتي انه ليكون ان يقع للرجل الشئ من هـذه الفروق والوجوه في شـعر يقوله أو رسالة يكتبها الموقع الحسن ثم لا يعلم انه قد أحسـن • فاما الجهل بمكان الاساءة فلا تعدمه فلست تملك اذاً من أمرك شيئاً حتي تظفر بمن له طبع اذا قدحته وري • وقلب اذا رأيته رأى • فأما وصاحبك من لا يرى ماتريه ولا يهتدي للذى تهديه • فأنت رام معه في غير مرمي • ومعن نفسك فى غير جدوي • وكما لاتقيم الشعر في نفس من لاذوق له • كذلك لاتفهم هذا الشأن من لم يؤت الآلة التى بها يفهـم • الا انه انما يكون البلاء اذا ظن العادم لها أنه أوتيها • وأنه ممن يكمل للحكم • ويصح منه القضاء • فجعل يقول القول لو علم غيه لاستحيي منه • فأما الذي يحس بالنقص من نفسه • ويعلم انه قد علم علما قد أوتيه من سواه • فأنت منه في راحة • وهو رجل عاقل قد حماه عقله ان يعدو طوره وان يتكلف ماليس باهل له

واذا كانت العلوم التي لها أصول معروفة • وقوانين مضبوطة قد اشترك الناس فى العـلم بها • واتفقوا على ان البناء عليها اذا أخطأ فيها المخطيء ثم أعجب برأيه لم يستطع رده عن هواه • وصرفه عن الرأى الذى رآه الا بعد الجهد والا بعد ان يكون حصيفا عاقلا ثبتا اذا نبه انتبه • واذا قيل ان عليك بقية من النظر وقف وأصغى وخشى ان يكون قد غر فاحتاط باستماع مايقال له وانف من ان يلج من غـير بينة ويستطيل بغير حجة وكان من هذا وصفه يعز ويقل . فكيف بان ترد الناس عن رأيهم في هذا الشأن. وأصلك الذى تردهم اليه. وتعول فى محاجتهم عليه. استشهاد القرائح وسبر النفوس وفليها . وما يعرض فيهامن الاريحية عند ماتسمع. وكان ذلك الذى يفتح لك سمعهم ويكشف الغطاء عن أعينهم ويصرف اليك أوجههم وهم لا يضعون أنفسهم موضع من يرى الرأى ويفتى ويقضي الا وعندهم انهم ممن صفت قريحته • وصح ذوقه وتمت أداته • فاذا قلت لهم • انكم قد أوتيتم من أنفسكم • ردوا عليك مثله وقالوا • لا بل قرائحنا أصح • ونظرنا أصدق • وحسنا أذكى • وانما الآفة فيكم لانكم خليتم الى نفسكم أمورا لاحاصل لها • وأوهمكم الهوى والميل ان توجبوا لاحد النظمين المتساويين فضلا على الآخر من غير أن يكون ذلك الفضل معقولا • فتبقى في أيديهم حسيرا لاتملك غير التعجب • فليس الكلام إذن بمغن عنك • ولا القول بنافع ولا الحجة مسموعة • حتى تجد من فيه عون لك على نفسه ومن اذا أبى عليك • أبي ذاك طبعه فرده اليك • وفتح سـمعه لك • ورفع الحجاب بينك وبينه • وأخذ به الى حيث أنت • وصرف ناظره الى الجهة التي اليها أومأت • فاستبدل بالنفار انسا • وأراك من بعد الاباء

قبولا • ولم يكن الامر على هذه الجملة الا لأنه ليس في أصناف العلوم الخفية • والامور الغامضة الدقيقة • أعجب طريقا في الخفاء من هذا وانك لتتعب في الشيء نفسك وتكد فيه فكرك • وتجهد فيه كل جهدك حتى اذا قلت قد قتلته علما واحكمته فهما • كنت بالذي لا يزال يتراءى لك فيه من شبهة • ويعرض فيه من شك كما قال أبو نواس

الا لا أرى مثل امترائي في رسم ... تغص به عيني ويلفظه وهمي
أتت صور الاشياء بيني وبينه ... فظني كلا ظن وعلمي كلا علم

وانك لتنظر في البيت دهراً طويلا وتفسره ولا ترى ان فيه شيئاً لم تعلمه • ثم يبدو لك فيه أمر خفي لم تكن قد علمته • مثال ذلك بيت المتنبي •

عجباً له حفظ العنان بأنمل ... ماحفظها الاشياء من عاداتها

مضى الدهر الطويل ونحن نقرؤه فلا ننكر منه شيئاً ولا يقع لنا ان فيه خطأ ثم بان بأخرة انه قد أخطأ وذلك انه كان ينبغي أن يقول • ماحفظ الاشياء من عاداتها • فيضعف المصدر الى المفعول فلا يذكر الفاعل ذلك لأن المعنى على أنه ينفي الحفظ علي أنامله جملة وانه يزعم أنه لا يكون منها أصلا • واضافته الحفظ الى ضميرها في قوله • ماحفظها الاشياء • يقتضي ان يكون قد أثبت لها حفظاً • ونظير هذا انك تقول • ليس الخروج في مثل هذا الوقت من عادتي ولا تقول ليس خروجي فى مثل هذا الوقت من عادتي وكذلك تقول ليس ذم الناس من شأني • ولا تقول • ليس ذمي الناس من شأني • لان ذلك يوجب إثبات الذم ووجوده منك • ولا يصح قياس المصدر في هذا الفعل أعنى لا ينبغى ان يظن أنه كما يجوز ان يقال • مامن عادتها ان تحفظ

الاشياء • كذلك ينبغي أن يجوز (مامن عادتها حفظها الاشياء) ذاك أن اضافة المصدر الى الفاعل يقتضي وجوده وانه قد كان منه • يبين ذلك انك تقول • أمرت زيداً بأن يخرج غدا • ولا تقول • امرته بخروجه غدا •

ومما فيه خطأ هو في غاية الخفاء قوله •

ولا تشك الى خلق فتشمته ... شكوى الجريح الى الغربان والرخم

وذلك انك اذا قلت • لا تضجر ضجر زيد • كنت قد جعلت زيداً يضجر ضربا من الضجر مثل ان تجعله يفرط فيه أو يسرع اليه هذا هو موجب العرف ثم ان لم تعتبر خصوص وصف فلا أقل من أن تجعل الضجر على الجملة من عادته وان تجعله قد كان منه • واذا كان كذلك اقتضى قوله شكوى الجريح الى الغربان والرخم ان يكون ههنا قد عرف من حاله انه يكون له شكوى الى الغربان والرخم وذلك محال وانما العبارة الصحيحة في هذا أن يقال • لا تشك الى خلق فانك ان فعلت كان مثل ذلك مثل ان تصور في وهمك ان بعيراً دبراً كشف عن جرحه ثم شكاه الى الغربان والرخم

ومن ذلك انك ترى من العلماء من قد تأوّل فى الشيء تأويلا وقضى فيه بأمر فتعتقده اتباعا له ولا ترتاب انه على ماقضى وتأوّل وتبقى على ذلك الاعتقاد الزمان الطويل ثم يلوح لك ماتعلم به ان الامر على خلاف ماقدر ومثال ذلك ان أبا القاسم الآمدى ذكر بيت البحترى •

فصاغ ماصاغ من تبر ومن ورق ... وحاك ماحاك من وشي وديباج

ثم قال (صوغ الغيث وحوكه للنبات ليس باستعارة بل هو حقيقة ولذلك لا يقال • هو صائغ • وكذلك لا يقال • هو حائك وكأنه حائك (قال) على ان لفظ حائك فى غاية الركاكة اذا أخرج على ماأخرجه

أبو تمام فى قوله •

اذا الغيث غادى نسجه خلت انه　　خلت حقب حرس له وهو حائك

قال وهذا قبيح جدا والذى قاله البحترى ؛ فحاك ماحاك ،حسن مستعمل والسبب فى هذا الذى قاله انه ذهب الى ان غرض أبى تمام ان يقصد بخلت الى الحوك وانه أراد ان يقول ! خلت الغيث حائكا ،وذلك سهو منه لانه لم يقصد بخلت الى ذلك وانما قصد ان يقول! انه يظهر فى غداة يوم من حوك الغيث ونسجه بالذى ترى العيون من بدائع الانوار ، وغرائب الازهار ، مايتوهم معه ان الغيث كان فى فعل ذلك وفى نسجه وحوكه حقبا من الدهر فالحيلولة واقعة على كون زمان الحوك حقبا لا على كون مافعله الغيث حوكا فاعرفه

ومما يدخل فى ذلك ماحكي عن الصاحب من انه قال ! كان الاستاذ أبو الفضل يختار من شعر ابن الرومي وينقط عليه قال فدفع اليّ القصيدة التي أولها أتحت ضلوعي جمرة تتوقد وقال تأملها فتأملتها فكان قد ترك خير بيت فيها وهو

بجهل كجهل السيف والسيف منتضى　　وحلم كحلم السيف والسيف مغمد

فقلت • لم ترك الاستاذ هذا البيت ! فقال ؛ لعل القلم تجاوزه ! (قال) ثم رآني من بعد فاعتذر بعذر كان شراً من تركه قال ! انما تركته لانه أعاد السيف أربع مرات قال الصاحب لو لم يعده أربع مرات فقال بجهل كجهل السيف وهو منتضى وحلم كحلم السيف وهو مغمد لفسد البيت ؛ والامر كما قال الصاحب والسبب فى ذلك أنك اذا حدثت عن اسم مضاف ثم أردت ان تذكر باسمه الظاهر ولا تضمره وتفسير هذا ان الذى هو الحسن الجميل ان تقول ؛ جاءني غلام زيد

وزيد ويقبح ان تقول جاءني غلام زيد وهو • ومن الشاهد فى ذلك قول دعبل •

أضياف عمران فى خصب وفى سعة　　وفى حباء وخير غير ممنوع

وضيف عمرو وعمرو يسهران معا　　عمرو لبطنته والضيف للجوع

﴿ وقول الآخر ﴾

وان طرة راقتك فانظر فربما　　أمر مذاق العود والعود أخضر

﴿ وقول المتنبي ﴾

بمن نضرب الامثال أم من نقيسه　　اليك وأهل الدهر دونك والدهر

ليس يخفى على من له ذوق انه لو أتى موضع الظاهر في ذلك كله بالضمير فقيل · وضيف عمرو وهو يسهران معا • وربما أمر مذاق العود وهو أخضر • وأهل الدهر دونك وهو . لعدم حسن ومزية لاخفاء بأمرها • ليس لان الشعر ينكسر ولكن تنكره النفس • وقد يرى في بادئ الرأي ان ذلك من أجل اللبس وانك اذا قلت • جاءني غلام زيد وهو • كان الذي يقع في نفس السامع ان الضمير للغلام وانك على ان تجيء له بخبر الا انه لا يستمر من حيث انا نقول • جاءني غلمان زيد وهو • فتجد الاستنكار ونبو النفس مع ان لا لبس مثل الذي وجدناه واذا كان كذلك وجب ان يكون السبب غير ذلك • والذي يوجبه التأمل ان يرد الى الاصل الذى ذكره الجاحظ من ان سائلا سأل عن قول قيس بن خارجة (عندى قرى كل نازل) ورضى كل ساخط • وخطبة من لدن تطلع الشمس الى ان تغرب آمر فيها بالتواصل وانهى فيها عن التقاطع) فقال أليس الامر بالصلة هو النهي عن التقاطع قال فقال أبو يعقوب • أما علمت ان الكناية والتعريض • لا يعملان

في العقول عمل الافصاح والتكشيف • وذكرت هناك ان لهذا الذي ذكر من ان للتصريح عملا لا يكون مثل دلك العمل للكناية كان لاعادة اللفظ في قوله تعالى (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) وقوله (قل هوالله أحد الله الصمد) عمل لولاها لم يكن • واذا كان هذا ثابتا معلوما فهو حكم مسئلتنا • ومن البين الجلي في هذا المعني — وهو كبيت ابن الرومي سواء لانه تشبيه مثله بيت الحماسة •

شددنا شدة الليث   غدا والليث غضبان

ومن الباب قول النابغة •

نفس عصام سودت عصاما   وعلمته الكر والاقداما

لايخفى على من له ذوق حسن هذا الاظهار وان له موقعا في النفس وباعثا للأريحية لا يكون اذا قيل • نفس عصام سودته شيء منه البتة

(تم الكتاب)



﴿ فهرس كتاب دلائل الاعجاز ﴾



صحيفة

٢ فاتحة الكتاب

١٧ فصل فى الكلام على من زهد فى رواية الشعر وحفظه

١٨ مدح النبى الشعر وأمره به واستنشاده اياه

٢٢ علم النبى صلى الله عليه وسلم بالشعر

٢٤ الكلام في تنزيه النبى صلى الله عليه وسلم عن قول الشعر

٢٨ الكلام فى النحو وتفنيد من أصغر أمره

٣٣ تمهيد للكلام فى الفصاحة والبلاغة

٣٥ الكلام فى اعجاز القرآن من التمهيد

٣٨ (فصل) فى تحقيق القول فى الفصاحة والبلاغة

٤٢ « منه فى الفرق بين نظم الحروف ونظم الكلم

٤٦ « « فى ان النظم متوقف على التركيب النحوى

٤٧ « « فى شبهة الذين حصروا الفصاحة فى صفة اللفظ

٥٣ فصل فى اللفظ يراد به غير ظاهره

٥٤ الكناية والاستعارة والتمثيل بها

٥٦ فصل فى كون الكناية والمجاز بأنواعه أبلغ من الحقيقة

٥٩ « فى تفاوت الكناية والاستعارة والتمثيل

٦٢ القول فى نظم الكلام ومكان النحو منه

٦٦ فصل فى ان مزايا النظم بحسب المعاني والاغراض

صحيفه

٧٠ فصل فى النظم يتحد فى الوضع ويدق فيه الصنع
٧٩ القول فى التقديم والتأخير
٨٠ مواضع التقديم والتأخير
٨٨ بحث الاستفهام فى باب التقديم والتأخير
٩١ بحث النفى فيه
٩٣ « الخبر «
٩٩ بحث الخبر المنفى فيه
١٠٠ « مثل وغير «
١٠١ قاعدة عامة فى الباب
١٠٢ فصل فى تقديم النكرة على الفعل وعكسه
١٠٤ القول فى الحذف
١٠٦ مواضع حذف المبتدأ
١٠٩ « « المفعول به وهى على أنواع
١٢٢ القول على فروق فى الخبر
١٢٥ الفروق بين الاسم والفعل فى الاثبات
١٢٦ « « التعريف والتنكير فى «
١٢٧ القصر فى التعريف ووجوهه من باب الفروق
١٢٩ نكت أخرى للتعريف « « «
١٤٠ فصل فى التعريف بالذى خصوصا « « «
١٤٣ الفروق فى الحال
١٥٥ باب الفصل والوصل

صحيفه

١٧٥ فصل منه في فذلكة فصل الجمل ووصلها
١٧٦ « فى دقائق الفصل والوصل
١٨٠ باب الفصل والنظم
١٨٢ فصل منه فى ان امتياز العبارة بالتأثير
١٨٣ « « في ان معارضة الكلام بحسب المعاني لا اللفظ
١٨٥ « « فى ان دلالة الكلام على ضربين
١٨٩ « « في ان ماوصفوا به الكلام البليغ خاص بالمعاني
٢٠٢ فصل منه فى ان مالا يحتمل الا وجها واحداً لامزية له
٢٠٦ « « فى ان هذا الباب لابد فيه من الذوق والاريحية
٢٠٧ « « في المجاز الحكمي
٢١٤ « « فى تفسير «لمن كان له قلب» والكلام في المفسرين الجاهلين بالبلاغة
٢١٥ « « فى الكناية بالاسناد
٢٢١ « « فى «ان» ومواقعها والتأكيد
٢٢١ باب القصر والاختصاص ومايتصل به
٢٣٠ « « في «انما» ومواقعها
٢٣٦ « « فى بيان آخر في «انما»
٢٣٦ بحث لا العاطفة
٢٤٦ فصل منه في «ما» و «الا»
٢٤٧ « « « مباحث «انما»
٢٥١ فصل فى العود الى مباحث اللفظ والنظم

صحيفه

٢٥٣ فصل منه في معنى اختصاص القول بقائله
٢٥٥ « « منه في أوهام الناس في نسبة الفصاحة الى اللفظ
٢٥٩ « « « ان النظم في توخي معانى النحو
٢٧٠ تحرير القول في الاعجاز والفصاحة والبلاغة
٢٨٤ فصل منه في الفصاحة والبلاغة صفتان اللفظ باعتبار معناه
٢٨٥ « « فى كشف شبهة التعبير عن المعنى بعبارتين
٢٩٥ « « في بحث الاستعارة
٣١٧ فصل فى كشف شبهة تفسير الكلام الفصيح بما ليس فصيحا
٣٣٠ عود الى الاستعارة والمجاز ويتلوه بحث لايجاز.
٣٣٥ بحث الاحتذاء فى الشعر
٣٣٧ باب كشف شبهة القائلين بأن الفصاحة والبلاغة من صفات اللفظ
٣٣٧ فصل منه فى الموازنة بين الشعر يتحد معناه ويختلف لفظه
٣٤٢ القسم الاول منه ماكان أحد الشعرين أحسن نظما
٣٥٥ القسم الثانى ماكان الشعران منه فى مرتبة واحدة في الحسن
٣٥٧ جملة في وصفهم الشعر وادلالهم به
٣٦٦ الاحتجاج بذلك على بطلان مذهب اللفظ
٣٦٩ باب الخبر وما يتحقق به الاسناد
٣٧٦ فصل منه فى ان المفردات لم توضع منه الا لاجل التركيب
٣٨٢ باب الذوق والاحساس الروحانى بالبلاغة

(تم)



